الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط

كريستيان كوتس أولريخسن

ترجمة: طارق عليان

هيرست أند كومباني، لندن





جروس برس ناشرون
Jarrous Press Publishers

هذا الكتاب الصادر عن دار النشر "هرست" وشركاه في لندن، المملكة المتحدة، تحت عنوان "الحرب العالمية الأولى في منطقة الشرق الأوسط"، يتسم بالشمولية من حيث رصده لتأثيرات مجريات الحرب العالمية الأولى على هذه المنطقة الحساسة من العالم.

وهو جديد في موضوعه، لأن نادراً ما تحظى منطقتنا، بإهتمام المتخصصين في الغرب، خصوصاً من النواحي الإستراتيجية والعسكرية، وكذلك الإحاطة بالأوضاع التي كانت سائدة فيها خلال فترة تاريخية مفصلية. إستطاع "الكتاب" أن يسجل نجاحه في تسليط الأضواء على جبهات القتال الملتهبة التي خيمت عليها الشراسة، وعلى المعارك التي إتصفت بالوحشية، وبالمواجهات الضارية التي كانت مماثلة لما شهدته جبهات القتال في القارة الأوروبية، وكان قد جرى بالرغم من إفتقار الشرق الأوسط حينذاك الى أبسط المرتكزات الأساسية لمتانة البنى التحتية، المتمثلة بطرقات غير معبدة، وخطوط لقطارات حديدية لعبت دوراً سلبياً في توثيق حركة التواصل بين المناطق البرية، وحدت من سرعة التنقل وفقاً لخط ناري إمتد من غاليبولي ومرّ في غزة وإنتهى في أسفل دجلة في العراق.

والمؤلف "كريستيان كوتس أولريخسن" هو باحث بمنحة من معهد جيمس .أ. بايكر الثالث للسياسات العامة وفي جامعة "رايس" كما تناول من خلال منحة بحثية مماثلة لدراسة شؤون الشرق الأوسط وشمال إفريقيا والعمل على الإلتزام بتطبيقات البرنامج العلمي المعتمد لدى مؤسسة "شاتام هاوس".

ويشهد المراقبون، للمؤلف، طول باعه بالإهتمام في شؤون الشرق الأوسط، ومتابعته الحثيثة لكل محطات تاريخ الشرق الأوسط الحديث والمعاصر.

والجديد أنه يضيء جوانب غير منظورة من تأثيرات الحرب الكونية الاولى على منطقة شديدة الحساسية ولدت من جراءها خرائط جيو سياسية وبلدان جديدة، بموجب إتفاقيات دولية تم فيها تقاسم النفوذ وهي لا تزال تعيش حالات القلق الدائم على مستقبل الكيانات والهويات والوجود.


9 789953 587479

الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط

كريستيان كوتس أولريخسن

ترجمة: طارق عليان





يتضمن هذا الكتاب ترجمة للأصل الانجليزي:
THE FIRST WORLD WAR IN THE MIDDLE EAST



شارع جميل عدرة، باسل سنتر
ص.ب.:189، طرابلس، لبنان
تلفاكس: 208205-6-961+
jarrous.press@gmail.com
info@jarrouspress.com
www.jarrouspress.com



الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي
(الستين) – شارع المنفلوطي
ص.ب.: 5973 الرياض 11432
تلفون: 14778990 966
فاكس: 4766464 1 966
info@arabicmagazine.com
www.arabicmagazine.com

ISBN 978-9953-587-47-9

المحتويات

شكر وتقدير

ما كان ليتسنّى لي أن أضع هذا الكتاب لولا ما قدّمه مايكل دواير وزملاؤه في دار هيرست أند كومباني من دعم مهني وصداقة وتشجيع. فقيمة الناشر الجيد لا تقدّر بثمن وتستحق كل عرفان وتقدير. وقد قُدِّم قسم من هذا البحث خلال الاجتماع السنوي للجنة البريطانية للتاريخ العسكري في كلية كيبل بجامعة أكسفورد في يوليو 2012، كما اعتمدت أقسام أخرى منه على بحث المؤلف لنيل درجة الدكتوراه من جامعة كامبردج فيما بين عامَيْ 2002 و2005. والحقيقة أن الزملاء الأكاديميين في كلية لندن للاقتصاد ومركز تشاتام هاوس قد قدّموا لي المزيد من الدعم والصداقة، مثلهم مثل جماعة صغيرة من الأصدقاء الذين جعلوا من مهمة تأليف كتاب عادة مايغلب عليها الوحدة والانفراد تجربة ممتعة. وأخيرًا، فإني أهدي هذا الكتاب إلى والديَّ وإلى زوجتي عرفانًا مني وتقديرًا لحبهم ودعمهم.

مقدمة

ما زالت الحرب العالمية الأولى، وبعد مرور قرن من الزمان على اشتعال فتيلها، تلقي بظلال واسعة على مختلف أرجاء الشرق الأوسط. فقد تحولت اثنتان من الدول التي خرجت من رحم أول تدخل عسكري غربي حديث واسع النطاق في المنطقة إلى أطلال، فالعراق حطمته النتائج المدمرة لحملة جديدة جرّدها الغرب بعد مرور تسعة عقود من الزمان على حد قول قائد عسكري بريطاني، مطمئنًا البغداديين: «جيوشنا لا تدخل مدنكم وأراضيكم باعتبارها جيوش فتح بل جيوش تحرير»[1]. وأما سوريا المجاورة فقد مزقتها الحرب الأهلية التي دارت رحاها في سياق ما بعد الانتفاضات العربية لسنة 2011 التي زلزلت منظومة الدول والأنظمة الحاكمة التي برزت فيما بعد الحقبة الاستعمارية حتى النخاع. وقد نوّه معلقون ومحللون على حد سواء، من نواح مختلفة، إلى أن «الربيع العربي» يمثل «ثورة عربية» ثانية أو ينذر بتفكك تركة «سايكس بيكو» نهائيًا. ويعود المصطلح المستخدم في كلتا الحالتيْن إلى تطورات جرت أثناء الحرب العالمية الأولى حيث إن هذا الصراع هو الذي قرر، أكثر من أي شيء آخر، طبيعة نظام الدولة الذي خرج إلى النور فيما بعد. صحيح أن قوى أخرى أحدث من ذلك، مثل القومية العربية والإسلام السياسي والثورات والإرهاب والحروب الأهلية وأخيرًا وليس آخرًا عقود من تنافس القوتيْن العظميين والصراع العربي الإسرائيلي، أحدثت كلها تحولًا في المنطقة ومكانها في السياسة الدولية، لكن إرث التطورات التي وقعت والقرارات التي اتُّخذت أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها يظل مصدرًا للمرارة والخلاف والتفسيرات المتضاربة إلى يومنا هذا، مما يعكس حقيقة أن سنوات الحرب كانت بمثابة انتقال للمنطقة من بوتقة لتنافس الإمبراطوريات إلى ظهور نظام الدولة الحديث بكل ما انطوى عليه من مضامين لتحقيق -وسحق- الطموحات الوطنية، وإعادة تشكيل الولاءات، وميلاد المظالم التي صارت تشغل مواقع رمزية في السرود الإقليمية.

ويستقصي هذا الكتاب الصراعات المتعددة التي جرت فيما بين أغسطس 1914 ونوفمبر 1918 في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، فيسبر أغوار القتال الذي دارت رحاه بين الروس والعثمانيين في القوقاز، وبين قوات الإمبراطوريتيْن البريطانية والفرنسية والعثمانيين في غاليبولي، وبين القوات البريطانية والهندية والعثمانيين في فلسطين وبلاد الرافدين، بالإضافة إلى بعض الاشتباكات الصغيرة التي اندلعت في أماكن أخرى في شمال أفريقيا. وقد خُلّد بعض هذه المعارك في ذاكرة التاريخ والذاكرات الوطنية، وأبرز مثال لها معركة غاليبولي التي ستُحيى ذكراها المئوية على نطاق واسع في تركيا وأستراليا ونيوزيلندا في عام 2015. وهناك معارك أخرى طواها النسيان في الغالب على الرغم من الخسائر الباهظة التي تكبّدها على حد سواء المشاركون فيها والمتفرجون عليها، ومن أمثلتها البارزة معركة ساريقاميش التي جرت في ديسمبر 1914 وهلك فيها نحو نصف المقاتلين الروس والعثمانيين حيث تجمد عشرات الألوف حتى الموت في عواصف جليدية شتوية على ارتفاع ناهز 2000 متر فوق مستوى سطح البحر.

لقد اتسمت مسارح الحرب الشرق أوسطية، وهي التي علقت في مرمى نيران أربع إمبراطوريات متنافسة على جوانب مختلفة من الهيمنة الإقليمية، بقتال ضارٍ في ظروف غادرة على طول خطوط مواصلات ممتدة وعرضة للهجوم. وعلاوة على ذلك، كانت المطالب اللوجستية الثقيلة اللازمة لاستدامة صراع يدور بين قوى صناعية على أرض الشرق الأوسط التي يغلب عليه طابع ما قبل الثورة الصناعية عبئًا ثقيلاً على المجتمعات المضيفة والمجتمعات المحلية. وكان للطلب الشره على الأغذية والأعلاف والقوى الحيوانية والبشرية اللازمة لإمداد الجيوش الإمبراطورية الجبارة ونقلها تأثير مدمر على غير المقاتلين الذين كانوا يعيشون من قبل ذلك قريبًا من حد الكفاف أو دونه. بل والأكبر من هذا كان العنت الذي تسببت فيه عمليات التشريد القسري والخلل الاقتصادي الناشئ عن اتخاذ مجالات نفوذ وسيطرة متنافسة وعدائية. وكان الأسوأ من هذا كله الإبادة الجماعية للأرمن التي جرت في عام 1915 وذُبّح فيها ما يصل إلى مليون أرميني في نوبة من عمليات القتل الجماعي ومسيرات الموت ما

زالت أصداؤها تتردد إلى يومنا هذا.

وبالتالي فقد كان تعرُّض سكان الشرق الأوسط، من مقاتلين وغير مقاتلين على حد سواء، للحرب ومشاركتهم فيها قوييْن حيث تراوحت المشاق بين التفشي الواسع للأمراض والمصادرة القسرية للمواد الغذائية والكوارث الطبيعية التي كان يمكن بالضرورة تفاديها. وكانت نتيجة التأثير التراكمي لهذه المشاق أن صار معظم المنطقة في حالة مجاعة، أو على حافة المجاعة، بحلول عام 1918 حيث حوّلت المتطلبات العسكرية مجرى الموارد الشحيحة من الإمدادات المدنية الضئيلة إلى المجهود الحربي. بل وتعرضت مناطق من سوريا ولبنان لما هو أسوأ من هذا حيث فاقمت التدابير العثمانية القاسية على غير العادة والخلل الشديد الذي اعترى الأنماط التجارية ما ابتُليت به من فشل متعاقب في المحاصيل الزراعية واجتياح أسراب الجراد المدمرة في الفترة 1914 - 1915، فمات ما يصل إلى نصف مليون نسمة بسبب المجاعة التي نجمت عن ذلك والتي بدأت في المدن والبلدات قبل أن تنتشر بسرعة في عموم المناطق الريفية في الشام عام 1916. كما مُنيت معظم مناطق بلاد الرافدين ومصر أيضًا بشح في الغذاء في الفترة 1917 - 1918 وظلت معتمدة على شحنات المساعدة الطارئة الآتية من الهند الواقعة تحت السيطرة البريطانية والتي كانت هي ذاتها تدنو من حافة انهيار اقتصادي بحلول خريف 1918. وفي أعين الجيوش المرهَقة العاملة في كل أنحاء الشرق الأوسط، نجد أن النهاية السريعة نسبيًا للحرب في نوفمبر 1918 جاءت في آخر لحظة.

إن كثيرًا من الأعمال المكتوبة باللغة الإنجليزية المتمحورة حول الغرب والتي تتناول الحرب العالمية الأولى يعالج الحملات التي جُرّدت خارج أوروبا بوصفها «عروضًا جانبية» استنزفت ما تحتاج إليه ساحات القتال الرئيسة على الجبهة الغربية من جنود وموارد حاجة ماسّة. صحيح بلا شك أن الحرب رُبحت وخُسرت في فرنسا والإقليم الفلامندي، وأن القتال الذي دار في أماكن أخرى كان له في أحسن الأحوال تأثير هامشي على النتيجة النهائية. فالانهيار المتعاقب لدول المركز في عام

1918 أفضى إلى هزيمة الدولة العثمانية في أكتوبر، حيث فتح الاختراق الإنجليزي الفرنسي في بلغاريا الطريق مباشرة إلى الآستانةعلى نحوٍ ما كان يمكن أبدًا أن يفعله التقدم البريطاني في فلسطين وبلاد الرافدين البعيدين. ومع ذلك، فإن نبذ المسرح الشرق أوسطي باعتباره مسرحًا ثانويًا في الصراع ككل سيلحق إساءة جسيمة بتأثير الحرب شبه التام على المجتمع. كما أنه لا يحجب حقيقة أن عبء إدامة نشر قوات واسعة النطاق في عموم المنطقة الحدودية (بما في ذلك القوقاز) ساهم في انهيار إمبراطوريتيْن قديمتيْن (الروسية والعثمانية) وترك الإمبراطوريتيْن البريطانية والفرنسية منهكتيْن إنهاكًا خطيرًا.

لقد لقي أكثر من 420 ألف جندي عثماني حتفهم أثناء الحملات التي جُرّدت إبّان الحرب في الشرق الأوسط، بالإضافة إلى ما يقدر بنحو 260 ألف حالة وفاة مُنيت بها قوات الإمبراطورية البريطانية، وعدد يكاد يكون مماثلًا من الضحايا الروس، ونحو 50 ألف قتيل فرنسي[2]. بل وفاقت الإصابات غير القاتلة الناجمة عن تفشي الأمراض هذه الأرقام العالية، حيث سجّلت القوات البريطانية والهندية في بلاد الرافدين 207 آلاف إصابة مرضية في عام 1916 وحده، مقارنة بـ«مجرد» 23 ألف إصابة بسبب أعمال العدو[3]. وكان ثمن الحرب البشري الإجمالي الذي تحمله سكان تركيا والولايات العثمانية أفدح، حيث أشارت أدبيات منشورة حديثًا إلى تقلص سكان تركيا بما يزيد عن 20 في المائة في عقد الحرب الذي تضمن حروب البلقان في الفترة 1912 - 1913 وحروب الاستقلال التركية التي استمرت حتى عام 1922. وجاء هذا الرقم مقابل نقصٍ بما يقل عن 1 في المائة في سكان فرنسا التي دارت فيها رحى أبرز معارك الجبهة الغربية خلال الحرب، والتي لا تذكر الحرب غالبًا إلا بها في يومنا هذا[4].

وستتيح الذكرى المئوية للحرب العالمية الأولى لنا فرصة لنتأمل جسامة سنوات الصراع الأربعة التي شكّلت مسار القرن العشرين تشكيلًا عميقًا. ويبرهن المستوى الذي ستقام عليه فعاليات إحياء ذكرى الحرب في الفترة بين عاميْ 2014 و2018

على الانبهار الجماهيري والسياسي بالحرب وقدرتها الدائمة على تسييس الأجندات الوطنية، حيث خصصت الحكومة البريطانية 50 مليون جنيه إسترليني لدعم برنامج مدته أربع سنوات لفعاليات إحياء ذكرى الحرب والمبادرات التثقيفية، مع تنويه إحدى الصحف التي تنتمي إلى يمين الوسط إلى أن «الوزراء يرجون أن تستنهض فعاليات إحياء ذكرى الحرب الروح الوطنية التي برزت إلى الواجهة العام الماضي [2012] باحتفالي دورة الألعاب الأولمبية واليوبيل الماسي لجلوس الملكة على العرش، وذلك عندما اتّشح البلد بعلم الاتحاد». وبما أن الفعالية التذكارية الأولية في أغسطس 2014 ستقام قبل الاستفتاء المخطط إجراؤه على استقلال إسكتلندا في 18 سبتمبر بستة أسابيع فقط، ذكرت الصحيفة ذاتها كيف أن «شخصيات كبيرة في الحكومة يرجون كل الرجاء أن يعطي برنامج الحرب العالمية الأولى دفعة سياسية لحملة التصويت بلا»، في حين أعلن الوزير الأول بإسكتلندا عن حملة فعاليات منفصلة تمامًا[5].

وهناك برامج مماثلة لإحياء ذكرى الحرب تنفَّذ في كل أنحاء العالم، وفي أحوال كثيرة ستكون على الأرجح ذات صدى سياسي أقل من الفعاليات البريطانية سالفة الذكر، على الرغم من أن موقع «غاليبولي 2015» الذي كرّسته الحكومة الأسترالية على الويب يؤكد أن «الحملة المريرة التي دامت ثمانية أشهر... ساعدت على تشكيل أمتنا الفتية» و«خلقت أسطورة، حيث أضافت كلمة (أنزاك) [الفيلق الأسترالي والنيوزيلندي] إلى قاموسنا وأوجدت مفهوم «روح أنزاك» التي تعني مُثُل الشجاعة والجَلَد والصحبة»[6]. وأعربت مبادرة WW100 التي دشنتها وزارة الثقافة والتراث النيوزيلندية عن مشاعر مماثلة بشأن «الدلالة الخاصة» لإرث غاليبولي: «فهنا خطا النيوزيلنديون في أبريل 1915 أول خطوة لهم على الساحة العالمية» و«امتُحنوا في آتون المعركة» و«سنوا سنة كانت العماد الذي قام عليه حس متنام بالوحدة الوطنية»[7]. ومن شدة الطلب المتوقع على حضور إحياء الذكرى المئوية في غاليبولي في 25 أبريل 2015، أعلنت الحكومتان الأسترالية والنيوزيلندية أن العشرة آلاف وخمسمائة تذكرة ستوزّع بالقرعة في 2014، مع تخصيص 8 آلاف للأستراليين وألفين للنيوزيلنديين و500 لممثلي تركيا.

يضاف إلى هذه الفعاليات المنظّمة على الصعيد الوطنيّ عدد كبير من الكتب الجديدة التي تتناول الحرب العالمية الأولى، وإن كان كلا هذيْن التطوريْن أقل جلاءً في الشرق الأوسط منهما في أماكن أخرى. فقد شهدت السنوات الأخيرة طفرة في النشر حول كل مناحي الحرب وما لها من تأثير على المجتمع مدفوعة بالاهتمام الذي أولته وسائل الإعلام للنفر المتناقص عددًا من الناجين من الحرب الذين أتموا عامهم العاشر بعد المائة، والذين توفى آخرهم بالفعل. وعلى الرغم من أن هذه الكتب تتضمن روايات موثوقة وجديرة تمامًا بقراءتها عن حملات فردية مثل حملة غاليبولي[8]. وحملة بلاد الرافدين[9]،. لم يُنشر تأريخ يقع في كتاب واحد لمسرح الشرق الأوسط بأكمله حيث دأب المؤلفون بدلًا من ذلك على النظر إلى الحملات العسكرية التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط بشكل منفصل يتعامل مع كل حملة على حدة، مما يحدّ بالتالي من القيمة التحليلية الكلية للصلات البينية التي يمكن إقامتها فيما بينها.

وهذه هي الفجوة التي يسعى هذا المؤلّف إلى سدها ليصحح وضع تلك الحملات بوصفها محورية لتطور الشرق الأوسط الحديث وينتشلها من هوة التغطية الهامشية التي تحظى بها نمطيا في التأريخات العامة للحرب ككل. إن هذا الكتاب أكثر بكثير من مجرد تأريخ عسكري حيث يعتمد نهجًا متعدد التخصصات في تناوله التطورات في عموم الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى وما أعقبها من عواقب مائجة. وبالإضافة إلى ما يعرضه من توثيق شامل للحملات الفعلية ذاتها، يسبر الكتاب أيضًا أغوار التأثيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي نتجت عن تقسيم المنطقة إلى سلسلة من مناطق القتال التي تعبر طرق التجارة الداخلية والإقليمية البينية وتعبر المناطق الداخلية التجارية. علاوة على ذلك، وفي وقت يتصاعد فيه الاهتمام بتأثيرات التوغلات العسكرية الغربية المتكررة في المنطقة، يوثّق الكتاب كيف تركت القرارات المتعجلة، الوقتية غالبًا، التي اتُّخذت لتلبية مقتضيات زمن الحرب إرثًا معقّدًا يشكّل المعلمات السياقية التي يمر خلالها معظم السياسات الغربية الراهنة في العالميْن العربي والإسلامي.

ولقد تجسدت هذه الروابط بوضوح في الزيادة المفاجئة في الاهتمام الشعبي بأوجه التماثل البادية للعيان بين الغزو البريطاني لبلاد الرافدين في عام 1914 وغزو العراق بقيادة أمريكية في عام 2003. فبالإضافة إلى الإعلان البريطاني سالف الذكر بشأن «التحرير» الذي من الجائز تمامًا أن يكون قد صدر مثله عن جورج دبليو. بوش أو دونالد رمسفيلد أو توني بلير وبالقدر ذاته من السهولة، تركز الاهتمام بسرعة على طبيعة ردات الفعل العكسية القوية التي قوبلت بها محاولات فرض مشروعات من الخارج لبناء الدولة. ولكن سُحب، في فبراير 2005، عدد كبير من الصناديق التي تحوي مادة أرشيفية تتناول السياسة البريطانية تجاه بلاد الرافدين في عامي 1919 و1920 من دار المحفوظات الوطنية للاستخدام الحكومي؛ مما أثار خيبة أمل كبيرة في نفوس الباحثين الذين قيّدت هذه الخطوة بشدة إمكانية اطلاعهم على المواد التاريخية التي أتيحت لهم منذ ستينات القرن الماضي[10].

علاوة على ذلك، أعيد نشر مجموعة كبيرة من اليوميات التاريخية التي كُتبت بأقلام محاربين قدماء شاركوا في حملة بلاد الرافدين لجمهور قراء حديث، فنالت إحداها على وجه التحديد ذيوعًا واسعًا عندما قَدّم لها السير جيريمي غرينستوك مقدمةً سمحت له بالتعبير عن فزعه من الطريقة التي أساءت بها الحكومتان الأمريكية والبريطانية إدارة العراق فيما بعد احتلاله في عام 2003. وقد خدم غرينستوك لفترة وجيزة بوصفه ممثلًا خاصًا في العراق خلال الفترة التالية للغزو مباشرة، لكن وزارة الخارجية والكومنولث البريطانية منعته، على نحو أثار جدلًا، من نشر سرد نقدي لتجربته هناك[11]. فاحتال على هذا بالتلميح إلى ما يراه إخفاقًا من جانب واضعي السياسات الأمريكيين في استيعاب دروس فشل بريطانيا السابق في ذلك البلد، فكتب يقول: «هل من سوء الأدب أن نسأل عما إذا كانت قيادات إدارة أحدث قد استفادت من دراسة هذه التجربة أم لا؟»، قبل أن يردف بقوله: «لم تكن الحكومة البريطانية في عام 1917 ولا الائتلاف في عام 2003 يدركان ما هما مقبلان عليه باستيلائهما على مقاليد الأمور في بغداد حق الإدراك»[12].

بنية الكتاب

يقـع هـذا المؤلَّـف فـي ثلاثـة أبـواب؛ يعدالبـاب الأول تمهيـدًا للسـاحة، ويقـع فـي فصليْـن يتنـاولان بالتفصيـل الخلفيـة التاريخيـة والمعلمـات السـياقية للحمـلات التـي جـاءت تاليًـا. فيمحـص الفصـل الأول دور الاقتصـاد السياسـي الدولـي للإمبراطوريـات فـي تشـكيل ملامـح التنميـة الإقليميـة فـي نصـف القـرن السـابق علـى عـام 1914، وهـو لا يقتصـر فـي تركيـزه علـى المسـارات المختلفـة التـي سـارت فيهـا الإمبراطوريـات العثمانيـة والبريطانيـة والفرنسـية والروسـية فـي الشـرق الأوسـط فـي السـنوات السـابقة مباشـرة علـى انـدلاع الحـرب العالميـة الأولـى، بـل يركـز أيضًـا علـى الطـرق المتباينـة التـي اسـتجاب بهـا الزعمـاء المحليـون والنخـب المحليـة للأحـداث وتكيّفـوا بهـا معهـا. وأمـا الفصـل الثانـي فيسـتكمل المسـيرة بتوثيـق التحديـات المعينـة، اللوجسـتية والإداريـة والإيكولوجيـة، التـي انطـوت عليهـا حمـلات الشـرق الأوسـط. ففـي الأرض القاسـية التـي دارت فوقهـا رحـى معظـم أعمـال القتـال، كانـت هـذه العوامـل حاسـمة الأهميـة للنجـاح أو الفشـل (وهـو الأكثـر) العسـكري وتركـت أثـرًا لا ينمحـي، وإنْ لـم ينـل التقديـر إلا متأخـرًا، علـى تطـور الاسـتراتيجية والتكتيـكات. كمـا يشـتمل هـذا الاسـتعراض أيضًـا علـى مبحـث يتنـاول الـدور بالـغ الأهميـة الـذي لعبتـه الهنـد بإمدادهـا القـوات الإمبراطوريـة البريطانيـة فـي الشـرق الأوسـط بالقـوة البشـرية والمـوارد، ممـا يبرهـن علـى الصـلات العابـرة للمناطـق التـي رسـمت ملامـح مشـاركة المنطقـة فـي هـذا الصـراع وتعرّضهـا لـه.

ويتألـف البـاب الثانـي مـن أربعـة فصـول تتنـاول بالدراسـة المتعمقـة الحمـلات التـي جُـرّدت أثنـاء الحـرب فـي عمـوم المنطقـة. فالفصـل الثالـث يبحـث الصـراع علـى الهيمنـة فـي القوقـاز بيـن الإمبراطوريتيْـن الروسـية والعثمانيـة، وعلـى الرغـم مـن أن هـذه الحملات ليسـت جـزءًا ممـا يسـمى «الشـرق الأوسـط» بمعنـاه الجغرافـي الدقيـق فإنهـا لا تنفصـم عـن أيـة دراسـة للحـرب علـى المنطقـة ككل؛ لأنهـا سـاهمت فـي اسـتنزاف قـدرات الدولـة العثمانيـة التـي ضعفـت بشـدة فـي أعقـاب الأداء العسـكري فـي فلسـطين وبـلاد الرافديـن.

كما كان الجانب الإثني والديني لحملة القوقاز أيضًا عاملًا أساسيًا في شحذ الأنشطة السياسية المتصلة بالهوية في النظاميْن الإمبراطورييْن الروسي والعثماني. وبما أن كلتا الإمبراطوريتيْن كانتا عابرتيْن للحدود الوطنية في رقعتيهما وكانتا تضمان أقليات إثنية ودينية كبيرة في سكانهما، فمن المنطقي أن تكون عواقب تسييس الهوية بهذا الشكل شديدة. ويعد مصير الأرمن أبرز مثال معروف على هذه العواقب، وإنْ كانت هناك أيضًا أمثلة أخرى عديدة على الترحيل الجماعي واستهداف السكان المدنيين (على كلا الجانبيْن).

وأما في الفصول الرابع والخامس والسادس فيتحول التحليل نحو الحملات التي قادتها بريطانيا في الشرق الأوسط. وتعد المحاولة الفاشلة للسيطرة على مضيق الدردنيل والاستيلاء على شبه جزيرة غاليبولي من بين الذكريات الأشد إهاجة للعواطف بشأن الحرب، حيث تظل تثير اهتمامًا متقدًا ونقاشًا حاميًا بعد مرور قرن من الزمان. ويوثق الفصل الرابع الحملة التي شنتها القوات البريطانية وقوات الفيلق الأسترالي والنيوزيلندي، ويصف الدور الحاسم الذي لعبته غاليبولي في التطور اللاحق للهويات الوطنية، لا في أستراليا ونيوزيلندا فحسب بل في جمهورية تركيا الحديثة أيضًا. وينتهي الفصل بتناول حملة سالونيك قليلة الشهرة بوصفها رمزًا للتوازن المضطرب بين المصالح البريطانية والفرنسية في البحر المتوسط وكذلك الريبة المتبادلة في دوافع كل منهما وأهدافه في المنطقة ككل.

ويصحب الفصل الخامس القارئ في رحلة إلى مصر وشبه جزيرة سيناء وفلسطين. فقد كانت الأهمية الاستراتيجية التي تتمتع بها قناة السويس لخطوط الإمداد الإمبراطورية البريطانية تتطلب إضفاء الطابع الرسمي على الاحتلال البريطاني بحكم الواقع لمصر الذي كان قد بدأ منذ عام 1882. وبعد ذلك، صدّت القوات البريطانية والهندية هجومًا عثمانيًا مفاجئًا مبكرًا ضد القناة قبل أن تتقدم لتأمين السيطرة على شبه جزيرة سيناء، بالإضافة إلى الصحراء الغربية الواقعة على امتداد الحدود مع ليبيا. وبتأمين السيطرة على مصر بحلول منتصف عام 1916، زحف القادة البريطانيون

نحـو فلسـطين العثمانيـة، حيـث مُنـوا هنـاك بنكسـتيْن عسـكريتيْن كبيرتيْـن عنـد غـزة فـي عـام 1917، قبـل أن يخترقـوا دفاعـات الدولـة العثمانيـة ويسـتولوا علـى القـدس فـي شـهر ديسـمبر. ثـم تُوِّجـت العمليـات العسـكرية التـي تلـت ذلـك فـي الشـهور الأخيـرة مـن الحـرب باحتـلال بريطانيـا لسـوريا، وهـو مـا بـث بـذور الصـراع البريطانـي الفرنسـي العربي الثلاثـي علـى السـيطرة والـذي كـدّر علاقـات مـا بعـد الحـرب وعقّدهـا بشـدة.

وقـد انتشـرت القـوات البريطانيـة والهنديـة أيضًـا بأعـداد كبيـرة فـي بـلاد الرافديـن. ويتناولالفصـل السـادس بالتفصيـل حالـة المـد والجـزر التـي شـهدتها الحملـة التـي بـدأت بهجـوم علـى البصـرة فـي نوفمبـر 1914 وانتهـت بالاسـتيلاء على الموصـل بعد انتهـاء الحرب العثمانيـة رسـميا فـي نوفمبـر 1918 بأحـد عشـر يومًـا. وانطـوت حملـة بـلاد الرافديـن علـى تبايـن شـديد، حيـث انتهـت سلسـلة مـن «الانتصـارات السـهلة» التـي حققتهـا القـوات البريطانيـة والهنديـة فـي البدايـة نهايـة مروعـة بتسـليم الحاميـة البريطانيـة والهنديـة فـي الكـوت فـي أبريـل 1916، وهـو الحـدث الـذي ظـل يعـد -حتـى سـقوط سـنغافورة فـي عـام 1942- أعظـم إهانـة ذاقتهـا الإمبراطوريـة حتـى ذلـك الحيـن، والـذي أسـفر عـن تحقيـق حكومـيّ قـاس تسـبب (علـى النقيـض مـن التحقيقـات التـي جـاءت مـن خلفـه فـي القـرن الحـادي والعشـرين) فـي إطاحـة وزراء مـن الحكومـة. وفـي أعقـاب عمليـة إعـادة تنظيـم شـاملة ترتبـت عليهـا أيضًـا أعبـاء كبيـرة علـى المـوارد المحليـة، اسـتولت بريطانيـا علـى بغـداد فـي مـارس 1917، وتواصلـت العمليـات الهجوميـة هنـاك حتـى نهايـة الحـرب.

ويتألـف البـاب الثالـث مـن فصليْـن يـوردان تحليلًا جامعًـا لأهـم المواضيـع والخلافـات التـي انطـوت عليهـا تجربـة زمـن الحـرب فـي الشـرق الأوسـط، والتـي مـا زلنـا نستشـعرها إلـى اليـوم. فالفصـل السـابع يبحـث الصـراع علـى السـلطة السياسـية فـي الشـرق الأوسـط «الجديـد» فـي ضـوء تلاشـي اليقينيـات القديمـة وتفتـح آفـاق إمكانيـات جديـدة. وبالإضافـة إلـى الوصـول بالتنافسـات الإمبراطوريـة القديمـة إلـى منتهاهـا، يركـز الفصـل علـى المجموعـة المعقـدة المتناقضـة مـن الاتفاقيـات السـرية التـي أبرمـت زمـن الحـرب، والتـي ظلـت مثـار نـزاع مريـر منـذ ذلـك الحيـن، ومـن بينهـا تعهـدات بريطانيـا بتقديـم

الدعم للأسرة الهاشمية في الثورة العربية (مع تأييد الحكام السعوديين المنافسين في شبه الجزيرة العربية في الوقت نفسه)، واتفاقية سايكس بيكو التي اقتطعت مجالات نفوذ لبريطانيا وفرنسا في عموم المنطقة، وتصريح بلفور الداعم لتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين. كما يغطي الفصل أيضًا تطور خطاب زمن الحرب الذي تقارَب دعمًا لمبدأ تقرير المصير الوطني على النحو المنصوص عليه في «نقاط الرئيس الأمريكي ولسون الأربعة عشرة» و«التصريح الإنجليزي الفرنسي» لسنة 1918. كما بثت هذه المشاعر أيضًا بذور الكثير من التنازع والمرارة التي اتسمت بها الفترة التالية مباشرة للصراع، حيث سعت الجماعات الوطنية في عموم المنطقة إلى المكانة والسلطة فيما كانت الحرب تضع أوزارها.

ويُختتم هذا الكتاب بالفصل الثامن الذي يصف الطبيعة الملتوية لتسويات ما بعد الحرب التي شكّلت في نهاية المطاف ظهور نظام الدولة الحديث في الشرق الأوسط. فقد خيّم الجدل حول من يكون له حق التمثيل في مؤتمر باريس للسلام في عام 1919 على الأجواء المباشرة حيث أثار ردة فعل عكسية بين القوميين الساخطين في مصر وبلاد الرافدين، فيما تصاعدت حدة التوترات في سوريا بين القوميين العرب الذين كانوا قد سيطروا على دمشق والمسؤولين الفرنسيين الذين أكدوا نفوذهم وفقًا لاتفاقيات زمن الحرب. وكشفت سلسلة من الصدامات الحادة بين الائتلافات الحانقة من الجماعات المحلية والقوات البريطانية والفرنسية عن مدى ردة الفعل العكسية من جانب القوميين على المحاولة الإنجليزية الفرنسية لإعادة تنظيم الشرق الأوسط وفقًا لمصلحتهما. وفي الوقت نفسه، وفيما تطور الوضع الراهن بسرعة ليفوق القدرة على استدامته، آذنت التطورات الثورية في تركيا بنهاية الدولة العثمانية نهاية مبرمة وصعود مصطفى كمال «أتاتورك». وكانت نتيجة نظام الانتداب الذي استحدثته عصبة الأمم والتوقيع على معاهدة لوزان أن وصلت الفترة الضبابية المطوّلة إلى تسوية مضطربة أخيرًا بحلول 1922 - 1923.

ولا شك أن الحملات العسكرية في الشرق الأوسط -وهي التي لم تكن قط

عروضًا جانبية عرضية تدور أحداثها إلى جانب العرض الرئيس على مسرح الحرب العالمية الأولي في أوروبا- قد لعبت دورًا حاسمًا في إعادة تشكيل الاقتصاد السياسي للمنطقة. فالقتال طال معظم الفئات الاجتماعية الاقتصادية بشكل مباشر أو غير مباشر، سواء من خلال التعرُّض للمجاعة أو المشاق واسعة الانتشار أو الخلل الاقتصادي والتشرد السكاني، مما ضمن أن يكون تأثير الحرب على المشاركين المحليين (غير الراغبين) فيها قريبًا من الأوضاع الموشكة على الحرب الكاملة التي لم تتطور إلا متأخرًا في أجزاء من أوروبا في 1917 - 1918. والهدف من هذا الكتاب هو أن يبوّئ تاريخ الصراعات المتعددة في الشرق الأوسط وإرثها مكانًا في صميم دراسات الحرب العالمية الأولى، وأن يستخلص مضامينها الكاملة والدائمة لمنطقة تظل في حالة من السيولة بعد مرور قرن من الزمان.

الباب الأول

توطئة

الفصل الأول

الاقتصاد السياسي لمختلف الإمبراطوريات في 1914

يبحث هذا الفصل الافتتاحي اقتصاد الإمبراطوريات السياسي الدولي في عام 1914، حيث يغطي المسارات المختلفة التي سارت فيها الإمبراطوريات البريطانية (والهندية) والفرنسية والعثمانية والروسية وكيف تفاعلت سياساتها تجاه الشرق الأوسط إحداها مع الأخرى. وهو يركز تركيزًا ملحوظًا على أثر الإمبريالية في رسم مسار العلاقات بين الدولة والمجتمع في عموم الشرق الأوسط قبل عام 1914. وهذا أمر مهم حيث إن أنماط التغلغل الاستعماري فيما قبل الحرب هي التي قررت القدرات الاستخراجية الأولية وطرق شن الحرب لدى مختلف القوى عندما اندلعت الحرب. علاوة على ذلك، أثّرت مختلف التصورات الفكرية للسيطرة الاستعمارية تأثيرًا ملحوظًا على ملامح السياسات النابعة من المركز تجاه الشرق الأوسط، وعلى الحملات الأولى التي جرت على الأرض.

وتتناول هذه الدراسة لأنماط التغلغل الاستعماري في الشرق الأوسط والسيطرة الاستعمارية عليه حتى عام 1914 موضوعيْن عاميْن؛ أولهما اتفاق الآراء على القيمة التجارية والاستراتيجية للمنطقة في الاقتصاد السياسي الدولي في أوائل القرن العشرين. فقد تجلى الصراع على النفوذ في الشرق الأوسط في تأثيرات متداخلة ومتعارضة سعيًا إلى السطوة الغربية على المستويات المحلي والوطني والإقليمي والدولي. ومع ذلك، يركز هذا الفصل على الاستمراريات الأطول أمدًا في روابط الاستيطان والتجارة والتبادل القائمة خارج الحدود الأوروبية التي دمجت الشرق الأوسط دمجًا محكمًا في العالم الأوسع كثيرًا (وغير الغربي). فقد انتعش أثناء الحرب العالمية الأولى كثير من هذه الروابط وقويَ، ولا سيما تلك القائمة بين الشرق الأوسط والهند، وإنْ كان هذا بتوجيه بريطاني. ومن ثم فهو يضع هذه التطورات المتأخرة في إطار أوسع

مجتمع في غرب آسيا/منطقة المحيط الهندي. وهذا يصحح بعضًا من التمحور حول الغرب الذي تتسم به الأدبيات التي تتناول مسار الحرب في الشرق الأوسط.

ويتصل هذا اتصالًا وثيقًا بموضوعنا المهم الثاني، وهو الحديث عن وكلاء التغيير المحليين الذين كانوا يسكنون الشرق الأوسط في عام 1914. فكثيرون من هؤلاء الوكلاء كانوا من قبل دعاة إصلاح وتغيير بارزين، وساهموا في إيجاد مناخ اجتماعي سياسي نابض بالحياة في عموم المنطقة. وعلى الرغم من تركز اهتمام الباحثين والجماهير في الدرجة الأولى على تي. إي. لورنس الملقّب بـ«لورنس العرب»، فإن جمعًا كبيرًا من أمثال هذه الشخصيات وضعوا بصمتهم على المنطقة قبل الحرب وأثناءها، من بينهم مشاركون محليون مثل أمير الكويت مبارك الكبير (مبارك بن صباح الصباح) الذي عالج التنافسات الخارجية ببراعة لتعظيم مركزه، وأطراف فاعلة خارجية مثل فلهلم فاسموس الملقّب بـ«لورنس الفرس». وهناك شخصيات أخرى بارزة امتدت على مدى الأفقيْن السياسي والفكري وساهمت في إيجاد بيئة ديناميّة بعيدة كل البعد عن السلبية في مواجهة فرض هياكل وصور سيطرة خارجية.

ولقد تباينت مسارات هؤلاء الوكلاء المحليين تباينًا واسعًا مع انطلاق شرارة الحرب في عام 1914، حيث قُضيَ على بعضهم تحت جُنح القتال واستبدل بهم متعاونون أكثر طواعية وأسلس انقيادًا. وهناك أفراد آخرون وجماعات أخرى سعوا بهمّة ونشاط إلى أن يُستوعَبوا في هرميات زمن الحرب، إما بغرض تعزيز مصالحهم الخاصة وإما بغرض بناء رأس مال سياسي في مقابل حكم ذاتي أكبر ثم في نهاية المطاف الاستقلال الذاتي. وبالتالي تطورت منابر متزايدة النزعة القومية في مصر وهويات الوطنية الوليدة في أماكن أخرى، فيما توصل المسؤولون المحليون ورجال الأعمال والمواطنون العاديون والصفوف المحشودة من الفلاحين ممن جُردوا من أملاكهم وممن لا يملكون أرضًا إلى مواءماتهم الخاصة مع ازدياد مستويات الاقتحام والتطفل، من جهات خارجية ومن الدولة، على حياتهم اليومية. كما توصلت هذه الفئات الاجتماعية الاقتصادية المتباينة أيضًا إلى استنتاجات حول معنى الحرب

والغرض منها، والسبل التي تستطيع بها تحويل مشاركتها في هذه الحرب لصالحها، على نحو ابتعد بشدة عن مسار السرود الاستعمارية. ومن هنا يهيّئ هذا الفصل الساحة لما سيأتي في متن الكتاب بوضع المعلمات السياقية للقلاقل التي بدأت تتفشى في 1917 - 1918 وبلغت أوجها في عام 1919، في الوقت الذي بدأت فيه القرارات الأولية المتعجلة التي اتُّخذت لتحقيق مكسب قصير الأجل تتفتت مع وصول الحرب إلى نهايتها.

وقبل أن يركز هذا الفصل على ملامح الاقتصاد السياسي للسيطرة الإمبريالية في الشرق الأوسط في عام 1914 على المستويَيْن المتوسط والأصغر، يعالج العمليات الكبرى المؤثرة التي شكّلت المنطقة في نصف القرن السابق على هذا التاريخ. وقد تمثلت هذه العمليات في تمديد الصور الرسمية وغير الرسمية من التغلغل الاستعماري، وإعادة صياغة الهياكل الاجتماعية الاقتصادية وأنماط التجارة والنشاط التجاري في ظل دمج المنطقة في الاقتصاد العالمي. ونتج عن الطبيعة المتشابكة لهذه العمليات أن اعتمدت كل منها في بقائها على الأخرى وأسفرت عن فترة انتقالية في ظل اتساع قدرات الدولة في نطاقها وتطويرها قدرات استخراجية مصممة لتنظيم مجتمعاتها وتعبئتها بطرق جديدة تمامًا. وينتهي الفصل باستقصاء ظهور هويات ومفاهيم انتماء وطنية وعروبية، وكيف صار بها الفاعلون المحليون يستوعبون اندلاع الحرب في عام 1914 ويشكّلونه. غير أن الفصل يستهل حديثه أولًا بنظرة على الاقتصاد السياسي الدولي الذي تبلورت في داخله هذه القضايا فيما بعد.

نظام الاستيطان والتبادل العابر لحدود المنطقة

ظلت منطقة الشرق الأوسط، أرضًا وشعوبًا، في طليعة الحضارة الإنسانية منذ أزمنة ما قبل التاريخ. وقبل ظهور الإسلام وانتشاره بقوة خارج شبه الجزيرة العربية في القرن السابع من الميلاد بزمن طويل، كانت المنطقة التي تشكّل اليوم الشرق الأوسط تحتوي على مدن عظيمة تضم مراكز للثقافة والعلم وتقع في ملتقى طرق

التجارة الدولية[1]. وقد ساهم كونها مهد الديانات الكبرى وموقعها الاستراتيجي عند ملتقى ثلاث قارات في امتزاج كوزموبوليتاني للشعوب والثقافات على امتداد التاريخ المسجل. فأنماط الاستيطان والتبادل العابرة للثقافات مع المناطق المحيطة في حوض البحر المتوسط وشمال وشرق أفريقيا وغرب آسيا تمتد جذورها إلى العصور القديمة، مما أضفى تنوعا تعدديًا على القوى والتيارات التي أثرت على تطور الإنسان في المنطقة.

فقد عُثر على آثار هلنستية تعود إلى زمن الإسكندر الأكبر في البلاد التي تسمى اليوم بالكويت (حيث جزيرة إيكاروس أو فيلكا حاليًا) والبحرين (التي كانت تسمى تايلوس) ومواضع في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية، بالإضافة إلى برامج الاستعمار والاستيطان في بابل والإسكندرية والشام الأكثر شهرة[2]. وأما مدينة أدريانوبل (مدينة أدرنة الحديثة في تركيا) فتحتل مكانة سيئة الحظ باعتبارها أكثر موقع حوصر في التاريخ؛ مما يعكس للأسف موقعها الجغرافي على جانبيْ الطريق البري المهم الممتد بين أوروبا وآسيا. ففيما بين عامي 323 و1913، ثارت نزاعات للسيطرة على المدينة ووديان الأنهار الثلاثة التي تربط تركيا بمقدونيا وبلغاريا بلغت ما لا يقل عن خمس عشرة مرة[3]. ويُعدّ مضيق الدردنيل، مسرح معركة غاليبولي التي دارت رحاها في عام 1915 ودخلت التراث السياسي والشعبي في قارتيْن كحدث تأسيسي شكّل أمة، مثالًا آخر على الأهمية العسكرية الدائمة، حيث يعود تاريخ الصراعات لتحقيق الهيمنة المحلية والإقليمية عليه إلى الحروب التي دارت رحاها بين الآخيين والحيثيين[4].

صارت أنماط التنظيم السياسي والاجتماعي الاقتصادي في العالم العربي كما في غيره من الأماكن بالتدريج أشد تعقيدًا في علاقتها بالكيانات السياسية المحددة بحدود إقليمية وبإحداها الأخرى. فبداية من انتشار الإسلام إلى تجربة التدخل العسكري الغربي أثناء الحملات الصليبية وحلول العثمانيين محل الدولة البيزنطية وما تلا ذلك من توسُّع في أوروبا، تعرّضت الهويات والحدود باستمرار لتأثيرات فوق

وطنيـة ودوليـة واتصـالات ثقافيـة متنوعـة. وهكـذا صـار الشـرق الأوسـط مخترقـا بشـدة مـن جانـب القـوى الخارجيـة وفـي الوقـت نفسـه مندمجًـا بإحـكام فـي المنظومـة العابـرة للقـارات العاملـة مـن حولـه. وقبـل الاختـراق الإمبريالـي فـي القـرن التاسـع عشـر بزمـن طويـل، تمخّـض السـفر والتجـارة والصـور الجديـدة مـن التعبئـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة تحـت تأثيـر قـوة الحداثـة عـن امتـزاج معيـن بيـن الأفـكار فـي الشـام وشـمال أفريقيـا والاتجاهـات السـارية فـي أوروبـا[5]. وقـد ركّـزت الأعمـال الحديثـة الكبـرى، وأبرزهـا مؤلفات سـي. إيـه. بايلـي، تحديـدًا علـى الروابـط الاسـتراتيجية والتجاريـة والفكريـة العديـدة التـي ربطـت الاقتصـادات والسياسـيات لعالمـي المحيـط الهنـدي وأوراسـيا، وهـي تؤكـد علـى الترابـط بيـن التغيـرات السياسـية والاجتماعيـة فـي عمـوم العالـم وتجمـع بيـن التواريـخ والسـرود الإقليميـة والوطنيـة التـي كانـت حتـى آنـذاك منفصلـة فـي صـورة متمايـزة مـن «تاريـخ العالـم»[6].

كمـا بـرز تأثيـر الهنـد أيضًـا إلـى صـدارة الأبحـاث المعنيـة بالعالـم البحـري الأوسـع الـذي امتـد علـى هيئـة قـوس مـن شـبه القـارة إلـى الخليـج العربـي وشـبه الجزيـرة العربية وشـرق أفريقيـا. وقـد أكـد تومـاس ميتـكاف علـى التفاعـلات العابـرة لحـدود المسـتعمرات وتمديـد النفـوذ مـن خـلال الاسـتيطان والتجـارة اللذيـن ربطـا شـعوب المحيـط الهنـدي مـن القـرن الخامـس عشـر علـى الأقـل[7]. ووثقـت باتريشـيا ريسـو ووِلْيـم بيمـان التفاعـلات متعـددة الوجـوه بيـن الهنـد وسـاحليْ الخليـج العربـي والفارسـي، ووصفـا مجـال نفـوذ تجاريًـا أثّـر علـى بـروز هويـة منفتحـة متمايـزة فـي عمـوم منطقـة المحيـط الهنـدي[8]. واسـتند هـذا إلـى بحـث رائـد وضعـه قبـل ذلـك بـي. آر. توملينسـون تنـاول اقتصـاد الهنـد السياسـي، حيـث وثّـق فيـه الروابـط التجاريـة الخارجيـة المزدهـرة بيـن ربـوع آسـيا التـي ربطـت الهنـد بمنظومـة تجاريـة غيـر غربيـة[9].

كمـا لفـت العمـل الـذي قـام بـه جيمـس أونلـي الانتبـاه إلـى الـدور الحاسـم الـذي لعبـه الوسـطاء المحليـون المتنفـذون، وكان كثيـر منهـم ينتمـي إلـى عائـلات تجاريـة كبيـرة، فـي دراسـته طبقـة الـوكلاء الأهلييـن التـي كانـت تمثـل حكومـة الهنـد فـي الخليـج العربـي[10].

وفي غضون ذلك، جمع جون ويليس بين الموضوعات العامة التي تتعلق بالترابطات الأوروبية الآسيوية، حيث جادل بأسلوب مقنع بأنه «يتعذر فهم كثير من جوانب التفاعل الأوروبي الآسيوي المهمة في آسيا البحرية إذا أبقينا على الفصل التحليلي بين الاختراق الأوروبي والاستجابة الآسيوية، فهذه الترابطات برزت بطرق شرطيّة تمامًا ومحددة من تفاعل (ملاءمات وتكييفات متبادلة) أوجه معينة من أوجه الحضارة الأوروبية ومختلف الحضارات الآسيوية»[11]. ومدّد سوغاتا بوس هذا الخط الاستقصائي بتحليل مفصّل لمنطقة المحيط الهندي بوصفها «ساحة أقاليمية للتفاعل السياسي والاقتصادي والثقافي» ربطت بين مناطق منوعة جغرافيا كأفريقيا الجنوبية والهند والهند الشرقية وغرب أستراليا. وجادل بوس بأن المناطق الساحلية المطلة على المحيط اشتركت في «مصير تاريخي مشترك» نجا من فرض الهيمنة السياسية والاقتصادية الأوروبية أثناء القرن التاسع عشر[12].

إن دراسة حالة لسيولة مفاهيم الهوية والحدود في عُمان تسلط الضوء على الديناميات الفاعلة في عموم المنطقة الأوسع، حيث تأثرت حدود عمان الجغرافية والسياسية بشدة بأنماط الهجرة وفترات التوسُّع الإقليمي. فخلال القرنيْن الثامن عشر والتاسع عشر مارست سلطنة مسقط السيادة على غوادر وساحل مكران في باكستان الحالية، فضلًا عن جزيرة زنجبار الواقعة قبالة ساحل شرق أفريقيا، وذلك في إطار قوس نفوذ عبر المنطقة الساحلية الشمالية الغربية للمحيط الهندي امتد من موزامبيق إلى بلوشستان[13]. وكان لهذا بُعد بشري كبير حيث كانت موجات الهجرة الوافدة لقبائل البلوش من منطقة مكران بمثابة العمود الفقري للتجنيد العسكري العماني، وفي الوقت نفسه أقامت طائفتان كبيرتان من أصل هندي، وهما اللواتيا والبانيان، شبكات من تجار وممولين مارست نفوذًا اقتصاديًا كبيرًا ويسّرت توسُّع عمان في أفريقيا[14].

وقد علقت أنماط التفاعل البشري غير الغربية هذه تدريجيًا في أحبولة التغلغل الاستعماري في الشرق الأوسط. فخلال نصف القرن السابق على عام 1914، تمخَّض

فتح قناة السويس وظهور السكك الحديدية والبواخر عن شبكة تجارية عالمية متعددة الأطراف تقوم على مبدأ الميزة النسبية. وحلّت هذه الشبكة محل الروابط التجارية التي غلب عليها حتى ذلك الحين الطابع الثنائي بين مناطق يقع أغلبها تحت سيطرة الشركات الأوروبية المنشأة بمرسوم. وعلى الرغم من أن الإمبرياليات الأوروبية ذات الطابع الرسمي ألحقت أضرارًا واسعة بالهياكل الاجتماعية الاقتصادية الأصلية، نجت الشبكات المحلية بل وازدهرت لفترة طويلة في القرن العشرين. وثمة مثال بارز على ذلك هو طرق التجارة المعقدة التي كانت تصل بين موانئ ساحل الهند الغربي والموانئ المطلة على الخليج العربي وعدن وعلى امتداد خط ساحل شرق أفريقيا في مجتمع بحري عابر لحدود المناطق. ففي كل عام، كانت سفن البوم والداو الشراعية تقوم برحلات بحرية طويلة ذهابًا وعودة محملة بالبضائع من منسوجات حريرية وقطنية من الهند وتمور وزيوت طهي من البصرة والموانئ الخليجية وأرز وملح من عدن متجهة نحو مومباسا وأرض الصومال[15].

وهذه الروابط المادية والفكرية طفت من جديد إلى السطح، وبطرق متنوعة، أثناء الحرب العالمية الأولى. وكان يُنظر تقليديًا إلى الصلة بين الحملات العسكرية التي جُرّدت خارج أوروبا بعضها بعضًا من خلال عدسة الاستراتيجية الكبرى أو عن طريق الدراسة الفردية لدور إمبراطورية بعينها في الحرب[16]. ومنذ وقت قريب بدأ العمل يركز على الطريقة التي تشابكت بها مختلف الحملات، في الشرق الأوسط وخارجه على السواء، لوجستيًا وإداريًا كذلك[17]. حدث هذا فيما أخضع صانعو القرار، في العاصمة الإمبراطورية وعلى الأرض على حد سواء، عملية وضع السياسات لمصفاة تجربتهم الفردية والجماعية في الحكم الاستعماري التي عايشوها في أماكن أخرى. فقد كان كثيرًا ما يجري نقل سياسات معينة وموظفين مدنيين إمبراطوريين من منطقة إلى أخرى، مما يؤدي إلى استنساخ هرميات السلطة وهياكل السيطرة بغض النظر عن الأوضاع المحلية. وأما ردات الأفعال العكسية المحلية على فرض السيطرة الاستعمارية المحكمة، وهي الردات التي برزت أثناء الحرب وبلغت ذروتها فيما بين عامَيْ 1919 و1922، فكانت هي ذاتها متشابكة من خلال تبادل للأفكار والإلهام عبر الحدود.

ضعف الدولة العثمانية واضمحلالها

في عام 1914 كانت الدولة العثمانية تبسط سيطرتها على معظم منطقة الشرق الأوسط كما كان حالها طوال معظم الأربعمائة سنة السابقة، لكن قوتها ظلت تشهد اضمحلالًا على امتداد القرن التاسع عشر، كما أن مدى نفوذها على البقاع النائية جدًّا من إمبراطوريتها مترامية الأطراف لم يكن قط كبيرًا، وبالأخص في بلاد الرافدين وشبه الجزيرة العربية. ففي تلك المناطق المتطرفة، كانت السيطرة الإدارية العثمانية مفتتة وفي أحيان كثيرة صورية، وكانت في أغلب الأحوال محصورة في الأحياء الحضرية ووظيفتيْ إقامة الأمن والعدالة. ففي عام 1908، كانت الرحلة التي تمتد لمسافة 2400 كيلومتر من الآستانة إلى ميناء البصرة على رأس الخليج العربي تستغرق أربعة عشر يومًا، وكان تنفيذ القوانين والمراسيم الإدارية العثمانية فيما وراء هذه المراكز الحضرية البعيدة يتم على فترات متقطعة في أحسن الأحوال[18]. وأما قريبًا من مركز الدولة، فقد كان فقدان العثمانيين ترابهم في ليبيا في عام 1911 وولاياتهم الأوروبية في اليونان وصربيا والجبل الأسود وبلغاريا ورومانيا في حربيْ البلقان في عاميْ 1912 و1913 بمثابة كارثة سياسية وعسكرية بدا أنها تدل على تراجع الدولة العثمانية كقوة إقليمية وانكشاف صدرها أمام مطامع منافسيها الأوروبيين في افتراسها[19].

ومع ذلك، فإن هذا المشهد المتشائم لطّفه على نحو ما التحديث الجزئي الذي شهدته الدولة العثمانية أثناء القرن التاسع عشر، وبالأخص أثناء فترة «التنظيمات العثمانية» التي بدأت في عام 1839 واستمرت حتى عام 1876. فخلال تلك الفترة، حدث تحوُّل محدود في هياكل الدول والجيش في خضم عملية لإعادة مرْكزة السيطرة العثمانية على سكانها النائين والموارد الزراعية الكبيرة[20]. وتزامنت مع ذلك إصلاحات إدارية وتحسينات في وسائل الاتصال والنقل ساعدت على إعادة إدماج الأقاليم القصية في الدولة، وذلك في أعقاب انتهاء حكم السلالة المملوكية في العراق التي حكمت بين عاميْ 1704 و1831[21]. وعلى الرغم من عدم انتظام تنفيذ

هـذه الإصلاحـات وعـدم تحقيقها قـط نجاحًـا تامًـا، فإنها أوجـدت البيئـة التـي أمكـن فيهـا تيسـير مزاولـة الأعمـال مـع العالـم الأوسـع. ومـن الأمثلـة الواضحـة علـى هـذا الانتشـار السـريع لفـروع البنـوك التجاريـة فـي الولايـات بعـد عـام 1889، ممـا صاحـب ومكّـن فتـرة مطولـة مـن النمـو الاقتصـادي المسـتدام الـذي أتـى بالمناطـق التـي كانـت حتـى آنـذاك قاصيـة إلـى فلـك الاقتصـاد التجـاري[22].

وعلـى الرغـم مـن هـذه الإصلاحـات، فـإن طبيعتهـا المتحاملـة والمنقوصـة كانـت لهـا مضاميـن كبيـرة للإمبراطوريـة وقدرتهـا فيمـا بعـد علـى التعبئـة فـي فتـرات الصـراع الكبيـر. فقـد ذهبـت محـاولات توسـيع القاعـدة الاجتماعيـة الضيقـة التـي اتسـم بهـا نظـام الحكـم العثمانـي، جزئيًـا مـن خـلال تسـييس الإسـلام كأداة للشـرعية، سُـدى بسـبب النظـام الإمبريالـي العثمانـي بهيكلـه السياسـي البيروقراطـي الصلـب وتوازنـه الدقيـق بيـن السـكان المسـلمين وغيـر المسـلمين (وإنْ كانـوا مؤثريْـن ثقافيًـا واقتصاديًـا)[23]. عـلاوة علـى ذلـك، فـإن استشـراء الفسـاد، وعـدم انتظـام الحصول علـى الخدمـات والمـكارم الحكوميـة واعتماد ذلـك علـى العلاقـات الشـخصية، والحـس المتنامـي بعـدم الانتمـاء بـدءا مـن قاعـدة الهـرم فصاعـدًا بيـن البيروقراطييـن الذيـن كانـوا يفتـرض أن ينفـذوا الإصلاحـات الآتيـة إليهـم مـن أعلـى، قـوّض بالمثـل تطـوّر الهيـاكل البيروقراطيـة وتغلغلهـا بشـكل أعمـق فـي المجتمـع العثمانـي[24]. وكانـت هنـاك عقبـات أخـرى حالـت دون التنميـة المتماسـكة مـن ضمنهـا التوتـرات بيـن المركـز والأطـراف التـي تجلّـت فـي الشـقاقات المؤسسـية والفرديـة بيـن مختلـف أقطـاب الجهـاز البيروقراطـي فـي المركـز وفـي الأقاليـم النائيـة علـى حـد سـواء[25]. وازدادت محدوديـة قـدرة الدولـة الاسـتخراجية بفعـل الفشـل فـي التغلـب علـى التفاوتـات ومواطـن القصـور العظيمـة فـي نظـام الالتـزام وجبايـة الأمـوال والضرائـب علـى مسـتوى الولايـات[26]. وقـد تمخّضـت هـذه السـلبيات عن إرث مـن القـدرات الاسـتخراجية المحدودة التـي قوّضـت المحـاولات العثمانيـة لتعبئـة المـوارد المحليـة أثنـاء الحـرب العالميـة الأولى، كمـا أنهـا فاقمـت التوتـرات الاجتماعيـة الاقتصاديـة الناشـئة عـن سـنوات متعـددة مـن فقـر المحاصيـل وضعـف العائـدات الزراعيـة فـي بـلاد الرافديـن والشـام.

ولقد انجذبت الدولة العثمانية أيضًا إلى الاقتصاد العالمي حيث يسّرت التحسينات العالمية في النقل والبنية التحتية ظهور اقتصاد عالمي متسع. وفي عام 1838، فتح توقيع المعاهدة التجارية الإنجليزية العثمانية الأبواب أمام التدفقات الاستثمارية الواردة الكبيرة، والقروض التجارية والخارجية، التي شكّلت بدورها اتجاه التغيير الاقتصادي والاجتماعي في الدولة العثمانية. فأنماط التنظيم الاجتماعي والتبادل التجاري القديمة حدث بها خلل، وحُولت إلى تكوين رأس المال المنتج الموجه نحو إنتاج سلع محددة تمامًا بغرض التصدير (بدلًا من الاستهلاك المحلي)[27]. وكان للاستثمار الأوروبي في شبكة السكك الحديدية العثمانية دلالة خاصة في إدماج الدولة العثمانية في الأسواق العالمية بربط مراكز الإنتاج الزراعي بالموانئ. فتحوّلت الدولة العثمانية إلى مصدّر للمواد الخام والسلع الزراعية إلى الأسواق الغربية ومستورد للمنتجات المصنّعة من هناك[28]. ثم شهدت التجارة مع أوروبا طفرة جديدة بعد افتتاح قناة السويس في عام 1869 في ظل تسارع الروابط التجارية مع الهند بعد عام 1900، بالدرجة الأولى من خلال ميناء البصرة المطل على الخليج العربي والمشيخات الساحلية في شبه الجزيرة العربية[29].

وبجانب تحول الأنماط الاقتصادية إلى الأسواق الدولية التجارية كان هناك اختراق الشرق الأوسط سياسيًا على أيدي القوى الأوروبية. وقد أطّرت ذراعا الإمبريالية هاتان إدماج المنطقة في النظام الدولي، بشكل رسمي وغير رسمي على السواء، وكانتا في حد ذاتهما محصلة عدد كبير من القوى السياسية والاقتصادية والاستراتيجية. وفي السياق العثماني، نجد أن هذه القوى امتزجت في العقود المضطربة التي سبقت بداية الحرب العالمية الأولى، حيث آذن اقتران الصعوبات التي واجهت المالية العامة وجمع الإيرادات بمستويات الاقتراض غير المستدامة بالتدخل الأجنبي في مصر في عام 1876، في أعقاب إفلاس الدولة الخديوية، وإنشاء إدارة الدين العام العثماني برعاية فرنسية وبريطانية في عام 1881[30]. وقد قلّص كلا التطورين بشدة سيادة الدولة العثمانية وقدرتها على التصرف على نحو مستقل عن المصالح الخارجية. وفي حالة مصر، تلا هذا تدخل عسكري بريطاني ومن بعده الاحتلال بداية من عام 1882.

وفي السنوات الأخيرة قبل عام 1914، بلغت التحديات المتشابكة التي تواجه العثمانيين أوجها، ومن ضمنها أزمة سياسية واقتصادية وعسكرية شبه مستمرة، بالإضافة إلى ثورة وثورة مضادة أحدثتا تحولًا في قمة النظام الإمبريالي في الآستانة. وبدأت هذه الفترة التنفيسية بانقلاب قامت به جمعية الاتحاد والترقي في عام 1908 وخسرت الدولة العثمانية إبّانه ليبيا لصالح الإيطاليين في عام 1911 والغالبية العظمى مما تبقى من أراضيها في أوروبا قبل حرب البلقان في 1912 - 1913 وأثناءها. وتباين فشل العثمانين في القيام بأكثر من مجرد المقاومة الرمزية في ليبيا تباينًا صارخًا مع المقاومة المحلية التي نظّمها أحمد الشريف السنوسي في برقة والتي اكتسبت زخمًا بسرعة وأوقفت حركة 60 ألف جندي إيطالي في أوجها في عام 1914[31]. كما عكس هذا الفشل الإرث المختلط الذي تركته عقود من الإدارة العثمانية في ليبيا منذ عام 1835 التي لم تتمخض إلا عن قليل من التعبئة الرضائية لاستمرارها. وعُزي هذا، إلى حد كبير، إلى عجز الدولة العثمانية عن خلق هوية مشتركة بين الشعوب التي كانت تحكمها، أو إيجاد بديل اقتصادي قابل للاستمرار يعوض التآكل التدريجي في أنظمة التجارة القديمة القائمة على القوافل، أو إعادة صياغة مفاهيم السلطة السياسية الإقليمية التي ظلت، في عناد، على هيئتها القبَلية والمحلية[32].

ووقعت الهزيمة العسكرية في ليبيا بالتزامن مع تقلُّص آخر أراض متبقية للدولة العثمانية في أوروبا والسحب النهائي للقوات العثمانية من إقليم تِهامة ومرتفعات وسط اليمن في عام 1911 في أعقاب خسائر كبيرة تكبّدتها في الرجال والمواد والنفقات في قتال المقاومة الزيدية المحلية[33]. فواجهت جمعية الاتحاد والترقي التي سيطرت على السلطة حديثًا تحديًا فوريًا يتمثل في إعلان استقلال بلغاريا وضم إمبرطورية النمسا والمجر للبوسنة والهرسك في عام 1908. وفي ألبانيا، تفجّرت سلسلة من الانتفاضات الكبيرة في عام 1910 ردًا على محاولات حكومة جمعية الاتحاد والترقي زيادة السيطرة المركزية وزيادة الضرائب. واستمرت الثورة الألبانية حتى إعلان البلد استقلاله في عام 1912، وقد ترتب على إرسال 50 ألف جندي

عثماني لإخماد هذه الثورة (دون جدوى) أن تقلّصت بشدة قدرة الدولة العثمانية على الاستجابة عسكريًا للغزو الإيطالي لليبيا[34]. وتلا هذا هزيمة عسكرية سريعة وحاسمة مُنيَتْ بها الجيوش العثمانية في حرب البلقان الأولى، مما فضح سوء إدارة الدولة وعدم جاهزيتها العملياتية وسوء قيادتها والخلل الوظيفي في وضع سياساتها العسكرية السياسية، وكلها ستصبغ فيما بعد تقييمات المراقبين الأوروبيين لقدرة الدولة العثمانية على الحرب في عام 1914[35]. ومع ذلك، وكما برهن ببراعة شديدة هيو ستراكان، فإن الهزائم العسكرية التي ذاقها العثمانيون في البلقان أثبتت أنها عامل حافز لعملية شاملة لإصلاح القوات المسلحة العثمانية وإعادة هيكلتها، وهو ما بدأ فعلًا في عام 1909 تحت إشراف محمود شوكت باشا (قائد الجيش الثالث وفيما بعد وزير الحربية ثم الصدر الأعظم في عام 1913) وتسارع مع وصول البعثة العسكرية الألمانية برئاسة أوتو ليمان فون ساندرز في عام 1913، على الرغم من أن الإصلاحات لم تكن قد اكتملت عندما اندلعت الحرب في عام 1914[36].

فقدت الدولة العثمانية فيما بين عامَيْ 1908 و1912 نحو 40 في المائة من مساحة أراضيها وسُدس سكانها. وقد أضرّ تتابع هذه الخسائر برأس مالها البشري والفكري بشكل خاص حيث كانت الأراضي الأوروبية، وبفارقٍ ما، المناطق الأغزر إنتاجًا والأكثر تقدمًا في الدولة العثمانية، فكانت تمدها بمعظم ثروتها ومجنديها العسكريين وموظفيها البيروقراطيين، وبعد عام 1913 تحوّل مركز الثقل في الدولة شرقًا إلى الأناضول. وكان لعملية «التتريك» المنتظمة للدولة، وهي التي استهلتها جمعية الاتحاد والترقي بعد أن نصّب أعضاؤها أنفسهم وكلاء تحديث على طريقتهم التركية الخاصة، دلالاتها العميقة على الاتجاه المستقبلي للدولة العثمانية (تمييزًا لها عن التركية)، وعلى سكانها غير الأتراك في عموم الشرق الأوسط. وبالتالي، فإن السنوات التي سبقت الحرب مباشرة كانت فترة شهدت فيها الدولة تحولًا جذريًا على الأصعدة السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وكله كانت له تبعاته على الأداء والوضع العسكريَيْن أثناء الحرب التي أعقبت ذلك في عام 1914[37].

التغلغل الاستعماري في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا

قابل اضمحلال الدولة العثمانية أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر (وهو الذي تسارع بشدة بعد عام 1908) صعود في التغلغل الاستعماري الأوروبي في عموم الشرق الأوسط. وكانت هاتان العمليتان الكبريان مختلطتيْن إلى درجة ما، على الرغم من توصل القوى الأوروبية إلى توافق صعب على احترام سلامة أراضي الدولة العثمانية في معاهدة باريس لسنة 1856. فقد فتحت الشركات التجارية البريطانية والفرنسية الأسواق العثمانية أمام النظام الاقتصادي العالمي، وبهذا خلقت مصالح تجارية ومصالح استراتيجية متداخلة، ولا سيما في التنافس على بسط الهيمنة على الأرض في أفريقيا وعلى بسط النفوذ على طرق التجارة[38]. ومع ذلك، فإن جذور الإمبريالية كانت معقّدة ومتعددة الأبعاد، واتخذ إسقاط النفوذ الخارجي في المنطقة أشكالًا متنوعة دون أن يحدث ضم استعماري صريح إلا في حالات نادرة، وأبرزها ما فعله البريطانيون في عدن والفرنسيون في الجزائر والإيطاليون في ليبيا. وفي أماكن أخرى، كانت «الدولة الاستعمارية» كائنًا متعدد الوجود يُسقط قوته بطرق متعددة مباشرة وغير مباشرة، ومن خلال أنواع مختلفة من التحالفات مع الشيوخ البارزين وأصحاب الأطيان في بعض الحالات، أو العمل باستخدام الأدوات البيروقراطية القائمة في حالات أخرى. لكن في كل حالة، أفضى تمديد النفوذ الاستعماري إلى ديناميات سياسية وطرق تنظيم جديدة، وضغوط خارجية قوية على اتجاه التغيير ووتيرته، مع اصطباغ السلطة السياسية بصبغة الدولة الاستعمارية وتفاعلاتها المتعددة مع المجتمع[39].

وتجلّت هذه التعقيدات بوضوح في توسُّع فرنسا وتحولها إلى قوة إمبريالية في الشرق الأوسط، وهو ما كان محصلة امتزاج بين مشاعر الهيبة الوطنية والامتعاض من استمرار توسُّع الإمبراطورية البريطانية ثم من بعد عام 1880 الإمبراطورية الألمانية، فضلًا عن كونه ردة فعل للهزيمة الساحقة في الحرب الفرنسية البروسية التي جرت في 1870 - 1871. كما كان هذا أيضا يمثّل نتيجة الضغط السياسي المنسق الذي

مارسته جماعات الضغط الاقتصادية والجمعيات القومية الفرنسية التي تربطها صلات وثيقة بالنخبة السياسية، وكذلك الجيش والبحرية، وكلها دعت إلى اتخاذ مستعمرات واستغلت الأقاليم المسيطَر عليها حديثا[40]. فأفضت توليفات متباينة من العوامل السياسية والاقتصادية إلى فترات من الديناميات التوسعية والاستيلاء على الجزائر (عام 1830) وتونس (عام 1881)، بالإضافة إلى اتفاقية فرنسية إسبانية أبرمت في عام 1907 بخصوص تقسيم شمال أفريقيا. كما لعبت الشواغل الاستراتيجية الفرنسية بشأن حدود الجزائر أيضًا دورًا في الحالتيْن الأخيرتيْن، مثلما لعبت المنافسات الجغرافية السياسية مع بريطانيا وإسبانيا في شمال أفريقيا ومنطقة البحر المتوسط دورًا فيهما[41].

وكانت اقتصاداتُ السيطرةِ الاستعماريةِ السياسيةُ المختلفةُ مهمة في هيكلة القدرات الاستخراجية والتعبوية التي برزت إلى السطح في عام 1914. فكان الحكم الاستعماري الفرنسي في الجزائر مباشرًا واقتحاميًا، وذلك على النقيض من أسلوب بريطانيا غير المباشر في حكم مستعمراتها. واتبعت فرنسا سياسة استيعاب جذبت المستعمرة تدريجيًا إلى فلك العاصمة السياسي، وذلك مع منح أقاليم الجزائر الثلاث تمثيلًا برلمانيًا في باريس وإقامة أكثر من 660 ألف أوروبي، معظمهم من المشتغلين بالزراعة، مجتمعات استيطانية في الجزائر[42]. وفي هذه الأثناء، أديرت تونس والمستعمرات الفرنسية الأخرى في أفريقيا كمحميات، حيث أُبقي على مظهر السيادة المحلية لكن ابتُكرت آليات لإعادة تشكيل السلطة الإدارية والاستيلاء عليها والسيطرة على المجتمع. وعلى الرغم من أن تونس أفلتت من الضم الصريح، إلا أنها شهدت -مثلها مثل الجزائر- زرع طبقة من المستوطنين كانت بمثابة حزام ناقل قوي للمصالح الإمبريالية على المشهد السياسي الفرنسي. والحقيقة أن كتاب غاري وايلدرز شديد الإبداع الذي يتناول التاريخ الاستعماري الفرنسي يوضح أن النظام الاجتماعي السياسي كان قد حُوّل، بحلول عام 1914، إلى «دولة أممية إمبريالية» تشتمل على تكوين سياسي واحد ذي شخصية ثنائية تتألف من بُعديْن متشابكيْن هيكليًا؛ أحدهما جمهوري برلماني والآخر استعماري استبدادي[43].

وسبق اهتمامُ فرنسا الاستراتيجي والتجاري ببلاد الشام اهتمامَها بشمال أفريقيا، وإن اتخذ شكلًا مختلفًا. وكان الاهتمام الفرنسي يعود إلى زمن غزو نابليون لسوريا (انطلاقًا من مصر) في عام 1799، وإن كان العثمانيون قد أوقفوا هذا الزحف في عكا. وفيما بعد، قدّمت فرنسا الدعم لوالي مصر محمد علي عندما قام هو ذاته بغزو سوريا في 1831 - 1832، لكن هذه المحاولة المجددة لكسب النفوذ ثبت من جديد أنها قصيرة العمر حيث انسحبت القوات المصرية من سوريا في عام 1840. وجاءت محاولة ثالثة لتثبيت النفوذ الفرنسي في المنطقة في أعقاب المذبحة التي ارتكبها الدروز ضد الطائفة المارونية في جبل لبنان في عام 1860، والتي أعقبها إرسال فرنسا 6 آلاف جندي بدعوى قيامها بدورها كحامية للسكان المسيحيين. ومن جديد كان هذا النجاح عابرًا، حيث أعادت الحكومة العثمانية تأكيد سيطرتها، وظل النفوذ الفرنسي غير رسمي حتى لاحت الفرصة للقيام بعمل جريء باندلاع الحرب العالمية الأولى[44]. وبدلًا من ذلك، تقدمت المصالح الفرنسية من خلال تأكيد ثقافي وديني على تعزيز اللغة الفرنسية و«رسالتها الحضارية»، بالإضافة إلى مسؤولية فرنسا عن حماية الكاثوليك في فلسطين وكذلك الموارنة في لبنان[45].

ومن ثم اتخذت أنماط التغلغل الخارجي صورًا متعددة، داخل المناطق وفيما بينها على السواء. وحددت طبيعة النفوذ الاستعماري ومداه هياكل الحكومة والمؤسسات الاستخراجية التي تطورت. وقد مهد تضمين فرنسا مستعمراتها في هياكل العاصمة الطريق أمام التحويلات المباشرة للموارد العسكرية والعمالية من المستعمرات إلى فرنسا أثناء الحرب، لغرض القتال والعمل في المصانع على حد سواء[46]. ففيما بين عامَيْ 1914 و1918، أُرسل إلى فرنسا نحو 450 ألف جندي بالإضافة إلى 135 ألف عامل مصنع، وأغلبهم من شمال أفريقيا الفرنسي[47]. فتونس وحدها أرسلت 80 ألف فرد إلى الجيش الفرنسي وتكبّدت على الجبهة الغربية خسائر في الأرواح تزيد على 20 ألف فرد، بينما كان هناك 30 ألف تونسي آخرون يعملون في المناجم والمصانع والمزارع في فرنسا، مما فرّغ العمال الفرنسيين للانضمام إلى القوات المسلحة[48]. واختلف هذا الضلوع المباشر في الحرب اختلافًا لافتًا للنظر عن تعبئة

موارد بريطانيا الاستعمارية خارج أوروبا، حيث ظلت القواسم المكانية والهرمية أصلب من هذا بكثير.

كذلك هيأت الأطماع الفرنسية في الشام المسؤولين للاستفادة من اندلاع الحرب مع الإمبراطورية العثمانية، وبلورت المطالب الإقليمية التي ستجعل الجهود الفرنسية التي استمرت على مدى أجيال كي تتوطد دعائمها حقيقة واقعة. وأثبتت تنافسات القوى الكبرى، الواقعية منها والمتصورة والخليط بين الاثنتيْن كما في أزمة أغادير المغربية في عام 1911، بالتالي أنها مرتكزات مهمة لوضع السياسيات في الشرق الأوسط. ففي حالة بريطانيا، مارست توليفة من الاعتبارات الاستراتيجية والتجارية، المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحماية الطريق إلى الهند، تأثيرًا حاسمًا على انتشار السيطرة الإمبريالية التي يغلب عليها الطابع غير المباشر في الشرق الأوسط، على الرغم من أن التنافسات الاستراتيجية والتجارية مع فرنسا (وفيما بعد ذلك مع ألمانيا) كانت محركات أخرى للسياسات. فصارت الهند «جوهرة تاج الإمبراطورية البريطانية»، وتطلبت تخطيطًا استراتيجيًا للدفاع عن جنبيها الشرقي والغربي في قوس ممتد من شرق أفريقيا إلى شبه الجزيرة العربية وحتى جنوب شرق آسيا[49]. وقد كانت الموارد البشرية والعسكرية الهندية محورية لتنمية الإمبراطورية البريطانية، جزئيًا من خلال توفير أيد عاملة إلزامية وتجار على مستوى صغير. ومع ذلك، فإن الجيش الهندي هو الذي كان يمثل الأساس الذي قام عليه أمن الهند وكان يضمن استقرار التجارة والاستثمار في الإمبراطورية[50].

وأثناء القرن التاسع عشر، ربطت ديناميات الأمن الإمبراطوري اقتصاد الهند السياسي بالتطورات الاستراتيجية في الشرق الأوسط وأفريقيا فضلًا عن آسيا، فتطور «نظام دون إمبريالي» إنجليزي هندي على مدى «قرن من التجارة والدبلوماسية» حبس الهند في نطاق حمائي شاسع من الدول والكيانات الموالية لبريطانيا، إذ كانت تعي في البداية وجود تهديد محتمل من تحرك روسي صوب الجنوب عبر أفغانستان أو إلى الخليج العربي. وتحقق هذا في معظم الأحوال من خلال التدخل

العسكري لتأمين أهداف بريطانية وهندية، وأثبت الجيش الهندي أنه أداة فعالة في سياق قوة الحملات الاستعمارية محدودة التبعة في القرن التاسع عشر. وهكذا تدخّل الجيش الهندي في الصين (عام 1860) وفي الحبشة (عام 1868) وفي بِراق (عامي 1875 - 1976) وفي بلوشستان (عامي 1876 - 1879) وفي مالطة وقبرص (عام 1878) وفي أفغانستان (عام 1878) وفي مصر (عام 1882) وفي بورما (عام 1886) وفي نياسا (عام 1893) وفي مومباسا وأوغندا (عام 1896) وفي السودان (عام 1885 وأعوام 1896 - 1898)[51]. وكان دوره في ضمان أمن المحيط الإنجليزي الهندي تطورًا مهمًا آذن بتجربة الجيش الهندي في الحربيْن العالميتيْن في القرن العشرين.

وفي أعقاب القصوريْن العملياتي واللوجستي اللذيْن كشف عنهما المجهود الذي استمر عامًا لإخماد الانتفاضة الحدودية في تيراه في عامي 1897 – 1898، خضع الجيش الهندي لبرنامج تحديث تدريجي تحت إشراف اللورد كتشنر ودوغلاس هايغ. وتُوّج هذا البرنامج بوضع هايغ خططًا سريّة في عام 1911 لإرسال «قوة حملة هندية» إلى أوروبا في حالة اندلاع حرب عامة في القارة. ومع ذلك، فقد شكّل الاقتصاد السياسي الحر والضرائب الطفيفة قيودًا سياسية ومالية قوية عرقلت تطور مجمع عسكري صناعي في الهند وما يرتبط بذلك من قدرة الهند على تنظيم الموارد واستخراجها في أزمنة الحرب[52]. كما شكّلت الذكريات البريطانية عن ردة الفعل العكسية إزاء محاولة سابقة منها للتغلغل بشكل أعمق في المجتمع الريفي في عاميْ 1857 – 1858 قيودا مماثلة، وكان الإرث الذي تركه التمرد الهندي الكبير عبارة عن نهج محافظ في الحكم وتأكيد على التعاون مع جماعات تُختار بعناية داخل المجتمع الهندي. وأثبتت هذه القيود أنها عوامل تضييق كبيرة في المرحلة الافتتاحية من الحرب العالمية الأولى مع اضطلاع الجيش الهندي بدوره المنوط به منذ زمن طويل بصفته «فرقة الإطفاء الإمبراطورية» بإرسال قوات إلى بلاد الرافدين وشرق أفريقيا وعدن بالإضافة إلى مصر. ومع ذلك، أخفق المسؤولون الحذرون في اتخاذ خطوات للضغط بشدة بالغة على المجتمع الهندي للتعبئة من أجل المجهود الحربي، فكانت النتائج كارثية في بلاد الرافدين في عام 1916[53].

لقد كانت الهند أحد مراكز الثقل لسياسة الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط. وكان المركز الآخر مصر، وقد أمّن هذا المركز طريق المرور خلال البحر المتوسط وقناة السويس إلى البحر الأحمر والهند. وهنا أيضًا تطوّر اقتصاد سيطرة استعمارية سياسي معين في العقود التي سبقت الحرب فأثّر تأثيرًا مباشرًا على طبيعة قوة الحملات أثناء هذه الحرب. فكما هو الحال في أجزاء أخرى من الدولة العثمانية، ترك التحديث الجزئي للدولة وإدماجها التدريجي في النظام التجاري العالمي أثناء القرن التاسع عشر إرثًا قوامه قصور التحول نحو الإنتاج الصناعي وثقل المديونية التي بلغت ذروتها في إفلاس الدولة في 1876 - 1877. وتلا هذا تدخل خارجي كان في البداية على هيئة نظام رقابة ثنائية إنجليزي فرنسي للوصول إلى تسوية مالية وإدارة سداد الدين المصري[54]. وتصاعد السخط المحلي على فرض رقابة خارجية أشد إحكامًا إلى مشاعر مناهضة للأوروبيين فبلغ ذروته في ثورة عرابي في عام 1881. وكان يقود هذه الانتفاضة العسكرية أربعة ضباط مصريين برتبة عقيد، وقد رفعت شعار «مصر للمصريين» في تجلٍّ قومي وليد للغضب من الاجتياح الأجنبي. وقد تمكنت الانتفاضة من حشد دعم عابر للطبقات الاجتماعية من الفئات الريفية والحضرية على حد سواء قبل أن تتعرض للهزيمة على أيدي قوات الخديوي بدعم من الإنجليز في أعقاب أعمال الشغب المعادية للأوروبيين التي وقعت في الإسكندرية في يونيو 1882 والمخاوف من احتمال أن يترتب على علوّ النزعة القومية في مصر التوقف عن سدادها ديونها للدائنين الأوروبيين[55].

وشهدت العقود التي تلت إرسال السفن الحربية البريطانية (مؤقتًا) إلى الإسكندرية تطور نموذج حكم استعماري «إنجليزي مصري» خاص. استند هذا النظام إلى مبادئ ثلاثة هي حرية التجارة وقلة الضرائب ومحدودية دور الحكومة. كما تبنى المسؤولون البريطانيون أيضًا موقفًا بان زيفه يومًا بعد يوم وهو أن الاحتلال ما هو إلا احتلال مؤقت، لكن بعد عام 1892 أيقنت وزارة الخارجية في لندن أن الانسحاب أمر مستبعد، وبدأ النفوذ البريطاني يتسع على نطاق أكبر[56]. وبحلول عام 1914، كان المستشارون ومساعدو المفتشين البريطانيون قد تخللوا المستويات العليا من الحكومة المصرية

مسلحين بتفويضات لتحديث ما دعاه أحد الإمبراطوريين القياديين، وهو ألفريد ملنر (وهو الذي سك أيضا مفهوم «المحمية المقنّعة»)، سوء الإدارة المخيف تحت الحكم الخديوي[57]. وفيما بين عامي 1882 و1914، كانت السياسة البريطانية في مصر تهدف إلى خدمة مصالح لندن التجارية والاستراتيجية وتأمين تعاون سياسي محلي كاف لتجنب فرض الحكم المباشر. وتطلب هذا توازنًا دقيقًا صعبًا، حيث أدت الإصلاحات التي اتُّخذت لاستعادة استقرار مصر السياسي والمالي العام، للمفارقة، إلى ترسيخ النفوذ البريطاني من خلال المزيد من تدفق المسؤولين الذين حلوا تدريجيًا محل طبقة الموظفين البيروقراطيين المصريين[58].

غير أن الملمح الأساسي من ملامح الاقتصاد السياسي للإمبراطورية البريطانية، في الهند وفي مصر على حد سواء، كان يكمن في حجمها الرسمي الصغير واعتمادها على شبكات من العملاء المتعاونين المحليين. فقد ظل النفوذ البريطاني في المكانيْن صغيرًا جدًا، حيث بلغ العدد في مصر ما بين 300 و400 موظف مدني وما بين 4 آلاف و5 آلاف جندي، بالإضافة إلى طائفة تجارية صغيرة تضم خبراء زراعيين ورجال أعمال. وكان وجودهم مقصورا في أغلب الأحوال على المناطق الحضرية ولم يمتد إلى أرياف مصر التي ظل 68 في المائة من سكانها يشتغلون بالزراعة. وفي الأحوال التي حدث فيها اتصال (غير مباشر) بين أرياف مصر والاحتلال، كان ذلك من خلال سياسات الاحتلال الزراعية التي كانت استمرارًا لسياسية خديويات مصر فيما قبل عام 1882 المتمثلة في دمج مصر في الاقتصاد الدولي من خلال إنتاج القطن كمحصول نقدي قائم على التصدير[59]. فجُلب مهندسو ري من الهند فحولوا الزراعة المصرية إلى نشاط يمارس على مدار العام. وصارت زراعة القطن مربحة بشدة فتراجعت زراعة المواد الغذائية حتى أوشكت مصر على أن تتحول إلى اقتصاد محصول واحد يعتمد على الأغذية المستوردة لسد النقص في الإمدادات المحلية[60].

وفرض اقتصاد الإمبراطورية البريطانية السياسي في مصر والهند هيكل الوقائع التي تلت نشوب القتال في الشرق الأوسط في خريف 1914، حيث تبين في

بادئ الأمر أن الاقتصاديين التجاريين والحكم غير المتغلغل بعمق في كلا البلدين غير ملائمين -حتى مع الحصول على دعم لوجستي- لتنظيم واستخراج موارد القوة البشرية والحيوانية اللازمة لاستدامة حملات عسكرية واسعة النطاق. وفي كلتا الحالتين، تطلب الأمر تجربة تنفيسية تمثلت في صدمات عسكرية لحشد ما يلزم من دعم سياسي لتغلغل مباشر وسلطوي بدرجة أكبر في الأنماط الاجتماعية الاقتصادية المحلية لتحويل الموارد إلى المجهود الحربي. وأفضى هذا إلى مرحلة غير متوقعة ومُخلّة (لكن في النهاية مؤقتة) في عملية وضع السياسات الإمبريالية التي عادت فيما بعد إلى تفضيلها الحكم غير المباشر من خلال نخب متعاونة بعد عام 1922. وعلى الرغم من ذلك، سلط مسار الحملات الضوء على القيمة الدائمة للشبكات التي أقامتها بريطانيا خارج أوروبا لدعم الراج الهندي قبل عام 1914. ووجّهت هذه الروابط نقل الموارد البشرية والمادية إلى بريطانيا ومنها وفيما بين مختلف مناطق الصراع في الشرق الأوسط على حد سواء. وتيسرت هذه الروابط وقامت على القيمة الاستراتيجية لقناة السويس بوصفها «شريان الإمبراطورية» الحيوي وحماية الطريق إلى الهند والمستعمرات الجنوبية[61].

وقد اتخذ هذا النظام أجلى صورة له في شبه الجزيرة العربية والخليج العربي. فكان المخططون المدنيون والعسكريون في الهند يعتبرون المنطقة جنبًا حيويًا على الطريق البحري إلى الهند، وأبقوا أعينهم مفتوحة ترقبًا لأي بوادر منافسة روسية أو ألمانية على النفوذ. وفي عام 1903، دفع الحرص على التفوق البريطاني وزير الخارجية البريطاني اللورد لاندسداون إلى إعلان «ما يشبه مبدأ مونرو للخليج العربي» والتحذير من أن بريطانيا تعتبر إقدام أي قوة أخرى على إقامة قاعدة بحرية أو ميناء حصين بمثابة «تهديد خطير» لمصالحها[62]. وكان هذا يعكس إنشاء بريطانيا المتأني نظامًا دون إمبريالي في الخليج العربي على مدى القرن السابق الذي بدأ بمعاهدة عامة تحرّم القرصنة البحرية في عام 1820 وتطور إلى التوافق على العلاقات التعاهدية الحمائية بين حكومة الهند والمشيخات العربية الصغيرة: إمارات الساحل المتصالح (عام 1835) والبحرين (عام 1861) والكويت (عامي 1899

و1914) وقطـر (عـام 1916)[63].

وإلـى الشـمال، اتسـعت المصالـح البريطانيـة والهنديـة بانتظـام طـوال النصـف الثانـي مـن القـرن التاسـع عشـر، وإن كان بشـكل غيـر رسـمي. فاسـتفادت الشـركات البريطانيـة والهنديـة مـن الإصلاحـات الإداريـة التـي نفذتها الدولـة العثمانية والتحسـينات التـي أدخلتها علـى وسـائل النقـل والاتصـال المذكـورة آنفًـا. واكتسـبت شـركات الشـحن البريطانيـة حـق الملاحـة فـي أنهـار الولايـات العثمانيـة فـي بـلاد الرافديـن فـي عـام 1846، وبحلـول عـام 1911 كانـت بريطانيـا والهنـد (البريطانيـة) أهـم شـريكيْن تجارييْـن للبصـرة[64]. وجـاءت وسـيلة أخـرى لتوسـيع النفـوذ البريطانـي فـي بـلاد الرافديـن مـن خـلال المشـاركة فـي مشـروعات الـري والزراعـة الكبيـرة، وأمـا اكتشـاف النفـط فـي الخليـج العربـي المجـاور فـي عـام 1908 فأضفـى المزيـد مـن القيمـة الاسـتراتيجية والتجاريـة المتصـورة علـى المنطقـة. فقـد اشـتبه المسـؤولون البريطانيـون فـي وجـود احتياطيـات نفطيـة كبيـرة حـول الموصـل، علـى الرغـم مـن أنـه لـن تحـدث اكتشـافات مؤكـدة حتـى عـام 1927[65]. وفـي عـام 1914، اقتنـت الحكومـة البريطانيـة حصـة أغلبيـة فـي شـركة النفـط الإنجليزيـة العربيـة، وبالتالـي أمنّـت للقـوات البحريـة إمـدادًا منتظمًـا مـن النفـط لسـفنها، ممـا قلـل اعتمـاد بريطانيـا علـى مصـادر النفـط غيـر التابعـة للإمبراطوريـة فـي الولايـات المتحـدة وروسـيا والمكسـيك ورومانيـا، لكنـه أضفـى ديناميـة جديـدة قويـة علـى اعتبـارات وضـع سياسـات بـلاد الرافدين فـي عشـية الحـرب[66].

وكان فـرض بريطانيـا نفـوذًا أكبـر فـي الخليـج العربـي مدفوعًـا برغبـة منهـا فـي التصدي لمـا تتصـوره مـن تحـركات ألمانيـة أو روسـية جريئـة، وذلـك مثلمـا كُيفـت السياسـة البريطانيـة فـي أفريقيـا والبحـر المتوسـط تكييفًـا دقيقًـا مـع المكائـد الفرنسـية المفترضـة. وتلاشـت تصـورات وجـود تهديـد روسـي يواجـه المصالـح البريطانيـة بعـد توقيـع الاتفـاق الإنجليـزي الروسـي فـي عـام 1907، وصـارت مـن بعـده ألمانيـا هـي الشـغل الشـاغل. وقـد اسـتيقظت الشـكوك البريطانيـة فـي البدايـة علـى التحـركات الألمانيـة فـي مجالـيْ السـكك الحديديـة والتجـارة. ففـي عـام 1903، منحـت الدولـة العثمانيـة شـركة سـكك حديـد

الأناضول الألمانية امتيازًا لإقامة خط حديدي يمتد من قونية في الأناضول إلى الخليج العربي، وتابعت وزارة الخارجية البريطانية بعين القلق سير العمل في هذا الخط شرقًا. وبعد عام 1910، أثار احتمال تمديد الخط الحديدي إلى شواطئ الخليج العربي تكهنات قلقة حول النقطة التي سينتهي عندها هذا الخط، فضلًا عن زيادة الوعي بالأهمية الاستراتيجية لبلاد الرافدين ومنطقة شمال الخليج. وأتاح هذا فرصًا للزعماء العرب المحليين، وبالأخص الشيخ مبارك بن صباح الصباح، لاستغلال هذه الرِّيَب لضرب القوى الأوروبية إحداها بالأخرى لتعظيم المكسب المحلي والقدرة التفاوضية[67].

ثمة شاغل بريطاني إضافي تجاه الأهداف الألمانية كان يتعلق بحجم تجارتها مع شبه الجزيرة العربية وأنشطة بعض وكلائها في الخليج العربي. ففي 1912 - 1913، تجاوز عدد الطرود التي نقلتها شركة هامبورغ-أمريكا لاين (الألمانية) للشحن من أوروبا إلى البصرة، للمرة الأولى، إجمالي ما نقله منافسوها البريطانيون مجتمعين. وثار مزيد من القلق بسبب نشاط فلهلم فاسموس، القنصل الألماني في مدينة بوشهر الفارسية المهمة (والتي كانت أيضًا مقر المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي). فقد زعم فاسموس في رسالة بعث بها إلى برلين في ديسمبر 1913 أن المقيم السياسي البريطاني المنتهية خدمته في بوشهر، وهو السير بيرسي كوكس، «يخشى أي نفوذ اقتصادي قد تحصّل عليه ألمانيا في الخليج». وأضاف أن كوكس «رأى أن طموحه الرامي إلى جعل الخليج بحرًا بريطانيًا حكرًا على بريطانيا يتعرض للخطر مع كل حِمل سفينة من شعير وكل طن من أكسيد يصدّره الألمان»[68]. وثمة شخصية ألمانية أخرى بارزة أثارت هواجس بريطانيا، وهي البارون ماكس فون أوبنهايم الذي تسببت أسفاره في شبه الجزيرة العربية وتقاريره الموسّعة حول السياسة العربية التي أرسلها إلى وزارة الخارجية الألمانية شعورًا كبيرًا بالفزع في لندن من نبرته المعادية لبريطانيا وتأييده تمردًا إسلاميًا في المستعمرات المسلمة الخاضعة لبريطانيا، ولا سيما في حالة أي حرب مع الدولة العثمانية[69].

وكان كل مـن جـون لوريمـر، بديـل كوكـس المقيـم السياسـي (بالإنابـة)، وسـتيوارت نوكـس، القنصـل العـام بالإنابـة فـي فـارس، يؤمـن بـأن السياسـة التجاريـة الألمانيـة تقـوم فـي حقيقتهـا علـى، وتتأثـر بفعـل، دوافـع سياسـية تهـدف إلـى تحـدي هيمنـة بريطانيـا الإقليميـة التـي يُعتبـر «الحفـاظ عليهـا ضروريًـا للحفـاظ علـى مصالحهـا فـي الهنـد». وقـد اتضـح القلـق البريطانـي الرسـمي إزاء توجهـات السياسـة الألمانيـة فـي الخليـج العربـي فيمـا بعـد، فـي أبريـل 1914، عندمـا رفضـت وزارة الخارجيـة البريطانيـة طلبًـا ألمانيًـا لتمديـد كابـل فـي الخليـج العربـي ليكـون جـزءًا مـن الربـط التلغرافـي المباشـر بيـن ألمانيا والصيـن[70]. وهكـذا، بحلـول الوقـت الـذي اندلعـت فيـه شـرارة الصـراع فـي عـام 1914، كان «التهديـد» الألمانـي المفتـرض فـي مواجهـة مصالـح بريطانيـا الشـرق أوسـطية قـد حـل باسـتحكام محـل التحـدي الروسـي المتصـور السـابق فـي مواجهـة أمـن الإمبراطوريـة، وهـو الـذي كان سـائدًا قبـل ذلـك فـي الذهنيـة الرسـمية قبـل التوقيـع علـى الاتفـاق الإنجليـزي الروسـي لسـنة 1907.

وكان المسـؤولون البريطانيـون علـى درايـة تامـة بمنافسـة ألمانيـا المتناميـة فـي الشـرق الأوسـط، ويشـعرون بقلـق متزايـد حيالهـا. وتجلّـت طموحـات ألمانيـا العالميـة بعـد تسـعينات القـرن التاسـع عشـر فـي اتخاذهـا مسـتعمرات رسـمية فـي شـرق أفريقيـا وغربهـا وجنـوب غربهـا وفـي المحيـط الهـادئ؛ فضـلًا عـن إسـقاطها نفـوذًا شـبه مسـيطر علـى الآلـة العسـكرية العثمانيـة. وكانـت الروابـط التـي تجمـع بيـن ألمانيـا والجيـش العثمانـي تعـود إلـى عـدة أجيـال سـبقت، عندمـا عُيّـن هلمـوت فـون مولتكـه (الأكبـر) لتحديـث الجيـش الـذي تولـى قيادتـه فيمـا بعـد فـي الحملـة الأناضوليـة ضـد والـي مصـر محمـد علـي فـي عـام 1838. وفـي ثمانينـات القـرن التاسـع عشـر، لجـأ الحـكام العثمانيـون مـن جديـد إلـى المسـاعدة الألمانيـة فـي إعـادة تنظيـم القـوات المسـلحة، حيـث قضـى البـارون كولمـار فـون ديـر غولتـس اثنتـيْ عشـرة سـنة (بيـن عامـي 1883 و1895) فـي القسـطنطينية. وكان ذلـك الإرث مـن النفـوذ العملـي والفكـري علـى الجيـش العثمانـي يعنـي أن تعييـن ليمـان فـون سـاندرز رئيسًـا للبعثـة العسـكرية الألمانيـة فـي عـام 1913 يمثّـل اسـتمرارية عضويـة لعلاقـة قائمـة منـذ زمـن بعيـد. كمـا انتشـر تأثيـر ألمانيـا غيـر الرسـمي مـن خـلال إلحـاق

ضباط عثمانيين كبار (من ضمنهم شوكت باشا) بالجيش الألماني في مستهل حياتهم العسكرية[71].

ولقد استأثر منح ألمانيا امتياز سكة حديد بغداد في عام 1903، وما تلا ذلك من إنشاء (متعثر) للخط الحديدي، بخيال منافسي ألمانيا على النفوذ الإقليمي في الشرق الأوسط وأثار مخاوفهم. كما كان هذا الخط أيضًا موضوع عمل كبير نشر حديثًا تحت عنوان: «قطار برلين بغداد السريع: محاولة الدولة العثمانية وألمانيا كسب النفوذ العالمي» The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power. وامتزج هذا الخط جزئيًّا بعقيدة «درانغ ناخ أوستن» (الزحف صوب الشرق)، على الرغم من أن المسؤولين البريطانيين تحديدًا كانوا يخشون أنه يشكل تهديدًا مباشرًا لمصالحهم التجارية والاستراتيجية في الخليج العربي، وحقول النفط المكتشفة حديثًا في المنطقة، والطريق إلى الهند[72]. ولم يكن الخط الحديدي قد اكتمل بحلول عام 1914 إذ كانت سلسلة جبال طوروس في جنوب شرق تركيا تقف عقبة كأداء أمامه، وعندما اندلعت الحرب كان يفصل نهاية الخط الحديدي عن بغداد نحو 500 كيلومتر. علاوة على ذلك، تسبب هذا الخط في احتكاك بين المسؤولين الألمان والعثمانيين الذين رأوا أن الخط لا يلبي حاجاتهم العسكرية، مما يعكس أساسه الاقتصادي والمالي (لا الجغرافي السياسي)[73]. ومع هذا، فدلالته كانت تكمن في تأثيره على المشككين البريطانيين في الدوافع والأهداف الألمانية تجاه الدولة العثمانية، على الرغم من أن المحاولات البريطانية الرامية إلى إبعاد الباب العالي عن التأثير الألماني كانت ضعيفة بيّنة الضعف ولم تفلح.

كما تجلى النفوذ الألماني في الدولة العثمانية أيضًا في صور أخرى أقل بروزًا، وإنْ كان يقال إنها أكثر دلالة. فقد قام القيصر فلهلم الثاني بزيارة إلى القسطنطينية في عام 1889، ثم مرة أخرى في عام 1898، حيث زار أيضًا بيت المقدس ودمشق وبيروت في مظاهر من الأبهة الشديدة. علاوة على ذلك، حيى القيصر في كلمة

ألقاها في دمشق في نوفمبر 1898 السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بصفته خليفة المسلمين في كل أنحاء العالم، في إساءة مباشرة للطوائف الإسلامية الواقعة تحت حكم الإمبراطوريات البريطانية والفرنسية والروسية في الهند ومصر وشمال أفريقيا والقوقاز وما وراءها[74]. وفي ظل اعتماد السيطرة الاستعمارية البريطانية، على وجه الخصوص، على إسقاط القوة أكثر من اعتمادها على النشر الضخم لأدوات القهر، كانت أي محاولة لتقويض ركائز الحكم الإمبراطوري المتآزرة تشكّل تحديات خطيرة للمصالح البريطانية. وبلغ هذا التهديد ذروته في نهاية المطاف في إقامة حلف بين الدولة العثمانية وألمانيا في 2 أغسطس 1914، مع انضمام إمبراطورية النمسا والمجر إليهما بعد ذلك بثلاثة أيام، وإعلان الباب العالي الجهاد الإسلامي في 14 نوفمبر 1914، حيث حضّ المسلمين في كل أنحاء العالم على قتال بريطانيا وفرنسا وحلفائهما[75].

ظهور الهويات الوطنية بحلول 1914

لم يحدث إسقاط السيطرة الأوروبية وتشديدها على أجزاء كبيرة من الشرق الأوسط في جو من الفراغ، بل حدث ذلك جنبًا إلى جنب مع تيارات فكرية قوية بدأت تعيد صياغة مفاهيم الانتماء وتصبها في قوالب هويات وطنية وليدة. ونشأت هذه التيارات نشأة متزامنةواعتمدت كل واحدة منها في بقائها على الأخرى في عملية تفاعل جدليةبين أفكار ومثُل متعارضة وواقع السلطة الخارجية المتكشف للعيان. وقد وثّق سي. إيه. بايلي كيف كان بزوغ المشاعر الوطنية ظاهرة عالمية لا منتجًا صدّرته أوروبا، وأن أواصر القومية بدأت تظهر بشكل متزامن في أواخر القرن التاسع عشر في أجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا والأمريكتيْن. وهذا يعكس، في جزء منه، ما يسميه «مفارقة العولمة» حيث أسفر ترسيخ حدود «الدول الأمم» والإمبراطوريات بعد عام 1860 عن طرق جديدة للتنظيم الاجتماعي والاتصال اعتمدت في أغلب الأحوال على التاريخ والذكريات الوطنية لتتمتع بالجاذبية[76].

وكانت هناك عمليات عديدة تكمن وراء ظهور صور جديدة من الهوية، في

الشرق الأوسط وفي غيره من الأماكن. وتضمنت هذه العمليات نمو رأسمالية الطباعة وبروز طبقة جديدة من المثقفين، جزئيًا نتيجة المبادرات التعليمية الفرنسية في شمال أفريقيا و(بالأخص) في الشام. كما كان النشاط التبشيري الأمريكي أيضًا مهمًا في توسيع التعليم في الشام، وكان محوريًا في إنشاء الكلية السورية البروتستانتية (صارت فيما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت) في عام 1866. وبحلول سبعينات ذلك القرن، صارت اللغة الفرنسية لغة التجارة والنخب الحضرية، فيما صارت القاهرة وبيروت مركزيْن إقليمييْن للنشر، حيث تولت الصحف والدوريات نشر المعرفة الحديثة والأفكار الجديدة. وكانت النتيجة الطبيعية لهذا ظهور الصحافة السياسية وربط التوعية السياسية بالتنمية الاجتماعية، ولا سيما في مصر قبل الاحتلال البريطاني في عام 1882 وبعده على حد سواء[77].

وقد تزعمت طبقة المثقفين المتسعة والمطابع التي تطبع باللهجة العامية، بدورهما، انتشار وعي قومي عربي ونهضة فكرية. كانت هذه النهضة حركة واسعة اشتملت على مفكرين إسلاميين مجددين وأنصار هوية وطنية ضيقة في آن واحد. ومن بين الفئة الأولى، برز جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بوصفهما «المجددين الإسلاميين» القيادييْن المنكبّيْن على إعادة تفسير الإسلام لجعله يتوافق مع الطرق الحديثة في تنظيم المجتمع والدولة مع بقائهما على إخلاصهما لدينهما[78]. وكان لكتاباتهما تأثير باق في العالم العربي، لكن بداية من أواخر القرن التاسع عشر بدأت أيضًا نزعات قومية أكثر خصوصية تطرح صورة مختلفة من التعبئة الاجتماعية السياسية. ففي مصر، أسفر التغلغل الغربي عن استجابة قوية تراوحت بين شعار تمرد عرابي سنة 1882 «مصر للمصريين» وبين الحنق المحلي الذي أثارته حادثة دنشواي في عام 1906 التي آذنت بنقطة التحول في المواقف المصرية تجاه الاحتلال العسكري البريطاني، وعلو نجم القومي المصري مصطفى كامل، مؤسس الحزب الوطني، قبل موته في عام 1909 بفترة وجيزة[79]. وفي ليبيا المجاورة، لعب قومي مصري شاب يدعى عبد الرحمن عزام (صار فيما بعد أول أمين عام لجامعة الدول العربية فيما بين عامي 1945 و1952) دورًا مهمًا في صياغة المُثل القومية

العربيـة ونشـرها داخـل صفـوف المقاومـة الليبيـة ضـد الاحتـلال الإيطالـي، وهـو الـدور الـذي تُـوج فـي عـام 1918 بإقامـة الجمهوريـة الطرابلسـية التـي لـم يكتـب لهـا البقـاء طويـلًا[80].

ويبرهـن مشـوار عـزام الطويـل، وتحولـه مـن قومـي مصـري إلـى داعيـة طليعـي لمُثـل الوحـدة العربيـة، علـى سـيولة مفاهيـم الهويـة المبكـرة والانتمـاءات المتعـددة. وكان صعـود مشـاعر الوحـدة الإسـلامية والمشـاعر القوميـة العربيـة فـي أراضـي الدولـة فـي بعـض الأوقـات متوافقًـا مـع بقيـة ارتبـاطٍ بالقوميـة العثمانيـة. وكمـا يوضـح بايلـي، اسـتطاع القوميـون المصريـون أن يَبقـوا وطنييـن عثمانييـن علـى غـرار كثيريـن فـي مسـتعمرات بريطانيـا البيضـاء ممـن ظلـوا علـى ولائهـم للصلـة البريطانيـة حتـى بعدمـا بـرزت هويـات إقليميـة متمايـزة فـي أسـتراليا ونيوزيلنـدا وكنـدا[81]. وفـي هـذا الصـدد، خلـق انهيـار الدولـة العثمانيـة فـي أعقـاب خسـارة كثيـر مـن طوائفهـا الأوروبيـة المسـيحية، ومـا تـلا ذلـك مـن انكفـاء حركـة تركيـا الفتـاة علـى الـذات بعـد ثـورة 1908، الظـروف الملائمـة لنمـو فكـرة أمـة تركيـة ويسّـر ظهـور اسـتجابة قوميـة عربيـة فـي ولاياتهـا العربيـة. وقـد غيّـر ظهـور القوميـة التركيـة وميـول الوحـدة العربيـة المركـز التقليـدي للـولاء السياسـي فـي الدولـة العثمانيـة تغييـرًا جذريًـا، وذلـك بطـرق صـارت باديـة تمامًـا فـي الصراعـات الإقليميـة أثنـاء الحـرب العالميـة الأولـى وبُعيدهـا مباشـرة[82].

ويُبـرز هـذا، تحويـل محـور التركيـز إلـى المسـتوى الدقيـق مـن المجتمـع، مختلـف الأسـاليب والاختيـارات التـي اسـتوعب بهـا الأفـراد والمجتمعـات المحليـة وشـكلوا عمليـات التغييـر الكبـرى المبينـة فيمـا سـبق. وقـد ركـزت الأدبيـات الحديثـة علـى دور المسـؤولين الغربييـن، وخصوصًـا البريطانييـن والأمريكييـن، فـي تقريـر شـكل المنطقـة علـى نحـو مـا نـراه اليـوم. فركّـز أحـد هـذه الكتـب، وهـو الـذي نُشـر في عـام 2008 تحـت عنوان مسـتفز: «صنـاع الملـوك: اختـراع الشـرق الأوسـط» *Kingmakers: The Invention of the Modern Middle East*، تركيـزًا حصريًـا علـى عشـر شـخصيات بريطانيـة وثـلاثٍ أمريكيـة «كانـوا محورييـن فـي بنـاء الأمـم وتحديـد الحـدود واختيـار الحـكام المحلييـن أو المسـاعدة علـى

اختيارهم». وتضمنت القائمة شخصيات مألوفة، مثل تي. إي. لورنس، وغيرترود بل، والسير مارك سايكس، بالإضافة إلى الشخصيتيْن المتأخرتيْن كيرميت روزفلت وبول وولفويتز[83]. وقد لعب هؤلاء المسؤولون أدوارًا مهمة في إنشاء الدول الاستعمارية والهياكل ما بعد الاستعمارية التي ما زال صداها يدوّي إلى يومنا هذا. ومع ذلك، يجب ألا يحجب عنا هؤلاء الدور المهم بالقدر نفسه الذي لعبه الوكلاء المحليون في تشكيل الواقع على الأرض، بعيدًا غالبًا عن أنظار «العقلية الرسمية» للإمبراطورية.

أتاح تقلّب التنافسات بين القوى العظمى للزعماء المحليين درجة من المناورة في استغلال هذه الشواغل المتعلقة بتوازن القوى لصالحهم الشخصي، على الرغم من أن معظم القرارات المهمة التي كانت تؤثر على السياسة المحلية والاقتصاد المحلي والمجتمع في الشرق الأوسط ظل يُتخذ بمعرفة أطراف فاعلة استعمارية خارجية. ومع ذلك، فداخل هذا الإطار العام كانت توجد فرص للوكلاء المحليين ليكون لهم تأثير، وخصوصًا في المناطق الواقعة على أطراف الإمبراطورية كما في شبه الجزيرة العربية، حيث أظهر العديد من الحكام الشيوخ براعة كبيرة في استغلال المخاوف العثمانية والبريطانية من وجود الآخر. وقد مورست هذه السياسة الواقعية البراغماتية كأنجح ما يكون على يد حكام الكويت (الشيخ مبارك الصباح، 1896 - 1915) وقطر (الشيخ جاسم آل ثاني، 1878 - 1913)، فضلًا عن عبد العزيز بن سعود في فتحه التدريجي لوسط شبه الجزيرة العربية بعد عام 1902[84]. وهنا لعب استدعاء الدعم الخارجي (البريطاني)، مدفوعًا جزئيًا باندلاع الحرب والرغبة في الحصول على حليف محلي في الحرب ضد العثمانيين في عام 1915، دورًا حاسمًا في تمكين التوسّع السعودي على حساب سلالة آل رشيد المنافسة التي أيّدت العثمانيين[85].

وإلى الشمال مباشرة من شبه الجزيرة العربية، وتحديدًا في البصرة في عام 1913، قاد أحد الأعيان المحليين الأقوياء، وهو السيد طالب النقيب، حركة سعت إلى حشد الدعم الشعبي من أجل المزيد من الاستقلال الذاتي عن الحكم العثماني واستبقاء جميع الضرائب التي تجمع من الولاية للاستخدام المحلي. وقد فصّل نائب

القنصل الأمريكي في بغداد مدى ما كان يتمتع به السيد طالب، الذي كان ينتمي إلى أهم عائلة في البصرة، من نفوذ وحرية في التصرف، حيث نوّه قائلًا:

ما زال السيد طالب... يمارس سلطة يكاد لا ينازعه فيها أحد على تلك المناطق، وأما السلطات الحكومية العثمانية الرسمية فهي عمليًا بلا نفوذ ومحكوم عليها بالخمول المطلق والمخزي بالنظر إلى مكانته الشخصية المترفعة...

ولكن حدثت في مارس 1914 مصالحة جزئية بين السيد طالب ووالي البصرة العثماني إلى درجة أنه بحلول يوليو من ذلك العام استطاع السيد طالب إقناع السلطات العثمانية في البصرة بحمل السلاح بالنيابة عنه ضد أكبر منافس محلي له، وهم شيوخ اتحاد قبائل وعشائر المنتفِق[86]. وأنبأت الطبيعة العابرة لائتلاف السيد طالب مع أطراف فاعلة خارجية (فيما بعد بريطانية، لكن مؤقتًا) بسيولة التحالفات القبلية التي خرجت إلى النور ما إن اندلعت الأعمال العدائية في نوفمبر 1914. فأثناء الحرب، أبدى زعماء العشائر في بلاد الرافدين حساسية فائقة تجاه التغيرات في علاقات القوة المحلية ومصدر النفوذ الاقتصادي والسياسي، وغالبًا ما كانوا يبدلون ولاءاتهم مع تغير حظوظ الجانبين في المعركة[87]. فكانت اعتبارات المكاسب الشخصية والقبلية، لا الإحاطة بوعي سياسي قومي، في البداية أعظم دلالة في تشكيل ما يتقرر من اختيارات. وإن كان هذا الوضع قد بدأ يتغير بعد عام 1917 مع ظهور خطاب قومي في الاستجابة للأحداث الخارجية، وتحديدًا إعلان بريطانيا عن نيتها البقاء في بلاد الرافدين وإعلان الرئيس الأمريكي وودرو ولسون عن «النقاط الأربعة عشرة» في يناير 1918 التي تضمنت مبدأ حق تقرير المصير الوطني[88].

وقد اتخذت المواءمات المحلية صورًا مختلفة في أماكن أخرى، وتحديدًا في المناطق التي كانت السلطة المركزية فيها أشد استحكامًا، حيث أذعن السّاسة المصريون لإعلان عسكري أصدرته بريطانيا في نوفمبر 1914 تعهدت فيه بألا يشارك مصري في الدفاع عن مصر، وقدموا دعمًا تعاونيًا في أعقاب إعلان لندن الحماية على مصر في ديسمبر. لكن هذه القرارات أحدثت تحولًا في العلاقة السياسية الإنجليزية

المصريـة، وبثـت بـذور المـرارة والقلاقـل التـي تحوّلـت إلـى عنـف فـي عـام 1919. وكانـت بنـود الحمايـة علـى مصـر والإعـلان العسـكري مبهمـة وعرضـة لسـوء التفسـير مـن جانـب الجاليـة البريطانيـة فـي مصـر التـي رحبـت بهـذه التدابيـر، والمصرييـن الذيـن اعتبروهـا تدابيـر طارئـة اتخـذت فـي زمـن الحـرب فـي انتظـار التسـوية النهائيـة لوضـع مصـر المسـتقبلي. والحقيقـة أن بيرسـيفال إلغـود، الـذي خـدم فـي وزارات الحربيـة والداخليـة والماليـة أثنـاء مشـواره المهنـي الطويـل فـي مصـر، نـوّه فيمـا بعـد (فـي عشـرينات القـرن العشـرين) إلـى أن الحمايـة «كانـت تلمـح إلـى الكثيـر وتعِـد بالقليـل»، وأن الإعـلان العسـكري «مـا كان ينبغـي إصـداره قـط» بمـا أنـه «لـم تكـن هنـاك اسـتخبارات بشـرية فـي نوفمبـر 1914 يمكنهـا أن تتنبـأ بتطـور الحـرب، أو بمـا إذا كانـت المسـاعدة المصريـة سـتصير ضروريـة لنجـاح العمليـات العسـكرية»[89].

ولا شـك أن القوميين فـي لبنـان وسـوريا قـد اعتمـدوا علـى تطورات القرن التاسـع عشـر الثقافيـة والتعليميـة لخلـق مشـهد أدبـي وسياسـي نابـض بالحيـاة أثنـاء السـنوات الأخيـرة مـن الحكـم العثمانـي. وكان كثيـر منهـم سـبق أن شـارك فـي أول مؤتمـر عربـي عُقـد فـي باريـس فـي يونيـو 1913 وتبنـى قـرارات تطالـب بمزيـد مـن الاسـتقلال الذاتـي داخـل الدولـة العثمانيـة، وكذلـك بجعـل اللغـة العربيـة لغـة رسـمية فـي الولايـات العربيـة التابعـة للدولـة العثمانيـة. وقـد شـكّل هـؤلاء طليعـة حركـة قوميـة عربيـة وليـدة تسـعى إلـى إقامـة سـوريا كبـرى فـي المنطقـة التـي تضـم الآن سـوريا ولبنـان. وفـي أعقـاب اكتشـاف خطـط هـؤلاء الناشـطين فـي وثائـق صـودرت مـن القنصليتيْـن الفرنسـيتيْن فـي بيـروت ودمشـق، شُـنقت مجموعتـان كبيرتـان منهـم فـي المدينتيْـن فـي أغسـطس 1915 ومايـو 1916. وإلـى يومنـا هـذا، يُحتفـى بذكـرى واقعتـي شـنقهم بعطلـة رسـمية (عيـد الشـهداء الموافـق 6 مايـو) وبتسـمية السـاحتيْن اللتيْـن نُفـذ فيهمـا الإعـدام فـي كلتـا المدينتيْـن باسـم سـاحة الشـهداء[90].

الشرق الأوسط على شفير الحرب

لـم تتـورط الدولـة العثمانيـة فـورًا فـي الحـرب الأوروبيـة فـي أعقـاب انـدلاع الصـراع

فـي أغسـطس 1914، غيـر أن مـا حـدث فعـلًا أنهـا أبرمـت تحالفًـا ملزمًـا مـع ألمانيـا يـوم 2 أغسـطس، وهـو اليـوم التالـي لغـزو ألمانيـا روسـيا واليـوم السـابق لإعلانهـا الحـرب علـى فرنسـا. ونتجـت هـذه الاتفاقيـة إلـى حـد كبيـر عـن ضغـوط نمسـاوية لربـط البـاب العالـي فـي الحلـف الثلاثـي مـن أجـل السـيطرة علـى الطموحـات العثمانيـة فـي دول البلقـان. وعلـى الرغـم مـن تأييـد أغلبيـةٍ مـن أعضـاء الحكومـة العثمانيـة البقـاء علـى الحيـاد فـي البدايـة، تمكنـت الدكتاتوريـة الثلاثيـة المؤلفـة مـن الصـدر الأعظـم سـعيد حليم باشـا ووزير الداخليـة طلعـت بـك ووزيـر الحربيـة أنـور باشـا مـن إقنـاع الحكومـة بتأييـد التحالـف مـع ألمانيـا بحجـة أن هـذا يتيـح بعـض الحمايـة مـن التهديـد الروسـي وإمكانيـة كسـب أراض جديـدة فـي شـمال أفريقيـا والقوقـاز. وسـرعان مـا تـلا هـذا القـرار تولـي ألمانيـا السـيطرة علـى البحريـة العثمانيـة فـي 15 أغسـطس[91].

وعلـى الرغـم مـن أن البـاب العالـي لـم يدخـل الحـرب الأوروبيـة حتـى أواخـر أكتوبـر، فـإن العلاقـات مـع دول الوفـاق الثلاثـي (بريطانيـا وفرنسـا وروسـيا) سـاءت بسـرعة بعـد منـح الطراديْـن الألمانييْـن «غوبيـن» و«بريسـلاو» مـلاذًا فـي القسـطنطينية مـن السـفن البريطانيـة التـي كانـت تطاردهمـا فـي البحـر المتوسـط. وتأجـج العـداء بيـن العثمانييـن وبريطانيـا أكثـر بفعـل قـرار مـن القـوات البحريـة البريطانيـة بالاسـتيلاء علـى بارجتيْـن كانتـا قيـد الإنشـاء لصالـح البحريـة العثمانيـة فـي سـاحتيْ سـفن بريطانيتيْـن. وفـي 1 أكتوبـر تـورط العثمانيـون أكثـر فـي الصـراع الـذي لـم يكـن معلنًـا بعـد حتـى ذلـك الحيـن بإغلاقهـم مضيـق الدردنيـل أمـام الملاحـة التجاريـة البريطانيـة والإمبراطوريـة، فقضـوا بذلـك علـى نصـف تجـارة الصـادرات الروسـية كاملـة. وكان الباعـث علـى إعـلان الحـرب شـن العثمانييـن ضربـات بحريـة اسـتباقية ضـد مينائـيْ أوديسـا وسيفاسـتوبول الروسـييْن علـى البحـر الأسـود فـي 29 أكتوبـر. فأعلنـت روسـيا الحـرب علـى الدولـة العثمانيـة فـي 2 نوفمبـر، تلتهـا بريطانيـا وفرنسـا فـي 5 مـن الشـهر ذاتـه، لتعلـن الدولـة العثمانيـة الجهـاد فـي 14 نوفمبـر[92].

وسـوف نتنـاول مسـار الحمـلات العسـكرية فـي الشـرق الأوسـط باسـتفاضة فـي

الفصول التالية. لكننا نود أن نؤكد هنا أن تغيّر الحظوظ العسكرية للأطراف المتقاتلة خلق فرصًا لإعادة صياغة الحدود السياسية ومجالات النفوذ التجاري. فعاودت روسيا دخول الشرق الأوسط حيث كان معظم النشاط العسكري الهجومي العثماني في اتجاهيْ الشمال والشرق مدفوعًا بمشاعر «الوحدة الطورانية» لدى أتباع تركيا الفتاة ورغبة في تحقيق مكاسب في جنوب القوقاز. وعلى الرغم من أن تركيز معظم التأريخات العسكرية المكتوبة باللغة الإنجليزية للحملات الإقليمية اتجه نحو القتال في غاليبولي وبلاد الرافدين وفلسطين، فإن الآلة العسكرية العثمانية استُنزفت إلى حد كبير على الجبهة الروسية[93]. وقد أبرز هذا الإنهاك تجددُ الأطماع التوسعية في القوقاز في أعقاب خروج روسيا من الحرب في 1917، مما أضعف بشدة مقاومة العثمانيين للتحركات البريطانية (والفرنسية) السريعة عبر بلاد الرافدين والشام في عام 1918[94].

علاوة على ذلك، عقّدت طبيعة المتحاربين الإمبرياليين متعددة الجنسيات سير الحملات، وهيأت السياق للمذابح وعمليات التشريد القسري لطوائف بأكملها في السنوات التي تلت ذلك. وتجلى هذا واضحًا بصورة خاصة في المسرح الروسي العثماني، حيث كان المسلمون يشكّلون أكبر أقلية في روسيا والمسيحيون أكبر أقلية في الدولة العثمانية، وكانت هذه «الصورة المقلوبة» السبب في معاناة لا حد لها وفي سهولة التضحية بمن لا ذنب لهم على كلا جانبيْ القاسم الإمبريالي-الديني. كما اصطبغ التجنيد في كلا الجيشيْن الروسي والعثماني قُبيل الحرب وأثناءها بصبغة هذا المشهد الإثني، حيث ظل غير المسلمين في الدولة العثمانية مستثنين من الخدمة في القوات المسلحة طوال فترة تحديث هياكل الحكم.(والهياكل العسكرية) في القرن التاسع عشر، ولم يتغير هذا الوضع إلا بعد وصول اتحاد «تركيا الفتاة» إلى الحكم وبدء إصلاحٍ شاملٍ للقوات المسلحة بتقليل الإعفاءات من أجل توسيع قاعدة التجنيد، وبالتالي عُدل قانون الخدمة العسكرية الإلزامية في يوليو 1909، حيث وُسع التجنيد ليشمل طلاب الكليات الدينية فضلًا عن اليهود والنصارى، فوافق زعماء الطوائف اليونانية والبلغارية والسورية والأرمينية على ذلك من حيث المبدأ لكن

جادلوا بضرورة أن يخدم أبناء طوائفهم في وحدات منفصلة، وفي حالة البلغاريين أن يتم نشرهم في الولايات العثمانية الأوروبية خاصة. ولما عارض القادة العسكريون العثمانيون هذا المقترح، تدبَّر الشباب النصارى من الذكور الحصول على جوازات سفر أجنبية أو هاجروا لتفادي الخدمة العسكرية، وأما أبناء الطوائف المشكوك في «ولائها» (اليونانيون والأرمن في المقام الأول) فقد وُجهوا إلى وحدات الأيدي العاملة[95]. وكان الجيش الروسي أيضًا متعدد الإثنيات يقوم على التجنيد الإلزامي بالجملة، وكان «مشهورًا بانعدام كفاءته وبافتقاره إلى سلك احترافي من ضباط الصف». كما كان أغلبية جنود الجيش الروسي، على نحو أشبه بالجنود العثمانيين، فلاحين جُندوا من القرى المتناثرة في عموم الإمبراطورية، ولم يكن كثير منهم يتحدث بالروسية أو لا يتحدث بها إلا قليلًا[96].

وبداية من عام 1914، اجتمع انتهاءُ عمليات الاستعمار الكبرى والتنافسُ على النفوذ الإقليمي لصياغة معلمات الحملات العسكرية التي تلت ذلك. فخلقت مسارات ما قبل الحرب التي سارت فيها الإمبريالية الرسمية وغير الرسمية وأنماط التغلغل الخارجي نماذج تنظيم سياسي متمايزة أثّرت على إدارة الحملات في أول الأمر وطرق التعبئة. واختلفت هذه المسارات اختلافًا كبيرًا بين المستعمرات البريطانية والفرنسية والعثمانية، لكن في الفئات الثلاثة جميعها شهدت سنوات الحرب توسُّعًا غير مسبوق في عرض سيطرة الدولة وعمقها وشحذ مؤسساتها الاستخراجية. وقد نوه ستيفن هايدمان إلى الكيفية التي أعاد بها التعرض لحرب واسعة النطاق والمشاركة فيها تهيئة الهياكل المؤسسية وقدرات الدولة مع تأثيره في الوقت نفسه تأثيرًا عميقًا على العلاقات بين الدولة والمجتمع وأساليب الحكم[97]. وتبحث الفصول المتبقية من هذا الكتاب الأبعاد المتعددة للصراعات في الشرق الأوسط أثناء الحرب، ونستهلها بدراسة الحملات ذاتها دراسة مفصَّلة.

الفصل الثاني

الحملات العسكرية في الشرق الأوسط

كانت الحرب العالمية الأولى صراعًا عالميًا، إذ سرعان ما تدوّل القتال الذي اشتعل فتيله في جنوب شرقي أوروبا في نهاية يوليو 1914 وانتشر إلى ربوع الكرة الأرضية كافة، حتى جرّت شبكات الاتفاقيات العسكرية والدبلوماسية أرجل قوى إقليمية غير أوروبية مثل اليابان (بعد أبريل 1917) والولايات المتحدة. وفي هذه الأثناء، صارت المستعمرات الإمبراطوريةالتابعة للمتحاربين الأوروبيين مناطق صراع كبير ومواضع تنافس على السيطرة على الموارد الاستراتيجية والوصول إلى الطرق في كل أرجاء المعمورة. وعلى الرغم من أن الحملات التي جُرّدت خارج أوروبا كانت أصغر في حجمها من الهجمات الهائلة على الجبهتين الغربية والشرقية، فإنه كان لها، مع ذلك، تأثير عظيم على المجتمعات المضيفة ذات الصلة بهذه الحملات، وحدث هذا فيما تصادمت المطالب اللوجستية للحرب ذات الطابع الصناعي مع الأرض التي يغلب عليها الطابع ما قبل الصناعي والتي دارت عليها رحى القتال.

ويبيّن هذا الفصل بعض المعلمات السياقية التي أثّرت على الحملات العسكرية التي جُرّدت في الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى، وهو يقودنا إلى الباب التالي المؤلف من أربعة فصول تقدّم سردًا مفصّلًا للحملات العسكرية التي جُرّدت في الشرق الأوسط، بما في ذلك في الدردنيل ومصر وفلسطين وبلاد الرافدين، بالإضافة إلى سلسلة من المعارك بين الجيشيْن العثماني والروسي في القوقاز، وقتال على نطاق أصغر، لكن في الوقت نفسه مهم في بلاد فارس. فقد تواصلت الحملات العسكرية على هذه المسارح المتنوعة طوال مدة الحرب، بل واستمرت-نحو يوم واحد في بلاد الرافدين- إلى ما بعد إعلان الهدنة في نوفمبر 1918. وهو يتجاوز محور التركيز الضيق على التاريخ العسكري لكي يضع هذه الحملات في سياقها في

المسار الأوسع للحرب العالمية الأولى واتجاهها الاستراتيجي، ويدمجها في عمليات التغيير السياسي والتحول الاقتصادي والجيَشان الاجتماعي التي أصابت المتحاربين كلهم بطرق مختلفة.

وينصب التركيز في هذا الفصل الذي يتناول سياق الحرب على العدد الهائل من التحديات اللوجستية والإدارية والإيكولوجية التي واجهت الحملات العسكرية في الشرق الأوسط الذي كان يتحتّم الإتيان بغالبية الموارد إليه ونقلها باستخدام أيد عاملة بشرية عبر مسافات طويلة تخلو عادة من وسائل النقل أو البنية التحتية للطرق. وهو يقودنا إلى الباب الثاني من هذا الكتاب الذي يشتمل على أربعة فصول تختط مسار الحملات بالتفصيل وتبين أثر الحرب الحديثة شبه التام على المجتمعات المضيفة والمجتمعات المحلية. وهي في مجموعها تهيئ الساحة لفصول الباب الثالث التي تستقصي المضامين السياسية والاقتصادية والمجتمعية المحلية فضلًا عن تأثير الحملات على المجتمعات المضيفة. علاوة على ذلك، يصف هذا الفصل أيضًا كيف صار دور الهند جزءًا أصيلًا من حملات الشرق الأوسط باعتبارها المركز الإداري واللوجستي للمجهود الحربي البريطاني في الشرق الأوسط، مما مهد الطريق أمام الراج لتصبح الضامن الأمني للمنطقة بعد عام 1919.

عادة ما تُبحث الحملات العسكرية التي جُردت في الشرق الأوسط كل واحدة على حده بمعزل عن دراسات المناطق والتخصصات العلمية من قبيل السياسة المقارنة أو العلاقات الدولية، رغم أن القتال اشتمل على كميات هائلة من القوة البشرية وقوة الدواب على كلا الجانبيْن، وشوّه أنماط التنظيم السياسي والنشاط الاجتماعي والاقتصادي القائمة أشد التشويه. وقد تصادف أن وقعت كل تلك الحملات -باستثناء حملة فلسطين- في المناطق الواقعة جغرافيًا على أطراف الدولة العثمانية حيث كانت البنية التحتية للنقل والطرق في أضعف حالاتها، مما وضع أعباء إضافية كبيرة على كل المشاركين في الحرب وعلى المجتمعات التي دارت رحى تلك المعارك للاستيلاء عليها لتنظيم واستخراج الموارد اللازمة لشن الحرب واستدامتها.

كما كانت لنتائج هذه الحملات أيضًا تداعيات جغرافية سياسية عميقة على الإمبراطوريات الخمسة الضالعة فيها وعلى النظام الإقليمي الذي خرج من رحم تسوية ما بعد الحرب. وعلى الرغم من هذا فإن الأدبيات الحالية تفتقر إلى تأريخ عام للشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى يؤكد على التشابكات العديدة - العسكرية منها واللوجستية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وغيرها من الروابط الفكرية الأخرى الأقرب إلى غير الملموسة منها إلى الملموسة- التي ربطت مختلف مناطق القتال بعضها مع بعض (ومن الأمثلة المتطرفة على هذا الأمر ذلك التأريخ القصير للحرب العالمية الأولى الذي نُشر ضمن سلسلة دراسات سيمينارية في التاريخ *Seminar Studies in History* والذي يهدف إلى توفير «مقدمة مختصرة موثوقة لأحداث ونقاشات معقدة»، فقد تجوهلت فيه الحملات التي جردت خارج أوروبا بالكلية، وكانت الصفحات الثلاثة التي تتناول غاليبولي هي الإشارة الوحيدة التي تضمّنها العمل إلى اندلاع قتال من أي نوع فيما وراء الجبهات الأوروبية)[1].

وبالتالي يركّز وصف الحملات العسكرية الوارد في هذا الفصل على العامليْن الإداري واللوجستي الحاسميْن لمحصلتها، ويركّز بالقدر نفسه على تطور الاستراتيجية والتكتيكات. وهو يبحث الروابط بين الحملات العسكرية التي جُرّدت في الشرق الأوسط والتطورات الاستراتيجية الأوسع، ويقيّم إلى أي مدى كانت هذه الحملات محورية (أو هامشية) لواضعي السياسات في عواصم الإمبراطوريات. فقد أجهدت تلبية متطلبات الحملات العسكرية اللوجستية قدرات الشحن الضئيلة أشد الإجهاد، فتطورت شبكة من مصادر إمداد من خارج أوروبا لتلبيتها. ولم تقلّ عن ذلك أهمية أبعاد الصراع الإيكولوجية، ولا سيما في التضاريس القاسية التي جرى فوقها معظم القتال. وهنا نجد أن غياب الطرق أو السكك الحديدية نسبيًا عظّم مصاعب إمداد القوات العسكرية وتموينها ونقلها واستدامتها، وأبرزَ التحديات التي تواجه تعبئة الموارد المحلية واستخراجها من مجتمعات مضيفة كانت مفقَرة من قبل.

بالإضافة إلى ذلك، تقاطَع تعرُّض المجتمعات للحملات العسكرية التي جُرّدت في

الشرق الأوسط ومشاركتُها فيها مع قوى خارجية قوية، وهي ضعف الإمبراطوريتيْن العثمانية والروسية واحتدام التنافس بين الرؤى المتضاربة حول التنظيم المستقبلي للمنطقة لدى البريطانيين والفرنسيين والقوميين المحليين. وفيما تفاعلت عمليات التغيير هذه مع بعضها بعضًا، خلقت المعلمات الكبرى التي أعادت في النهاية صياغة هيكل الشرق الأوسط السياسي. علاوة على ذلك، فإن معالم ضرورات التعبئة زمن الحرب عمّقت انتشار الدولة ومطالبها الاستخراجية ووسعتهما. وحقيقة أن الدول ذات الصلة كانت في الدرجة الأولى من زرع الاستعمار أضافت طبقة معقّدة أخرى إلى تأثير الحرب على المجتمع. ومع أننا نتناول هذا بتفصيل أكبر في الفصول اللاحقة، كان لا بد أن نضعه في اعتبارنا عند النظر في تأثير الحملات العسكرية وما تركته من إرث.

يبحث هذا الفصل، وهو الذي يستهل بنظرة عامة على الصعوبات المادية واللوجستية التي واجهت الحملات العسكرية على المسارح المختلفة في الشرق الأوسط، التحديات التي تواجه شن عمليات عسكرية معقدة في بيئة مضيفة غير ودودة. وتركز المباحث الفردية في هذا الفصل على جوانب الحرب الإيكولوجية، وبُعديْها اللوجستي والإداري، والعبء الذي أثقلت به كاهل الموارد المحلية المتمثلة في القوة البشرية والدواب. وينتهي الفصل بمبحث يفصّل دور الهند في العمل كقاعدة تنظيمية وقاعدة موارد للغزوتيْن العسكريتيْن البريطانيتيْن الكبيرتيْن لبلاد الرافدين وفلسطين، مما يهيئ السياق للفصل التالي الذي يستقصي كل صراع على حده في الشرق الأوسط أثناء الحرب: القوقاز، ومصر والصحراء الغربية، ومضيق الدردنيل، وفلسطين، وبلاد الرافدين، وبلاد فارس. ومن واقع التحليل السالف يبرز لنا عدد من الموضوعات الجامعة، ومنها أهمية الاستفادة من الموارد المحلية لرفع القيود على الإمداد والتموين التي يشكّلها القصور في إمكانيات الشحن، وإنشاء صور أكثر سلطوية من سيطرة الدولة اللازمة لتعبئة هذه الموارد واستخراجها، والطرق التي بدأت تعيد بها تجربة الصراع صياغة العلاقات بين الدول والمجتمعات في عموم المنطقة.

تحديات الحملات في الشرق الأوسط

تعقّد شن الحرب على مسارح الشرق الأوسط بفعل الكثير من التحديات التي كان أبرزها الفجوة بين شراهة الطلب من جانب الجيوش الحديثة وتدني مستويات الموارد القائمة المتاحة للمخططين العسكريين بل والمدنيين. وترتبت على هذا، في المراحل الأولية من الحملات العسكرية، ضرورة جلب المؤن والإمدادات كافة من الخارج بما أنه لم يكن هناك إلا القليل جدًّا مما يمكن الحصول عليه محليًّا[2]. كما ترتبت عليه أيضًا الحاجة إلى إقامة توازن مضطرب بين الطلب المدني والعسكري على الموارد المحلية الشحيحة، وخصوصًا لأن تقسيم الشرق الأوسط إلى مناطق حرب تسبب في قطع طرق التجارة وتعطيل المناطق الاقتصادية الداخلية القائمة. وقد عظّمت هذه العوامل بشدّة العبء الواقع على الشبكات اللوجستية التي كانت تربط الوحدات العسكرية بمستودعات قواعدها، وغالبًا ما كان ذلك يتم عبر خطوط مواصلات عُرضة للخطر تمتد لمسافات مئات الأميال. كما ازداد هذا العبء أيضًا بفعل الندرة النسبية في الطرق والسكك الحديدية في الشرق الأوسط، وتركُّز موارد الدولة العثمانية الصناعية المحدودة في الآستانةومحيطها، أي على بُعد مئات الكيلومترات من جبهات القتال في شرقها وجنوب شرقها. وهناك قيود مماثلة واجهت الجيشيْن الروسي والبريطاني العاملين بعيدًا عن قواعدهما اللوجستية التي كانت في حالة الجيش الأخير موجودة على بعد أكثر من 2500 كيلومتر في الهند ريثما أمكن تحقيق استغلال كبير للموارد المحلية في المناطق التي وقعت تحت الاحتلال في فلسطين وبلاد الرافدين[3].

وبالتأكيد على بُعديْ الصراع اللوجستي والعملياتي المتشابكيْن يتسنى إدراك تكرارية انهيار هذه الحلقة الحاسمة من السلسلة. وقد ضمّن رئيس الوزراء البريطاني إبّان الحرب ديفيد لويد جورج كتابه «مذكرات الحرب» *War Memoirs* وصفًا نابضًا بالحياة للأسلوب الذي قدّم به دوغلاس هايغ، قائد قوة الحملة البريطانية على الجبهة الغربية بين عامي 1915 و1918، إحاطة بمستجدات خطط مهاجمة الألمان في

إيبر البلجيكية إلى اجتماع عقدته لجنة سياسات الحرب في يونيو 1917، والذي جاء فيه: «مستخدمًا يديه بطريقة مسرحية ليبيّن كيف اقترح اكتساح العدو، إذْ مرت اليد اليمنى في البداية مرورًا جارفًا على السطح، ثم جاءت اليسرى، حيث مس إصبعه الخارجي في نهاية المطاف الحدود الألمانية فيما كان ظفره على الناحية الأخرى من هذه الحدود»[4]. وعلى الرغم من تنميق هذا الوصف بأثر رجعي ليتناسب مع أهداف لويد جورج خدمةً لمصالحه المكتسبة، فإن الوصف يوضح فعلًا ميل السّاسة والجنرالات إلى الاستهانة بالتحديات التي على الأرض وواقع الحملات العسكرية، أو فعل ما هو أسوأ بتجاهلها، ولا سيما في تضاريس الشرق الأوسط الأشد صعوبة وتباينًا. كما واجه المخططون المدنيون والعسكريون بالإضافة إلى ذلك منحنى تعلم حادًا في خضم كفاحهم لتكييف المتطلبات الجديدة، وغير المألوفة غالبًا، للحرب واسعة النطاق مع الظروف الخاصة التي أحاطت بالحملات الشرق أوسطية.

المناخ والإيكولوجيا

لعبت العوامل المناخية والإيكولوجية دورًا حاسمًا في تقرير نجاح أو فشل العمليات العسكرية في الشرق الأوسط، حيث نتج عن تدني هامش الكفاف ومحدودية كمية البنية التحتية المادية كالطرق أو السكك الحديدية أو القدرة الصناعية أن صارت مرتبطة ارتباطًا تكافليًا بالقدرات اللوجستية والعملياتية. وعلى الرغم من هذا، كانت هذه العوامل تهمَل بانتظام في تخطيط الحملات وتنفيذها، وكثيرًا ما أُغفلت دلالتها في الدراسات التي أُعدت فيما بعد. وثمة مثال بارز على ذلك يعود إلى فترة مبكرة، وهو كتاب نشر في نوفمبر 1917 بعنوان «الطبوغرافيا والاستراتيجية في الحرب» *Topography and Strategy in War* يمضي فيه مؤلفه ليشرح «العلاقة المثيرة للاهتمام بين الطبيعة عديمة الحياة وعلم الحرب» حيث إن «الدور الذي لعبته أشكال الأرض في خطط الحملات وحركة الجيوش لا يقل أهمية اليوم عنه في الماضي». ومع ذلك، ركز الكتاب حصريًا على الجبهات الأوروبية متجاهلًا الشرق الأوسط والمسارح غير الأوروبية كافة تمام التجاهل[5].

في القوقاز، جسّدت المنطقة الواقعة حول ساريقاميش، وهي التي شهدت معظم القتال الأوليّ في 1914 - 1915، هذيْن التحدييْن الإيكولوجييْن كما كانت أيضًا نموذجًا لعدم أخذ هذه التحديات بعين الاعتبار بشكل كاف عند تخطيط العمليات العسكرية. فقد كانت منطقة العمليات الواقعة طبوغرافيًا في واد محصور بين سلسلتيْ جبال شاهقتيْن نائية عن الطرق والسكك الحديدية وخطوط المواصلات الأخرى. زد على ذلك أنها كانت عُرضة لطقس شتوي شديدة القسوة، مع تساقط الجليد بغزارة وانخفاض درجات الحرارة إلى ما دون 30 درجة مئوية. ومع ذلك، اندلع قتال واسع النطاق بين الجيشيْن الروسي والعثماني في أواخر نوفمبر 1914 واستمر حتى مطلع يناير 1915، حيث عثرت القوات الروسية الزاحفة على 30 ألف جثة متجمدة في ساريقاميش وما حولها فقط خلال هذه الفترة. وينوه المؤرخ العسكري البريطاني الكبير للحرب العالمية الأولى، هيو ستراكان، مصيبًا إلى أن «عامليْ التضاريس والطقس والفشل في التخطيط لهما هما اللذان حطّما الجيش الثالث التركي، لا قتال الروس»[6].

وفي أماكن أخرى تجلت قضايا مماثلة بطرق مختلفة. ففي التضاريس التي تغلب عليها الصحراء في بلاد الرافدين ومصر، برزت الصعوبات المناخية في الدرجة الأولى من الحرارة المتطرفة لا من البرودة المتطرفة، على الرغم من أن برودة الأحوال الجوية إلى حد التجمد شكّلت عقبة في تلال يهودا أثناء الزحف عبر فلسطين إلى القدس في ديسمبر 1917. وفي بلاد الرافدين، بدأ زحف القوات البريطانية والإمبراطورية من البصرة في اتجاه الشمال نحو بغداد في أبريل 1915 واستمر طوال قيظ الصيف. وبالمثل في مصر، فإن زحف القوات من قناة السويس صوب الشرق عبر شبه جزيرة سيناء إلى فلسطين في عام 1916 لم يبدأ بداية جادة إلا في يونيو مع حدوث مناوشة كبيرة مع القوات العثمانية في معركة رمانة في أغسطس. وقد تضمن خطاب مرسل إلى الديار من ضابط بريطاني في سلاح الهجانة المصري وصفًا نابضًا بالحياة لآثار مسيرة تمت أثناء حر النهار في سيناء في يوليو 1916: «غالبية الإنجليز والعشرات من السكان المحليين أصيبوا بضربة شمس ومات

كثيـرون منهـم، رجـالٌ وإبـلٌ علـى السـواء... كان مشـهدًا يدعـو إلـى الرثـاء، مـرأى النـاس والجمـال يخـرون فاقـدي الوعـي مـن العطـش والحـرارة والتعـب، فيخرجـون مـن التشـكيل أو يمشـون متثاقليـن علـى غيـر هـدى»[7]. وفيمـا بعـد، اتخـذت هـذه الصعـاب شـكلًا جديـدًا حيـث فرضـت الانتكاسـات العملياتيـة فـي كلتـا الحملتيْـن مـكان وزمـان الحمـلات الأخـرى لبعـض الوقـت. وكان هـذا أشـد وضوحًـا فـي المحـاولات الثـلاث التـي جـرت بقيـادة بريطانيـا لتحريـر حاميتهـا المحاصـرة فـي كـوت العمـارة ببـلاد الرافديـن بيـن ينايـر وأبريـل 1916.

وكانـت المشـكلات المتعلقـة بطبيعـة الأرض عامـل تعقيـد إضافيًـا فـي حملتـيْ مصـر وبـلاد الرافديـن بسـبب الافتقـار شـبه التـام إلـى البنيـة التحتيـة فـي الصحـراء. ففـي مصـر، أبعـد الزحـف عبـر شـبه جزيـرة سـيناء قـوة الحملـة المصريـة عـن قنـاة السـويس ومـا يرتبـط بهـا مـن خطـوط مواصـلات وخطـوط إمـداد. وشـكّلت التربـة الصحراويـة الرخـوة الرمليـة تحديًـا خاصًـا حيـث تبيـن فـي بـادئ الأمـر اسـتحالة اجتيازهـا بالمركبـات المدولبـة مـا لـم تُركّـب كتـل خشـبية مخصوصـة فـي دواليبهـا[8]. فنتـج عـن هـذا اعتمـاد كامـل علـى النقـل بالجمـال لأغـراض الإمـداد والتمويـن والاحتفـاظ بالمراكـز المتقدمـة فـي شـبه جزيـرة سـيناء قبـل الفـراغ مـن إنشـاء السـكة الحديديـة الصحراويـة الممتـدة مـن قاعـدة القنـاة فـي القنطـرة إلـى بلـدة العريـش الحدوديـة فـي فبرايـر 1917. وقـد امتـد هـذا الاعتمـاد علـى الإبـل إلـى إمـدادات الميـاه حيـث كانـت مصـادر الميـاه المحليـة شـبه منعدمـة شـرق ذلـك الموقـع عنـد قاطيـة علـى بعـد 28 ميـلًا فقـط مـن قنـاة السـويس، وغيـر كافيـة بالمـرة لقـوة كبيـرة مـن أي نـوع[9].

علـى النقيـض مـن ذلـك، اتبـع خـط الزحـف فـي بـلاد الرافديـن مسـاريْ نهـريْ الفـرات ودجلـة اللذيـن أتاحـا طريـق التغلغـل الوحيـد للقـوات الغازيـة التـي تقودهـا بريطانيـا. لكـن العمليـات المبكـرة التـي شـنتها قـوة حملـة الرافديـن قُيِّـدت بشـدة بفعـل قلـة المعلومـات المتاحـة فـي الهنـد (القاعـدة العملياتيـة والإداريـة للحملـة حتـى عـام 1916) حـول حالـة النهريْـن الهيدرولوجيـة والملاحيـة. حيـث فوجـئ المخططـون البريطانيـون

والهنود عندما تبينت لهم ضحالة الفرات إلى درجة تجعله غير صالح للملاحة أمام الزوارق العسكرية. وأما فيما يخص نهر دجلة فلم يدركوا إلا متأخرًا أن «أسلوب الملاحة ونوع القوارب المطلوبين فريدان من نوعهما تمامًا ويختلفان عن أي شيء مستخدم في المجاري المائية الداخلية في الهند»[10].

لقد تقاطَع المناخ وطبيعة الأرض في مناسبات عدة أثناء الحملات. فنهرا دجلة والفرات كانا يشهدان تفاوتات موسمية قوية في العمق وقوة التيار، فكان ذوبان الجليد في أعالي النهرين يتسبب في فيضانات واسعة في الربيع، لكن حرارة الصيف كانت تؤدي إلى انخفاض منسوب المياه في النهرين إلى ما بين 4 و5 أقدام فقط في الخريف، مما وضع قيودًا كبيرة على التحركات الاستراتيجية والتكتيكية والعملياتية طوال عام 1915 وأوائل عام 1916. وقد صوّر مسؤول بريطاني متمركز في البصرة حجم المشكلة تصويرًا نابضًا بالحياة في معرض وصفه كيف حوّل الفيضان السنوي في الربيع التربة الغرينية إلى «نوع شديد اللزوجة من الوحل... تعلق فيه السيارات والعربات التي تجرها الدواب بسرعة، وتنزلق فيه الخيل والإبل في كل اتجاه»[11].

وعلى العكس من ذلك حدث الزحف في اتجاه أعالي النهر صوب بغداد في عام 1915 بين شهريْ سبتمبر ونوفمبر، وذلك عندما كانت مياه دجلة في أدنى مستوياتها وأبعد ما تكون عن ملاءمة القوارب النهرية التي كانت توفر الخط اللوجستي الأولي إلى قواعد الإمداد والتموين الكائنة في البصرة. وفي أوائل عام 1916، لعبت الأحوال الجوية المعاكسة دورًا مباشرًا في العمليات الثلاثة التي شُنت لفك حصار الحامية البريطانية الهندية في كوت العمارة، حيث أمْلت طبيعة الموقف العاجلة شن العمليات دونما اعتبار للظروف المناخية أو الإيكولوجية. وبالتالي جرت عمليات فك الحصار أثناء ذروة الفيضانات الربيعية، وواجهت المزيد من العراقيل بفعل الأمطار الغزيرة. وفي هذا السياق، كتب شاهد العيان البريطاني الرسمي على حملة بلاد الرافدين، وهو إدموند كاندلر، يقول إنه بعد فشل المحاولة الأولى التي جرت في يناير 1916 «هبت رياح صرصر بينما رقد الجرحى في برك من الأمطار والمستنقعات

التـي غمرتهـا ميـاه الفيضـان طـوال الليـل، فغـرق بعضهـم ومـات البعـض الآخـر نتيجـة تعرضـه لهـذه الأجـواء». وفيمـا بعـد، وتحديـدًا فـي أبريـل 1916، جـرت المحاولـة الثالثـة فـي ظـروف كانـت فيهـا «الميـاه نظيفـة فـي مواجهـة جبهتنـا وبعمـق سـت بوصـات، بالإضافـة إلـى سـت بوصـات أخـرى مـن الوحـل... وكان خـط الخنـادق الثانـي تغمـره الميـاه حتـى مسـتوى الركبـة، ومـن خلفنـا كانـت توجـد شـبكة مـن المخابـئ والحفـر التـي كنـا نغطـس بعمـق فـي مياههـا»[12].

وقـد ارتكبـت القـوات البريطانيـة أخطـاء أخـرى فـي التقديـر فيمـا يخـص العامليْـن المناخـي والإيكولوجـي فـي فلسـطين فـي عامـي 1917 - 1918. وكان معنـى إعـادة التنظيـم اللوجسـتي والإداري ألا يبـدأ الزحـف شـمالًا مـن غـزة نحـو القـدس قبـل 31 أكتوبـر 1917، وقـد ترتـب علـى ذلـك التأخـر أن عانـى الجنـود وأفـراد الدعـم ودواب النقـل أشـد المعانـاة مـن الأمطـار شـديدة البـرودة والأحـوال الجويـة الشـتوية أثنـاء اجتيازهـم تـلال يهـودا فـي شـهريْ نوفمبـر وديسـمبر. وكاد الطقـس المريـع أن يعطـل الزحـف حيـث صـارت السـكك الحديديـة والطـرق غيـر سـالكة، وسـقط كثيـر مـن الرجـال والـدواب ضحيـة التعـرُّض للعوامـل الجويـة ولسـعة الصقيـع. وتفاقمـت هـذه الأوضـاع بفعـل افتقـار الجنـود والعمـال إلـى أغطيـة مناسـبة أو ملابـس شـتوية ملائمـة. وقـد اسـتغرب مراقـب معاصـر مـن أن وحـدات العمـل المصريـة «لـم تفـر فـرارًا جماعيًـا إلـى العـدو لأن أوضاعهـم فـي الأسـر لـدى الأتـراك مـا كانـت لتصيـر أسـوأ ممـا كانـوا عليـه فعـلًا»[13].

وفـي غاليبولـي، نتجـت عـن إخفـاق المحاولـة البحريـة الإنجليزيـة الفرنسـية الأولـى لاختـراق مضيـق الدردنيـل الضيّـق والمُضـي فـي طريقهـا ظافـرة نحـو الآسِـتانة ضـرورة التحضيـر علـى عجـل لهجـوم بـري. وفيمـا بيـن أبريـل 1915 وينايـر 1916، عملـت مجموعـة متناثـرة مـن رؤوس الشـواطئ المنعزلـة كنقـاط انطـلاق للهجمـات المتتاليـة التـي شـنتها القـوات البريطانيـة والفيلـق الأسـترالي والنيوزيلنـدي ضـد المواقـع العثمانيـة علـى الأرض المرتفعـة المشـرفة علـى الشـواطئ. وتألّـف أحـد مواقـع الإنـزال البـري هـذه (الشـاطئ «إكـس» عنـد رأس هيليـس)، علـى سـبيل المثـال، مـن شـريط مـن الرمـل طولـه 200 متـر

وعرضه 10 أمتار. وبسبب الافتقار إلى خطوط مواصلات محمولة برًا وخطوط إمداد وتموين يدعم بعضها بعضًا، سرعان ما اكتظت رؤوس الشواطئ الصغيرة بأرصفة الموانئ والمخيمات والمستشفيات الميدانية المؤقتة والمقار المتقدمة المرتجلة ومستودعات الإمداد والتموين. علاوة على ذلك، فإن الأجراف شديدة الانحدار أتاحت للعثمانيين موقعًا ممتازًا يصبون منه نيرانهم صبًا على رؤوس الشواطئ من ثلاث جهات[14]. وقد كتب إيليس آشميد-بارتليت، المراسل الحربي المعروف بصراحته الذي كان ملحقًا بالحملة، فيما بعد يقول إنه «لم يسبق قط أن وجد جيش نفسه ملقى في موقع أكثر استحالة وأشد إثارة للسخرية، محاصرًا بالتلال من كل الجهات، ولا توجد لديه نقطة يمكنه من خلالها أن ينسلّ ليشن هجومًا إلا بتسلق هذه التلال»[15]. وبعد أن حتّمت الضرورة شن هذه الحملة في هذه الأرض ذات الطبيعة القاسية، وبعد أن نال من أفرادها الإنهاك العسكري الذي أصاب القوات العثمانية بقدر ما أصاب القوات البريطانية والأسترالية والنيوزيلندية، انتهت الحملة بعاصفة رعدية عاتية في أواخر نوفمبر غمرت خنادق ومواقع كلا الجانبيْن بالمياه، وعاصفة ثلجية أوقعت الآلاف من المصابين نتيجة لسعة الصقيع والتعرُّض للعوامل الجوية. وقد لعبت ضراوة هذا الطقس الشتوي دورًا كبيرًا في فرض قضية الجلاء على عقول كبار القادة المدنيين والعسكريين البريطانيين، وأفضت إلى تنظيم انسحاب بالغ النجاح في ديسمبر 1915 ويناير 1916[16].

ولم يكن شن حملات في أرض ذات طبيعة عدائية بالطبع حكرًا على مناطق القتال الشرق أوسطية. فالقتال الذي جرى في شرق أفريقيا فرض على المقاتلين وغير المقاتلين صعوبات مادية وطبية يقال إنها تجاوزت الصعوبات التي شهدها أي مسرح آخر من مسارح الحرب[17]. وفي أوروبا، تعطينا الهجمات التي شنتها القوات البريطانية في الإقليم الفلامندي في خريف عام 1917 مثالًا أوضح ما يكون على التحديات الإيكولوجية والمناخية في القطاعات الأخرى. ومع ذلك، فإن القتال على الجبهة الغربية جرى في سياق بلدان صناعية، وقد يسّرت هذه البنية التحتية القائمة الإنتاج الشامل للسلع ووفرت الآلات العسكرية ونقلتها حتى جبهة القتال، لكن بدلًا

مـن ذلـك نجـد أن هـذه الجبهـة هـي المـكان الـذي بـدأت تتصاعـد فيـه المشـكلات. ففـي الشـرق الأوسـط، نجـد أن صعوبـات شـن حـرب تتسـم بالطابـع الصناعـي يلعـب فيهـا النقـل بمركبـات مميكنـة والمدفعيـة الثقيلـة والطائـرات أهميـة متزايـدة تدريجيًّـا عظّمـت التعقيـدات اللوجسـتية والإداريـة أضعافًـا مضاعفـة، فعرقلـت هـذه التحديـات السلاسـة العملياتيـة وكبحـت إمكانيـات السـرعة والمنـاورة التكتيكيـة التـي تتيحهـا طبيعـة الأرض التـي كانـت فيمـا عـدا ذلـك مفتوحـة[18].

اللوجستيات والإدارة

عظّمـت التحديـات سـالفة الذكـر التحديـات اللوجسـتية التـي كانـت بالفعـل هائلـة والتـي شـكّلها نطـاق الحـرب الشـاملة التـي يغلـب عليهـا الطابـع الصناعـي وتعقيدهـا. وأضافـت مؤلفـات جـون ليـن ومارتـن فـان كريفيلـد تفصيـلاً مهمًّـا إلـى أبعـاد الصـراع ذي الطابـع الصناعـي اللوجسـتية، حيـث اسـتقصى ليـن التغييـرات التكنولوجيـة السـريعة التـي جلبتهـا الثـورة الصناعيـة فـي أوروبـا وأمريـكا الشـمالية فـي القـرن التاسـع عشـر، وجـادل بـأن هـذه التغييـرات أحدثـت تحـولًا فـي «كل مـن وسـائل النقـل والبنـود المسـتهلكة» و«أعـادت تعريـف اللوجسـتيات الحديثـة» ومعهـا طبيعـة الحـرب الحديثـة[19]. وفـي الوقـت نفسـه، ذهـب فـان كريفيلـد إلـى أن الحـرب العالميـة الأولـى ثـوّرت مفهـوم اللوجسـتيات حيـث حلّـت السـلع المنتجـة آليًّـا محـل الطعـام والأعـلاف باعتبارهمـا أهـم بنديْـن مـن بنـود الاسـتهلاك، ممـا أسـفر عـن أوجـه اعتمـاد جديـدة علـى المصانـع وخطـوط الإمـداد والتمويـن والنقـل القائمـة علـى السـكك الحديديـة والطـرق البريـة، ممـا ربـط الجيـوش بشـبكاتها اللوجسـتية ربطًـا فعليًّـا[20].

وهنـاك عوامـل عديـدة عقّـدت الصعوبـات اللوجسـتية والإداريـة التـي واجهـت الأطـراف المتحاربـة فـي مسـارح الحـرب فـي الشـرق الأوسـط وعظّمتهـا. فعلـى صعيـد «المـوارد البشـرية»، كانـت الحمـلات التـي جُـردت فـي الشـرق الأوسـط ثانويـة تمامًـا مقارنـة بمحـور تركيـز الحـرب الأساسـي فـي أوروبـا. وكان هـذا يصـدق علـى الدولـة العثمانيـة -وهـي التـي لـم تشـكّل لهـا التطـورات فـي فلسـطين وبـلاد الرافديـن تهديـدًا لنظامهـا الحاكـم

كالتهديد الذي شكّله القتال في جنوب شرقي منطقة البلقان- مثلما كان يصدق على الفرنسيين والبريطانيين والروس. ولهذا السبب كان الأفراد العسكريون الذين أُرسلوا إلى الشرق الأوسط في أحوال كثيرة أقل جودة من صفوة الموارد التي أُرسلت إلى الجبهات الرئيسة. ففي عامي 1917 - 1918، على سبيل المثال، عمدت القيادة العليا العثمانية إلى حرمان جبهتيْ فلسطين والرافدين من الموارد، وأوْلت اهتمامها لفرص التوسع الطوراني في القوقاز وبلاد فارس في أعقاب خروج روسيا من الحرب[21]. وقد امتد هذا الحرمان إلى غير المقاتلين والدعم الإداري أيضًا. وأما المسؤولون البريطانيون فرأوا من جانبهم أن قوة الحملة الهندية التي وصلت إلى البصرة في نوفمبر 1914 تشتمل على وحدات غير لائقة للخدمة في أوروبا، وأنها أيضًا مجردة من أي أشكال النقل البري[22].

وقد تعقدت هذه المشكلات بفعل القضايا الإيكولوجية والمناخية التي أتينا على ذكرها في المبحث السابق، حيث وضع شُح الموارد المحلية في مستهل العمليات العسكرية عبئًا عظيمًا على الآلات اللوجستية لإمداد القوات العسكرية ونقلها، كالعبء العظيم الذي وضعته أيضًا أدوات الحرب ذات الطابع الصناعي التي زادت بشدة الطلب على كوادر القوة البشرية والحيوانية المحلية. وقد تطلب الطعام والأعلاف في البداية إقامة خطوط مواصلات وإمداد. وبالإضافة إلى الغياب النسبي للطرق أو السكك الحديدية (وهو ما ترتب عليه في البداية لزوم جلب غالبية الإمدادات والمؤن من الخارج إلى مسرح الحرب)، أدى إنشاء شبكات نقل إلى زيادة شديدة في الطلب على الموارد المحلية حيث لزم أيضًا نقل مواد البناء يدويًا إلى وجهاتها عبر مسافات طويلة وتضاريس وعرة.

وثمة مثال على الصعوبات التي واجهت المقاتلين نراه في محاولات العثمانيين إمداد قواتهم العاملة في القوقاز وبلاد الرافدين بالمؤن، حيث كانت كلتا المنطقتيْن بعيدتيْن للغاية عن الآستانة ومركز الدولة العثمانية الصناعي. كما تفاقمت وضعية هاتيْن المنطقتيْن الطرفيتيْن بفعل شبكة السكك الحديدية المتردية التي قلّما كانت

تمتـد إلـى مـا وراء حـدود تركيـا الحديثـة (مـع اشـتمالها علـى خطـوط فرعيـة ممتـدة إلـى دمشـق وشـمال فلسـطين، وسـكة حديـد الحجـاز الشـهيرة الممتـدة إلـى المدينـة وكانـت مـن النـوع الضيـق). فكانـت نتيجـة هـذا أن كان الجنـود العثمانيـون الذيـن يحاربـون الجيـوش البريطانيـة والهنديـة فـي بـلاد الرافديـن والجيـش الروسـي فـي القوقـاز منفصليـن بمسـافة تصـل إلـى 400 ميـل مـن الصحـراء (فـي الحالـة الأولـى) والجبـال (فـي الحالـة الثانيـة) عـن أقـرب نهايـة خـط سـكك حديديـة إليهـم. فاعتمـدت القـوات العثمانيـة بالتالـي -كمـا كان الحـال مـع المتحاربيـن الآخريـن فـي الشـرق الأوسـط- علـى القـوة البشـرية والـدواب المحليـة. وفـي نهـريْ بـلاد الرافديـن، اعتمـدت علـى قـوارب نهريـة بدائيـة كانـت تُصنـع مـن جلـود الحيوانـات كحالهـا منـذ قـرون[23].

وأمـا اللوجسـتيات البريطانيـة فعقّدتهـا الحاجـة إلـى تلبيـة الطلـب المتنامـي مـن جانـب الحمـلات التـي جُـرِّدت بشـكل متزامـن فـي غاليبولـي وسـالونيك وبـلاد الرافديـن وبدايـة مـن 1916 فـي فلسـطين. فتحولـت مصـر والهنـد إلـى مركزيْـن رئيسـيْن للإمـداد والتمويـن والإدارة لهـذه الحمـلات. وبالطبـع أثقلـت هـذه المتطلبـات المتعـددة بشـدة كاهـل المـوارد القائمـة المحـدودة المتاحـة للقـوات الإنجليزيـة فـي مصـر والجيـش الهنـدي فيمـا اضطلعـا بمسـؤولية الحفـاظ علـى أمـن الإمبراطوريـة البريطانيـة البحـري. فقـد جمعـت الحكومـة الهنديـة وأرسـلت أربـع قـوات حملـة هنديـة إلـى فرنسـا وشـرق أفريقيـا ومصـر والبصـرة فيمـا بيـن أغسـطس وديسـمبر 1914، ممـا أنهـك احتياطيـات مـا قبـل الحـرب مـن ضبـاط وكـوادر نقـل وغيـر ذلـك مـن أفـرع غيـر مقاتلـة كسـلاح الخدمـات الطبيـة، وخشـي القـادة المدنيـون والعسـكريون البريطانيـون فـي الهنـد أن القـدرة التنظيميـة واللوجسـتية للجيـش الهنـدي توشـك علـى نقطـة الانهيـار. والحقيقـة أن اللـورد هاردنـج، نائـب الملـك فـي الهنـد، أحـسّ فـي مـارس 1915 أن مـوارده العسـكرية تآكلـت إلـى درجـة أن «الهنـد تُركـت تقريبًـا مـن دون أي هامـش لتلبيـة الظـروف الطارئـة». وبالتالـي أعلـم لنـدن أن الهنـد أدت واجبهـا تجـاه الإمبراطوريـة مردفًـا إنـه «مـن المسـتحيل تمامًـا... فعـل المزيـد»[24].

وفـي مصـر، هـدّد الحشـد السـريع للقـوات البريطانيـة والهنديـة والأسـترالية

والنيوزيلندية في أواخر عام 1914 وأوائل عام 1915 بالمثل بأن يلتهم الموارد الموجودة، حيث تسبب الوصول العشوائي للوحدات العسكرية في متاعب للحامية البريطانية وشبكتها المتواضعة من المرافق اللوجستية والإدارية. وفي الوقت نفسه، فإن التخطيط للحملات في غاليبولي في عام 1915 وفيما بعد في سالونيك زاد الشعور بالفوضى المحدقة. فكان الأفراد الذين يتصرفون نيابة عن قوة الحملة المتوسطية (التي كانت تقاتل في غاليبولي) والقوات الإنجليزية في مصر ينافسون بعضهم بعضًا على الموارد في السوق المفتوحة[25]. فأثّر هذا التخبط على سير العمليات في غاليبولي حيث نتج عن الافتقار إلى موانئ مناسبة في المياه العميقة في شرقي بحر إيجة أن صارت الإسكندرية قاعدة إمدادها الرئيسة. وأنشئت قاعدة متقدمة في ميناء مودروس فوق جزيرة ليمنوس في بحر إيجة وتولت 120 سفينة نقل إدامة القوة البالغ قوامها 75 ألف رجل بالمؤن والذخيرة والتعزيزات بالجنود ودواب الحمل[26].

ووصلت الأمور إلى مرحلة حرجة عندما أدى إخفاق الإنجليز والفرنسيين في اقتحام المضيق إلى طريق مسدود من الناحية العسكرية في غاليبولي (نناقشها بمزيد من التفصيل في الفصل الرابع). وقد نوّه تأريخ جديد مهم لهذه الحملة نُشر في عام 2011 لمؤلفه بيتر هارت، المؤرخ الشفهي لمتحف الحرب الإمبراطوري، إلى الحملة وكيف كانت تتألّف من «جنود أُتي بهم من كل أنحاء العالم وأُلقوا سويًا من دون تخطيط ولا رويّة... مع تفرّق مختلف الوحدات على سفن مختلفة وتداخل عتاد أفرادها عشوائيًا في قعور السفن»[27]. وبالطبع واجهت القادة العسكريين صعوبات كبيرة في تزويد رؤوس الشواطئ الخمسة بالرجال والذخيرة والمواد الغذائية ومخزونات المياه. وبحلول يوليو 1915، كان الجنرال السير أيان هاملتون، قائد قوة الحملة المتوسطية، «في حالة من اليأس» بسبب الافتقار إلى الأيدي العاملة وعدم كفاية القوارب اللازمة لتفريغ السفن الآتية من مصر. وكتب يقول إنه ترتّب على ذلك أن «تصل السفن وعلى متنها أشياء القوات في أمسّ الحاجة إليها وعندئذ، وقبل أن يتسنى تفريغها، تُبحر راحلة من جديد... وعلى متنها كل المواد». وأضاف أن

«هناك سفنًا تحتوي على منشآت هندسية جاءت خمس مرات ورحلت خمس مرات دون أن يستطيع أحد تفريغها بسبب الافتقار إلى قوارب تفريغ»[28]. وقد اعترف هاملتون للسير جون كاونز، رئيس شعبة الإمداد والتموين في وزارة الحربية في لندن، قائلًا: «تقلقني الأشياء التي من ورائي بقدر ما يقلقني العدو الذي أمامي»[29].

ويسلط شن حرب صناعية واسعة النطاق عبر مساحات مفتوحة واسعة من البحر والأراضي الصحراوية والجبلية في الشرق الأوسط والقوقاز الضوء على العلاقة المتوترة بين متطلبات الصراع الحديث اللوجستية ووسائل إمداد الجيوش بهذه المتطلبات، وهي وسائل يغلب عليها الطابع «التقليدي» والبدائي. ويضيف هذا قيدًا مهمًا على تأكيد فان كريفلد على حدوث ثورة لوجستية أثناء الحرب العالمية الأولى. فعلى العكس من ذلك، ظلت الحملات التي جردت في الشرق الأوسط معتمدة اعتمادًا شديدًا على الموارد المحلية، من طعام وعلف وكذلك قوة بشرية ودواب، حتى مرحلة متأخرة جدًا من الحرب. والشيء اللافت للنظر أن الإدخال المتأخر للنقل المميكن والشبكات الكبيرة من الطرق البرية والسكك الحديدية في عامَيْ 1917 - 1918 لم يقلل من الاعتماد على هذه البنود، بل على النقيض من ذلك تطلبت هذه المحدثات أيدي عاملة إضافية لإنشائها وصيانتها، وهو ما يبرهن بالتالي على أن المتطلبات الصناعية زادت في واقع الأمر الطلب على الموارد التقليدية (بدلًا من أن تحل محلها).

وتشابكت المتطلبات اللوجستية مع الطلب العسكري على الموارد المنتجة محليًا اللازمة لاستدامة المجهود الحربي لكل واحد من الأطراف المتحاربة. فلوجستيات الحرب ذات الطابع الصناعي اقتضت مع تطورها أن تتفوق الدول المتحاربة على عدوها في الإنتاج وتتفوق عليه في القتال. وتوسعت القوة الاختراقية لدولة زمن الحرب (بوتيرات مختلفة) إبّان هذه الحرب فيما اشتملت الاستراتيجية الكبرى تدريجيًا على تعبئة الموارد (غير القتالية) الاقتصادية والتجارية والبشرية الوطنية. وفي القوى الأوروبية، استند هذا التوسُّع إلى الهياكل البيروقراطية والمؤسسية القائمة

التي وفرت إطارًا للتحركات صوب صور «الحرب الشاملة». وهناك تحد آخر واجه المخططين المدنيين والعسكريين بعيدًا عن الهياكل الراسخة للدول الأوروبية، حيث قلّصت كل من القيود السياسية والمحدوديات الصناعية بشدة القدرات التنظيمية لدى الدولتيْن الروسية والعثمانية وكذلك النظام الإمبراطوري الإنجليزي الهندي لدى تطوّره فيما بعد التمرد الكبير لسنة 1857.

وهناك عوامل سياقية مهمة أعاقت جهوزية العمليات العسكرية وشنّها في الشرق الأوسط. فقد أكّد إدوارد إريكسون أن الجنود العثمانيين كانوا على مستوى رفيع من المقدرة (وإن لم تكن أسلحتهم المعاونة كذلك) وأظهروا قدرة على التحمل والصمود طوال الحرب، وغالبًا ما كان هذا في ظروف مريعة[30]. لكن واضعي السياسات العثمانيين -وكذلك الروس والبريطانيون والهنود- واجهوا كلهم أوجه قصور في قدرتهم على تنظيم الموارد المجتمعية واستخراجها، وهي الصعوبة التي ازدادت بروزًا بفعل موقع الحملات في أقصى الأماكن تطرفًا في الدولة العثمانية. فقد عرقلت قاعدة التصنيع المحلية الصغيرة إنتاج الدولة العثمانية العتاد الحربي كالحديد الغفل والفولاذ والمواد الكيميائية والمنتجات البترولية المصفّاة. علاوة على ذلك، فإن مصنع البارود الوحيد ومصنع قذائف المدفعية والخراطيش الوحيد ومسبك المدافع والأسلحة الصغيرة الوحيد في الإمبراطورية كلها كانت موجودة في محيط الآستانة، وبالتالي دعت الحاجة إلى نقل العتاد الحربي عبر مئات الكيلومترات من الطرق الرديئة وشبكات السكك الحديدية غير المكتملة إلى جبهات القتال في الشرق[31]. زد على ذلك أن الخطر الداهم الذي كانت تشكّله الحملات في الدردنيل ومقدونيا على الدولة العثمانية كان معناه أن تُعطَى لها الأولوية على بلاد الرافدين وفلسطين في عامي 1915 - 1916، في حين اتجه الاهتمام الرسمي، في أعقاب الانسحاب الروسي من الحرب في عام 1917، إلى إمكانية تحقيق مكاسب إقليمية في القوقاز[32]. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل هذه المحدوديات، تمكنت الدولة العثمانية من استدامة مجهود حربي، وإن كان متعثرًا، لمدة أربع سنوات طوال، وصد الهجمات على غاليبولي في عام 1915، وعرقلة أعداد كبيرة جدًا من القوات الروسية

والبريطانية في القوقاز وفلسطين وبلاد الرافدين. وكما نوّه المؤرخ الاقتصادي التركي شوكت باموك، فإنه «على الرغم من كل هذه المثالب، من اللافت للنظر أن المجهود الحربي العثماني لم يشهد انهيارًا تامًا» حيث «تمكن الجانب العثماني من الصمود في معظم الجبهات حتى النهاية في عام 1918»[33].

وكان المجهود الحربي الروسي أيضًا مركزًا على أماكن أخرى، حيث دارت معارك هائلة النطاق في شرق بروسيا ضد الألمان وفي غاليسيا ضد إمبراطورية النمسا والمجر. وبحلول أوائل عام 1915، كانت روسيا قد فقدت أكثر من مليون جندي، كما كان كثير من مناطقها الحيوية الصناعية والزراعية، بالإضافة إلى 20 مليون هم تعداد سكانها، يرزح تحت احتلال العدو. وترتب على المعارك الإضافية التي جرت في الصيف والخريف وقوع مليون ونصف المليون جندي في الأسر لدى العدو، ناهيك عمن قتلوا وأصيبوا، علاوة على استسلام 90 ألف جندي في يوم واحد في أغسطس 1915 وحده[34]. وهذا التهديد الوجودي لبقاء الإمبراطورية الروسية هو الذي سار على خلفيته المجهود الحربي الروسي في الشرق الأوسط والقوقاز. وكانت هاتان المنطقتان قد اعتُبرتا ثانويتيْن في التخطيط العسكري الروسي فيما قبل الحرب، ونُظر إليهما من خلال عدسة الأمن الداخلي لا الصراع مع الدولة العثمانية أو بلاد فارس. لكن كان ثمة تعقيد محلي كبير يغلي تحت السطح، وهو التوتر بين المركز والمحيط الذي تصاعد على هيئة رد فعل عنيف في عام 1916 من جانب الطوائف المسلمة في آسيا الوسطى ضد تجنيد أبنائها في الجيش الروسي[35].

كذلك واجهت التعبئة في الهند عراقيل بفعل القيود السياسية التي فرضتها السلطات البريطانية وعززتها في السنوات التي تلت تمرد عام 1857، حيث نبّهت محاولة المتمردين الاستيلاء على ترسانة فيروزبور المسؤولين البريطانيين إلى أخطار إنشاء مجمع للصناعات العسكرية في الهند. علاوة على ذلك، فإن لجنة بيل التي أنشئت بعد عام 1857 لتمحيص تدابير منع نشوب تمرد آخر أوصت بأن تقتصر مهام الجيش الهندي فيما بعد التمرد على مهام الأمن الداخلي التي تتطلب كميات

صغيرة من الأسلحة متدنية المستوى[36]. وقد أعاقت هذه القرارات بشدة توسيع صناعة الأسلحة في الهند على مدى نصف القرن التالي، حيث أعطت السياسات البريطانية الأولوية لتقليص القطاع الصناعي في الهند وتعمدت عدم استغلال مواردها الطبيعية والبشرية الوفيرة الاستغلال الكامل، مما ضمن افتقار الهند إلى العناصر الماهرة من العمال والفنيين والمشرفين والمديرين، فضلًا عن افتقارها إلى المصانع الهندسية ومصانع المعادن ومنشآت تصنيع الآلات، حيث كانت الغالبية العظمى من المصانع والمعدات والمؤن والأفراد المهرة تُجلب من الخارج قبل عام 1914[37].

ومن ثم تُرجم عدم اطمئنان البريطانيين لوضعهم في الهند إلى خوف من تدريب مَعين وطني من الخبرة العسكرية والتكنولوجية بين الهنود، مما ألحق ضررًا كبيرًا بمصانع الأسلحة، فظل بالتالي إنتاجها ضئيلًا، وظل الجيش الهندي معتمدًا على بريطانيا في الحصول على الخبرة الفنية والمعدات، إذ لم تنتج ترسانة فيروزبور، وهي الأكبر في الهند، في السنة التي شهدت ذروة إنتاجها في 1908 - 1909 إلا 12 قطعة مدفعية و22 ألف قذيفة مدفعية[38].

وبلا شك أن هذا أضاف طبقة أخرى من التعقيد إلى الآلة اللوجستية إذ لم يتسنّ في الهند الحصول على كثير من الأصناف المطلوبة لبلاد الرافدين، بل لزم طلبها (وشحنها) من المملكة المتحدة أولًا. وفي حالة القوارب النهرية التي كانت هناك حاجة مستميتة إليها من أجل العمليات في البصرة في عامي 1915 - 1916، كان لتأخُر توريدها نتيجة لذلك عواقب وخيمة على قوة الحملة الهندية في خضم كفاحها (وفشلها) لفك حصار الحامية في كوت العمارة[39].

الموارد المحلية والحرب في عرض البحر

اكتسبت أوجه النقص والقصور في الموارد الصناعية والقدرات الاستخراجية السابق بيانها دلالة أكبر مع استطالة أمد القتال، إذ سرعان ما تبددت أية طموحات مبكرة في أن تكون الحرب قصيرة، وفي حالة المتحاربين على الجبهة الغربية تبددت

هـذه الطموحـات مبكـرًا فـي سـبتمبر 2014. وبحلـول الوقـت الـذي دخلـت فيـه الدولـة العثمانيـة الحـرب فـي 2 نوفمبـر، كانـت معركـة إيبـر الأولـى تـدور علـى أشـدّها، ممـا آذن بنهايـة العمليـات المتنقلـة وتقويـة المواقـع المحصنـة فـي فرنسـا والإقليـم الفلامنـدي، بـل وكانـت المعـارك التـي دارت علـى الجبهـة الشـرقية حتـى أكبـر حجمًـا مـن هـذا. وفيمـا بعـد ذلـك، اسـتهدف شـن حـرب الغواصـات والحصـار الاقتصـادي مواطـن الضعـف فـي خطـوط المواصـلات والإمـداد المسـتطيلة فـي ظـل انتشـار الحـرب إلـى الشـرق الأوسـط وأفريقيـا، ونتيجـة لهـذا ازدادت أهميـة الحصـول علـى المـوارد المنتَجـة محليًـا وتعبئـة القـوة البشـرية والـدواب مـن أجـل تخفيـف العـبء الواقـع علـى شـبكات النقـل البحريـة والبريـة المثقلـة.

وثمـة مؤلَّـف حديـث مهـم يتنـاول اقتصـاد الحـرب العالميـة الأولـى أكّـد علـى جسـامة العوامـل الاقتصاديـة وتأثيرهـا علـى محصلـة الصـراع، حيـث جـادل سـتيفن بروندبيـري ومـارك هاريسـون بـأن «محصلـة الحـرب العالميـة كانـت فـي المقـام الأول مسـألة مسـتوى تنميـة اقتصاديـة لـدى كلا الجانبيْـن ونطـاق المـوارد التـي كان بمقـدور كل منهمـا تدبيرهـا بنجـاح»[40]. واسـتند هـذا العمـل إلـى بحـوث رائـدة قـام بهـا أفنـر أوفـر وكريسـتوفر ريغلي تنـاولا فيهـا البُعـد الاقتصـادي للحـرب، حيـث سـلط أوفـر الضـوء علـى الجانـب الوجـودي لحفـاظ القـوى الإمبراطوريةعلـى طـرق الشـحن والممـرات البحريـة، ولا سـيما بريطانيـا التـي كان «نقـل قواتهـا البريـة وإمدادهـا بالمـؤن، حتـى عبـر القنـال الإنجليـزي ناهيـك عـن المسـافات الطويلـة عبـر المحيطيْـن الأطلسـي والهنـدي، يعتمـد علـى قـدرة البحريـة الملكيـة علـى تأمينهـا»[41]. وكان هـذا تمديـدًا منطقيًـا للتطـورات فـي المنظومـة التجاريـة الدوليـة قبـل عـام 1914 التـي دوّلـت إنتـاج السـلع كالمـواد الغذائيـة (وخصوصًـا الحبـوب) وتوزيعهـا وفقًـا لمبـدأ الميـزة النسـبية. ومـن ثـم، نـوّه ريغلـي إلـى طبيعـة الخلـل الـذي أـحدثته الحـرب فـي العلاقـة بيـن «المركـز» الصناعـي الأوروبـي فـي المنظومـة التجاريـة الدوليـة والمناطـق «المحيطيـة» المتخلفـة نسـبيًا[42].

وقـد كان لهـذا الخلـل الاقتصـادي تداعيـات محليـة وإقليميـة، وكذلـك دوليـة، وتفاقمـت

تأثيراته كثيرًا في المناطق التي كان هامش الكفاف فيها رقيقًا من قبل. ومن بين هذه التداعيات قطع طرق التجارة داخل المنطقة الواحدة وفيما بينها وبين المناطق الأخرى، فقد صارت الدولة العثمانية ومنطقة القوقاز -على سبيل المثال- مقسمتيْن إلى مناطق نفوذ حربية. وأثّر الحصار الاقتصادي، وفرض مطالب هائلة على الموارد المحلية نتيجة وجود الآلاف من الأفواه العسكرية الإضافية اللازم إطعامها، والتنافس بين الحملات العسكرية والأنشطة الزراعية، على الأيدي العاملة والدواب. وبالتالي تطور توازن مضطرب بين الطلبيْن المدني والعسكري على الموارد، وهو ما لم يترك مجالًا كبيرًا للخطأ، وقد انهار هذا التوازن الهش في مناسبات عدة أثناء الحرب، وذلك ما سنناقشه بالتفصيل في فصول لاحقة. ولعل المجاعة التي عصفت بسوريا ولبنان وأجزاء من فلسطين في عامي 1915 - 1916 كانت أوضح مثال على الخلل الاقتصادي الذي تسببت فيه هذه الحرب. ويمكننا القول إنه بحلول عام 1918 كان الأهالي في عموم المنطقة، من شمال أفريقيا إلى بلاد فارس والهند، يواجهون أوضاعًا من العسر الحقيقي والجوع الحاد.

ولا شك أن توليفات مزعزعة من هذه العوامل قد تفاعلت بطرق مختلفة لتصيب الأفراد والمجتمعات في عموم المنطقة بنكبة، ثم تضاعفت تأثيراتها بفعل صعوبات نقل الإمدادات إلى (وفيما بين) جبهات القتال طوال الحرب. وكما أوضحنا في المباحث السابقة، فإن الغياب النسبي لبنية النقل التحتية أو الموارد الصناعية في جبهات القتال الشرق أوسطية نتج عنه أن لزم جلب غالبية الإمدادات والتعزيزات في البداية إلى مواقعها عبر خطوط مواصلات طويلة، حيث لزم أن تبحر الإمدادات البريطانية المتجهة إلى حملتيْ بلاد الرافدين وفلسطين إما في البحر المتوسط (فيما يخص الإمدادات الآتية من المملكة المتحدة) أو بحر العرب (فيما يخص الإمدادات الآتية من الهند). وبالطبع كانت السفن العابرة للبحر المتوسط عُرضة للغواصات المعادية (مما أدى في منتصف عام 1916 إلى إعادة توجيه عمليات النقل مؤقتًا إلى طريق رأس الرجاء الصالح الأطول كثيرًا)، في حين واجهت السفن الآتية من الهند قاصدة بلاد الرافدين صعوبات بفعل الرياح الموسمية في بحر العرب وكذلك عدم

كفاية مرافق ميناء البصرة حتى عام 1917[43]. كما كان العثمانيون أيضًا يعتمدون اعتمادًا كبيرًا على الإمدادات المنقولة بحرًا حيث استلزمت أوجه القصور الشديد في البنية التحتية للطرق والسكك الحديدية أن تتم غالبية حركة النقل والتجارة الداخليين والخارجيين بحرًا قبل عام 1914[44].

والواقع أن المراحل المبكرة من الحملات عانت من اختناقات ناجمة عن عدم كفاية مرافق الموانئ لاستقبال كل متطلبات الحرب الحديثة اللوجستية وإرسالها. وقد لمّحت المباحث السابقة إلى صعوبات إنزال المؤن إلى رؤوس الشواطئ في غاليبولي. وفي مكان آخر، أقيمت قاعدة كبرى ومستودع إمداد وتموين ومركز للمسافنة في منطقة القنطرة الواقعة على قناة السويس لخدمة القوات البريطانية في سيناء وفلسطين. وأما في بلاد الرافدين، فقد وجد وفد بريطاني زائر في البصرة في عام 1916 أن منشآت الميناء «غائبة غيابًا ملحوظًا» عن القاعدة الرئيسة للعمليات البريطانية الهندية في كوت العمارة[45]. وكانت نتيجة غياب الأرصفة في البداية أن اصطفت سفن النقل بطول شط العرب منتظرة دورها، فيما كانت المؤن تحمَّل أولًا على متن قوارب تفريغ ثم يتم تفريغها من جديد على الشاطئ، وفي أحوال كثيرة يعاد تحميلها على القوارب النهرية الشحيحة لنقلها إلى أعالي النهر. وقد ازدادت هذه العملية كثيفة الأيدي العاملة المستهلكة للوقت صعوبة بفعل الجداول التي لا تعد ولا تحصى التي تناثرت على امتداد الشواطئ وكانت تعرقل المواصلات الجانبية على الشاطئ. كما كان الفيضان السنوي في كل ربيع يشكّل عقبة إضافية أمام تطوير الميناء، مما حدا بمؤرخ معاصر إلى وصف «أوضاع بلاد الرافدين المألوفة... فيما كانت هناك مياه أكثر مما يلزم للجيش، لم تكن هناك مياه كافية للبحرية»[46].

ومع استمرار الحرب واتساع نطاق الحملات تطورت طبيعة مشكلة الملاحة، فتحولت من قضية تخص قيودًا مادية أولية إلى قضية عدم كفاية الطاقة الاستيعابية. وحدث هذا فيما تواصل ازدياد الطلب على القوة البشرية والمواد وغير ذلك من الموارد مع ازدياد الأوضاع سوءًا أمام الملاحة الدولية. وعكست هذه التحديات

المتقاطعة «التوسع السريع في حجم المهمة» في الحملات التي جُرّدت خارج الحدود الأوروبية والتي صارت التزامات عسكرية كبيرة بعد أن كانت في البداية مجرد «عروضً جانبية». وبحلول عام 1916، أحسَّ كل الأطراف المتحاربة بأثر هذه الاتجاهات المتباعدة في ظل تعرُّض الطرق عبر البحر المتوسط خاصة لأضرار شديدة، حيث ألحقت غواصات إمبراطوريتيْ ألمانيا والنمسا والمجر العاملة انطلاقًا من سبع قواعد واقعة على ساحل البحر الأدرياتي الدمار بالسفن التجارية والحربية التابعة لدول الوفاق الثلاثي العاملة بين مرسيليا وتارانتو (في إيطاليا) ومصر. ففي الربع الأخير من 1915، نجحت أربع غواصات فقط في إغراق 21 ألف طن من الحمولة المنقولة بالسفن، وعقّد سوء الاتصال بين القيادات البحرية البريطانية والفرنسية والإيطالية، والافتقار إلى مدمرات ترافق قوافل السفن، اتخاذ تدابير استجابة فعالة[47]. وفي ديسمبر 1915، لفت الجنرال أرشيبالد موراي رئيس الأركان العامة الإمبراطورية في لندن، وهو الذي سرعان ما صار القائد العام لقوة الحملة المصرية، انتباه وزير الدولة للحربية اللورد كتشنر إلى تهديد الغواصات في البحر المتوسط، حيث قال ساخرًا في معرِض تحسّره على غياب التنسيق بين البحريات البريطانية والفرنسية والإيطالية في البحر المتوسط: «كل ما أعرفه أنه يوجد قادة بحريات يضيعون الوقت هنا أكثر مما يوجد من غواصات تعمل هناك!!!»[48].

ولقد تفاقمت الصعوبات الملاحية بشدة بداية من عام 1916 فصاعدًا، حيث تصاعدت الخسائر الملاحية البريطانية والفرنسية والإيطالية في البحر المتوسط في هذا العام لتبلغ ذروتها فيما بين أكتوبر وديسمبر -نحو 113 سفينة و248018 طنًّا من الحمولة- مع بقاء التعاون فيما بين دول الحلفاء على تراخيه[49]. وفي ديسمبر 1916، قدمت رئاسة الأركان العامة البريطانية مذكرة اعترفت فيها بجُرأة بأنها تواجه في مصر «موقفًا يصل عمليًّا إلى نقطة الانهيار في ترتيباتنا الملاحية... لقد وصلنا في الحقيقة إلى مرحلة لا تفي فيها الحركة الملاحية المتاحة بالمتطلبات»[50]. وفي مؤتمر إنجليزي فرنسي عُقد في لندن في أواخر ذلك الشهر، حذّر قائد البحرية البريطانية الفريق أول بحري جون جيليكو آنذاك من صعوبات كبيرة في العثور على

سـفن تجاريـة كافيـة لإمـداد القـوات المتمركـزة فـي سـالونيك ومصـر. بـل وأضـاف قائـلاً إنـه مـن الأصعـب حتـى أن يتـم توفيـر حاميـات مرافقـة لسـفن الشـحن ونقـل الجنـود، وإن هـذه الصعوبـات يـكاد يسـتحيل معهـا النظـر فـي أي زيـادة فـي عـدد القـوات فـي أي مـن المسـرحيْن[51].

وفـي ينايـر 1917، أعلـن المستشـار الألمانـي تيوبالـد فـون بيتمـان هولفيـغ عـن اسـتراتيجية حـرب الغواصـات المطلقـة، وهـي الاسـتراتيجية التـي اعتمـدت علـى تطـورات سـابقة فـي الحـرب البحريـة. فقـد اسـتهدفتالغواصات الألمانيـة الملاحـة التجاريـة الداخلـة إلـى الميـاه الإقليميـة البريطانيـة والخارجـة منهـا بشـدة متزايـدة منـذ وقـت مبكـر فـي عـام 1915. وكان إغـراق باخـرة الـركاب البريطانيـة لوسـيتينيا قبالـة السـاحل الأيرلنـدي فـي 7 مايـو 1915 أبـرز خسـارة مبكـرة فـي الأرواح، فضـلاً عـن أنـه أثـار علامـات اسـتفهام حـول ماهيـة الشـيء الـذي يشـكّل هدفًـا مشـروعًا حيـث كانـت باخـرة الـركاب تحمـل كميـات كبيـرة مـن ذخائـر الأسـلحة الصغيـرة المخصصـة لاقتصـاد الحـرب البريطانـي، بالإضافـة إلـى مـن علـى متنهـا مـن ركاب وأفـراد طاقـم قوامهـم 1959 فـردًا. وتجـدر الإشـارة إلـى أنـه كان مـن بيـن الوفيـات التـي بلغـت 1198 حالـة 128 أمريكيًـا، وهـو مـا أثـار غضبًـا كبيـرًا فـي الولايـات المتحـدة وتدهـورًا شـديدًا فـي العلاقـات مـع ألمانيـا، وإن لـم يصـل الأمـر إلـى درجـة إعـلان الحـرب[52]. وقـد ازداد الضغـط العسـكري الألمانـي فـي اتجـاه سياسـة قوامهـا إطـلاق يـد الغواصـات للعمـل بحريـة طـوال عـام 1916 للتخلـص مـن تأثيـر الحصـار البريطانـي للموانـئ الألمانيـة ومحصّلـة معركـة يوتلانـد التـي وقعـت فـي 31 مايـو، والتـي برهنـت علـى أن أسـطول أعالـي البحـار الألمانـي لـم يكـن قويًـا بمـا يكفـي لهزيمـة البحريـة الملكيـة فـي معركـة تقليديـة، وهـو مـا كان يتطلـب أسـاليب بديلـة لمهاجمـة خطـوط الإمـداد والتمويـن الواصلـة إلـى الجـزر البريطانيـة[53].

ولا شـك أن تداعيـات قـرار ألمانيـا شـن حـرب غواصـات مطلقـة لُمسـت بشـكل مباشـر شـديد الوضـوح عندمـا أعلنـت الولايـات المتحـدة الحـرب علـى ألمانيـا فـي أبريـل 1917، غيـر أنـه كانـت لـه تبعـات مهمـة علـى الحمـلات المنفـذّة فـي الشـرق الأوسـط، حيـث

تصاعدت الخسائر الملاحية التي تكبّدتها دول الوفاق الثلاثي على أيدي أسطول الغواصات الألماني النمساوي في البحر المتوسط العامل انطلاقًا من ميناء بولا (في كرواتيا الحديثة) في الربع الأول من عام 1917. فقد ارتفع مقدار حمولة السفن التي فُقدت على أيدي أسطول البحر المتوسط والألغام البحرية التي زرعتها الغواصات من 78541 طنًّا في يناير إلى 105670 طنًّا في فبراير، قبل أن تعاود الانخفاض إلى 61917 طنًّا في مارس، لترتفع بحدّة إلى ذروتها وتصل إلى 254911 طنًّا في أبريل 1917. وعلى الرغم من تراجع الخسائر فيما بعد عن هذه الذروة بفضل ما اتُّخذ من تدابير مضادة، ظل رقما شهريْ مايو ويونيو (وهما 170626 و164299) أعلى بما بين مرتيْن وثلاث مرات من أرقام الفترة من يناير إلى مارس[54].

ولقد حُددت هذه التدابير المضادة أثناء مؤتمر القوى الأربعة (البريطانية والفرنسية والإيطالية واليابانية) الذي عُقد في كورفو في أواخر أبريل 1917، وكان من بينها توصيات بسير حركة الملاحة ليلًا على امتداد الطرق الساحلية الخاضعة لدوريات الحراسة كلما أمكن، فضلًا عن توفير حماية أكبر لحركة السفن من خلال النشر المتأخر للقوافل وسفن الحراسة. وكان توفير غطاء حماية للسفن التجارية وسفن النقل التابعة للقوات البحرية ذا أهمية خاصة في الطرق غير الساحلية التي كانت تأخذ السفن إلى المياه المفتوحة، وأبرزها من مالطة إلى كريت، ومن كريت إلى مصر، ومن مالطة إلى مصر، ومن مرسيليا إلى الجزائر[55]. ومع ذلك فقد استغرق تنفيذ هذه التدابير المضادة وقتًا وجاء بعد فوات الأوان فيما يخص التوسع الكبير في حملتيْ فلسطين وبلاد الرافدين اللتيْن جُرّدتا أيضًا في ربيع 2017، حيث تمخّضت الزيادة في حجم القتال والنطاق الإقليمي للعمليات العسكرية في كلا المسرحيْن عن صعوبات جديدة في الإمداد والنقل اللذين كانا قد بلغا بالفعل أقصى طاقة لهما، وعجلا التحركات البريطانية نحو تعظيم استخدام الموارد المحلية (في مركزيْ الإمداد مصر والهند وفي المناطق الواقعة تحت الاحتلال على السواء) لتخفيف الطلب على الشحن بالسفن حيثما أمكن.

وفـي هـذا السـياق، صـارت تنميـة المـوارد المتاحـة محليًـا إلـى أقصـى حـد هدفًـا استراتيجيًا، وكان هـذا يصـدق بوجـه خـاص علـى المجهـود الحربـي البريطانـي (والهنـدي) حيـث ازداد عـبء دعـم حمـلات متباينـة جغرافيًـا زيـادة حـادة. فبالإضافـة إلـى تلبيـة متطلبـات حملتـيْ فلسـطين وبـلاد الرافديـن اللوجسـتية، كان لزامًـا علـى بريطانيـا والهنـد أيضًـا إمـداد القـوات المتمركـزة فـي سـالونيك وشـرق أفريقيـا. ودفـع هـذا الطلـب المتنامي السير جـون كاونـز، رئيـس شـعبة الإمـداد والتمويـن فـي وزارة الحربيـة فـي لنـدن، إلـى أن يحـض فـي صيـف عـام 1916 علـى اسـتغلال المـوارد المحليـة إلـى أقصـى درجة ممكنـة[56]. كمـا قـررت وزارة الحربيـة أيضًـا جعـل الهنـد قاعـدة الإمـداد والتمويـن للقـوات البريطانيـة والإمبراطوريـة كافـة شـرق السـويس، واسـتغلال المـوارد الهنديـة لتلبيـة الطلـب فـي بـلاد الرافديـن إلـى أقصـى درجـة ممكنـة[57]. وبشـكل كاد يتزامـن مـع هـذا، حـض المسـؤولون فـي بريطانيـا نظراءهـم فـي مصـر علـى تعظيـم مواردهـم مـن العلـف لتقليـص الطلـب علـى شـحن هـذه السـلعة التـي تشـغل حيـزًا كبيـرًا بالسـفن إلـى سـيناء وفلسـطين وبـلاد الرافديـن[58].

وعلـى الرغـم مـن ذلـك، أثقـل الطلـب المتصاعـد علـى الطعـام والعلـف وفـرض أعـداد كبيـرة مـن الأفـواه الإضافيـة الـلازم إطعامهـا علـى المـوارد إلـى أقصـى حـد. ففـي بـلاد الرافديـن، كانـت البصـرة ومناطقهـا الداخليـة قـد أصيبـت بضـرر شـديد نتيجـة النقـص فـي المحاصيـل المحليـة فـي عامـي 1912 و1913، فحالـت واردات الأرز والقمـح الكبيـرة مـن الهنـد دون حـدوث أزمـة، لكـن هـذه الـواردات توقفت مـع بداية الحـرب في عـام 1914[59]. وفـي أماكـن أخـرى فـي الدولـة العثمانيـة، أفضـى نقـص المحاصيـل لمواسـم متتاليـة بيـن عامـيْ 1914 و1916 ووبـاء الجـراد الـذي حـلّ فـي عـام 1915 إلـى مجاعـات شـديدة أصابت ولايـات سـوريا ولبنـان وفلسـطين، وتفاقـم تأثيرهـا بفعـل الطلـب الشـره علـى المـوارد إبّـان الحـرب. كمـا أن التدابيـر العثمانيـة القمعيـة قـد قيّـدت تدفـق الإمـدادات الغذائيـة إلـى المنطقـة خشـية أن تقـع فـي أيـدي الأعـداء. عـلاوة علـى ذلـك، فـإن التأثيـر الاسـتخراجي المترتـب علـى إجبـار الدولـة العثمانيـة الأهالـي علـى توفيـر الأيـدي العاملـة ودواب الحمـل والماشـية والمعـدات الزراعيـة لصالـح المجهـود الحربـي زاد العـبء الواقـع علـى هـؤلاء

الأهالي، ومما أضاف أيضًا إلى هذا العبء التشريدُ الداخلي للشعوب وتعطيل طرق التجارة وأنماطها[60].

لقد انهار التوازن المضطرب بين حصول الجانبيْن المدني والعسكري على الموارد انهيارًا تدريجيًّا في مواجهة الطلب المتزايد والعرض المتعثر. ومن العوامل التي زادت الأمور تعقيدًا بشدة توقيت مواسم الحملات العسكرية كل ربيع الذي تزامن مع حصاد الربيع وذروة الطلب على الأيدي العاملة، فتداخل الطلب العسكري على الأيدي العاملة ودواب الحمل بالتالي مع أسواق العمل الريفية والدورة الزراعية. علاوة على ذلك، أدت التحسينات التي أُدخلت على نظام الري في مناطق كمصر -وهيالتي كانت قد جُرّت إلى الأسواق الدولية والزراعة ذات الطابع التجاري- إلى صيرورة الزراعة نشاطًا يمارس على مدار العام بحلول عام 1914. وعلى النقيض مما كان يحدث في الطلب على الأيدي العاملة (كالعمل بنظام السخرة) إبّان القرن التاسع عشر، لم يعد لـ«موسم الركود» الزراعي وجود، فارتفعت تكلفة الفرصة البديلة المترتبة على التجنيد في الجيش ارتفاعًا حادًا في عاميْ 1917 و1918، فيما أدى النقص الصاعد في الأيدي العاملة الريفية أيضًا إلى دفع الأجور الزراعية إلى الارتفاع[61].

وفي روسيا أفضى العبء الذي شكّلته الحملات التي جُرّدت ضد العثمانيين إلى تأثير إقليمي أشد وطأة، ففيما كانت السلطات العسكرية تبحث عن مصادر جديدة للقوة العاملة والموارد المحلية، ثارت ردة فعل عاتية من جانب الأهالي في آسيا الوسطى التي كانت تتمتع بمستوى عالٍ نسبيًّا من الاستقلالية عن الطلب المركزي على الموارد قبل عام 1914. وكانت هذه هي نقطة التحوُّل لاندلاع انتفاضة المتمردين القازاق والأوزبك والقرقيز التي استمدت وقودها من مصادر قائمة من قبل صعوبات ومظالم زمن الحرب، ومن بينها السخط السائد بين مجتمعات الفلاحين المحلية على نقص السلع المصنعة والمواد الغذائية وكذلك شراء الجيش الخيل بأسعار دون مستويات السوق. وفي ظل الغضب المتصاعد نتيجة شح السلع المحلية، وفّر تجنيد المسلمين للخدمة العسكرية ضد إخوانهم في الدين في الدولة

العثمانية الشرارة التي أشعلت الفتيل. وقد أُخمدت الانتفاضة التي نجمت عن ذلك بوحشية مع تشريد ما بين 250 ألفًا و500 ألف نسمة قسرًا وترحيلهم عن ديارهم في عام 1916[62].

ولقد ازداد التأثير العسكري حدة في كل مسارح الحرب، لا في الشرق الأوسط وحده، في عاميْ 1917 و1918. فحدث شكل ما من أشكال «إعادة التعبئة» في المملكة المتحدة، فيما تطورت الاستراتيجية نحو صورة من «الحرب الشاملة» تتسم بنشاط الدولة التدخليّ المباشر أكثر من ذي قبل[63]. وفي فرنسا وروسيا، أفضت التوترات الاجتماعية المتصاعدة إلى تمرد في الأولى وثورة في الثانية في عام 1917، وذلك في الوقت الذي اشتد فيه تأثير الحصار المفروض على المدن والبلدات الألمانية[64]. وقد ألحقت تكاليف القتال السياسية والاقتصادية والاجتماعية أضرارًا متزايدة بالأهالي الذين أنهكتهم الحرب في كل الأمم المتحاربة. فاندلعت في باريس مظاهرات متصاعدة للتنديد بشح المواد الغذائية في مايو ويونيو 1917، فيما أسفرت أحداث الشغب التي شهدتها مدينة تورينو الإيطالية على خلفية نقص الغذاء عن مقتل أكثر من 500 شخص في أغسطس، فيما برزت الصلات بين الإمدادات الغذائية والموارد والروح المعنوية لدى المدنيين بشكل حاد أمام أعين واضعي السياسات[65]. فحتى في هاتيْن الدولتيْن الأوروبيتيْن، وهما اللتان كانتا تتمتعان بدرجة ما من السلطة السياسية الشرعية التي سمحت لهما بالإثقال بطلباتهما على كاهل مواطنيهما، كان الإذعان الشعبي قد بدأ يصل إلى نقطة الانهيار بحلول عام 1917. وفي ظروف الهياكل الاستعمارية في الشرق الأوسط -وهي ظروف مختلفة تمامًا- لم يكن هناك شيء من هذه الشرعية موجود لتعضيد هذه الضغوط الاستخراجية الجديدة. وبدلًا من ذلك، فُرضت هياكل مؤسسية (وخارجية) أكثر شراهة لإدارة عملية تعبئة الموارد وتنظيمها[66]. ونتيجة الافتقار إلى الجذور الاجتماعية أو الشرعية المحلية للوصول إلى قواعد المجتمع، بدأ يبرز سرد ديالكتيكي لمقاومة السلطة، وهو ما سنناقشه بالتفصيل في الفصل الثامن.

دور الهند

كانت الحملات التي جردتها بريطانيا في الشرق الأوسط تعكس الأهمية الاستراتيجية لإمبراطوريتها الهندية وشرايين النقل البحري والقواعد البحرية التي كانت الهند تستديمها. وقد بينا في الفصل الأول التشكيلة الواسعة من الصلات العسكرية والاقتصادية والسياسية التي نمت أثناء القرن التاسع عشر فيما ازداد ارتباط اقتصاد الهند البريطانية السياسي بالتطورات الاستراتيجية في الشرق الأوسط. ومن ثم فبحلول عام 1914، أضفت مجموعة من الروابط الفكرية وكذلك المؤسسية درجة من التماسك على محيط بريطانيا الإمبراطوري، وشكّلت معينًا من الروابط التي يسّرت ونظّمت انتشار الأفكار بين مواقع الإمبراطورية المتناثرة. ويعتبر مشوار السير إيفلين بيرنغ (لورد كرومر فيما بعد) المهني مثالًا بارزًا على هذه الشبكة العابرة للحدود الوطنية من العقليات الحاكمة، حيث شكّلت تجاربه المهنية التكوينية في الهند بقوة رؤيته للحكم في مصر بصفته مندوبًا عامًّا لبريطانيا من عام 1883 إلى عام 1907[67]. وكان هناك مثال آخر وهو ريتشارد ماينرتساغن الذي التحق بكلية القادة والأركان في مدينة كويتا [في باكستان الحالية] في عام 1913 وقضى عيد الميلاد في ذلك العام مسافرًا في بلاد الرافدين، حيث أورد في مذكراته التي نشرها في عام 1960 كيف «طلبت مني حكومة الهند جمع معلومات عن النقل البري والنهري وماهية القوارب ووسائل النقل بالدواب المتاحة والطرق وما إلى ذلك». وقد حظي ماينرتساغن فيما بعد ببعض الشهرة بوصفه ضابط استخبارات في حملة فلسطين في عام 1917[68]. وبالطبع اكتسبت هذه الصلات أهمية أثناء «الحرب العظمى» حيث أدى مسؤولون وموظفون من سلك الخدمة المدنية الإمبراطوريةوضباط من القوات المسلحة الإمبراطوريةفي الهند (ومصر) أدوارًا أساسية في شن الحملات في بلاد الرافدين وفي إدارتها في فلسطين.

وفي غياب أي تهديد ذي شأن للهند أثناء الشهور التي تلت إعلان بريطانيا الحرب على ألمانيا في 4 أغسطس 1914، قرر المخططون الدفاعيون والخبراء الاستراتيجيون

فـي لنـدن أن أفضـل طريقـة للدفـاع عـن المصالـح الإمبراطوريةهـي مـن خـلال اسـتعادة تـوازن القـوى فـي أوروبـا، وهـو مـا سـيقضي علـى التهديـد الـذي يواجـه خطـوط المواصـلات الإمبراطوريةوالـذي تشـكّله السـيطرة الألمانيـة علـى الموانـئ المطلـة علـى القنـال الإنجليـزي فـي البلـدان المنخفضـة. وأبـرز هـذا القـرار طبيعـة اعتمـاد الإمبراطوريـة البريطانيـة قبـل كل شـيء علـى الحفـاظ علـى تفوقهـا البحـري وقدرتهـا علـى اسـتعراض قوتهـا البحريـة[69]. وبنـاء علـى ذلـك، أُرسـلت فرقتـا مشـاة هنديتـان (فرقـة ميـروت الثالثـة وفرقـة لاهـور السـابعة) إلـى فرنسـا (عـن طريـق مصـر) فـي أغسـطس 1914، حيـث لعبتـا دورًا حيويًـا فـي القضـاء علـى الزحـف الألمانـي عبـر فرنسـا فـي معركـة إيبـر الأولـى فـي نوفمبـر[70].

وفيمـا بيـن أغسـطس وديسـمبر 1914، تولـت حكومـة الهنـد أيضًـا المسـؤولية عـن جمـع وإرسـال أربـع قـوات حملـة هنديـة، حيـث أبحـرت هـذه القـوات إلـى شـرق أفريقيـا ومصـر وبـلاد الرافديـن فضـلًا عـن فرنسـا. وجـاءت تعبئتهـا اسـتجابة للتهديـدات الصاعـدة فـي مواجهـة أمـن بريطانيـا البحـري فـي ظـل عرقلـة الطـرادات الألمانيـة تدفـق الرجـال والعتـاد مـن المسـتعمرات إلـى بريطانيـا. ففـي سـبتمبر 1914، خـربّ الطـراد إمـدِن حركـة الملاحـة فـي خليـج البنغـال، والطـراد كونيغسـبرغ حركـة الملاحـة فـي شـرق أفريقيـا، والطـراد كارلسـروهه حركـة الملاحـة فـي البحـر الكاريبـي، ممـا عطّـل نقـل الجنـود مـن أسـتراليا ونيوزيلنـدا حيـث كان يلـزم تنظيـم سـفن حمايـة دون علـم مسـبق بفتـرة كافيـة. وبالتالـي صـار القضـاء علـى محطـات التـزوّد بالفحـم والمحطـات اللاسـلكية الألمانيـة فـي شـرق أفريقيـا وغربهـا والمحيـط الأطلسـي أولويـة علـى المـدى القريـب. وبحلـول ديسـمبر 1914، كان هـذا الهـدف قـد تحقـق مـن خـلال ملاحقـة الطـرادات وإغراقهـا فـي المحيـط الهنـدي وهزيمـة أسـطول شـرق آسـيا الألمانـي فـي معركـة جـزر فوكلانـد[71].

ولقـد وفـرت الهنـد معظـم الجنـود والمـؤن الغذائيـة لهـذه الحمـلات العسـكرية العاملة خـارج الحـدود الأوروبيـة، وهـو مـا كان يمثّـل اسـتمرارًا لوظيفـة الجيـش الهنـدي فيمـا قبـل عـام 1914 باعتبـاره احتياطيًـا إمبراطوريًـا اسـتراتيجيًا[72]. وصـارت وظيفتـه الجديـدة ضـرورة

فـي خريـف 1914 وذلـك لسـببيْن؛ أشـدهما إلحاحًـا هـو اعتمـاد بريطانيـا علـى المـواد الغذائيـة المسـتوردة، وذلـك علـى نحـو مـا بينـا فـي المبحـث السـابق، وهـو مـا كان يقـوم علـى تأميـن الطـرق البحريـة مـن تهديـد التعطيـل. ويتصـل هـذا بالسـبب الثانـي، وهـو تيسـير مـرور الجنـود والعتـاد والمـؤن مـن الإمبراطوريـة إلـى بريطانيـا ومسـرح الحـرب الأوروبـي. وكان العنصـر حاسـم الأهميـة فـي هـذا هـو ضمـان أمـن قنـاة السـويس فـي أعقـاب إعـلان الحـرب مـع الدولـة العثمانيـة فـي نوفمبـر 1914. وفـي هـذا السـياق، كانـت نتيجـة استمرار السـيطرة علـى مشـيخات الخليـج العربـي لحمايـة طـرق الوصـول الاسـتراتيجية إلـى الهنـد أن صـار الحفـاظ علـى التفـوق البريطانـي فـي منطقـة المحيـط الهنـدي الأوسـع هدفًـا إمبراطوريًّامهمًّـا[73].

ومـع ذلـك فقـد قُيِّـدت قـدرة الهنـد علـى المسـاهمة فـي المجهـود الحربـي مـن ناحيتيْـن مهمتيْـن، أولاهمـا أن حكومـة الهنـد ظلـت مسـؤولة عـن تمويـل توسـيع الجيـش الهنـدي وصيانـة جيوشـها المنشـورة فـي الخـارج. وعلـى الرغـم مـن أن هـذا أعفـى الخزانـة البريطانيـة مـن العـبء الإضافـي، فـإن الافتراضـات القويـة السـائدة بيـن النخـب البريطانيـة الحاكمـة بشـأن الحاجـة إلـى دولـة غيـر متغلغلـة بعمـق فـي الهنـد أدت إلـى تقييـد التمويـل العسـكري، فأُبقـي علـى الإيـرادات الضريبيـة عنـد معـدل شـديد التدنـي (لا يمثـل إلا 5 – 7 فـي المائـة مـن الدخـل القومـي) كمـا أُخضعـت النفقـات العامـة أيضًـا للسياسـة السـائدة وهـي ترشـيد الماليـة العامـة[74]. والغريـب أن هـذه السياسـات تواصلـت خـلال السـنتيْن الأوليَيْـن مـن الحـرب حتـى بعدمـا ازدادت المتطلبـات العسـكرية (والإداريـة) الواقعـة علـى الهنـد زيـادة ضخمـة، ممـا تمخـض عـن اختناقـات وفجـوة متزايـدة الاتسـاع بيـن مغـزى السياسـات وقدراتهـا بلغـت ذروتهـا فـي الهزيمـة التـي مُنيـت بهـا فـي بـلاد الرافديـن فـي عـام 1916 (انظـر الفصـل السـادس).

وقـد تشـابك هـذا مـع العقبـة الثانيـة التـي عرقلـت تعبئـة المـوارد الهنديـة للحمـلات البريطانيـة فـي الشـرق الأوسـط، والتـي كانـت إرث عقـود مـن السياسـات البريطانيـة المتمثلـة فـي تقليـص القطـاع الصناعـي فـي الهنـد قبـل عـام 1914. فخـلال هـذه الفتـرة،

حُوّلت الهند تدريجيًّا من مصدّر للسلع المصنّعة، وفي مقدمتها المنسوجات، إلى مورّد للسلع الأولية وسوق استيراد للسلع الاستهلاكية تامة الصنع. وقد حدث هذا جزئيًّا لأسباب تتعلق بـ«الأمن القومي» بعد أن هز تمرد عام 1857 الحكم البريطاني في الهند حتى النخاع، وجزئيًّا لحماية المشروع التجاري البريطاني، فكانت النتيجة أن جُرّدت الهند من الخبرة الماهرة والقدرة الصناعية الوطنيتيْن اللتيْن ظلتا كلتاهما تعتمدان بشكل شبه كلي على العمال البريطانيين المهرة لاستدامة مجمع «الصناعات العسكرية» الذي كان قائمًا في الهند في عام 1914[75]. ولم يحدث إلا في مرحلة متأخرة من الحرب، وذلك في عامَيْ 1917 و1918، أن أفضت الضرورة العسكرية المُلحّة إلى تغيير حاد في الهيكل الضريبي والنفقات العامة في الهند، مما مكّن حكومة الهند متأخرًا من جمع وتجهيز جيوش غفيرة من الجنود والعمال شكّلت العمود الفقري لقوتيْ حملة مصر وبلاد الرافدين ويسّرت التقدم السريع الذي تحقق في أواخر عام 1918.

لهذه الأسباب صارت هناك صلة متشابكة تربط بين الهند والحملات البريطانية في الشرق الأوسط على مستويات متعددة، ومن ثم فتجربة الهند إبّان الحرب جزء من هذا الكتاب، حيث إن القرارات التي اتخذت في الهند والأحداث التي جرت فيها كانت لها تداعيات مباشرة وخطيرة على شن الحملة في بلاد الرافدين، وكذلك على المخططين العسكريين والمدنيين البريطانيين في مصر والأرض التي وقعت تحت السيطرة البريطانية في فلسطين. وكما هو الحال مع ملامح النفوذ البريطاني في مصر، فإن العمليات التي جرت زمن الحرب لتعبئة واستخراج القوة البشرية والدواب والموارد المحلية تطلبت من الدولة الاستعمارية أن توسّع بسرعة حضورها السياسي وتتغلغل على نحو أعمق في المجتمع، فحدثت تدريجيًّا إعادة صياغة للعلاقات بين الدولة والمجتمع (في كل من الهند ومصر) حيث حشرت السلطات المدنية والعسكرية البريطانية أنفسها داخل التنظيم الاجتماعي المحلي وتدخلت في هياكل السلطة وهرمياتها القائمة. واتخذ هذا صورًا مختلفة في كل حالة، مما كان يعكس التعرض غير المنتظم للسيطرة المركزية، البريطانية والعثمانية على السواء،

قبل عام 1914، فضلًا عن الطرق المختلفة التي كان يتم بها تنظيم السلطة والنفوذ البريطانييْن واستعراضهما.

نظرة عامة على الحملات في مسارح الشرق الأوسط

قدم هذا الفصل نظرة عامة على أهم العوامل السياقية التي شكّلت الحملات العسكرية في الشرق الأوسط إبّان الحرب العالمية، حيث تفاعلت قضايا المناخ والإيكولوجيا، واللوجستيات والإدارة، والموارد المحلية، والحرب البحرية، مع بعضها بعضًا لتعظّم تأثير القتال على الأهالي ذوي الصلة. كما عظُم هذا التأثير بفعل التفاوت بين الطلب الشره من جانب الحرب الحديثة ذات الطابع الصناعي والأرض التي يغلب عليها الطابع ما قبل الصناعي التي شُنت فوقها هذه الحملات. علاوة على ذلك، فإن موقع القتال الذي غالبًا ما كانت تفصله مسافة شاسعة عن المراكز السكانية ترتّب عليه أن اعتمدت الجيوش على خطوط مواصلات وإمداد طويلة عُرضة للخطر، مما زاد الاعتماد على الموارد المنتجة محليًا، وإنْ حتّم أيضًا تعبئة كميات كبيرة من القوة البشرية المقاتلة والدواب لصيانة الآلات العسكرية أثناء الافتقار إلى وسائل نقل مميكنة في المرحل الأولية.

ويتجه الباب الثاني من هذا الكتاب بتركيزه إلى الحملات العسكرية ذاتها. وهو يشتمل على أربعة فصول تركّز على التجربة الإقليمية أثناء الحرب، فيستقصي أولها (الفصل الثالث) القتال بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الروسية، حيث أسفرت المعارك التي دارت بين عامي 1914 و1917 عن الغالبية الساحقة من مجمل الخسائر في الأرواح التي تكبّدتها الدولة العثمانية أثناء الحرب بأسرها. لذا تحوّل الاهتمام العثماني إلى تحقيق مكاسب طورانية في القوقاز في أعقاب قرار روسيا الانسحاب من الحرب ومعاهدة برست ليتوفسك في مارس 1918. ويبحث الفصل الرابع الحملة التي قادتها بريطانيا في الدردنيل في عام 1915 وقرار تحويل القوات البريطانية والفرنسية إلى سالونيك في أكتوبر من ذلك العام، حيث ظلت هناك حتى الزحف نحو الآسِتانة في سبتمبر 1918. ويركز الفصلان الأخيران في هذا الباب (الخامس

والسادس) على حملتيْن بريطانيتيْن كبرييْن ضد الدولة العثمانية، فيركز أولهما على الحملة في صحراء شبه جزيرة سيناء وفلسطين، والآخر على الحملة في بلاد الرافدين. وقد جرى تقييد كلتا الحملتيْن اللتيْن تجاوز قوام الواحدة منهما 400 ألف فرد، وكانت لهما تداعيات مهمة على ملامح التسوية الجغرافية السياسية فيما بعد الحرب. ولقد اشتملت كل هذه الحملات، بوصفها مجهودات حربية كبيرة، على أعباء هائلة على القوى الإمبراطورية، وبالأخص على المجتمعات المضيفة ذات الصلة بالحرب، حيث تشابكت تجربة شن الحرب مع تجربة بناء الدولة وإعادة البلورة الجذرية لأنماط التنظيم الاجتماعي السياسي والنشاط الاقتصادي المحلييْن.

الباب الثاني

العمليات العسكرية

الفصل الثالث

حملات القوقاز

في الكم الهائل من الأدبيات المكتوبة باللغة الإنجليزية التي تتناول الحرب العالمية الأولى، وُجّه قدر قليل نسبيًا من الاهتمام إلى السلسلة المتعاقبة من المعارك واسعة النطاق التي دارت بين الجيشيْن العثماني والروسي في القوقاز. فهناك مؤلَّف ممتاز، فيما عدا هذا المأخذ، حول «اتجاهات جديدة في دراسات الحرب العالمية الأولى» نُشر في عام 2011 لا يحتوي، على سبيل المثال، على أي إشارة إلى هذه المنطقة ولا الحملات التي جُرّدت فيها[1]. وفي تصرف يشكّل إلى حد ما انعكاسًا لتركيز معظم الكتابات التاريخية على الناطقين باللغة الإنجليزية، افتقرت حملات القوقاز أيضًا إلى الإغراء الذي كان ينطوي عليه القتال في ساحات معارك مقدسة وتاريخية والذي كان يلهب خيال العامة، وهو الشيء الذي كان يصدق على الوضع آنذاك وما زال يصدق عليه منذ ذلك الحين. غير أن القتال في القوقاز كان مصدر استنزاف كبيرًا للموارد العسكرية العثمانية إبّان الحرب العظمى وساهم في «تآكل» قدراتها العملياتية وقواها البشرية. والحقيقة أن مايكل ياب قدّر تكبُّد الدولة العثمانية في القوقاز في الفترة بين نوفمبر 1915 وفبراير 1917 ثلاثة أرباع الخسائر التي تكبّدتها في الأرواح كافة، مما ترك الآلة العسكرية العثمانية شديدة الضعف عندما اشتدت الحملتان البريطانيتان في فلسطين وبلاد الرافدين في عامي 1917 - 1918[2].

لقد مثّلت حملات القوقاز صدامًا بين إمبراطوريتيْن لن يُكتب لهما البقاء بعد الحرب العظمى، وضخّم هذا الصدامَ العداءُ التاريخي والمطالبات المتداخلة بالأحقية في أرض القوقاز اللذان داما طوال حرب القرم في السنوات 1853 - 1856 والحرب الروسية التركية في عامي 1877 - 1878. فعبّئت الآلة الإمبرطورية، في كل من سانت

بطرسبرغ والآستانة، ووجهت موارد هائلة لشن حملة من جديد ضد عدو مألوف. ودارت رحى المعارك التي نتجت عن ذلك على نطاق ملحمي مأساوي على طول جبهة امتدت لأكثر من 700 ميل تناثرت فيها سلاسل جبلية شاهقة تغطيها الثلوج وتنخفض فيها درجات الحرارة إلى ما دون درجة التجمد. وقد وُصفت المعارك الفردية، مثل تلك التي دارت رحاها عند ساريقاميش وفي محيطها (22 ديسمبر 1914 - 4 يناير 1915)، بأنها «واحدة من أعظم الكوارث العسكرية في القرن العشرين» حيث أبيد الفيلق التاسع التابع للجيش الثالث العثماني عن بكرة أبيه[3].

علاوة على ذلك، كان لخطورة الصراع بين الإمبراطوريتيْن الروسية والعثمانية من العواقب ما تخطى الحدود الإقليمية، حيث ربط بين القتال الدائر في البلقان والشرق الأوسط، كما شمل أيضًا في طياته بعض القضايا العميقة كالإبادة الجماعية للأرمن ورؤى الروس والإنجليز والفرنسيين والعثمانيين المتعارضة بشأن تنظيم المنطقة. ومع اقتراب الحرب من نهايتها، وفيما أخذت الإمبراطورية الروسية في الانهيار والدولة العثمانية في الاضمحلال، برزت إلى الواجهة في لندن اعتبارات البترول المكتشف حديثًا التي كانت الدافع وراء الحملة الإنجليزية غير العادية (من حيث تحويل الموارد العسكرية الشحيحة على نحو متزايد) إلى باكو وبحر قزوين في سبتمبر 1918. وهكذا فإن الحملة التي بدأت تنافسًا على الهيمنة الإقليمية بين قوتيْن إمبراطوريتيْن واتسمت بمعارك بدت وكأنها تنتمي إلى زمن غابر صارت في نهاية المطاف استباقًا لإعادة ترتيب المصالح الجغرافية السياسية القائمة على النفط التي آذنت بما تلا ذلك من تطور السياسات في القوقاز في القرن العشرين.

إمبراطوريتان في حالة حرب

لطالما كانت المنطقة الممتدة من القوقاز حتى آسيا الوسطى ساحة قتال بين الإمبراطوريتيْن الروسية والعثمانية. وقد ارتبطت «المسألة الشرقية» إبّان القرن التاسع عشر بمطامع روسيا في أجزاء من الدولة العثمانية ورغبتها في فرض سيطرتها على طوائفها المسيحية ومواقعها الدينية في الأرض المقدسة. وأنذر احتمال التدخل الروسي

في الشؤون العثمانية بأن يُحدث اختلالًا في توازن القوى الأوروبية المضطرب الذي تقرر بموجب مؤتمر فيينا في عام 1815، والذي تأكد مجددًا في يونيو 1841 بموجب اتفاقية لندن للمضائق التي وقعت عليها كل من المملكة المتحدة وفرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا والتي قضت بإغلاق مضيقيْ البوسفور والدردنيل أمام السفن الحربية الدولية، وبالتالي حرمت روسيا من إمكانية الوصول إلى البحر المتوسط انطلاقًا من موانئها المطلة على البحر الأسود. لكن في ظل ما كان يبدو على الدولة العثمانية من اضمحلال نهائي وما عُرف عنها من أنها «رجل أوروبا المريض»، سرعان ما تحولت هذه الاتفاقية إلى نقطة اشتعال بين القوى الأوروبية، وأفضت مباشرة إلى اندلاع حرب القرم في عام 1853. ذلك الصراع الذي دام ثلاثة أعوام وانحازت فيه كل من بريطانيا وفرنسا إلى صف الدولة العثمانية للدفاع عنها ضد الاعتداء الروسي. ودار قتال شديد العنف في القوقاز حيث اتخذ كل من الروس والعثمانيين موقفًا هجوميًا وسعَيا إلى توسيع وترسيخ نفوذهما في المنطقة كل على حساب الآخر.

وفي سبعينات القرن التاسع عشر ووصولًا إلى اندلاع الحرب العظمى، هيمنت مسألة الضعف العثماني من جديد على الأجندات الأوروبية. حدث ذلك في الوقت الذي بدا فيه أن النزعات القومية الصاعدة بين الأقليات الإثنية الكثيرة داخل الدولة العثمانية تنذر بتفتتها السياسي، ومن ثم انهيارها في نهاية المطاف. وكان عصر الصحوة القومية، وهو الذي استهلته الثورتان الصربية واليونانية في العقديْن الأوليْن من القرن التاسع عشر، قد انتشر بسرعة خارج حدود البلقان. وتضمّنت هذه الصحوة القومية تحديثات محمد علي وإصلاحاته الرائدة في مصر إبّان ثلاثينات القرن التاسع عشر وأربعيناته التي خلقت وعيًا مصريًا خالصًا حل محل الارتباط بالأعراف والمُثل العثمانية. وبحلول الوقت الذي تدخلت فيه أوروبا في مصر بعد عام 1876، كان هذا الشعور الوطني المصري «دون العثماني» المستجد قد بات واضحًا قويًا. ثم جاء الاحتلال البريطاني عام 1882 ليوفر دافعًا إضافيًا لظهور إحساس جديد بالهوية في الأرض التي كانت ما زالت تتبع الدولة العثمانية اسميًا. كما حدثت أيضًا صحوات متزامنة في بلاد الشام وفي أماكن أخرى من الأقاليم العربية التابعة للدولة

العثمانيـة، فيمـا تفاعلـت الأيديولوجيـات السياسـية مـع نمـو طبقـة بـارزة مـن المتعلميـن وظهـور ثقافـة الطباعـة[4].

وقـد تصادمـت الطموحـات الوطنيـة الصاعـدة مـع برنامـج الإصلاحـات والتحديـث العثمانـي. فكمـا بيّنـا فـي الفصـل الأول، تضمنـت «التنظيمـات العثمانيـة» التـي بـدأت فـي عـام 1839 واسـتمرت حتـى عـام 1876 محاولـة إعـادة مركزيـة السـيطرة العثمانيـة علـى أقاليمهـا البعيـدة ضمـن عمليـة أشـمل لإصـلاح هيـاكل الدولـة والجيـش وتحديثهـا. كمـا أُدخلـت بالتزامـن مـع ذلـك تحسـينات وإصلاحـات إداريـة علـى طـرق الاتصـال والنقـل، إلـى جانـب بـذل جهـود لتوسـيع قاعـدة النظـام العثمانـي الاجتماعيـة الضيقـة. غيـر أن تلـك الإصلاحـات ترتّـب عليهـا أيضًـا إحـداث خلـل فـي التـوازن المضطـرب بيـن سـكان الدولـة العثمانيـة المسـلمين وغيـر المسـلمين، زد علـى ذلـك أنهـا قُوضـت بفعـل مسـتويات الفسـاد المتفشـية ومشـاعر النفـور المتناميـة مـع ازديـاد سـفور السـيطرة العثمانيـة وتغلغلهـا المباشـر[5].

ولقـد تسـارع التفاعـل الملتهـب بيـن النزعـة القوميـة الإثنيـة والسـيطرة الإمبراطوريـة فـي سـبعينات القـرن التاسـع عشـر، وتمحـور حـول البلقـان وفيمـا بيـن الطوائـف السـلافية التـي كانـت تربطهـا بروسـيا روابـط دينيـة قويـة، حيـث تمـرد الصـرب الذيـن كانوا يعيشـون فـي إقليمـيْ الهرسـك والبوسـنة العثمانييْـن فـي عامـيْ 1875 و1876 ثـم التهـام الطوائـف المسـيحية فـي الأقاليـم العثمانيـة الأخـرى فـي البلقـان. وكان أبـرز تلـك الأحـداث التمـرد البلغـاري الـذي اشـتعلت شـرارته فـي أبريـل 1876 قبـل أن يتعـرض للإخمـاد بوحشـية علـى أيـدي الوحـدات العسـكرية العثمانيـة النظاميـة وغيـر النظاميـة. وبالطبـع اسـتحوذ مـا صاحـب إخمـاد التمـرد مـن عمليـات انتقـام ومذابـح علـى الاهتمـام السياسـي والجماهيـري فـي أوروبـا، وهـا هـو السياسـي البريطانـي المخضـرم وليـم غلادسـتون يشـجب «الفظائـع البلغاريـة» ويحـث الحكومـة البريطانيـة علـى سـحب دعمهـا للدولـة العثمانيـة، وهـو مـا كانـت لـه عواقـب سياسـية ودبلوماسـية فوريـة حيـث رفضـت بريطانيـا الوقـوف فـي صـف الآسِـتانة فـي الحـرب الروسـية التركيـة التـي نجمـت عـن ذلـك ونشـبت فـي أبريـل 1877.

ونجحت الجيوش الروسية في أثناء هذا الصراع الذي دام أحد عشر شهرًا، من أبريل 1877 حتى مارس 1878، في استعادة الأراضي التي كانت قد خسرتها في القوقاز إبّان حرب القرم. فقد شنت روسيا هجومًا ثنائيًا في البلقان والقوقاز أوصل القوات الروسية إلى مشارف الآستانة ذاتها مع استعادتها السيطرة على إقليميْ باطوم وقارص في شرقي تركيا. علاوة على ذلك فقد انهار المركز العثماني في أوروبا وتفتت، حيث نتج عن ذلك إبرام معاهدة سان ستيفانو في 3 مارس 1878 التي اعترفت باستقلال صربيا والجبل الأسود ورومانيا، وأنشأت دولة بلغارية كبرى موالية لروسيا. لكن من زاوية أخرى أخلّت هذه التغيرات الجذرية في شكل السلطة في البلقان بشدة بتوازن القوى فيما بعد التسوية الأوروبية لسنة 1815 لدرجة أن المستشار الألماني أوتو فون بسمارك دعا إلى عقد مؤتمر برلين في يونيو ويوليو 1878 للفصل في الحدود النهائية. وأدى هذا المؤتمر إلى مراجعة كبيرة لخطط إقامة بلغاريا الكبرى بإعادة مقدونيا إلى السيطرة العثمانية ومنح صربيا والجبل الأسود، بدلًا من بلغاريا، أجزاءً من كوسوفو. كانت قضية كوسوفو بالأخص خطيرة، وذلك على نحو ما وصفه نويل مالكوم أبرز مؤرخي البلقان:

... كان تسليم منطقة يسكنها الألبان إلى دولة سلافية... الشرارة التي أشعلت حركة مقاومة في كوسوفو، في البداية لمعاهدة برلين وفي النهاية للحكم العثماني ذاته، وفي غضون أربع وثلاثين سنة سيكون الحريق الذي أشعلته أحد الأسباب الرئيسة لسقوط الدولة العثمانية[6].

ومنحت معاهدة برلين، بالإضافة إلى ذلك، إمبراطورية النمسا والمجر حقوقًا إدارية خاصة وحقوق احتلال في إقليميْ البوسنة والهرسك العثمانييْن. وعلى مدى العقود الثلاثة حتى عام 1908، شدّدت إمبراطورية النمسا والمجر قبضتها حتى مع استمرار تبعية البوسنة والهرسك اسميًا للدولة العثمانية. وحُسم هذا الوضع الصوري عندما أقدمت النمسا من طرف واحد على ضم الإقليميْن في 6 أكتوبر 1908 ودمجهما رسميًا في إمبراطوريتها، مما أثار توترًا خطيرًا طويل الأمد مع القوميين

الصربيين والسلافيين الآخرين الذين كانوا يتمنون إنشاء دولة سلافية جنوبية موحّدة في البلقان. وفي 28 يونيو 1914، صار التجلي العملي لهذه التوترات السياسية والقومية المتصاعدة واضحًا عندما أقدم القومي الصربي الشاب غافريلو برينسيب على اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند، ولي عهد إمبراطورية النمسا والمجر، وأطلق سلسلة الأحداث التي أدت في النهاية إلى اشتعال فتيل الحرب العظمى بعد ذلك بشهر بالضبط في 28 يوليو.

وفي القوقاز، حدث شحذ مماثل للهويات في أعقاب الاضطرابات العاصفة التي وقعت في سبعينات القرن التاسع عشر. ففي ثمانينات ذلك القرن وتسعيناته، استجابت السلطات الروسية لانضمام مجموعة متعددة اللغات من الفئات الإثنية إلى إمبراطوريتها بحملة «ترويس» منسقة استهدفت المجموعات السكانية الكبيرة من الأرمن والجورجيين والتتار الذين كانوا يشكّلون في مجموعهم نحو نصف سكان أقاليم القوقاز التي ضُمت حديثًا. كما اشتملت أيضًا على التشريد القسري لنحو 75 ألف تركي وعلى تراجع عام في سكان المنطقة المسلمين. وازدادت بالتزامن مع ذلك القيمة الاقتصادية للقوقاز لدى الإمبراطورية الروسية بسرعة، إذ كما نوّه هيو ستراكان «تجاوزت قيمة السلع المارة عبر باكو في 1913 قيمة السلع المارة عبر كل الموانئ الروسية الأخرى، وكان 85 في المائة منها عبارة عن منتجات نفطية». وكذلك ازدادت قيمتها لاقتصاد روسيا الصناعي (وفيما بعد 1914 اقتصادها الحربي) بفعل الكميات الكبيرة من السلع كالذهب والزنك والحديد والنحاس والكوبالت[7].

ومن ثم فبحلول عام 1914، كان وضع الأقليات الإثنية المستوعبة داخل الإمبراطوريتيْن العثمانية والروسية يشبه الفتيل الذي ينتظر شرارة. والواقع أن النزعة القومية تضافرت مع صعود طبقة وسطى مثقفة بين المجتمعات الأرمنية والأذرية والجورجية في القوقاز. وفي الحالة الأذرية، اندمج هذان العنصران مع الحماسة للوحدة الإسلامية من خلال تنظيم سري (يسمى «مساواة») كان يهدف إلى تحقيق المساواة بين المسلمين كافة، في روسيا وفيما وراءها، وفي النهاية توحيدهم[8].

وقد تصادمت كل هذه النزعات القومية المنبعثة مع إعادة تنظيم الهوية التي كانت جارية على قمة جمعية الاتحاد والترقي بعد وصولها إلى السلطة في الآسِتانة في عام 1908. وفي خضم خلفية عامة من ضعف الدولة العثمانية عسكريًا وماليًا في أعقاب هزيمتها في الحرب الروسية التركية وفرض الضوابط الاقتصادية الأوروبية الصارمة عليها، صارت مشاعر العداوة الكامنة والفعلية بين الطوائف متعددة الإثنيات داخل الدولة العثمانية أشد قوة وأسهل في تعبئتها، وقد بلغ هذا خاتمته المقيتة بالإبادة الجماعية للأرمن في عام 1915، لكن جذوره يمكن عزوها إلى صدام الهويات والصحوات القومية في القرن التاسع عشر.

الحملة الشتوية (1914 - 1915)

بدأت الحرب العثمانية في المسرح الروسي، وتضمنت قصفًا بحريًا مفاجئًا للموانئ الروسية المطلة على البحر الأسود في 29 سبتمبر 1914 من جانب سفن تتبع أسطول البحر المتوسط الألماني الذي كان تحت قيادة اللواء بحري فلهلم سوشون الذي كان قد أفلت قبل ذلك من مطاردة الحلفاء إيّاه في البحر المتوسط في أغسطس 1914 ونجح في اللوذ بالآسِتانة. وكان من هذه السفن الطرادان الألمانيان «غوبين» (طراد قتال) و«بريسلاو» (طراد خفيف) اللذان بادرا برفع علم البحرية العثمانية لدى وصولهما إلى مضيق البوسفور. وقد تجلى الإرث القوي للنفوذ العسكري الألماني في الآسِتانة في هذه المرحلة تجليًا واضحًا في ظل عمل سوشون والسفير الألماني المتنفذ هانز فون فانغنهايم مع أنور باشا الموالي لألمانيا لتوجيه العثمانيين إلى المشاركة في الحرب، وهو ما حدث من خلال سلسلة من المناورات البحرية المجابهية قام بها سوشون في شهريْ سبتمبر وأكتوبر 1914 وبلغت ذروتها في قصف موانئ سيفاستوبول وأوديسا ويالتا الروسية في 29 أكتوبر[9].

وما إن ضُمن دخول الدولة العثمانية الحرب العظمى، انصب تركيز أهدافها العسكرية على إعادة الاستيلاء على الأراضي القوقازية التي خسرتها في الحرب الروسية التركية. وكان شن الدولة العثمانية حملة في المرتفعات الأرمينية في المنطقة

الواقعة بين شرقي تركيا وبحر قزوين سيلبي غرضيْن في الآسِتانة، أولهما استعادة إقليمي قارص وباطوم ورأس السكة الحديدية الروسية في مدينة ساريقاميش الصغيرة، والثاني تحويل القوات الروسية عن الجبهة الشرقية التي بدأت تتطور على الجبهتيْن البولندية والغاليسية. بالإضافة إلى ذلك، ستقطع هذه الخطوة إمكانية وصول روسيا إلى منطقة بحر قزوين الغنية بالنفط، لذا حازت على رضا العسكريين الألمان الذين كانوا يشغلون مراكز نفوذ في الجيش العثماني. وقد واجه الجيش الثالث العثماني جيشًا قوقازيًا روسيًا مستنزفًا بشدة بسبب اضطراره إلى نشر نصف قوته في الجبهة الشرقية في أعقاب تدمير الجيشيْن الأول والثاني في معركتيْ تاننبرغ وبحيرات ماسوريان الملحميتيْن في شهريْ أغسطس وسبتمبر. وبالنسبة للقيادة العليا العثمانية والروسية اللتيْن كانتا تصارعان للموازنة بين الطلب المتزاحم على نشر القوات في مسارح حرب متعددة، ساهمت الصعوبات اللوجستية والإدارية التي اشتملت عليها الحملات مساهمة كبيرة في الخسارة الهائلة في الأرواح التي تكبّدها كلا الجانبيْن.

وكان التحرك العثماني صوب ساريقاميش الذي بدأ في 22 ديسمبر 1914 أول هجوم كبير في إطار تلك الحرب، وقد جرى ذلك في قلب الشتاء في ساحة قتال تتألف من هضبة مرتفعة يصل ارتفاعها إلى نحو 2000 متر فوق مستوى سطح البحر ولا يمكن الوصول إليها إلا بالسير عبر ممرات جبلية مرتفعة. وأضافت العواصف الجليدية العاتية ودرجات الحرارة بالغة الانخفاض المزيدَ إلى التحديات اللوجستية الهائلة التي واجهت الجيشيْن العثماني والروسي المتجمعيْن كل في حصنه في أرضروم وفي قارص. وكانت الحملة العثمانية تهدف إلى تطويق الجيش الروسي المنهك وإجباره على الانهيار بقطع خطوط مواصلاته في ساريقاميش. وجرّأت التقارير العسكرية الألمانية التي تتحدث عن حدوث انهيار سريع في القيادة والسيطرة في الوحدات الروسية أثناء معركة تاننبرغ أنور باشا وجنرالاته في الجيش الثالث، لكن الخطة العملياتية العثمانية كانت تعتمد أشد الاعتماد على خفة الحركة وتحذو إلى حد كبير حذو التكتيكات النابليونية المتمثلة في تثبيت قوة العدو وتطويقها وتدميرها. بيد أن مكمن المشكلة تمثل في أن قسوة الأحوال الجوية الشتوية كانت تعني

ببساطة استحالة الوصول إلى مستوى سرعة الحركة المطلوب[10].

فقد شن الجيش الثالث هجومه في 22 ديسمبر، حيث واجه 118 ألف جندي عثماني ما مجموعه 65 ألف جندي روسي، لكن أغلبية أنور باشا العددية تدهورت بشدة إذ لم يكن بحوزة جيشه إلا ما يزيد قليلاً عن 200 قطعة مدفعية و75 رشاشًا. ومع ذلك ظل الفيلقان التاسع والعاشر التابعان للجيش الثالث يحققان في البداية تقدمًا مطردًا بطول جبهة كانت تمتد في بعض الأماكن إلى مسافة 930 ميلاً. وكان هذا كافيًا ليبث الذعر في البداية في قلوب القادة العسكريين الروس الذين أمروا قبل الأوان بإخلاء المنطقة برمتها، لكن سرعان ما بدأ الزخم العثماني يتباطأ إذ كان كثير من الجنود العثمانيين يفتقرون إلى الملابس الشتوية والمؤن الكافية، في حين أن عاصفة جليدية بدأت تهب في 25 ديسمبر زادتهم إنهاكًا على إنهاكهم فبدءوا يصابون بلسعات الصقيع وهبوط درجة الحرارة. وساءت الأوضاع في اليوم التالي فهلك عدة آلاف من الجنود العثمانيين من البرد بعد أن تدهورت درجة الحرارة إلى ما دون 26 درجة مئوية تحت الصفر. وبحلول الوقت الذي وصل فيه الجيش الثالث أخيرًا إلى ساريقاميش في 29 ديسمبر، كان رجاله يقتربون من نهاية قدرتهم البدنية على الاحتمال. فشن فيلقاه التاسع والحادي عشر هجومين من المركز على ساريقاميش في 29 ديسمبر و1 يناير 1915 لكنهما رُدا على أعقابهما متكبدين خسائر فادحة في الأرواح. ومع فقدان الهجوم العثماني زخمه، طوّقت القوات الروسية ذاتها الجيش الثالث وأبادت الفيلق التاسع عن بكرة أبيه. وفي 4 يناير، بدأ العثمانيون يتقهقرون إلى أرضروم التي وصلوها في 11 يناير منهزمين في حالة رثة[11].

ولا ريب أن التكلفة البشرية في الأرواح والمعاناة في ساريقاميش كانت هائلة، حيث لقي ما يصل إلى 47 ألف جندي عثماني و28 ألف جندي روسي حتفهم، أي ما يقارب نصف إجمالي الرجال الذين نُشروا في تلك العملية. وتشير التقديرات إلى أن 15 ألفًا من العثمانيين و12 ألفًا من الروس ماتوا نتيجة سوء الأحوال الجوية لا بسبب أعمال العدو، حيث تم استخراج عشرات الآلاف من الجثث المتجمدة بعد

أن انتهى القتال أخيرًا. بل إن هناك فرقة عثمانية خسرت وحدها 4 آلاف من أصل 8 آلاف رجل هم كامل قوتها بسبب لسعة الصقيع في أربعة أيام فقط في أثناء الحملة[12]. كما ترتّب على الافتقار إلى الطرق أو السكك الحديدية أن فاقم الحرمان من العتاد الصعوبات الناجمة عن الطقس الزمهريري وعدم وجود ما يكفي من مؤن. ونتيجة فناء غالبية الفيلق التاسع، بالإضافة إلى وباء التيفوس الذي اجتاح الجيش الثالث المنهك، لم يعد إلى أرضروم إلا أقل من خمس القوات العثمانية التي كانت قد انطلقت في الحملة[13]. وزادت محصلةُ الضحايا المريعة الناتجة عن الاشتباه في الخيانة وعن الأعمال الانتقامية التكلفة البشرية الهائلة للمعركة زيادة شديدة. وقد نوّه ستراكان إلى تعرض الطائفة الأَجَرِيّة (المسلمة) للقمع بلا رحمة على يد الإمبراطورية الروسية بعد انتهاء المعركة، مما قلّص أفرادها من 52 ألفًا إلى مجرد 7 آلاف فيما بين شهريْ فبراير وأبريل 1915، في بادرة تنذر بما سيحل بالأقليات الأخرى التي تشكّل المزيج القوقازي من الأمم والإثنيات[14].

بل وكان الأخطر من ذلك ما فعله العثمانيون بالعكس مع الطوائف الأرمينية التي تعيش داخل حدود السلطنة، حيث أنحى أنور باشا باللائمة في هزيمته الفوضوية على خيانتهم المزعومة. وكان ما بين 1.5 و2 مليون أرميني يعيشون في الدولة العثمانية (حوالي نصفهم يعيشون في شرقي الأناضول)، وإن كانت أعداد كبيرة أيضًا تعيش على الجانب الآخر من الحدود الروسية ولا سيما في البلدات القوقازية التي انتزعت روسيا السيطرة عليها من الآستانة في عام 1878. ولا شك أن حقيقة أن مجتمعات الأرمن كانت موجودة على كلا جانبيْ الحدود العثمانية الروسية قد جعلتهم عُرضة للخطر بشكل فريد من نوعه بعد اندلاع الحرب. والشيء الآخر أيضًا الذي جعلهم عُرضة للخطر هو حقيقة أنهم كانوا يمثلون أقلية مسيحية في حملة تُشن ضد أبناء ملتهم في روسيا. والحقيقة أن الزعماء الأرمن لم يكتفوا بالقسم على الولاء للآستانة في نوفمبر 1914 وتلبية أكثر من 100 ألف منهم أوامر التعبئة، بل إنهم رفضوا دعوة إخوانهم الأرمن الذين يعيشون على الجانب الروسي من الحدود إلى التمرد[15]. وإن كان عدة آلاف من الأرمن الذين يعيشون داخل السلطنة قد

قدموا مساعدات مادية إلى القوات الروسية وتحرشوا بالجيش الثالث العثماني أثناء تقهقره من ساريقاميش بخلاف الأرمن الذين يعيشون في روسيا الذين دعوا إلى المقاومة الشعبية ضد الغزو العثماني وعبّئوا جماعات من المتطوعين المحليين. وبالطبع فإن قرارات الأرمن في كل من الدولة العثمانية وروسيا كانت انعكاسًا لعقود من الاضطهاد على أيدي أنصار القومية التركية، في ظل ما وقع من مذابح قبل ذلك في تسعينات القرن التاسع عشر، وفي تاريخ أحدث من ذلك من عمليات طرد جماعي للأرمن بالإضافة إلى اليونانيين في وقت مبكر من عام 1914. وفي ظل انخراط العثمانيين آنذاك في صراع وجودي مع روسيا الأرثوذوكسية، عظُمت شكوك السلطنة في أقلياتها المسيحية واتخذت شكلًا شديد العدوانية[16].

الإبادة الجماعية للأرمن

بدأت الإبادة الجماعية للأرمن على أشدها في 24 أبريل 1915 باعتقال وترحيل الآلاف من الزعماء السياسيين والمثقفين الأرمن. وقد أثار هذا الفعل مذابح واسعة الانتشار أسفرت في النهاية عن مقتل ما يقدر بمليون أرميني. وشكّلت توليفة القتل المباشر والمسيرات القسرية عبر الصحراء السورية واحدًا من أبكر الأمثلة على ما يمكن أن يطلق عليه «جريمة ضد الإنسانية»، على الرغم من أن مصطلح «إبادة جماعية» لم يدخل المعجم إلا في عام 1944[17]. لكن هذا لم يحدث في فراغ، بل وقع بالأحرى في سياق مواجهة متزايدة المرارة بين النخبة العثمانية الإمبراطورية والهويات الوطنية المتقدة لدى الكثير من الأقليات، حيث كانت «الحركة الثورية الأرمينية» قد برزت في أواخر القرن التاسع عشر للدفاع عن المجتمعات والقرى الأرمينية ضد قهر وهجمات العثمانيين، وبالإضافة إلى تدشينها الحزب الديمقراطي الليبرالي الأرميني في مدينة وان في عام 1885 فإنها طورت الحركة القومية الأرمينية الوليدة وعمّقت وعيها الذي انتشر بسرعة بين المثقفين والشتات الأرميني[18]. وتجدر الإشارة إلى أن الاضطرابات الثورية قد طالت أيضًا الأرمينيين الذين يعيشون في الأقاليم الروسية في القوقاز، وبلغ هذا ذروته في انتفاضة قام بها الأرمن ضد الحكم

الروسي القهري في عام 1905 أسفرت عن مقتل الآلاف منهم في باكو وتبليسي (تفليس) وأريفان[19].

وفيما بين عامَيْ 1894 و1896، بلغت العلاقات المتوترة بين الأرمن والعثمانيين ذروتها في سلسلة من المذابح التي أسفرت عن قتل ما يصل إلى 100 ألف أرمني، وهي المذابح التي تُعرف باسم المجازر الحميدية والتي وقعت على خلفية اشتداد التأكيد على الهوية الإسلامية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (حكم في الفترة 1876 - 1909). كما أن التراجع الاقتصادي والمالي الذي شهدته الدولة العثمانية قد زاد من تعرُّض الأقليات الدينية الثرية نسبيًّا للهجمات المحرَّضة، وهكذا صار يُنظر إلى طوائف الأرمن داخل السلطنة نظرة ارتياب فيما أثيرت الشكوك في ولائها للباب العالي. واجتاحت نوبة من القتل والانتقام الآسِتانة والبلدات والمدن الواقعة في وسط وشرقي تركيا التي تضم طوائف أرمينية كبيرة، وهو ما أثار أيضًا استجابات مضادة، وذلك مثل الاقتحام الجسور للبنك السلطاني العثماني في الآسِتانة على أيدي الثوار الأرمن المطالبين بحماية أوروبية في أغسطس 1896. وفي مناطق أخرى، استهدفت الهجمات أقليات أخرى أيضًا مثل اليونانيين. ومن جديد، وكما هو الحال مع قتل البلغار في سبعينات القرن التاسع عشر، عبأت المحنة التي تتعرض لها أقلية مسيحية الرأي الدولي، وخصوصًا في أوروبا وفي الولايات المتحدة، وكلتاهما موطن لجاليات كبيرة من الأرمن المغتربين[20].

ويبدو أن الخسارة المتتالية لأقاليم عثمانية في ليبيا والبوسنة والبلقان في العقد الذي سبق عام 1914 قد صعّدت مشاعر القلق التي كانت تحس بها جمعية الاتحاد والترقي الجديدة التي وصلت إلى السلطة في الآسِتانة في عام 1908، مما أسفر عن إعادة نظر في «الهوية الإمبراطورية» اتخذت اتجاهات متباعدة نوعًا ما. ومن ناحية أخرى، تسبب التأكيد على الإسلام، على نحو ما ذكرنا من قبل، في ربط الأقاليم الكثيرة ببعضها بعضًا من خلال رباط الدين الموحِّد، وإنْ تطورت قومية ضيقة متمحورة حول الإثنية في قلب السلطة الأناضولي التركي وتحديدًا بين الجيل الجديد

المتحمس من أنصار اتحاد «تركيا الفتاة» المتولي السلطة في الآسِتانة[21]. وقد ذهب المؤرخ عالم الاجتماع التركي الكبير تانر أكجام إلى أن «الاتحاديين ببساطة استخدموا العثمانية ستارًا لسياسة تتريك البلد التي اتبعوها حول محور الإسلام»[22].

وقد وقع الأرمن واليونانيون، أبرز أقليتيْن في السلطنة وأكثرهما تنفذًا، بين شقي الرحى إذ كانت الفئتان مُعرضتيْن لاتهامات التعاطف مع المصالح الأجنبية. تلك الاتهامات التي ازدادت بعد أن أقدمت جماعات أرمينية تعيش في تركيا في عام 1912 على مناشدة روسيا مساندتها في إقامة كيان يتمتع بحكم ذاتي داخل السلطنة العثمانية تحت حماية قوة عظمى[23]. علاوة على ذلك، فإبّان حروب البلقان انتقل واحد من أشهر القادة العسكريين الأرمن إلى بلغاريا ونظّم وحدات متطوعين لمحاربة القوات العثمانية، مما أدى إلى مزيد من تصعيد التوترات بين الأتراك والأرمن قبل نشوب الحرب العالمية الأولى[24].

وفي فبراير 1914، انطلقت في أوروبا مفاوضات متعددة الجنسيات للوصول إلى اتفاقية إصلاحات أرمينية، واشتملت هذه المفاوضات على لجنة معينة خصيصًا تضم ممثلين فرنسيين وألمان وروس وبريطانيين وإيطاليين ونمساويين ومجريين للنظر في خطة روسية تقضي بإقامة إقليم أرميني موحد في شرق تركيا تحت رعاية حاكم مسيحي عثماني أو أوروبي. وكان الروس متلهفين لمنع أي انتشار لعدوى التوتر من شرقي الأناضول إلى المزيج الروسي المتقلب من الطوائف الإثنية والدينية في القوقاز. وقد أخفقت اللجنة في البداية، إلى حد ما بسبب معارضة ألمانيا والنمسا والمجر، واستمرت الأوضاع على الأرض في التدهور، وفي النهاية أبرمت اتفاقية تسوية في 8 فبراير 1914. وجاءت المسودة النهائية مخففة المفعول بشدة، مما يعكس الجهود المضنية التي بذلها السفير الألماني في الآسِتانةفانغنهايم. بيد أن هذا لم يمنع وزير الخارجية الروسي سيرغي سازونوف من تحذير السفير العثماني في سانت بطرسبرغ من أن روسيا ستتدخل في حالة حدوث أي عمليات قتل جماعي أخرى للأرمن[25].

وفي أغسطس 1914، صرح الاتحاد الثوري الأرمني علانية بدعمه السلطنة العثمانية في حالة وقوع أي حرب بينها وبين روسيا، وسافرت وفود إلى القوقاز لإثناء الأرمن عن التطوع لدى الجيش الروسي. ومع ذلك، كان بين الطوائف الأرمنية في الأقاليم العثمانية تعاطف هائل تجاه روسيا. وأبرز مثال على ذلك فرار ما يصل إلى 50 ألف جندي معظمهم من الأرمن من الحامية العثمانية في أرضروم وعبورهم إلى الخطوط الروسية فيما بين أغسطس ونوفمبر 1914 فقط. كما نظمّت فرق من محاربي العصابات نفسها على امتداد الجبهة العثمانية في القوقاز وبدأت تتلقى إمدادات على هيئة أسلحة وذخائر روسية. وكانت هذه الأسلحة والذخائر تهرّب عبر المنطقة الحدودية غير المحكمة، مما زاد من شبهات العثمانيين في وجود علاقة حميمة عابرة للحدود.26 ثم في أواخر فبراير، أمرت وزارة الحربية بنقل كافة المجندين الأرمن العاملين في الجيش العثماني من الخدمة النشطة إلى الخدمة الخاملة في كتائب العمل. وعمد أنور باشا إلى فصل الأرمن داخل القوات المسلحة لتقليل احتمال الفرار الجماعي إلى الوحدات الروسية، مما برهن أيضًا على انعدام ثقة الأستانة في ولاء الأرمن[27].

وقد بدأ القتل الجماعي للأرمن في أبريل 1915 عندما أبدى السكان في بلدة زيتان مقاومة عنيفة لمحاولات تجنيدهم. وكان جودت بك (الوالي العثماني على ولاية وان، صهر أنور باشا، المؤيد لاتباع سياسات قاسية تجاه الأرمن) قد أسند إليه هذا المنصب بعد اندلاع الحرب بفترة قصيرة في نوفمبر 1914 خلفًا لوالٍ آخر يميل إلى المهادنة. ويؤكد هنري مورغنتاو، السفير الأمريكي في الآستانة الذي عبأ وصفه المعاصر للمجازر الرأي الدولي عندما نشر في عام 1918، أن جودت بك «كان يكره الأرمن»، ويضيف أنه «ليس هناك أدنى شك في أنه جاء إلى وان حاملًا تعليمات حاسمة بإبادة جميع الأرمن في هذه الولاية، لكن الأوضاع لم تيسر حدوث مثل هذه العمليات على مدى الأشهر القليلة الأولى»[28].

وعلى أية حال فإن القوات العثمانية ضربت حصارًا في 19 أبريل على مدينة

وان وقاتلت المدنيين الأرمن المسلحين لمدة أربعة أسابيع قبل انسحابها. وبعد ذلك بخمسة أيام، وتحديدًا في 24 أبريل، جُمع الأعيان والمثقفون الأرمن في الآستانة واعتُقلوا بناء على أمر صدر من وزير الداخلية طلعت بك، ويُحتفى الآن بهذا التاريخ باعتباره «يوم ذكرى الإبادة الجماعية» في أرمينيا. وبحلول نهاية أبريل، كان نحو 50 ألف أرميني قد قُتلوا في ولاية وان في حملة عنف متصاعدة نسقتها «المنظمة الخاصة» التابعة لوزارة الحربية العثمانية، حيث أُطلق سراح 30 ألف سجين من السجون العثمانية لتشكيل نواة عصابات قتل، وإن عُززوا بعسكريين وأفراد شرطة من الولاية في إطار تنظيم منهجي للقتل الجماعي[29]. وقد واجهت جماعات الميليشيات هذه مقاومة متزايدة من جانب الطوائف الأرمينية المحلية لكن مناشدات الحماية اليائسة الموجهة إلى أبناء ملتهم النصارى في ألمانيا لم تجد نفعًا. فلم تكن لدى المسؤولين الألمان في برلين إلا أقل الرغبة في إحراج حليفهم العثماني، وبالتالي لم يقدموا احتجاجًا رسميًا، وإن كان نائب القنصل في أرضروم قد قام بمحاولة فاترة للجم الأنشطة العثمانية[30]. والواقع أن أولوية الفريق الألماني المتنفذ في الآستانة كانت تتمثل في الإبقاء على العثمانيين في الحرب وضمان عدم رحيلهم عن الحلف الثلاثي مثلما فعلت إيطاليا في عام 1914. وهو ما يفسر عدم ممارستهم ضغطًا كافيًا على حليفهم العثماني لوقف عمليات القتل أو محاولة تحسين أوضاع المرحلين الأرمن الناجين[31].

وبدأت عمليات الترحيل واسعة النطاق للأرمن على أشدها في مايو 1915، حيث استجابت السلطات للأحداث الجارية في وان بأن أمرت باتخاذ سلسلة من التدابير التي دعت إلى إبعاد الأرمن عن المناطق الحساسة التي تشهد عمليات عسكرية في القوقاز. وبناء على ذلك، أقرت اللجنة المركزية بجمعية الاتحاد والترقي في الآستانة في 30 مايو 1915 قانونًا مؤقتًا للترحيل سمح بترحيل أي شخص يعتبر تهديدًا للأمن القومي، وهو ما أفضى إلى إقامة سلسلة من معسكرات التجميع في الصحراء السورية لاستقبال المرحلين. وعلى الرغم من أن القانون لم يسمّ الأرمن صراحة باعتبارهم أهدافًا مقصودة، وأنه طال في الحقيقة الطوائف المسيحية الأخرى أيضًا،

فإن الأرمن كانوا أبرز ضحايا عمليات التشريد الجماعي التي حدثت بعد ذلك. وينوّه بيتر بالاكيان إلى أن تعريف الأشخاص الذين يمثلون تهديدًا للأمن القومي كان شديد الفضفاضية لدرجة أنه أعطى «إذنًا مطلقًا للشبكة الإدارية وفرق القتل بالعثور على الأرمن وترحيلهم وتنفيذ مجازر بحقهم». وفي 13 سبتمبر 1915، سن البرلمان التركي قانونًا آخر أتاح الاستيلاء على أملاك الأرمن ومواشيهم ومصادرتها[32].

ثم بدأت المجازر التي وقعت تحظى بتغطية إعلامية ضخمة في أثناء صيف 1915، ولا سيما في الولايات المتحدة، حيث تركّز الاهتمام على «مسيرات الموت» سيئة السمعة التي أُجبر فيها مئات الآلاف من الأرمن على السير من الأناضول إلى بلدة دير الزور السورية عبر الصحراء. وبالإضافة إلى التضاريس الصحراوية الوعرة والمناخ الصيفي القاسي، كان غالبية اللاجئين معوزين وسقطوا موتى بأعداد هائلة أثناء المسيرة. كما تعرّض كثيرون منهم، بما في ذلك النساء والأطفال، للسلب والاغتصاب والقتل على أيدي الجنود العثمانيين على امتداد الطريق. وترسم روايات الناجين التي جمعها دونالد ولورنا ميلر في إطار تأريخهما الشفهي للإبادة الجماعية صورة مروعة للبؤس الجماعي العام على امتداد الطرق من الأناضول إلى دير الزور:

في المحطة الأولى رأينا كثيرًا من الأرمن الذين وصلوا إلى هناك قبلنا بفترة وكانوا قد تحولوا إلى هياكل عظمية. لقد كنا محاطين بهياكل عظمية كثيرة جدًا مما جعل الأمر يبدو كما لو كنا في قلب الجحيم[33].

وفي أثناء سيرنا إلى القرية، كان الطريق على كلا الجانبين مملوءا بالجثث. لقد رأيت بأم عيني آلاف الجثث. لم أر كيف قتل أصحابها لكني رأيت الجثث... كان الوقت صيفًا، فكنت ترى شحوم الجسم وقد ذابت حول الجثة... كان الوضع سيئًا لدرجة أن الروائح الكريهة بدأت تفوح في كل مكان، لذا فإنهم [الأتراك] جمعوا كل الجثث وحرقوها بصب الكيروسين عليها[34].

وقد لاحظت «أغافني» في أثناء ترحيلها مئات من النساء الشابات ينتحرن بإغراق

أنفسهن في نهر الفرات. وقالت إن الأنهار كانت تعج بجثث البشر ممن قُتلوا على أيدي الأتراك وممن انتحروا غرقًا[35].

ووصفت رواية شاهد عيان آخر، قام بجمعها غوينتر لوي، عن الأوضاع في معسكر مرور عابر في مسكنة الواقعة على بعد 70 ميلًا شرقي حلب بسوريا أن «المعسكر كان يفد عليه الآلاف، لكن معظمهم لا يغادرونه أحياء»:

هؤلاء مجرد أشباح حية، حراسهم يوزعون عليهم كسرة خبز ضئيلة، وحتى هذا يحدث على فترات متباعدة. وأحيانا تمر ثلاثة أيام أو أربعة على هؤلاء الجوعى الذين ليس لديهم شيء يقتاتون به إلا هذه الكسرة من الخبز دون أن يتلقوا أي شيء مطلقًا. كما أوقعت الدوسنتاريا المخيفة العديد من الضحايا من بينهم، وخصوصًا بين الأطفال الذين كانوا ينقضون بشراهة على أي شيء تطاله أيديهم، فهم يأكلون العشب والثرى وحتى برازهم[36].

وينوّه كريستوفر ووكر في كتابه «أرمينيا: بقاء أمة» Armenia: The Survival of a Nation في حزن إلى أن كلمة «ترحيل» لم تكن إلا كناية عن القتل الجماعي، فلم تُوفر مؤن لرحلتهم ولا منفاهم، وكانوا يحرمون في معظم الأحوال من الطعام والماء إلا إذا استطاعوا رشوة الحراس». علاوة على ذلك، فإن من كُتب لهم البقاء منهم بعد تلك المسيرة انتهى بهم الحال في معسكرات تجميع بدائية في العراء، وقد قتل كثيرون آخرون في هذه المعسكرات على أيدي حراس سجنهم[37]. وبحلول أغسطس 1915، نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» رواية متفجرة لمحنة الأرمن وصف فيها شاهد عيان لم تسمّه كيف «تناثرت جثث المنفيين على الطرق وفي مياه نهر الفرات، وأن من كُتب لهم البقاء كان محكوم عليهم بالموت المؤكد»[38].

وفيما تصاعدت الفظائع المرتكبة، أبدى كثير من الأرمن مقاومة دفاعًا عن أنفسهم وسبل كسب عيشهم، مما تسبب في المزيد من إراقة الدماء حيث قام العثمانيون ردًّا على ذلك بتعبئة ميليشيات غير نظامية بين المجتمعات المسيحية

والكردية المحلية. وأسفر الاقتتال الضاري الذي اندلع في مناطق شرقي الأناضول عن المزيد من المجازر، وبلغ ذروته بنهاية 1915 بالإبعاد القسري للغالبية الساحقة من الأرمن عن المنطقة. وعمومًا أسفرت سلسلة عمليات القتل الجماعي ومسيرات الموت عن مقتل مئات الآلاف من الأشخاص وتسببت في فرار مئات الآلاف الآخرين إلى المناطق التي يسيطر عليها الروس في القوقاز. والمؤسف أنه لا يوجد إجماع في الرأي فيما يخص إجمالي عدد الوفيات التي حدثت في أثناء الإبادة الجماعية للأرمن، فالقضية متنازع عليها بشدة بين الحكومتيْن التركية والأرمينية المعاصرتيْن مع تراوح التقديرات بين 500 ألف نسمة وما يزيد على مليون نسمة[39]. وينوه مارتن غلبرت، من جانبه، إلى الحجم العارم للمذابح الفردية، كالقتل الجماعي للسواد الأعظم من سكان طرابزون الأرمن البالغ عددهم 17 ألف نسمة على مدى أسبوعيْن في عام 1915، وقتل نحو 15 ألفًا آخرين في بتليس في ثمانية أيام فقط. كما يورد غلبرت أيضًا أرقامًا تخص 600 ألف حالة وفاة بين الأرمن في أثناء مجازر ارتكبت في الأناضول و400 ألف آخرين في أثناء ترحيلهم ومسيراتهم القسرية في الصحراء السورية، بالإضافة إلى إكراه ما يصل إلى 200 ألف أرميني على اعتناق الإسلام[40].

وعلى أية حال، فإن الروايات العديدة التي جاءت على لسان شهود عيان حشدت الرأي الدولي، ولا سيما في الولايات المتحدة التي مكّنها حيادها حتى عام 1917 من الاحتفاظ بشبكة من القنصليات والمسؤولين في الولايات العثمانية. وفي سبتمبر 1916، شُكّلت «اللجنة المعنية بالفظائع الأرمينية» وتحولت فيما بعد إلى واحدة من «أبرز الوكالات الخيرية الدولية في التاريخ الأمريكي» حيث جمعت مبلغًا غير معقول من المال مقداره 116 مليون دولار من عام 1916 حتى إغلاقها في عام 1929[41]. والشيء الآخر الجدير بالملاحظة هو مذكرات هنري مورغنتاو، السفير الأمريكي في الآستانة فيما بين عامي 1913 و1916. فمنذ نشر مذكرات السفير مورغنتاو في عام 1918 وهي بمثابة مرجع مهم ومصدر أساسي لتتبع الفظائع التي ارتكبها العثمانيون ضد الأرمن. وكان هناك عمل معاصر مهم آخر، نُشر لأغراض الدعاية البريطانية إبان الحرب ضمن أغراض أخرى، وهو «معاملة الأرمن في السلطنة العثمانية» The Treat-

ment of Armenians in the Ottoman Empire. وقد تضمّن هذا الكتاب الذي وضعه السفير البريطاني السابق في الولايات المتحدة الفايكاونت برايس والمؤرخ البارز أرنولد توينبي روايات لشهود عيان وإفادات أدلى بها ناجون من المذابح. وعلى الرغم من أن الكتاب تعرّض لانتقادات شديدة منذ ذلك الحين لاشتماله على جزء من حملة دعائية في زمن الحرب ضد السلطنة العثمانية، فإن الشهادات المستفيضة التي تضمّنها لعبت دورًا كبيرًا في تعبئة الرأي الدولي لدى نشره في عام 1916.

بلاد فارس وأرضروم (1915 - 1916)

انصبّ التركيز الرئيس للمجهود الحربي العثماني طوال ما تبقى من عام 1915 على صد محاولات الحلفاء الاستيلاء على شبه جزيرة غاليبولي. وكانت الموارد التي تدفقت على الحملة التي نجحت في نهاية المطاف انعكاسًا لما كان سيترتب على الهزيمة في الدردنيل من تداعيات خطيرة على محض وجود السلطنة. وقد مات أكثر من 60 ألف جندي وأصيب نحو ربع مليون آخرين في أثناء هذه الحملة التي استمرت أحد عشر شهرًا. وكانت تلك أعدادًا هائلة قلما أمكن تعويضها. وروسيا هي الأخرى كانت منخرطة في سلسلة من المعارك الطاحنة على جبهتها الغربية (الأوروبية) ضد إمبراطوريتيْ ألمانيا والنمسا والمجر. وكانت القوات النمساوية المجرية قد دحرت الروس في أثناء عام 1915 واستعادت السيطرة على مدينتيْ تشيرنوفيتس وبرودي على جبهة هابسبورغ، وقد أخفق الروس في محاولتهم شن هجوم مضاد في منتصف ديسمبر وتكبّدوا خسائر فادحة. غير أن الأخطر تمثل في الأنباء التي تتحدث عن اجتياح الجيش الألماني بولندا الروسية والأقاليم الليتوانية في الإمبراطورية الروسية. وبدأ الزحف النمساوي المجري العام بعد نجاح الإمبراطورية الساحق في معركة غورليس تارنو في مايو 1915، مما أسفر عن انهيار تام للخطوط الروسية وبداية تراجع استراتيجي إلى داخل روسيا ذاتها. وفي هذه الأثناء، بدأ الإنهاك المتزايد من الحرب في روسيا يتجلى في حركة متنامية مناهضة للحرب وسلسلة متصاعدة من الإضرابات، بما في ذلك إضرابان وقعا في يناير 1916 بين

عمال الميناء في القاعدتيْن البحريتيْن في نيكولاييف وسانت بطرسبرغ على نحو تزامن مع استئناف العمليات في القوقاز[42].

ومن ثم كانت القيادة العليا العثمانية والروسية منهكة عسكريًا بفعل معارك 1915، وإنْ كانت هذه المعارك قد أسفرت عن نجاح مذهل للعثمانيين استنهض روحهم المعنوية، وذلك على نحو يتناقض تناقضًا صارخًا مع سلسلة الانتكاسات العسكرية التي مُنيت بها القوات الروسية. بالإضافة إلى ذلك، تضررت المؤسستان العسكريتان في كلا البلديْن من صعوبات صيانة جيوش كبيرة في القوقاز البعيدة، وخصوصًا عند مواجهة مثل تلك التهديدات المباشرة لقلب الإمبراطورية. وقد شكّلت المسافة الطبيعية بطول الجبهة صعوبات إضافية أمام شن حملة فعالة في القوقاز، ونجَم عنها أن تألّف النشاط على الجبهة في صيف وخريف 1915 إلى حد كبير من هجمات وهجمات مضادة منفصلة، فيما قام الروس بمحاولات متكررة للاستيلاء على مدينة أرضروم العثمانية. وأسفرت هذه المحاولات عن خسائر فادحة في الأرواح على كلا الجانبيْن لكن أخفقت في تحقيق اختراق استراتيجي لأي من المتحاربيْن، فكانت النتيجة توقفًا مؤقتًا في العمليات فيما استقرت الجبهة مع محاولة القوات العثمانية والروسية إعادة التجمع واستعادة قدرتهما القتالية[43].

ولقد أحدث انتهاء العمليات العسكرية الكبرى في غاليبولي في ديسمبر 1915 تحولًا في الموقف، حيث صارت آنذاك أعداد كبيرة من فرق المشاة العثمانية متاحة للعمليات في أماكن أخرى، على الرغم من وقوع خلاف كبير حول مكان نشرها وكيفيته. فكان أنور باشا يرغب في الإبقاء على العمليات الهجومية، فيما كان مصطفى كمال (بطل غاليبولي) يؤْثر اتخاذ موقف دفاعي. وتماشيًا مع رغبات أنور باشا، قام بنشر القوات العثمانية في ولايات قاصية بدلًا من تركيزها في احتياطي استراتيجي حول الآستانة والأناضول. ومع اقتراب عام 1915 من نهايته، كان يجري إعادة تنظيم القوات العثمانية في مسرح الحرب القوقازي على هيئة قوتيْ حملة والجيش الثالث الذي كان قد أعيد تجميعه تدريجيًا في أعقاب الانتكاسة الساحقة

التـي تعـرض لها فـي سـاريقاميش فـي شـهر ينايـر[44]. وفيمـا بيـن نوفمبـر 1915 وفبرايـر 1917، سـتتكبّد السـلطنة العثمانيـة ثلاثـة أربـاع خسـائرها البشـرية كافـة علـى جبهـات القتـال الروسـية، ممـا سـيضعف قـدرة السـلطنة العسـكرية قبـل النجاحـات البريطانيـة النهائيـة فـي فلسـطين وبـلاد الرافديـن فـي عـام 1918[45].

وأمـا الـروس فقـد تفاقـم إنهاكهـم بسـبب قـرار إرسـال قـوة كبيـرة إلـى بـلاد فـارس فـي نوفمبـر 1915 مـن أجـل اسـتباق الشـائعات التـي كانـت تتحـدث عـن احتمـال دخـول البلـد الحـرب فـي صـف الألمـان والعثمانييـن. وفجـأة نحّـت بريطانيـا جانبًـا شـواغلها القديمـة، وهـي التـي يعـود تاريخهـا إلـى القـرن التاسـع عشـر، بشـأن المطامـع الروسـية الشـديدة في بـلاد فـارس وآسـيا الوسـطى لأجـل صالـح الحـرب. وبدايـة مـن ديسـمبر 1915، تقدمـت قـوة حملـة قوقازيـة بقيـادة اللـواء نيكـولاي باراتـوف بسـرعة داخـل بـلاد فـارس، فاسـتولت علـى مـدن قـم وكنغـاور وكرمانشـاه وأصفهـان بحلـول مـارس 1916. ووضعـت تلـك الانتصـارات المتتاليـة القـوات الروسـية علـى مسـافة تزيـد قليـلًا عـن 100 ميـل عـن الحـدود الفارسـية مـع بـلاد الرافديـن العثمانيـة. والمفارقـة السـاخرة أن هـذا وضـع باراتـوف موضعًـا قريبًـا نسـبيًّا مـن الحاميـة البريطانيـة المحاصـرة التـي كان تحـاول فـي اسـتماتة تفـادي استسـلام مـذلّ فـي كـوت العمـارة. وعلـى الرغـم مـن تلقـي باراتـوف أوامـر مـن القيـادة الروسـية الإقليميـة فـي تبليسـي بالزحـف ودخـول بـلاد الرافديـن لإغاثـة الفرقـة الهنديـة السادسـة بقيـادة الجنـرال تاونسـند، فإنـه لـم يقـدر علـى ذلـك ولـم يكـن مسـتعدًّا لفعلـه، وكان مـا زال فـي أرض فـارس عندمـا استسـلمت الحاميـة فـي 29 أبريـل[46].

كان قائـد القـوات الروسـية فـي القوقـاز فـي هـذا الوقـت الفريـق نيكـولاي يودينتـش (وهـو الـذي كان يعمـل بجانـب الـدوق الأكبـر نيكـولاس). وبـدأ يودينتـش يحضّـر لهجـوم شـتوي معتقـدًا أن هـذا سـيأخذ الأتـراك علـى حيـن غـرة فـي أعقـاب تجربتهـم الكارثيـة مـع الحمـلات الشـتوية فـي 1914. وقـد آتـى هـذا الرهـان أُكلـه فـي معركـة كابروكـوي فـي مطلـع ينايـر 1916 عندمـا فاجـأ يودينتـش الفيلـق الحـادي عشـر العثمانـي مفاجـأة تامـة. وكان الجيـش القوقـازي الروسـي الـذي شـن هجومـه فـي 10 ينايـر يتمتـع بميـزة عدديـة

كبيـرة مكنتـه مـن التفـوق علـى الفيلـق الحـادي عشـر ودفـع الجيـش الثالـث برمتـه إلـى التقهقـر تمامًـا. ومثلمـا حـدث بالضبـط فـي سـاريقاميش، قبـل ذلـك بعـام، انسـحب الجيش الثالـث فـي حالـة مـن الفوضـى نحـو أرضـروم بعـد أن تكبّـد خسـائر فادحـة بشـكل غيـر عـادي تركـزت فـي الفيلـق الحـادي عشـر المحاصـر. ولكـن الفـرق فـي ينايـر 1916 تمثـل فـي أن التقـدم الروسـي اسـتمر هـذه المـرة وصـولًا إلـى أرضـروم ذاتهـا، متوجًـا بالاسـتيلاء علـى ثالـث أقـوى حصـن فـي السـلطنة العثمانيـة كلهـا، وذلـك فـي 16 فبرايـر. ولا شـك أن سـقوط أرضـروم شـكّل انتصـارًا اسـتراتيجيًا غيـر عـادي للـروس وكارثـة للعثمانييـن، حيـث كان الدفـاع عـن شـرق الأناضـول برمتـه يعتمـد علـى هـذه المدينـة[47].

وقـد خُلّـد الاسـتيلاء علـى أرضـروم فـورًا فـي الذاكـرة الشـعبية بـأن صـار السـياق الـذي تـدور فيـه أحـداث النهايـة فـي روايـة «العبـاءة الخضـراء» Greenmantle للمؤلـف جـون بـكان. كانـت حبكـة الروايـة المثيـرة التـي نشـرت فـي أكتوبـر 1916 بعـد معركـة أرضـروم الفعليـة بفتـرة وجيـزة، والتـي كُتبـت فيمـا كان بـكان يعمـل فـي مكتـب الدعايـة الحربيـة فـي لنـدن (قبـل أن يصيـر مديـر الاسـتخبارات فـي وزارة الإعـلام)، تـدور حـول خطـة ألمانية مفترضـة لاسـتغلال الديـن لتحريـض المسـلمين علـى الانتفـاض ضـد البريطانييـن فـي العالـم المسـلم. وتجمـع الشـخصية الرئيسـة فـي الروايـة، وهـي شـخصية سـاندي أربثنـات («ذو العبـاءة الخضـراء»)، بيـن كل مـن لورنـس العـرب والدبلوماسـي ضابـط الاسـتخبارات البريطانـي البـارز أوبـري هربـرت. وفـي المشـهد الأخيـر الـذي يمثـل ذروة الروايـة، يقـود سـاندي هجـوم الخيالـة علـى أرضـروم الـذي ينجـح فـي إحبـاط المؤامـرة الألمانيـة:

كان فـي المقدمـة القريبـة آنـذاك مـن أسـوار المدينـة رجـل يشـبه الرمـح الفـولاذي الـذي سـرعان مـا سيُغمد فـي الصـدور... فيمـا كان يمتطـي صهـوة جـواده بـدا أن الأتـراك الفاريـن تجمـدوا بـلا حـراك وسـقطوا علـى جانـب الطريـق متابعيـن بأعينهـم المحدقـة شـخصه الـذي لـم يلتفـت إليهـم... عندئـذ أدركـت أن النبـوءة كانـت صحيحـة وأنهـا لـم تخذلهـم، وأن الرؤيـا التـي طـال انتظارهـا تحققـت. أخيـرًا ظهـر ذو العبـاءة الخضـراء للجمهـور الـذي ينتظـره[48].

وعلـى أيـة حـال، تواصـل قتـال ضـار حـول أرضـروم طـوال بقيـة السـنة. وفـي البدايـة حافظـت القـوات الروسـية علـى الزخـم الهجومـي واسـتولت علـى مدينـة بتليـس فـي 2 مـارس ومدينـة طرابـزون ذات الأهميـة الاسـتراتيجية بمينائهـا المطـل علـى البحـر الأسـود فـي أبريـل 1916. وكان جيـش القوقـاز آنـذاك متوغـلاً بعمـق فـي الأناضـول وبـدا مهيـأ للقيـام بالمزيـد مـن التقـدم الكاسـح فـي اتجـاه وسـط الأناضـول أو فـي بـلاد الرافديـن. عـلاوة علـى ذلـك، فتـح الاسـتيلاء علـى طرابـزون خطـوط المواصـلات البحريـة عبـر البحـر الأسـود وصـولاً إلـى ترتيبـات اللوجسـتيات والإمـداد الروسـية. ولكـي يتفـادى الجيـش الثالـث العثمانـي حـدوث هـذا حـاول اسـتعادة السـيطرة علـى طرابـزون فـي يونيـو 1916 لكنـه رُد علـى أعقابـه فـي 2 يوليـو، وذلـك بعـد نشـوب معركـة السـوم بالغـة الأهميـة علـى الجبهـة الغربيـة بيـوم واحـد. بـل والأسـوأ مـن هـذا بالنسـبة للعثمانييـن أن يودينتـش شـن علـى الفـور هجومـا مضـادًا مـن جانبـه، ممـا أسـفر عـن اسـتيلاء الـروس علـى مركـز اتصـالات العثمانييـن فـي أرزينجـان فـي 25 يوليـو[49].

وجـاءت هـذه النجاحـات فـي حملـة القوقـاز فـي وقـت سـانح للمجهـود العسـكري الروسـي بشـكل عـام. ففـي 4 يونيـو 1916، كان هجـوم بروسـيلوف قـد شُـن ضـد دول المركـز علـى الجبهـة الشـرقية (فـي أوكرانيـا الحديثـة) واختـرق الصفـوف النمسـاوية المجريـة عبـر جبهـة واسـعة آخـذًا أكثـر مـن 70 ألـف أسـير فـي الأيـام الخمسـة الأولـى وحدهـا. وكان هـذا نجاحًـا مذهـلاً تـرك النمسـاويين يترنحـون. ولكـن الزحـف سـرعان مـا تباطـأ بسـبب توليفـة مـن التأخيـرات وسـوء التخطيـط العملياتـي مـن جانـب الجنـرال ألكسـي إيفـرت قائـد مجموعـة الجيـوش الغربيـة الروسـية، واتسـاع خـط الجبهـة أكثـر ممـا ينبغـي، واندفـاع التعزيـزات الألمانيـة إلـى الجبهـة. وعلـى الرغـم مـن تواصـل العمليـات الهجوميـة طـوال الصيـف، فإنهـا عجـزت عـن إحـراز تقـدم، وأصيـب الجنـود بالإنهـاك. كمـا بـدأ أيضًـا الآلاف مـن الجنـود الـروس يتخلـون عـن مواقعهـم حيـث تدهـورت الأوضـاع علـى امتـداد الخطـوط الأماميـة الروسـية وانخفضـت الـروح المعنويـة إلـى الحضيـض[50].

ومـع أن نجـم الـروس بـدا فـي صعـود بحلـول منتصـف 1916 حيـث حققـوا تقدمًـا

كبيرًا على الجبهتيْن النمساوية والعثمانية، فإنهم لم يكونوا على دراية بالاضطرابات التحويلية التي توشك فصولها أن تتكشف. والحقيقة أن المجهود الحربي الروسي كان يحقق نتائج مذهلة في ظل توسع التعبئة الصناعية توسعًا سريعًا حيث تضاعف إنتاج قذائف المدفعية أكثر من الضعفيْن من عام 1915 إلى عام 1916، وساهم ذلك مساهمة كبيرة في النجاح المبكر الذي حققته هجمات 1916[51]. غير أن فقدان هجوم بروسيلوف زخمه في النهاية أحدث شرخًا نهائيًا في قشرة النجاح الخارجية وكشف عن معارضة داخلية محتدمة لمواصلة الحرب. فضلًا عن أنه بحلول أواخر عام 1916 كان اجتماع الخلل الاقتصادي والتشرد الداخلي الجماعي في روسيا يخلق أرضًا خصبة لتعبيرات جديدة عن المعارضة السياسية بل والثورية للنظام القيصريّ. ثم جاء فوق ذلك تدفق ما بين 200 ألف و300 ألف لاجئ أرميني إلى داخل روسيا فأضاف المزيد إلى أعباء نظام اقتصادي على شفا الانهيار، حيث كانت غالبية الوافدين الجدد من البائسين الذين يعانون من سوء التغذية ويحتاجون إلى مساعدة طبية وإنسانية عاجلة[52].

ثورة في روسيا

بحلول شتاء 1916 - 1917، كانت السلطة القيصرية قد بدأت تتعرض لهجوم غير مسبوق. فعلى الرغم من الحملة المشددة من رقابة الدولة وإنشاء مجالس خاصة لتعبئة وإدارة اقتصاد الحرب الروسي، ازداد السخط الشعبي في المراكز الحضرية والصناعية الرئيسة زيادة حادة أثناء أشهر خريف عام 1916. وشهد المحيط الإمبراطوري انتفاض مناطق كبيرة من آسيا الوسطى ثائرةً في منتصف عام 1916 حيث أبدى الناس ردود أفعال ساخطة على صعوبات زمن الحرب، وخصوصًا النقص المتزايد في الغذاء والسلع الأساسية وتدفق أعداد كبيرة من اللاجئين وفرض مطالب باهظة للتجنيد في الوحدات العسكرية ووحدات العمل. وببساطة يمكننا القول إن روسيا، على غرار الاقتصادات الأخرى التي تهيمن عليها الزراعة، قد «عانت نقصًا في الغذاء قبل أن تعاني نقصًا في البنادق والقذائف بزمن طويل». وكان هذا يعكس الصعوبات

العميقـة المتمثلـة فـي تنظيـم اقتصـادات الفلاحيـن للحـرب حيـث إن التعبئـة الصناعيـة سـحبت المـوارد مـن الزراعـة، وخصوصًـا الأيـدي العاملـة والخيـل[53]. وكمـا سـنحلّل فـي الفصـول التاليـة التـي تتنـاول أثـر متطلبـات الأيـدي العاملـة علـى مصـر وبـلاد الرافديـن، تداخـل اسـتدعاء القـوة البشـرية للخدمـة العسـكرية مـع الأنمـاط الزراعيـة كثيفـة الأيـدي العاملـة حيـث تزامـن مـع موسـم جنـي القطـن (وسـيتزامن الطلـب البريطانـي علـى الأيـدي العاملـة المصريـة فـي عامـيْ 1917 و1918 مـع موسـم حصـاد القمـح)[54]. ولقـد اتسـعت رقعـة الثـورة لتشـمل جماعـات متمرديـن جيـدة التنظيـم فـي كازاخسـتان وقيرغيزسـتان وأوزبكسـتان قبـل أن تُسـحق بـلا رحمـة بنهايـة عـام 1916، مـع فـرار مـا يصـل إلـى نصـف مليـون قازاقـي أو ترحيلهـم إلـى الجهـة الأخـرى مـن الحـدود إلـى الصيـن[55].

ومـا كان أشـد إثـارة لقلـق القيصـر أن هـذه القلاقـل المتناميـة علـى محيـط الإمبراطورية قابلتهـا قلاقـل متصاعـدة فـي قلـب الإمبراطوريـة حيـث تصاعـدت حلقـات مـن القلاقـل الاقتصاديـة والاجتماعيـة بشـكل ملحـوظ فـي أثنـاء خريـف 1916، فيمـا ازدادت الإضرابـات مـن حيـث معـدل حدوثهـا وحجمهـا. وقـد تقاطـع الشـعور الشـعبي بالإحبـاط تجـاه السـلطات، ومـا اعتُبـر سـوء إدارة مـن جانبهـا للمجهـود الحربـي، مـع سـخط عميـق علـى توجيـه السياسـات المحليـة. فتـرك هـذا القيصـر مكشـوف الجانـب بشـكل خطيـر وجعلـه هدفًـا لمشـاعر الغضـب فـي أعقـاب قـراره فـي عـام 1915 تنصيـب نفسـه قائـدًا عامًـا للقـوات المسـلحة تـاركًا مسـؤولية حكـم روسـيا إلـى زوجتـه الألمانيـة المولـد (عديمـة الشـعبية) القيصـرة ألكسـندرا. والمؤكـد أن خلفيـة ألكسـندرا الألمانيـة كانـت تثيـر الكثيـر مـن التعليقـات والغضـب مثلهـا مثـل التأثيـر البـارز للمتصـوف المعالـج الروحـي غريغـوري راسـبوتين علـى عمليـة وضـع السياسـات الإمبراطوريـة. ولا شـك أن اغتيـال راسـبوتين فـي ديسـمبر 1916 كان بمثابـة مؤشـر علـى مسـتويات الغضـب الجياشـة علـى الحكـم القيصري. ومـن ثـم تلاقـت الانتكاسـات العسـكرية والسـخط المتنامـي علـى سـوء الحكـم السـلطوي لتنصـبّ آثارهمـا علـى الأسـرة الإمبراطوريـة. زد علـى ذلـك مـا تزامـن مـع مـا سـبق مـن غـلاء فـي أسـعار الأغذيـة وضغـوط تضخميـة عامـة قلّصـت الدخـول الزهيـدة التـي كانـت تحققهـا الأسـر المكافحـة مـن أجـل البقـاء فـي ظـروف الحـرب ومـا فيهـا مـن مشـاق[56].

وبحلول أواخر 1916 وأوائل 1917 تجلى الغضب الشعبي المتصاعد في موجات من الإضرابات استهدفت التعبئة الصناعية والعسكرية في روسيا. وكان آلاف العمال والجنود يجتمعون سويًّا في المصانع أو منازل الإيواء وهو ما يسّر تأثير هذه الملتقيات وعظمه في آن واحد. وقد وصلت الأمور إلى مرحلة درامية في فبراير 1917 عندما بدأت سلسلة من الإضرابات الشاملة في مصانع رئيسة في سانت بطرسبرغ، وفي غضون أيام كان ما بين 200 ألف و300 ألف عامل مصنع في حالة إضراب. ثم بدأت «ثورة فبراير» التي أطاحت بالقيصر من سدة الحكم بتعبئة جماعية للعمال الصناعيين في مصنع بوتيلوف للآلات، واستمدت زخمًا من التجمعات والملتقيات السياسية والمظاهرات احتفالًا باليوم الدولي للمرأة، وأفضت إلى توقف شبه تام في النشاط الصناعي والتجاري في المدينة بحلول 25 فبراير. وقد تآزر الطلاب والعمال للمطالبة بخلع القيصر وإنهاء ضلوع روسيا في الحرب، فرد القيصر نيقولا الثاني على ذلك بأن أمر الجيش بإخماد القلاقل بالقوة في 26 فبراير لكن آلاف الجنود تمردوا ورفضوا طاعة أمر قائدهم[57].

ومع الانحسار السريع في سلطة النظام القيصري، ومهاجمة رموز السيطرة الحكومية وتدميرها، تحركت الجماعات السياسية المعارضة لملء هذا الفراغ. وأنشأ مجلس الدوما لجنة مؤقتة في محاولة لاستعادة القانون والنظام في حين دشنت المنظمات الاشتراكية «سوفييت بتروغراد» لتمثيل العمال والجنود. وأدى تقاطُع الجنود المتمردين مع القلاقل الصناعية الجماعية إلى إمالة كِفة الميزان نحو جيَشان ثوري. ثم تداعت آخر آثار السلطة الإمبراطورية بفشل خطط جاءت كمحاولات أخيرة لنقل السلطة إلى ابن القيصر أليكسي أولًا ثم لشقيقه الدوق الأكبر ميخائيل. فلم تجد هذه الخطط أي دعم سياسي حيث انهارت السلطة الحكومية في المدن الكبرى، ثم احتُجز القيصر نفسه على أيدي جنود خونة في 1 مارس ليعلن أخيرًا تنازله عن العرش في اليوم التالي الموافق 2 مارس 1917، مما وضع بالتالي نهاية لثلاثة قرون من حكم أسرة آل رومانوف في روسيا[58].

ولقد حلّت محل القيصر حكومة مؤقتة شكّلها أعضاء مجلس الدوما وترأسها الأمير غيورغي لفوف ثم ترأسها ألكسندر كيرينسكي التابع للحزب الثوري الاشتراكي. ولخّص اختيار رئيسيْ الوزراء هذيْن الاتجاهات المتباعدة داخل الكفاح الثوري فيما بعد الإمبراطورية. فعلى الرغم من أن الحكومة المؤقتة مارست السلطة والسيطرة بشكل اسميّ، فإنها لم تحتكر سلطة سياسية شرعية في روسيا حيث كان حكمها يواجه نزاعًا على الأرض من جانب شبكة من السوفيتات (مجالس العمال) تسيطر عليها فصائل اشتراكية أشد راديكالية. فتواصلت أحداث الإضراب والتمرد في أثناء الفترة المتقلبة التي أعقبت ثورة فبراير مما سمح للتنظيمات النضالية مثل الحزب البلشفي بإحراز تقدم داخل السوفييتات. ووصلت الخلافات إلى ذروتها على خلفية قرار الحكومة المؤقتة المثير للجدل مواصلة مشاركة روسيا في الحرب وإعادة تأكيدها على أهداف الحرب التي سبق أن أعلنها القيصر. فشن كيرينسكي هجومًا جديدًا رئيسًا على الجبهة النمساوية المجرية في يونيو 1917، وذلك تحت ضغط كبير إلى حد ما من الحلفاء في أعقاب حالات التمرد واسعة النطاق في الجيش الفرنسي والبوادر المتصاعدة على إنهاك الحرب في بريطانيا[59]. ومن جديد، سرعان ما أفسح النجاح المبكر الطريق للإخفاق النهائي حيث شن العدو هجومًا مضادًا قويًا فتكبدت الوحدات الروسية خسائر فادحة. ورفض كثير من الجنود اتباع الأوامر بالعودة إلى ميدان المعركة وسرعان ما تطور وضع ثوري جديد في أثناء أزمة «أيام يوليو». وعلى الرغم من تفادي الحكومة المؤقتة الإطاحة الفورية، فإنها تُركت في حالة من الفوضى وسقطت في النهاية في مواجهة البلاشفة الذين استولوا على السلطة في أثناء ثورة أكتوبر في 25 أكتوبر 1917[60].

وخلال هذه الفترة التي سادتها الفوضى والاضطرابات، ظلت جبهة القوقاز هادئة على الرغم من إعادة تأكيد الحكومة المؤقتة في 4 أبريل 1917 على هدفها من الحرب المتمثل في انتزاع السيطرة على مضيق الدردنيل والآستانة ذاتها. والجدير بالملاحظة أن إعلان النوايا هذا الذي أصدره وزير الخارجية الجديد بافيل ميليوكوف تعرّض فورًا وعلانية للتنصل من جانب سوفييت بتروغراد والشجب من جانب

الزعيـم البلشـفي الطمـوح فلاديميـر لينيـن بوصفـه إعلانًـا «إمبرياليًّـا بالكليـة»[61]. وهكـذا تُـرك ميليوكـوف محرومًـا مـن الحلفـاء السياسـيين بفضـل دعمـه القـوي لمواصلـة الحـرب فاسـتقال مـن منصبـه فـي شـهر مايـو، فيمـا اضطـرت الجيـوش الروسـية فـي القوقـاز وبـلاد فـارس إلـى هضـم واسـتيعاب الأمـر رقـم 1 الـذي صـدر فـورًا بعـد ثـورة فبرايـر والـذي ألغـى معظـم رتـب الضبـاط واسـتبدل بهـا «سـوفييتات الجنـود». وعلـى الرغـم مـن هـذا، أشـارت البحـوث التـي أجريـت مؤخـرًا إلـى أن الجيـوش الروسـية فـي الشـرق الأوسـط ظلـت جاهزة مـن الناحيـة العملياتيـة لاسـتئناف الهجـوم، وذلـك فـي أعقـاب النجاحـات التـي تحققـت فـي عـام 1916، مـع عـدم اقتصـار قـوة باراتـوف فـي بـلاد فـارس علـى الاستمسـاك بموطـئ قدمهـا فـي شـمال بـلاد الرافديـن طـوال عـام 1917 فحسـب، بـل شـنها هجومًـا صغيـرًا فـي تاريـخ متأخـر فـي ينايـر 1918 ضـد قـرة تبـة فـي شـمال شـرقي بـلاد الرافديـن[62].

الكبرياء الإمبراطوري

علـى الرغـم مـن أن السـلطنة العثمانيـة عاشـت أطـول مـن الإمبراطوريـة الروسـية، فـإن هـذا لـم يحـدث دون أن يمسـها أذى. فالحمـلات التـي جُـرّدت فـي القوقـاز ألحقـت ضـررًا لا مثيـل لـه بالآلـة العسـكرية العثمانيـة. فأثنـاء الخمسـة عشـر شـهرًا التـي انقضـت بيـن نهايـة العمليـات البريطانيـة الرئيسـة فـي غاليبولـي فـي نوفمبـر 1915 وبدايـة الانسـحاب الروسـي مـن الحـرب الشـرق أوسـطية فـي فبرايـر 1917، تكبّـدت الدولـة العثمانيـة ثلثـيْ خسـائرها فـي الأرواح كافـة فـي الحملـة الروسـية. وكمـا نـوّه مالكـوم يـاب، فـإن هـذا الرقم شـكّل تـآكلًا للمـوارد العثمانيـة مـن قـوة بشـرية وعتـاد، وأضعـف مركز السـلطنة العسـكري بشـدة فيمـا كانـت الحملتـان البريطانيتـان فـي فلسـطين وبـلاد الرافديـن مهيأتيـن للتوسـع فـي النطـاق والحجـم[63]. وبعـد جرعـة الحمـاس التـي تمخـض عنهـا الدفـاع الناجـح عـن الدردنيـل فـي مواجهـة الهجـوم الإنجليـزي الفرنسـي، فعـل القتـال فـي القوقـاز الكثيـر لإضعـاف ضغـط الهجـوم العثمانـي فيمـا تباطـأ الزخـم إلـى حـد التوقـف. فالجيـش الثالـث العثمانـي تلاشـى عمليًـا مـن الوجـود باعتبـاره قـوة قتاليـة بحلـول صيـف 1916، وأتـت العمليـات المتواصلـة فـي القوقـاز علـى شـطر كبيـر مـن الجيـش الثانـي العثمانـي فـي

أثناء شتاء 1916 - 1917 حتى فيما كانت روسيا تترنح متجهة صوب الثورة. والحقيقة أن إجمالي عدد المقاتلين العثمانيين انخفض انخفاضًا حادًا من ذروته عند 800 ألف جندي في عام 1915 إلى 400 ألف جندي في مارس 1917 قبل أن ينتصف من جديد فيصير قوامه 200 ألف جندي في مارس 1918[64].

وكما سيبين الفصلان الخامس والسادس، تجلى الإنهاك العسكري في 1917 - 1918 مع ازدياد ضعف القوات العثمانية في فلسطين وبلاد الرافدين. وعلى الرغم من قدرة المجهود الحربي العثماني على إلحاق هزائم مهمة بالقوات البريطانية والهندية في بلاد الرافدين في أبريل 1916 وفي فلسطين في مطلع عام 1917، فإنه لم يقدر على التصدي إلا قليلًا لما تلا ذلك من حشد لقوات العدو في كلتا المنطقتيْن. وبالطبع أضافت مشكلة الإمداد والنقل في تضاريس القوقاز وآسيا الوسطى الشاسعة الوعرة عبئًا هائلًا إلى الصعوبات التي كانت في مواجهة القوات العثمانية في عام 1918، حيث أشارت تقديرات إلى أن الجنود العثمانيين في القوقاز وفلسطين وبلاد الرافدين لم يتلقوا إلا ما بين نصف وثلث مؤونتهم الاسمية، إلى حد كبير بسبب تعطل وسائل النقل التقليدية للمواد الغذائية بحرًا. فقد تضررت وسائل النقل هذه أشد الضرر من الحصار البريطاني الخانق للخط الساحلي العثماني في البحرين المتوسط والأحمر، وأثقلت تمامًا على كاهل شبكة السكك الحديدية العثمانية المحدودة. وكان معظم هذه الشبكة عبارة عن سكك فردية، كما أن الأنفاق بالغة الأهمية عبر سلاسل جبال طوروس الموصلة بين الولايات الأناضولية والعربية ظلت دون اكتمال حتى سبتمبر 1918. فكانت نتيجة هذا أن تطورت اختناقات شديدة، ولم يكن هناك قط أي اتصال بالسكك الحديدية بين أنقرة وأي من المواقع العثمانية على الجبهة الروسية. بل إن تفشي الفساد والافتقار إلى دواب النقل (وعلى رأسها الإبل) عظّم أوجه القصور في الإمداد والتموين التي كانت تهدد بالقضاء على الآلة العسكرية العثمانية في الشرق الأوسط بحلول عام 1918[65].

ومع ذلك تواصلت تطورات مهمة في المسرح القوقازي في أثناء السنة الأخيرة

مـن الحـرب، وذلـك علـى الرغـم مـن معاهـدة برسـت ليتوفسـك للسـلام التـي أُبرمـت بيـن روسـيا مـا بعـد الثـورة ودول المركـز فـي بيـلاروس الحديثـة فـي 3 مـارس 1918، والتـي آذنـت بخـروج روسـيا رسـميًا مـن الحـرب العالميـة الأولـى حيـث قـدم البلاشـفة تنـازلات كبيـرة عـن الأرض فـي فنلنـدا ودول البلطيـق وبولنـدا وأوكرانيـا، فضـلًا عـن إعـادة الأقاليـم القوقازيـة التـي اسـتولت عليهـا روسـيا فـي عـام 1878 إلـى الدولـة العثمانيـة. فقـد كان لنطـاق الخسـارة الإقليميـة الروسـية فـي برسـت ليتوفسـك أثـر ثانـوي هـو تأجيـج الطموحـات القوميـة التركيـة الكامنـة لـدى النخبـة العثمانيـة فـي الآسِـتانة، فتكشـفت الأحـلام الوحدويـة فـي القوقـاز وفـي آسـيا الوسـطى فجـأة حيـث «فتحـت معاهـدة برسـت ليتوفسـك للسـلام مجـالات واسـعة للأحـلام بقيـام إمبراطوريـة طورانيـة وحدويـة». وبالتالي، ففـي أثنـاء السـنة الأخيـرة مـن الحـرب العالميـة الأولـى صـارت منطقـة القوقـاز ومنطقـة بحـر قزويـن بـل وبـلاد فـارس، مـن جديـد، علـى رأس الأهـداف العثمانيـة[66].

ولقـد دقّـت التقاريـر التـي تتحـدث عـن تسـيير حملـة عثمانيـة إلـى آسـيا الوسـطى وبـلاد فـارس أجـراس الخطـر لـدى السـلطات المدنيـة والعسـكرية البريطانيـة فـي لنـدن ودلهـي. فربمـا تكـون «اللعبـة الكبـرى» بيـن الإمبراطوريتيْـن البريطانيـة والروسـية علـى النفـوذ فـي بـلاد فـارس وأفغانسـتان قـد انتهـت بإبـرام الاتفـاق الإنجليـزي الروسـي فـي عـام 1907، لكـن إرثهـا الاسـتراتيجي ظـل حيًـا باقيًـا. وبنـاء علـى ذلـك، أعـدت وزارة الإعـلام فـي لنـدن «تقريـرًا عـن حركـة الوحـدة الطورانيـة» فـي أكتوبـر 1917. وجـادل هـذا التقريـر الـذي كُتـب قبـل خـروج روسـيا مـن الحـرب والتوقيـع علـى معاهـدة برسـت ليتوفسـك بـأن أي انهيـار روسـي سـيؤثر بالسـلب علـى أمـن الإمبراطوريـة البريطانيـة، وذهـب -علـى نحـو طمـوح نوعـا مـا- إلـى أن الطريـق بـات مفتوحًـا أمـام الزحـف العثمانـي إلـى قلـب آسـيا الوسـطى، وأنـه لـو تمكـن الجنـود العثمانيـون -وبالتبعيـة الألمـان- يومًـا مـن الوصـول إلـى أفغانسـتان فمـن شـأن هـذا أن يشـكّل تهديـدًا مباشـرًا لأمـن الهنـد. وبحلـول مايـو 1918، زعـم تقريـر مُرجِـف أعدتـه إدارة الاسـتخبارات السياسـية التابعـة لـوزارة الخارجيـة فـي لنـدن أن «تقـدم الألمـان السـريع صـوب الشـرق عبـر أوكرانيـا يلفـت الانتبـاه مـن جديـد إلـى أطماعهـم الواضحـة فـي القوقـاز». لكـن بحلـول مطلـع عـام 1918، كانـت الآلـة

العسكرية العثمانية عاجزة عن دعم التمديد الطويل للعمليات العسكرية. كما لم يحظ هذا بدعم حلفاء الآستانة الألمان الذين لم يحبذوا تحويل الجنود العثمانيين عن مواقعهم التي أوقفوا فيها تقدم مئات الآلاف من الجنود البريطانيين في فلسطين وبلاد الرافدين[67].

وعلى الرغم من هذا، أثار انسحاب الروس والتوقيع على معاهدة برست ليتوفسك جزعًا شديدًا في لندن، فكان منطقيًّا أن قاد نائب سابق للملك في الهند، وهو اللورد كيرزون، تيار الرأي المرجِف في مجلس وزراء الحرب. وفي 25 يونيو 1918، مضى كيرزون بعيدًا إلى حد أنه صرح بأن «بندول الحرب الذي يتأرجح بعنف شديد في الغرب يتأرجح أيضًا... بشكل متزايد نحو الشرق»[68]. وكان هذا تصريحًا مثيرًا منه في ضوء الهجمات الألمانية المتعاقبة التي كادت تخترق صفوف البريطانيين والفرنسيين على الجبهة الغربية بين شهريْ مارس ومايو 1918. لكنه بوصفه متحدثًا رسميًّا متنفِّذًا باسم الامبراطورية وصاحب وزن سياسي ثقيل في كل من حزب المحافظين والحكومة الائتلافية بقيادة ديفيد لويد جورج، كانت وجهة نظر كيرزون موضع اعتبار كبير. وكان كيرزون يرى أن الخطر الحقيقي الذي يواجه أمن الإمبراطورية البريطانية ناشئ عن المكاسب الألمانية المحتملة في روسيا والمكاسب العثمانية في آسيا الوسطى. وبالتالي، فإن التطورات التي جرت في روسيا في 1917 - 1918 أيقظت من جديد مخاوف أقدم من حدوث زحف ألماني صوب الهند، وهو الشيء الذي كان قد شغل بال كيرزون كثيرًا في أوائل العقد الأول من القرن العشرين إبّان أن كان في منصب نائب الملك في دلهي[69].

وقد نوّه بنجامين شوارتز إلى كيف «آذن انهيار روسيا بمنعطف في الحرب بتسليطه الضوء على الجانب الإمبريالي للصراع، ومن ثم تحتيمه إجراء تغيير في أولويات بريطانيا من الغرب إلى الشرق» في أعين بعض المخططين الاستراتيجيين الإمبراطوريين من أمثال كيرزون ممن كانوا يشغلون مراكز نفوذ في لندن[70]. ولا شك أن حكومة الهند (البريطانية) بدأت تصاب بالذعر في أعقاب التوقيع على معاهدة

برست ليتوفسك، وكذلك معاهدة بوخارست التي فرضت سلامًا تأديبيًا على رومانيا في مايو 1918. ومع وصول القوات الألمانية إلى أوديسا على ساحل البحر الأسود الروسي، أعرب القادة العسكريون البريطانيون في الهند عن فزعهم من احتمال حدوث غزو تركي ألماني وشيك لأفغانستان[71]. وبدا للمرجفين في لندن ودلهي أن عقيدة «الزحف صوب الشرق» (درانغ ناخ أوستن) انبعثت من جديد وتوشك أن تتحقق. ونتيجة لذلك بدأت حكومة الهند تحوّل مسار كمية كبيرة من المؤن العسكرية التي كانت القوات البريطانية الهندية في حاجة ماسّة إليها للتصدي للتهديد المتصور النابع من بلاد فارس[72].

ولا شك أن هذه المخاوف التي سادت بين المسؤولين الإمبراطوريين في لندن ودلهي من الاستيلاء الوشيك على بلاد فارس وأفغانستان حوّلت مركز ثقل الحملة من القوقاز إلى آسيا الوسطى في عام 1918، وعبّرت عن الإدراك المتنامي بين واضعي السياسات البريطانيين بأهمية مكامن النفط التي اكتُشفت في بلاد فارس في عام 1908 والتي كان يُعتقد على نطاق واسع وجودها حول الموصل في شمال بلاد الرافدين. ونمحّص الصعود السريع لنفط بلاد الرافدين وبلاد فارس إلى صدارة أجندة مجلس وزراء الحرب في بريطانيا تمحيصًا كاملًا في الفصل السادس، بجانب الحملة التي نُظّمت على عجل إلى بلدة باكو الأذربيجانية الغنية بالنفط بقيادة الجنرال ليونيل دانسترفل في أغسطس 1918. أما هنا فيكفي أن ننوّه إلى أن إضافة الضغوط الألمانية والتركية الجديدة المتصورة أجبرت واضعي السياسات البريطانيين على إعادة تقييم دوافعهم الإمبراطورية في الشرق الأوسط. وكما كتب أحد المؤرخين يقول: «عصفت موجة من الهستريا بالحسابات الدقيقة والريبة التي قامت عليها إمبريالية الحرب البريطانية في الشرق الأوسط» في أثناء ربيع وصيف 1918، حتى فيما تدهور الموقف على الجبهة الغربية تدهورًا ينذر بالخطر، مما أطلق عملية ستكون لها تبعات خطيرة على كل من التسوية السياسية فيما بعد الحرب في عموم المنطقة والمواجهة المتنامية بين الحركات القومية وأنصار مواصلة التدخل الغربي[73].

على أية حال، فإن الإمبراطورية الروسية والسلطنة العثمانية لم تتعافيا من التكلفة الباهظة لمشاركتهما في الحرب العالمية الأولى. فعلى الرغم من أن حملة القوقاز مثلّت جزءًا واحدًا من معركة أطول كثيرًا على النفوذ في المنطقة، فإن القتال الذي دار فيما بين أواخر 1914 وأوائل 1917 عجّل بالاستنزاف النهائي للإمبراطوريتيْن. وكانت حملة القوقاز هائلة بسبب حجم المعاناة الفردية والجماعية التي انطوت عليها. فبحلول أوائل 1917، كان هناك ما يقدر بستة ملايين لاجئ يعيشون في القوقاز والداخل الروسي. وفي أعقاب معارك شتاء 1914 - 1915، طردت السلطات القيصرية عشرات الألوف من المسلمين من إقليميْ قارص وباطوم اللذين كانت قد استولت عليهما من الدولة العثمانية قبل ذلك في عام 1878. كما تعرّضت الأقليات الأخرى غير الروسية في القوقاز مثل تتار القرم، وهم الذين كان ولاؤهم أيضًا موضع شبهة، للترحيل هي أيضًا، وفي الوقت نفسه شُرّد أكثر من مليون روسي وروسي أبيض وأوكراني كانوا يعيشون في المنطقة التي صارت منطقة الحرب عن مساكنهم. وساعدت هذه العمليات، بالإضافة إلى تبريرها عمليات الترحيل على أساس الاشتباه في الولاء للعدو العثماني، على إتاحة الأراضي والبيوت لاستيعاب اللاجئين الأرمن والناجين من الإبادة الجماعية على الجهة المقابلة من الحدود[74].

ولقد نجت السلطنة العثمانية (بالكاد) من هذه الحملة التي لم تنج منها نظيرتها الإمبراطورية الروسية. وعلى الرغم من ذلك تسببت الحملة في خسائر فادحة في الأرواح ودمار هائل في العتاد في شمال شرق تركيا. والشيء المهم أيضًا أن الحملة ساهمت في تفتيت السلطنة، حيث إن جاذبية استعادة الأقاليم التي خُسرت وتوسيع النفوذ الطوراني في آسيا الوسطى أججا اللهيب الأيديولوجي لقومية تركية أضيق نطاقًا وأقل شمولًا. وكان من أثر أحداث 1917 - 1918، مقرونة بانسلاخ الأقاليم العربية تدريجيًا عن السلطنة (انظر الفصلين الخامس والسادس) الذي تبلور عام 1916 في الثورة العربية (نناقشها في الفصل السابع)، تسريع جذب السلطنة إلى الداخل متمحورةً حول قلبها الأناضولي. فعجّل هذا بتفتت الدولة العثمانية حتى قبل انسحابها من الحرب في أكتوبر 1918، وأكّد ما تلا ذلك من معاهدات

سلام وُقعت بين عاميْ 1919 و1923 على التفكك النهائي للنظام الإمبراطوري. وكما أن أفعال مصطفى كمال البطولية في الدردنيل في عام 1915 (انظر الفصل الرابع) دفعته إلى دائرة الشهرة الوطنية، سرّع إنهاء حملة القوقاز إعادة صياغة الهوية من العثمانية إلى التركية.

وعلى الرغم من ذلك، كان لتأثير الحملة إرث دائم ما زال يتردد صداه إلى اليوم، حيث كانت ذكرى الإبادة الجماعية للأرمن وتردد جمهورية تركيا فيما بعد الحرب في الاعتراف بعِظم عمليات القتل الملمحيْن المميزيْن في السرد التاريخي للحرب العالمية الأولى في كل من البلديْن، وهو السرد الذي قوي بعد استقلال أرمينيا عن الاتحاد السوفيتي في عام 1991. أما الأدباء الأتراك، كالروائي أورهان باموك الفائز بجائزة نوبل، الذين أثاروا مؤخرًا قضية المسؤولية العثمانية عن الفظائع التي ارتُكبت فيتعرضون للتحرش وتشويه السمعة، بل والاغتيال كما حدث في حالة هرانت دنك الذي اغتيل في عام 2007. وتواجه البلدان التي تتحرك للاعتراف بإبادة الأرمن باعتبارها إبادة جماعية حملات تنظمها جماعات اللوبي التركية وتهديدات صريحة بقطع العلاقات التجارية. كما أن إرث الصراع ليس أقل تشابكًا بكثير في المجال ما بعد السوفيتي في القوقاز حيث أشعلت العلاقات بين روسيا والأقليات المسلمة في الشيشان والأراضي المحيطة بعضًا من أشد الصراعات دموية في فترة ما بعد الحرب الباردة. وهنا تتشابك ذكريات معارك الحرب العالمية الأولى في أنماط أطول من الصراع الأهلي والقهر السياسي كانت ملمحًا متكررًا من ملامح المشهد الإقليمي. إن حملة القوقاز إذن كانت، عند جميع الأطراف، واحدة من الصعوبات غير المسبوقة فيما حاربت إمبراطوريتان متداعيتان إحداهما الأخرى مع فرض تشريد جماعي على الطوائف التي سعت إلى تحدي سيطرتهما الإمبراطورية التي بدأ يعتريها الضعف.

الفصل الرابع

غاليبولي وسالونيك

من بين كل الحملات العسكرية التي جُرّدت بعيدًا عن الجبهة الغربية في أثناء الحرب العظمى نجد أن عمليات غاليبولي هي الأشهر والأرسخ في الذاكرة في يومنا هذا، إذ تضارع هذه العمليات معارك «فردان»و»السوم» و»إيبر» (تعرف أيضًا باسم معركة «باشنديل») في البصمة الجماعية التي تركتها على الذاكرة التاريخية الحديثة. وقد صارت هذه الحملة في أعين الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين (فيلق أنزاك) الذين شاركوا فيها «أسطورة تأسيسية» ضمن عملية بناء الأمة الحديثة،كما صارت الحملة ترمز إلى ظهور الوعي القومي في كلا البلديْن، وما زال صدى ذكرى وشجاعة من شاركوا فيها يتردد بعد مرور قرن على تلك الأحداث، على الرغم من الموجة النامية من التأريخات «التنقيحية» التي شككت في كلٍّ من جدوى الحملة والدور الذي لعبته في عملية بناء الأمة، مما أثار جدلًا محتدمًا ولا سيما في أستراليا. وهناك كتابان صدرا حديثًا،وهما «غاليبولي: نهاية الخرافة»Gallipoli: The End of the Myth و»أشقاء الدم: نشأة الأنزاك»Blood Brothers: The Anzac Genesis، وكلاهما نشر في عام 2009؛يجادل الأول بأن «الحملة شُنت بلا جدوى. فهي لم تقصّر أجل الحرب بمقدار يوم واحد، ولا حتى أتاحت في الواقع قط مثل هذا الاحتمال»[1]. والثاني بأن «محل الميلاد الحقيقي لأنزاك... لم يكن على شواطئ غاليبولي الرملية الدموية بل كان قبل ذلك بخمسين سنة» في الحملات الحدودية التي شنتها قوات المستعمرات على شعوب أسترالاسيا الأصلية[2].

وتحمل العمليات التي جرت في الدردنيل أهمية تاريخية مساوية للعثمانيين،حيث قاتل الجيش العثماني ببسالة وبامتياز،وفرض تراجعًا مدويًّا على جيوش الحلفاء. والشيء الذي لا يقل عن هذا أهمية أن مصطفى كمال اشتهر بعد أن كان خامل

الذكر نسبيًا ليبدأ تحوله إلى «أتاتورك» أو أبو الأمة (التركية) الحديثة. ويظل النصب التذكاري التركي للحرب المقام في رأس هيليس الذي يحمل نقش أتاتورك والذي أقيم تكريمًا لمن سقطوا من كل الأمم واحدًا من أشد النصب التذكارية للحرب العظمى وقعًا وتأثيرًا[3].وأما بالنسبة للبريطانيين الذين كانوا يشكّلون أغلبية القوات الغازية فلا يمكن نسج أساطير بطولية لإخفاء ما كان إخفاقًا عملياتيًا مطولًا، ولولا أن ونستون تشرشل بلغ ما بلغ من مكانة عظيمة فيما بين عاميْ1940 و1945 لصار الناس يذكرونه اليوم على الأرجح بغضب شديد بصفته المحرض على هذا الإخفاق العسكري ومهندسه.

ويقيّم هذا الفصل أصول ومسار المحاولة الإنجليزية الفرنسية التي استهدفت انتزاع السيطرة على مضيق الدردنيل ذي الأهمية الاستراتيجية، قبل أن ينتقل ليمحص بإيجاز الحملة التي استمرت ثلاث سنوات في سالونيك، إذ كانت هذا الحملة من مشتقات الفشل في تحقيق اختراق في غاليبولي وكان لها في النهاية تبعات عميقة الجذور فيما يخص إنهاء الحروب في الشرق الأوسط في عام 1918. كان الضغط من أجل فتح جبهة جديدة في البحر المتوسط يتراكم منذ دخول العثمانيين الحرب العظمى في نوفمبر 1914،وقد عظّم هذا الضغطَ الطريق المسدود عسكريًا الذي كان يزداد تصلّبًا على الجبهة الغربية فيما أفسحت الميوعة الأولية في ساحة المعركة المجال لخطوط الخنادق التي امتدت من القنال الإنجليزي إلى الحدود السويسرية. وبقيادة تشرشل ومسؤولين بريطانيين مثل السير موريس هانكي، أمين عام مجلس الحرب المتنفذ فيلندن، نما الضغط من أجل إيجاد سبيل للتغلب على الجمود الدموي والقائمة المتطاولة من الخسائر البشرية على الجبهة الغربية. علاوة على ذلك، فإن الحاجة إلى فَتح مضيق الدردنيل أمام حركة الملاحة الروسية، واهتمام نظام روسيا القيصري القديم بمدينة الآسِتانة، أضاف بُعدًا روسيًا قويًا إلى هذه العملية. ومن ثم اجتذبت المعارك الرامية إلى كسب السيطرة على شبه جزيرة غاليبولي،لكل هذه الأسباب، تشكيلة واسعة من الأطراف الفاعلةذات الرؤى المختلفة فيما يخص إعادة تنظيم المنطقة[4].

الطريق إلى الحرب

مثّلت غاليبولي تقاطع الأهداف التوسعية الروسية في الشرق الأوسط مع المحاولات البريطانية لإقامة تحالف مصلحة في زمن الحرب ضد الدولة العثمانية. رغم أنه إبّان حرب القرم،قبل ذلك بستة عقود، كانت الرؤيتان الروسية والبريطانية المختلفتان اختلافًا جذريًا بشأن مستقبل الدولة العثمانية ومدينة الآستانةسببًا للحرب. وقد تناغمت رغبة روسياالمكنونة منذ زمن طويل في السيطرة على الآستانة (القسطنطينية) مع طموحاتها السلافية الوحدوية وأهمية هذه المدينة بالنسبة للكنيسة الأرثوذوكسية الروسية. والشيء الأقل إثارة للشجون، وإن كان أعظم أهمية على الصعيد المادي، أن مضيق الدردنيل كان أيضًا الدربالذي يجب أن تمر من خلاله كافة التجارة المحمولة بحرًا الداخلة إلى موانئ روسيا الوحيدة على المياه الدافئة،وهي المطلة على البحر الأسود، والخارجة منها. وقد تحدّث قائد الأسطول الروسي في البحر الأسود إم. إن. غيرس (وهو نفسه الذي كان سفيرًا سابقًا لدى الباب العالي)بلسان الكثيرين في روسيا عندما قال في أكتوبر 1914:»نريد زعيمًا قويًا يحكم القسطنطينية، وبما أننا لا نستطيع ترك أي قوة تتولى هذا الدور فلا بد أن نستولي عليها لأنفسنا«[5].

وفيما يخص الجانب البريطاني، كانت عملية وضع السياسات حيال الدولة العثمانية تجمع بين احترام سلامة ترابها ممزوجًا بوعي بضعفها المتزايد. وقد اكتسب احتمال تفتت الدولة العثمانية اعتبارات استراتيجية مهمة خاصة بالنسبةلأقاليمها الواقعة على امتداد الطريق البحري الحيوي الواصل إلى الهندفي شرقي البحر المتوسط وفي شبه الجزيرة العربية. وهكذا كان المسؤولون في لندن ودلهي ينظرون إلى أي تفكك محتمل للسلطنة بهواجس عميقة خشية أن يشجع القوى المنافسة مثل روسيا أو ألمانيا التي لديها مطامع في اتجاه الشرق. ولا شك أن توقيع الاتفاق الإنجليزي الروسي في عام 1907 قد أدىإلى تخفيف حدة التنافس الذي كان موجودًا بين لندن وموسكو في آسيا الوسطى، وإن ظلت آثار هذا التنافس باقية. بيد أن المكانالذي

كان يشغله هذا التنافس مع روسيا في عقلية المسؤولين البريطانيين التآمرية صار مشغولاًآنذاك بألمانيا وروابطها التجارية، وعلى ما يبدو الاستراتيجية،المتنامية مع الباب العالي. وقد التحم منح شركة سكك حديد الأناضول المملوكة لدويتشه بنك امتيازإنشاء خط حديدي يمتد من برلين إلى بغداد مع ترويج القيصر الألماني للحمية الإسلامية الوحدوية بأنشطة المسؤولين المدنيين والعسكريين الألمان (الحقيقية والمتخيلة المبينة في الفصل الأول)،مثل فاسموس وفون ساندرز،فكانت النتيجة كلامًا ممزوجًا بالأوهام بين واضعي السياسات البريطانيين عن عقيدة «درانغ ناخ أوستن» أو «الزحف صوب الشرق» الألمانية[6].

والواقع أنه انقضت ثلاثة أشهر بين دخول بريطانيا الحرب العالمية الأولى في 4 أغسطس 1914 وإعلانها الحرب على الدولة العثمانية في 5 نوفمبر من ذلك العام. وقد تعقّدت خلال هذه الفترة عملية وضع استراتيجية بريطانيا الإمبراطورية بشدة بفعل تبني الآسِتانةسياسة الحياد العدائي.ثم تدهورت العلاقات بين لندن والباب العالي بسرعة فيما بدأ العد التنازلي للحرب. ففي 29 يوليو، صادرت بريطانيا بارجتيْن من فئة دريدنوت (السلطان عثمان والرشيدية) كانتا قيد الإنشاء في ترسانتيْن بريطانيتيْن. وكانت الأموال المطلوبة لبناء هاتيْن القطعتيْن قد جُمعت بالاكتتاب العام، فتسبب الاستيلاء عليهما في ضجة في القسطنطينية. وبعد ذلك بأربعة أيام، وتحديدًا في 2 أغسطس، وقّع العثمانيون على معاهدة تحالف مع ألمانيا تلتها معاهدة مماثلة مع النمسا والمجر في 5 أغسطس. وساهم وجود بعثة عسكرية ألمانية كبيرة متنفذة في تركيا تحت قيادة الجنرال ليمان فون ساندرز، واستئناف السيطرة الألمانية على القوات البحرية العثمانية في 15 أغسطس، مساهمة أكبر في انهيار العلاقات الإنجليزية العثمانية. كما ساهم في انهيارها أيضًا قرار الآسِتانةالسماح للطرادين الألمانيين «غوبين» و«بريسلاو» بالإفلات من القطع البحرية التي كانت تلاحقهما في عرض البحر المتوسط بالمرور خلال الدردنيل قبل الوصول إلى الآسِتانة، حيث تم هناك نقلهما رمزيًا إلى البحرية العثمانية[7].

ولقـد تسـبب هـذا فـي صعوبتيْـن محددتيْـن لواضعـي السياسـات البريطانييـن الذيـن كانـوا علـى وعـي شـديد ويقظـة تامـة للبعـد الدينـي لأي صـراع مـع الدولـة العثمانيـة. وكان هـذا يصـدق بوجـه خـاص علـى «قـوس الإمبراطوريـة» الـذي كان يمتـد مـن شـرق أفريقيـا مـرورًا بمصـر ومشـيخات الخليـج العربـي إلـى الهنـد. فـأولًا كان لادعـاء الحـكام العثمانييـن سـلطة الخلافـة الإسـلامية أصـداء عميقـة بيـن المسـلمين فـي الهنـد ومصـر، وفـي أماكـن أخـرى فـي العالـم الإسـلامي. وبالتالـي فـإن أي إعـلان للحـرب علـى الدولـة العثمانيـة كان سـيتطلب مـن البريطانييـن إقنـاع رعاياهـم المسـلمين بالانضمـام، أو علـى الأقـل الإذعـان، إلـى حملـة مسـيحية موجهـة ضـد إخوانهـم فـي الديـن ومصـدر قيادتهـم الروحيـة. وصـار هـذا أشـد إلحاحًـا عندمـا اكتسـبت النزعـة القوميـة العثمانيـة صبغـة إسـلامية متزايـدة، وهـو مـا بلـغ ذروتـه فـي إعـلان السـلطان العثمانـي الجهـاد الإسـلامي فـي 14 نوفمبـر 1914[8].لهـذا السـبب، أدرك المسـؤولون البريطانيـون تمامًـا ضـرورة أن تُـرى الآسِـتانةوهي تقـوم بـأول تحـرك عدوانـي فـي اتجـاه الحـرب. وقـد تبيّـن فيمـا بعـد أن شـواغلهم بشـأن ولاء الجنـود المسـلمين الهنـود الذيـن أُرسـلوا إلـى مصـر فـي عـام 1914 بـلا أسـاس، وذلـك بفضـل الفـوارق الإثنيـة واللغويـة الكبيـرة التـي حالـت دون أي درجـة ذات شـأن مـن التواصـل أو التعـاون مـع الأهالـي المصرييـن[9].

كان العامـل الثانـي الـذي أثّـر علـى صياغـة السياسـات البريطانيـة فـي خريـف 1914 هـو التـزام بريطانيـا المسـتقر بالحفـاظ علـى سـلامة أراضـي الدولـة العثمانيـة. فقـد كان هـذا مكونًـا جوهريًـا مـن مكونـات سياسـة بريطانيـا الشـرقية منـذ عـام 1815. فـي البدايـة كانـت هـذه السياسـة تعكـس حتميـة اسـتراتيجية هـي إبعـاد روسـيا عـن الآسِـتانةوعن طـرق الوصـول إلـى الهنـد. وفيمـا بعـد ذلـك، وكمـا فصّلنـا فـي الفصـل الأول، كان محـور التركيـز قـد تحـول إلـى منـع ألمانيـا مـن تأسـيس موطـئ لقـدم فـي الخليـج العربي[10].كمـا كانـت تعكـس أيضًـا حقيقـة أن مصالـح القـوى العظمـى المنافسـة فـي الدولـة العثمانيـة أسـفرت بالعكـس عـن التـزام مشـترك تجـاه بقائهـا السياسـي فـي القـرن التاسـع عشـر. فقـد كانـت روسـيا وفرنسـا تتمنيـان منـع بريطانيـا مـن أن تصيـر أقـوى ممـا ينبغـي فـي الشـرق الأوسـط، فـي حيـن ازداد النفـوذ الألمانـي فـي الدولـة العثمانيـة وضوحًـا قـرب

نهاية القرن[11].لكن الاعتداء الأوروبي على الأراضي العثمانية في العقد السابق على عام 1914 أخل بهذا الترتيب، في حين قلّب إبرام المعاهدة العثمانية الألمانية في 2 أغسطس سياسة بريطانيا القائمة على دعم السلطنة رأسًا على عقب.

ولقد وُجد هذان العاملان أول ما وجدا في سياق توازن مضطرب من أغسطس إلى أكتوبر 1914. وأدى التلهف البريطاني على تجنب الظهور بمظهر المعتدي على الخلافة بوزير الخارجية السير إدوارد غراي إلى إعادة تأكيد التزام لندن بسلامة أراضي الدولة العثمانية. وبالطبع تسبب هذا القرار في إحباط البريطانيين أنصار إقامة تحالف بلقاني لاحتواء الدولة العثمانية والتصدي لها، غير أن الحساسيات المتعلقة بالمجموعتيْن السكانيتيْن المسلمتين الكبيرتيْن الواقعتيْن تحت سيطرة الإمبراطورية في الهند ومصر دفعت مجلس الوزراءالبريطاني إلى التأكيد في 17 أغسطس 1914 على أنه «لا بد من دفعها[الآسِتانة] إلى توجيه الضربة الأولى». فأحبط هذا أنصار اتخاذ موقع أكثر عدوانية الذين كان من بينهم وزير الحربية المعيّن حديثًا هربرت هوراشيو كتشنر ووزير البحرية النزاع إلى القتال ونستون تشرشل اللذين كانا يتمنيان إنشاء «كتلة بلقانية» تتألف من رومانيا واليونان وبلغاريا ضد العثمانيين[12].ومع ذلك كانت السياسات البريطانية،في أثناء تلك الفترة، في حالة انجراف،وكانت تفتقر إلى الاتجاه. وقد تجسّد هذا في غياب السفير البريطاني في القسطنطينية (السير لويس ماليت) في عطلة دامت أكثر من شهر، حدث خلالها إبرام المعاهدة العثمانية الألمانية ومصادرة البارجتيْن التركيتيْن وملاحقة الطرادينغوبين وبريسلاو، إلى أن عاد بعد فوات الأوان في 16 أغسطس[13].

لكن في 1 أكتوبر زاد العثمانيون تورطهم في الأعمال العدائية التي لم تكن معلنة بعد بإغلاق مضيق الدردنيل أمام السفن البريطانية وسفن الحلفاء،وهو التحرك الذي قضى على أكثر من نصف تجارة الصادرات الروسية بأكملها وكشف عن موطن ضعف بريطانيا المتمثل في الإمدادات الغذائية المستوردة. فلم تكن بريطانيا،على نحو فريد من نوعه بين المتحاربين في عام 1914، قد رتبت ترتيبًا لضمان أمنها

الغذائي. بل إن رئيس مجلس الزراعة اللورد لوكاسقد قال في لامبالاة:»لماذاتجشّم نفسك عناء زراعته [القمح] وأنت بمقدورك استيراد أي كمية تشاء؟»[14].لكن مع انتهاء كل واردات القمح الآتية من روسيا، بدأ صبر بريطانيا على الآستانة ينفد بسرعة. ثم جاءت الشرارة الفعلية لاندلاع الحرب عندما شنت البحرية العثمانية ضربات بحرية استباقية استهدفت موانئ أوديسا وسيفاستوبول ويالتا ونوفوروسيسك وفيودوسيا الروسية على البحر الأسود في 29 أكتوبر،فقطعت بريطانيا العلاقات الدبلوماسية مع العثمانيين في اليوم التالي وأعلنت الحرب في 5 نوفمبر، وذلك بعد إعلان روسيا الحرب على الآستانةبثلاثة أيام[15].

والجدير بالملاحظة فيما يخص الحملة التي تلت ذلك أنه قبيل إعلان الحرب مباشرة كانت البحرية الملكية قد نفذت قصفًا أوليًا محفوفًا بالمخاطر للتحصينات العثمانية على مضيق الدردنيل. وجاء هذا القصف بناء على أمر من تشرشل ووقع في 3 نوفمبر 1914. وقام طرادان قتاليان بريطانيان وبارجتان فرنسيتان بقصف وجيزاستمر قرابة 20 دقيقة. ونجحت السفن في إلحاق أضرار شديدة بأحد الحصون العثمانية، وهو حصن سد البحر على طرف شبه جزيرة غاليبولي شرق رأس هيليس، مما أسفر عن مقتل زهاء 86 جنديًا عثمانيًا ونحو 40 جنديًا ألمانيًا. وقد رفع النجاح النسبي لهذه العملية القصيرة مستوى توقعاتالبريطانيين وشجع اعتقادًا خطيرًا في نهاية المطاف، وهو أن المضيق مهيأ للاستيلاء عليه. فعلى النقيض من ذلك، بدأ العثمانيون على الفور في تحسين الحصون وتقويتها، وذلك بعد أن نبههم الهجوم إلى أن هذا المضيق الاستراتيجي هدف مقصود للهجوم[16].

ولقد أزال إعلان الحرب على الدولة العثمانية القيود الجغرافية السياسية التي كانت حتى ذلك الحينتعرقلوضع السياسات البريطانية في الشرق الأوسط. وتقاطع هذا مع تعالي الأصوات المعبرة عن القلق داخل الحكومة البريطانية في مستهل حرب الخنادق والطريق المسدود عسكريًا الذي بدأ يتبدى للعيان على الجبهة

الغربيـة، فـي خضـم بـوادر لا تخطئها العيـن تـدل علـى أن الحـرب سيسـتطيل أمدهـا ولـن تنتهـي «بحلـول عيـد الميـلاد». وبعـد أن بلـغ «السـباق إلـى القتـال» ذروتـه بمعركـة إيبـر (الأولـى) فـي أوائـل نوفمبـر 1914، أطلقـت تقويـة خطـوط الجبهـة الفاصلـة بيـن القـوات البريطانيـة والألمانيـة فـي شـمال فرنسـا والإقليـم الفلامنـدي عمليـة البحـث عـن نُهـج بديلـة محتملـة. وقـد بـرز تشرشـل، وزيـر البحريـة النـزاع إلـى القتـال الـذي كان متلهفًـا علـى نشـر وتعظيـم الهيمنـة المتاحـة لأعظـم قـوة بحريـة فـي العالـم، كأكبـر مناصـر للاسـتخدام الحاسـم للتفـوق البريطانـي علـى جبهـة ثانويـة بـدلًا مـن إرسـال قـوات إضافيـة إلـى الجبهـة الغربيـة. ففـي 29 ديسـمبر 1914، كتـب تشرشـل عبارتـه الشـهيرة إلـى رئيـس الـوزراء هربـرت هنـري أسـكويث سـائلًا إيـاه (فـي اسـتفهام بلاغـيّ): «كيـف ينبغـي لنـا اسـتخدام قوتنـا العسـكرية المتناميـة؟ ألا توجـد بدائـل أخـرى غيـر إرسـال جيوشـنا لمضـغ الأسـلاك الشـائكة فـي الإقليـم الفلامنـدي؟»[17].

وفـي الفتـرة التـي تلـت دخـول العثمانييـن الحـرب مباشـرة، شـرع تشرشـل فـي وضـع خطـة بحريـة جسـورةلاقتحام مضيـق الدردنيـل كتوطئـة للرسـو قبالـة شـاطئ الآسِـتانة. وكان يرجـو أن يجبـر هـذا التحـرك العثمانييـن علـى الجنـوح للسـلم وأن يفتـح المضيـق ليكـون طريقًاللإمـدادات القادمـة مـن الحلفـاء إلـى روسـيا، وفـي الوقـت نفسـه (علـى أقـل تقديـر) يجبـر العثمانييـن علـى تحويـل وجهـة جنودهـم لتخفيـف الضغـط الواقـع علـى الجبهـة الروسـية السـالف بيانـه فـي الفصـل السـابق[18].بالإضافة إلـى ذلـك،كان تشرشـل يشـترك مـع الكثيرمـن المسـؤولين البريطانييـن فـي وجهـة النظـر القائلـة إن القـدرات العسـكرية العثمانيـة أُوهنـت بشـدة بفعـل حربـيْ البلقـان فـي عامـي 1912 و1913، وكذلـك بفعـل النتائـج الخادعـة لقصـف الحصـون فـي 3 نوفمبـر. وبالتالـي، وبنـص كلمـات المـؤرخ العسـكري ديفيـد فرنتـش، عندمـا اندلعـت الحـرب فـي نوفمبـر 1914 كانـت الحكومـة البريطانيـة تعتقـد أنبإمكانهـا إلحـاق هزيمـة سـريعة بالعثمانييـن، ومـن ثـم فإنه»يمكـن احتـواء الأخطـار السياسـية المترتبـة علـى وضـع بريطانيـا فـي مواجهـة مـع خليفـة المسـلمين»[19].

نشأة الحملة

بـدأ يشـتد الزخـم لانتهـاج اسـتراتيجية لتحويـل الاهتمـام والتركيـز علـى مـدى شـتاء 1914 - 1915. وكان تشرشـل أول مـن طـرح فكـرة شـن هجـوم بحـري على مضيـق الدردنيل علـى مجلـس الحـرب البريطانـي فـي 13 ينايـر 1915. وقـد خرجـت هـذه الفكـرة مـن رحـم طلـب مـن القائـد العـام الروسـي لشـن هجـوم بريطانـي خداعـي لتخفيـف الضغـط الناتـج عـن الزحـف العثمانـي ضـد القـوات الروسـية فـي الأناضـول. وكان دعـم تشرشـل لشـن حملـة ضـد العثمانييـن يعكـس أيضًـا فتـور حماسـه لفكـرة أخـرى مـن أفـكاره، وهـي فتـح جبهـة بحريـة جديـدة ضـد العـدو وذلـك بالهجـوم علـى السـاحل الألمانـي الشـمالي. وقـد فـازت دعوتـه لفتـح جبهـة فـي الدردنيـل بدعـم أعضـاء متنفذيـن فـي الحكومـة البريطانيـة مـن ذوي المسـؤولية المباشـرة عـن المجهـود الحربـي، ومـن ضمنهـم وزيـر الحربيـة كتشـنر ووزيـر الخزانـة ديفيـد لويـد جـورج، وإن كان جديـرًا بالملاحظـة أنهـا لـم تحـظ بتأييـد قائـد القـوات البحريـة المخضـرم الفريـق أول بحريجـون فيشـر الـذي أعـرب عـن ريبتـه فـي اسـتراتيجية لا يؤمـن بـأن فرصـة نجاحهـا كبيرة[20].وكانـت النتيجـة وضـع هـدف عملياتيمبهـم للغايـة، حيـث كلّـف مجلـس الحـرب البحريـة الملكيـة بـ«الاسـتعداد لحملـة بحريـة فـي فبرايـر لقصـف شـبه جزيـرة غاليبولـي والاسـتيلاء عليهـا، علـى أن تكـون القسـطنطينية [الآسِـتانة] هدفهـا»[21].

غيـر أنـه مـع اقتـراب تنفيـذ الحملـة تبيّـن وجـود تناقـض بيـن أهدافهـا العامـة وأهدافها المرحليـة منـذ البدايـة. والجديـر بالملاحظـة أن عددًامـن الأسـئلة ظـل دون إجابـة حتـى لحظـة بـدء العمليـات فـي 19 فبرايـر 1915. أيمكـن لعمليـة بحريـة بمفردهـا أن تخترق شـبكة مـن التحصينـات والدفاعـات الشـاطئية التـي تحمـي المضيـق؟ كيـف تسـتطيع السـفن فـي الحقيقـة «الاسـتيلاء» علـى هـدف بـري شـديد التحصيـن؟ كان كتشـنر يشـعر أن الحاميـة العثمانيـة فـي شـبه جزيـرة غاليبولـي سـتفر أو تستسـلم دون الحاجـة إلـى إنـزال القـوات البريطانيـة، لكـن هـل كان هـذا مرجحًـا؟ ولـو نجحـت القـوة فـي اقتحـام المضيـق، فهـل سـيعجّل وجودهـا علـى مشـارف الآسِـتانة بانسـحاب الدولـة العثمانيـة

مـن الحـرب مـع أخـذ التوجيـه والمسـاعدة العسـكرييْن الكبيريْـن المقدميْـن مـن البعثـات العسـكرية الألمانيـة هنـاك فـي الاعتبـار؟ وإذا لـم يحـدث هـذا، فهـل يسـتطيع المخططـون العسـكريون فـي لنـدن العثـور علـى قـوات كافيـة ووضـع خطـة عملياتيـة بسـرعة كافيـة لاسـتعادة زمـام المبـادرة دون التضحيـة بعنصـر المفاجـأة فـي الحملـة؟[22].

علـى أيـة حـال بـدأ القـرار الأولـي باسـتخدام القـوة البحريـة (مـن خـلال توليفـة مـن كاسـحات الألغـام والغواصـات والبـوارج) وحدهـا ينهـار بشـكل شـبه فـوري. ففـي مطلـع فبرايـر 1915، انتهـى القـادة العسـكريون البريطانيـون إلـى أن العمليـة سـتتطلب فـي النهايـة فرقـة مشـاة تضـاف إلـى مجموعـات جنـود البحريـة الملكيـة الصغيـرة، فظلـت فرقـة نظاميـة واحـدة متاحـة لهـذه الحملـة، وهـي الفرقـة 29 التـي كانـت قـد شُـكّلت فـي بدايـة العـام بدمـج وحـدات متفرقـة مـن المشـاة كانـت مبعثـرة علـى هيئـة حاميـات علـى مواقـع مختلفـة فـي عمـوم الإمبراطوريـة البريطانيـة. وبنـاء علـى ذلك،أُرسـلت هـذه الفرقـة إلـى مصـر حيـث انضمـت هنـاك إلـى قـوات المشـاة التـي كانـت تتوافـد مـن أسـتراليا ونيوزيلنـدا فـي طريقهـا إلـى العبـور إلـى مناطـق الحـرب فـي أوروبـا، والآن فـي الدردنيـل. وهكـذا جُمّـع جنـود أنـزاك الذيـن كانـوا يتلقـون التدريـب فـي مصـر علـى هيئـة الفرقـة 1 الأسـترالية والفرقـة النيوزيلنديـة الأسـترالية المجمّعـة، وشـكّلت الفرقتـان فيمـا بينهمـا «فيلـق أنـزاك» الـذي تتحاكـى بـه الأسـاطير الآن. ثـم انضمـت إلـى هـذا الفيلـق الفرقـة البحريـة الملكيـة التـي كانـت عبـارة عـن توليفـة غريبـة مـن جنـود بالـكاد دُرِّبـوا ولا يـكادون يملكـون تجهيـزات مدفعيـة،وكان مـن بينهـم الشـاعر الإنجليـزي الشـهير المـلازم روبـرت بـروك[23].

وكمّلـت قـوة عسـكرية فرنسـية منظومـة ضمـن الفرقـة 1 التابعـة لقـوة الحملة الشـرقية الفرنسـية هـذه القـوة التـي جُمّعـت علـى عجـل، وكان ذلـك علـى مـا يبـدو بغـرض مراقبـة العمليـات البريطانيـة فـي الشـرق الأوسـط عـن كثـب. والمفارقـة أن تولـي بريطانيـا دور القيـادة فـي حملـة الدردنيـل انتهـك عمليًـا التفاهـم الـذي تُوصـل إليـه فـي 6 أغسـطس 1914 بيـن الحليفيْـن المتحفظيْـن أحيانًـا بشـأن تقسـيم المسـؤوليات البحريـة فـي مسـارح

الحرب. فقد كان هذا التفاهم ينص على أن تدير البحرية البريطانية العمليات البحرية في المحيط الأطلسي وبحر الشمال فيما تتولى البحرية الفرنسية المسؤولية عن البحر المتوسط. وهكذا لم تتفاعل البحرية الفرنسية بشكل جيد عندما عرضت عليها ما رأتهاسياسة أمر واقع بريطانية على هيئة خطة عملياتية مفصلة في 19 يناير 1915. وعلى الرغم من ذلك كانت مساهمة الفرنسيين طوال الحملة شديدة الأهمية، كما أنهم تكبّدوا خسائر في الأرواح تزيد عن 27 ألف فرد، ومع ذلك أُغفلوا بشكل شبه تام في التأريخ لهذه الحملة[24].

وقد جمّع البريطانيون والفرنسيون فيما بينهما قوة بحرية مؤلّفة من بارجة واحدة من فئة دريدنوت وطراد قتال واحد و16 بارجة من الفئة القديمة و20 مدمرة و35 كاسحة ألغام. وكان في مواجهة هذه القوة (وهي التي صارت تعرف باسم قوة الحملة المتوسطية) في الممر البالغ اتساعه 1600 ياردة عبر مضيق الدردنيل الجيش الخامس العثماني تحت قيادة الجنرال الألماني ليمان فون ساندرز[25].وكانت القوة العثمانية المؤلفة من نحو 84 ألف رجل مقسّمة بين الفيلق الثالث والفيلق الخامس عشر، وتتألف من خمس فرق مشاة مع فرقة سادسة في الاحتياطي بجانب لواء من الفرسان. والمهم أن القوات العثمانية كانت متفوقة في العدد على القوات الغازية البالغ قوامها 75 ألف رجل، وكانت تملك ميزة عظيمة هي السيطرة على التلال المشرفة على نقاط الإنزال المحتملة كافة.بالإضافة إلى ذلك، كان جنود الجيش الخامس أقدر كثيرًا على الصمود وأرقى تدريبًا بكثير مما كان يعترف به البريطانيون، وقد أعدوا منظومة قوية مؤلفة من 11 تحصينًا ميدانيًا وخط دفاع حول مواضع الإنزال المحتملة. وقد اعتمدت هذه التدابير في بعض منها على الأعمال الدفاعية التي أقيمت من قبل للتصدي لهجمات يونانية أو بلغارية محتملة على المضيق في أثناء حربيْ البلقان[26].

الطلقات الافتتاحية

بدأت الأعمال العدائية في 19 فبراير 1915 عندما قامت مدمرتان بريطانيتان

وبارجتـان بريطانيتـان بقصـف الحصـون العثمانيـة فـي شبه جزيـرة غاليبولـي، غيـر أن هـذا الاشـتباك والاشـتباكات الأخـرى التـي وقعـت فيمـا بعـد فـي فبرايـر وفـي مـارس لم تحـرز إلا تقدمًـا ضئيـلاً فـي تطهيـر حقـول الألغـام العثمانيـة التـي كانـت قـد رُصّـت بعنايـة فائقـة عبـر المضيـق. وترتـب علـى عـدم كفايـة كاسـحات الألغـام عـدم التمكـن مـن تطهيـر هـذه الحقـول مـن أجـل السـماح للبـوارج، وهـي أكبـر وأقـوى، بالاقتـراب مـن التحصينـات. وإلـى حـد كبيـر لهـذا السـبب، لـم تُجْـد عمليـات القصـف المتعاقبـة كثيـرًا فـي إسـكات مدفعيـة العـدو أو إخراجهـا مـن الخدمـة، وذلـك فـي ظـل تسـجيل مقاومـة عثمانيـة شـديدة القـوة والفعاليـة فـي يومـي 10 و11 مـارس. ومـن ثـم بـدأت صعوبـة اقتحـام المضيـق بالوسـائل البحريـة وحدهـا تـزداد وضوحًـا، لكـن صبـر تشرشـل كان ينفد،فأبـرق فـي 11 مـارس إلـى قائـد بحـري القـوة المتوسـطية الشـرقية البريطانيـة فـي غاليبولـي، الفريـق أول بحـري السـير سـاكفل كاردن، كـي يضغـط مـن أجـل شـن هجـوم فـوري منوهًـا فـي الوقـت نفسـه إلـى «أننـا لا نريـد اسـتعجالك ولا حضـك علـى تجـاوز مـا تـراه صوابًـا...». وبعـد ذلـك بثلاثـة أيـام، أبـرق إليـه مـن جديـد ليقـول إن «خسـارة مائتيْـن أو ثلاثمائـة فـرد سـيكون ثمنًـا معتـدلًا يُدفـع لكسـح الألغـام وصـولًا إلـى البوغـاز»[27].

وفـي اليـوم التالـي لهـذه الرسـالة اسـتقال كاردن مـن منصبـه بوصفـه القائـد البحـري للقـوات البريطانيـة. وكان الرجـل يعانـي أصـلاً مـن اعتـلال فـي صحتـه ومـن الإجهـاد المتزايـد، بـل إنـه كان علـى شـفا الانهيـار العصبـي. وهكـذا حـدث تغييـر فـي قيـادة القـوة قبـل شـن الهجـوم الرئيـس أخيـرًا فـي 18 مـارس بثلاثـة أيـام فقط،حيـث تولـى الرجـل الثاني فـي التسلسـل القيادي،الفريـق بحـري جـون دي روبيـك، أمـر هـذه القـوة علـى عجل.وعلـى عجـل مماثـل اسـتدعيالجنرال السـير أيـان هاملتـون إلـى مقـر وزارة الحربيـة بقيـادة كتشـنر فـي 12 مـارس ووُلّـي أمـر قـوة الحملـة المتوسـطية. جـاء هـذا بعـد يوميـن مـن قـرار إرسـال الفرقـة 29 لتشـكّل حجـر الزاويـة فـي القـوة القتاليـة، وذلـك فيمـا بـدأ المخططـون السياسـيون والعسـكريون البريطانيـون الانتقـال مـن خطـة هجـوم بحريـة محضـة إلـى خطـة هجـوم برّمائية[28].وفـي ظـل بقـاء غالبيـة حقـول الألغـام العثمانيـة دون شـق وبقـاء غالبيـة المدافـع أو الهاوتـزرات فـي مواضعهـا، كانـت السـاحة مهيـأة لمجهـود كبيـر مـن

جانب الحلفاء لاختراق الدردنيل والمضيّ صوب الآستانة.

وفي 18 مارس، تجمعت القوة البحرية الإنجليزية الفرنسية على هيئة ثلاثة خطوط هجوم، وتقرر أن تهاجم ست بوارج بريطانية أولًا تتبعها أربع سفن فرنسية، مع عمل أسطول يتكون من ستسفن بريطانية أخرى كقوة بديلة للحلول محل السفن المعطوبة. وشهد ذلك الصباح المشمس إخفاق مخطط تشرشل الفخم المبالغ في الطموح حيث أُغرقت ثلاث بوارج وأصيبت ثلاث أخرى بأضرار خطيرة. وتسبب القصف العثماني المكثّف بالمدفعية لكاسحات الألغام المحاصرة (كانت هذه الكاسحات في حقيقتها سفن صيد حُولت إلى كاسحات ألغام وزُودت بمدنيين عديمي الخبرة مذعورين) في عدم إمكانية شق طريق في حقول الألغام، زد على ذلك أن مسطحًا زُرع حديثًا بالألغام مضى دون اكتشاف فكانت الخسائر فادحة، حيثارتطمت سفينة حربية فرنسية، وهي السفينة «بوفيه»، بلغم في أثناء محاولتها الانسحاب بعد أن أصيبت بقذيفة مدفعية ثقيلة، فتسببت هذه التوليفة القاتلة في غرقها في نحو ثلاث دقائق وخسارة 639 نفسًا، ولم ينج من الحادث إلا 66 شخصًا. كما أصيبت سفينة القيادة الفرنسية «سوفران» أيضًا بقذيفة مدفعية ثقيلة تمخضت عن محصلة وفيات كبيرة، وذلك في مشهد وصفه اللواء بحري إميل غيبريت وصفًا يثير الشجن:

كان المشهد مأسويًا رهيبًا؛ كان صورة تجسّد الدمار إذ لم تترك النيران شيئًا. وأما شبابنا الذين كانوا منذ دقائق ملؤهم اليقظة والثقة بالنفس فكانوا جميعًا يرقدون جثثًا هامدة على سطح السفينة المجرد، وقد حولتهم النيران إلى هياكل عظمية محترقة متفحمة دون أثر لأي ملابسحيث التهمت النيران كل شيء[29].

وبنهاية اليوم، كانت خطة اقتحام مضيق الدردنيل قد انهارت، وكانت الرؤية العملياتية للحملة بحاجة إلى إعادة صياغة. وفي مؤتمر دُعي إليه على عجل على متن السفينة «كوين إليزابيث» في 22 مارس، اتخذ دي روبيك قرار الجمع بين العمليات العسكرية وقوة المشاة. وقد تعارض هذا مع رغبة تشرشل في استئناف الهجوم، فأسندت القيادة إلى قوة الحملة المتوسطية التي يترأسها هاملتون.وكان

هاملتون قد وصل إلى مسرح العمليات في 17 مارس في الوقت المناسب ليرى بعينه الهجوم البحري الفاشل، فاتُّفق على ضرورة ألا تستأنف البحرية الملكية عملياتها إلا بعد أن تنتزع قوات المشاة السيطرة على هضبة قيلد البحر في شبه جزيرة غاليبولي[30].

ومن ثم وُضعت خطط على عجل لتنفيذ إنزال في شبه جزيرة غاليبولي ذاتها، لكن لزم انتظار الوصول الفعلي لتعزيزات القوات من بريطانيا، مماأعطى العثمانيين وقتًا هم في أمسّ الحاجة إليه لإعادة التجمع وإعادة تنظيم دفاعاتهم في مواقع الإنزال المحتملة؛ حيث كانوا هم أيضًا قد تكبّدوا خسائر كبيرة في القتال الذي جرى في مارس. وعلى وجه التحديد، كانت الذخيرة توشك على النفادلدى المدفعيين العثمانيين في 18 مارس قبل قرار سحب الأسطول البريطاني. وكان يتعيّن أيضًا على القيادة العثمانية أن تعالج انقسامًا في الآراء بين فون ساندرز ومصطفى كمال بشأن الأماكن المُثلى لاتخاذ المواقع الدفاعية وتمركز التعزيزات، حيث كان كمال يعتقد أن البريطانيين سيهاجمون من عند أقصى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة عند رأس هيليس، وتحديدًاعند قابا تبه أضيق نقطة فيها. وقد تعارض هذا مع رؤية فون ساندرز الذي قرر تركيز أغلبية قوته في داخل الجزيرة كاحتياطي استراتيجي، ونشر بقية القوة على ثلاثة مواقع في هيليس وبولاير (عند الطرف الشمالي لشبه الجزيرة) وخليج بسيكا الواقع على الساحل الآسيوي لمضيق الدردنيل.

ومن ثم كانت تحضيرات هاملتون لعمليات الإنزال في غاليبولي تكتنفها المشكلات. ففيلق أنزاك كان عديم الخبرة يفتقر إلى التدريب الكافي، ومع ذلك كانت الأهداف المطلوب منه تحقيقها هائلة، وهي بنص كلمات أحدث تأريخ للحملة: «تنفيذ عملية إنزال ليلي على شاطئ معادٍ والتغلب على مواجهة غير محددة المعالم والسيطرة على التلال المحيطة بشواطئ الإنزال ثم التوغل في شبه الجزيرة...»[31].وقد آثر هاملتون تنفيذ عمليات إنزال متزامنة عند ستة رؤوس شواطئ موزعة بين خليج أنزاك(على الجانب الغربي لشبه الجزيرة) ورأس هيليس(عند أقصى

الطرف الجنوبي لها). وكانت رأس هيليس تتيح ميزة توفير القوة النيرانية البحرية لها من ثلاث جهات، لكنها كانت بعيدة عن الأهداف العملياتية المهمة الأخرى ومنفصلة عنها بتضاريس وعرة تكثر فيها التلال.

وفي 25 أبريل 1915، نزلت القوات الأسترالية والنيوزيلندية عند خليج أنزاك وانقضت القوات الفرنسية على رأس هيليس. لكن نظرًا لافتقارهم إلى عنصر المفاجأة، واجهوا مقاومة شديدة من المدافعين العثمانيين المتمركزين فوق التلال المحيطة بكل رؤوس الشواطئ. وتكبّد الجنود البريطانيون والأيرلنديون الذين كانوا في مقدمة الهجوم في موقع الإنزال الرئيس على الشاطئ «ڤي» عند رأس هيليس خسائر مروّعة في الأرواح حيث اصطادتهم رشاشات العثمانيين وأسلاكهم الشائكة. ومن كثرة ما أُعمل فيهم من قتل لم ينجح في الوصول إلى الشاطئ حيًّا إلا 21 جنديًّا من أول 200 جندي حاولوا ذلك[32].وعلى الساحل عند خليج أنزاك، تمكنت غالبية القوة الأسترالية والنيوزيلندية من الاستيلاء على موطئ لقدم فوق شبه الجزيرة والتقدم إلى الداخل، فبدا لبعض الوقت أن قوات أنزاك توشك أن تستولي على التلال حاسمة الأهمية التي كانت تتيح نقطة مشرفة على شبه الجزيرة بأكملها. لكن كمال رد على ذلك بأن تصدّر شخصيًا الهجوم العثماني المضاد وتقدم صفوف فوج المشاة السابع والخمسين بصيحته الشهيرة «لست آمركم بالقتال بل آمركم بالموت!»[33].

ولقد انتزع هذا العمل البطولي الزخم من القوات المهاجمة في الوقت الذي بدت فيه نتيجة المعركة غير واضحة، كما أنه وضع الأسس لإضفاء هالة أسطورية على أتاتورك ليصير ما صار إليه فيما بعد من شخصية وطنية عظيمة. وبنهاية أول يوم من الهجوم البري، كان العثمانيون قد تمكنوا من احتواء عمليات إنزال القوات البريطانية وقوات أنزاك في رؤوس الشواطئ ومن نشر الاحتياطيات لتعزيز خطوطهم الدفاعية. كما أنهم نجحوا أيضًا في احتواء هجوم فرنسي منفصل على الساحل الآسيوي (عند قوم قلعة)دون تحقيق أي من أهدافه. كما استفاد فون ساندرز كذلكمن وصول تعزيزات تمكن من إشراكها في المعركة في اليوم الثاني والأيام التي تلته،وقد

أثبتت هذه القوات الجديدة أهميتها المحورية في وقف موجات الهجوم على أيدي عدو بدأ يزداد إنهاكًا وضعفًا بسبب استمرار تكبّده خسائر فادحة في الأرواح. وفي 28 أبريل،شنّت العثمانيونأول محاولة للقيام بهجوم مضاد من رؤوس الشواطئ (عند رأس هيليس) بهدف الاستيلاء على قرية ألجيتبه ذات الأهمية الاستراتيجية.كما فشل أيضًا هجوم بريطاني ثان في 6 مايو على ألجي تبه، وهو ما كان عليه الحال مع معركة ثالثة دارت رحاها في 4 يوليو وأسفرت عن خسائر فادحة، مما أنهى ما بقي من آمال في تحقيق اختراق، وأنهى المرحلة الافتتاحية من حملة غاليبولي[34].

التحضيرات لإنزال صيفي

عندئذ شرع كلا الجانبيْن في عملية إعادة تنظيم وتعزيز دامت من مايو حتى استئناف هجوم الحلفاء في 6 أغسطس. فقد وصلت الفرقة 2 العثمانية في منتصف مايو وفي الوقت نفسه استقبل البريطانيون إحدى فرق الجيش الاحتياطي البريطاني (الفرقة 52) في يونيو. كما بدأ هاملتون أيضًا في تطوير خطوط مواصلاته وإمداداته بين قواعده المتقدمة فوق جزيرة ليمنوس في بحر إيجة ومستودعات الإمداد والتموين في مصر. وفي غياب موانئ عميقة المياه في شرقي بحر إيجة، وقع الاختيار على الإسكندرية لتكون القاعدة الرئيسة لقوة الحملة المتوسطية. وأُقيمتقاعدة متقدمة في مودروس (فوق جزيرة ليمنوس)، وأخذ ما يصل إلى 120 سفينة نقل يبحر فيما بين القاعدتين لإمداد الجنود بالمؤن والذخائر ونقل التعزيزات ودواب الحمل. لكن القاعدة المتقدمة لم تكن في أول الأمر أكثر من مرفأ طبيعي إذ كانت تفتقر إلى الأرصفة والمراسي وشبكات النقل، وكلها أشياء لزم بناؤها باستخدام مواد وأيد عاملة من مصر[35].

ومع تعثر عمليات إنزال الحلفاء وتبعثرها على خمسة رؤوس شواطئ منفصلة، صار هذا تحديًا لوجستيًا معقدًا في مواجهة هاملتون، وازداد هذا التحدي تعقيدًا بفعل الافتقار إلى مياه عذبة في المتناول في شبه جزيرة غاليبولي، إذ لم يستطع الجنود تأمين إمدادات كافية منها. وهذا أيضًا لزم ترتيبه على عجل من مودروس.

وفـي غضـون ذلـك، فـرض السـيل المتدفـق بغـزارة مـن الخسـائر البشـرية والإصابـات المطلـوب إخلاؤهـا وإعادتهـا إلـى مصـر عبئًـا إضافيًـا علـى خطـوط المواصـلات البحريـة. كمـا كان الموقـف الطبـي يهـدد كذلكبالمسـاس بهيبـة بريطانيـا فـي مصـر إذا مـا بـرز للعيـان أنالإمبراطوريـة تخفـق فـي إحـراز تقـدم فـي الدردنيـل. وفـي مايـو 1915،أحـاط السـير رونالـد غراهـام، مستشـار الحكومـة المصريـة البريطانـي المتنفـذ، نائـب الملـك فـي الهنـد (السـير تشـارلز هاردنـج) علمًـا بـأن «الجرحـى ينهمـرون علينـا هنـا حتـى فاضـت بهـم المستشـفيات، واسـتُولِي علـى كل الفنـادق والمـدارس المتاحـة وجهزتعلـى أحسـن وجـه ممكـن لاسـتيعابهم»[36].وفي خطـاب آخـر تلقـاه نائـب الملـك فـي الشـهر التالـي، اعتـرف المنـدوب السـامي البريطانـي فـي القاهـرة السـير هنـري مكماهـون بـأن «هـذا البلـد [مصـر] بـات علـى درايـة تامـة بالحـرب وخسـائرنا؛ لأن مصـر صـارت مستشـفى واحـدًا كبيـرًا يـؤوي الجرحـى والمصابيـن، والأمـر لا يقتصـر علـى القاهـرة والإسـكندرية، بـل كل عواصـم الأقاليـم مليئـة بالجرحـى والمصابيـن... فـي جميـع المبانـي الحكوميـة والفنـادق والمـدارس»[37].

وبحلـول شـهر يوليـو، كان هاملتـون فـي حالـة مـن اليـأس بسـبب الوضـع اللوجسـتي المتدهـور، مـع ملاحظـة أن عـدم وجـود مـا يكفـي مـن الأيـدي العاملـة والقـوارب اللازمـة لتفريـغ سـفن النقـل ترتـب عليـه أن «تصـل السـفن وعلـى متنهـا أشـياءٌ القـواتُ فـي أمـسّ الحاجـة إليهـا وعندئـذ، وقبـل أن يتسـنى تفريغهـا، تُبحـر راحلـة مـن جديـد...». وأضـاف فـي حـزن أن «سـفنًا تحتـوي علـى منشـآت هندسـية جـاءت خمـس مـرات ورحلـت خمـس مـرات دون أن يسـتطيع أحـد تفريغهـا بسـبب الافتقـار إلـى قـوارب تفريـغ»[38]. وقـد مضـى هاملتـون إلـى حـد أن اعتـرف للسـير جـون كاونـز، رئيـس شـعبة الإمـداد والتمويـن فـي وزارة الحربيـة فـي لنـدن، بقولـه: «تقلقنـي الأشـياء التـي مـن ورائـي بقـدر مـا يقلقنـي العـدو الـذي أمامـي»[39].

وللتصـدي لعمليـة النشـر المتناميـة هـذه وفـي محاولـة لقطـع خطـوط مواصلاتهـا البحريـة الضعيفـة، أرسـل الألمـان أسـطولًا صغيـرًا مـن الغواصـات إلـى مضيـق الدردنيـل

فـي أواخـر أبريـل تضمّـن الغواصـة «يـو-21»، وهـي واحـدة مـن أشـهر الغواصـات وأكثرهـا حصـولًا علـى أوسـمة فـي البحريـة الإمبراطوريـة الألمانيـة. وقـد غـادر الأسـطول ألمانيـا فـي 25 مايـو، وهـو اليـوم الـذي جـرت فيـه عمليـات إنـزال أنـزاك، ووصـل إلـى رأس هيليـس في 25 مايـو حيـث بـدأ علـى الفـور يطلـق طوربيداتـه فأغـرق بارجتيْـن بريطانيتيْـن؛ أولاهمـا البارجـة «تريومـف» فـي ذلـك اليـوم تلتهـا البارجـة «ماجسـتيك» بعـد ذلـك بيوميـن. وبالطبـع أحـدث وصـول الغواصـات الألمانيـة أثـرًا كبيـرًا فـي تغييـر تـوازن القـوى فـي رأس هيليـس حيـث قيّـدت أنشـطة بـوارج الحلفـاء دعمًـا للجنـود الموجوديـن علـى الشـاطئ وذلـك باسـتهداف «سلسـلة الإمـداد الواهنـة المعرّضـة للخلـل والكـوارث فـي كل حلقـة مـن حلقاتهـا علـى طـول الخط»[40].بـل والحـدث الأشـد إثـارة مـن كل مـا سـواه أنـه بعـد ذلـك بنحـو ثلاثـة أشـهر أغرقـت غواصـة ألمانيـة أخـرى سـفينة نقـل بريطانيـة كانـت تنقـل الجنـود مـن الإسـكندرية إلـى الدردنيـل فغـرق علـى متنهـا نحـو ألـف رجـل. وأدت فعاليـة هـذه الهجمـات المذهلـة بـوزارة البحريـة فـي لنـدن التـي جُـردت مـن وزيرهـا ونسـتون تشرشـل، مهنـدس هـذه الحملـة، إلـى سـحب اثنتيْـن مـن كبريـات بوارجهـا، وهمـا «كويـن إليزابيـث» و«إنفليكسـابل»، إلـى حيـث الأمـان النسـبي الـذي يتيحـه بحـر الشـمال[41].

ولقـد تواصلـت أعمـال قتـال صغيـرة خـلال يونيـو وأوائـل يوليـو تركـزت غالبيتهـا علـى الطـرف الجنوبـي لشـبه الجزيـرة عنـد رأس هيليـس، حيـث حـاول الحلفـاء فـي البدايـة ثـم العثمانيـون انتـزاع اليـد العليـا علـى شـبه الجزيـرة. وأسـفرت هـذه الأعمـال عـن محصلـة خسـائر بشـرية كبيـرة لكنهـا أخفقـت فـي تغييـر تـوازن القـوات علـى الصعيـد المـادي. وإن كان بعـض هـذه الأعمـال، كمعركـة غالـي رافيـن التـي دارت رحاهـا عنـد رأس هيليـس فيمـا بيـن 28 يونيـو و5 يوليـو، قـد حقـق إلـى حـد كبيـر أهدافـه (المحـدودة)، لكـن بثمـن باهـظ علـى كلا الجانبيْـن، بمـا فـي ذلـك تكبّـد العثمانييـن وحدهـم خسـائر بشـرية بلغـت 16 ألـف فـرد. وكانـت الأعمـال الأخـرى عبـارة عـن جهـود عديمـة الجـدوى لم يتسـن خلالها اكتسـاب ميـزة واضحـة مـن الهجمـات التـي مضـت قُدمًـا علـى الرغـم مـن ذلـك. وقـد قـال كينيـث بسـت، القسـيس الملحـق بفرقـة شـرق لانكشـير الثانيـة والأربعيـن، مسـتحضرًا آثـار إحـدى هـذه الهجمـات فـي ألجـي تبـه فـي أوائـل يونيـو:

بطول الخندق بأكمله وأنا أتخطى جثث القتلى. بعض الرجال أصيبوا إصابات قاتلة في القلب أو الرأس فبدت ملامح وجوههم طبيعية ومطمئنة فيما عدا اصطباغ جلودهم بلون أخضر خفيف مائل إلى الاصفرار. وكان معظم الجثث يرتسم على وجوهها علامات الألم أو الرعب، هذا إذا لم تكن الوجوه قد طاحت أصلًا، وكانت غالبيتها مشوّهة بشكل مريع.... في بعض الأماكن كان المرء يضطر إلى وطء الجثث بقدميه في أثناء سيره. وكان المرء يسير في وسط كومة من الجثث. إنها أشد تجربة مريعة مخيفة يمكن أن تخطر لي ببال... قاتل شبابنا كالأبطال لكنهم مُزقوا إلى أشلاء بشكل محزن. ولا توجد أوامر واضحة. فقد أُمروا بالاستعداد للهجوم على هدف غير محدد واجتازوا خندقًا وراء خندق حتى لم يتبق منهم إلا قلة من الرجال ولم يستطيعوا المضيّ إلى ما هو أبعد من ذلك..[42].

وعلى نحو مماثل تكبّد لواءان من الفرقة 52 شنا هجومًا أخيرًا في 12 يوليو خسائر بشرية بمعدل 30 في المائة دون تحقيق أي تقدم ملموس. ودارت رحى هذه المعركة الكارثية في أثناء نهار صيفي قائظ ومن دون مياه كافية للقوات الزاحفة، وانتهت بـ«مئات الرجال يهيمون على وجوههم في شبكة الخنادق التي استُولى عليها في الشمس الحارقة، وكانت الجثث متفحمة تفوح منها رائحة كريهة...»[43].ومع ذلك ظل الحلفاء عالقين في رؤوس الشواطئ التي أقاموها في حين ظلت التلال الحيوية استراتيجيًا في أيدي العثمانيين، وتسببت نيران القناصة المتواصلة ودرجات الحرارة المتصاعدة في المزيد من الأضرار بين الجنود. وبحلول يوليو.... بدأت الحرارة تصل إلى حد يفوق الاحتمال. فكانت الخنادق أشبه بالأفران، وكانت الأعشاب قد ذَبُلت وتلاشت منذ زمن طويل، وكانت الرياح الحارة تثير الغبار الذي كان يكتسح شبه الجزيرة مغطيًا كل شيء ومشبّعًا إلى حد مروع برائحة الحرب ونتن الجثث... أما على الشاطئ فإن الذباب الأخضر الكريه المتخم (كان الرجال يسمونه «ذباب الجثث») قد صار وبائيًا بالمعنى الحرفي للكلمة. وكان يتغذى على الجثث المتناثرة في المنطقة المحرمة، ويحتشد بشكل مخيف في المراحيض، ويملأ كل خندق وملجأ ويغطي الطعام..[44].

ومع تدهور الأوضاع عند رؤوس الشواطئ المقامة فوق شبه الجزيرة بفضل ما كانت تنشره الحرارة والذباب من أمراض مثل الدوسنتاريا والإسهال، والنقد في مقر القيادة العامة وتصاعد الترتيبات اللوجستية، أدت حالة الجمود بهاملتون إلى النظر في نهج بديلة يمكنها فتح هذا الطريق المسدود عسكريًا.

وفي ظل الحصار الذي كان مضروبًا على الحلفاء في كل من خليج أنزاك ورأس هيليس، اقتُرحت عملية إنزال جديدة، وتقرر أن تتم على بعد 5 أميال شمال خليج أنزاك، وذلك في إطار الهجوم على تلساري بير. كانت الخطة الأولية صغيرة نسبيًا في حجمها واشتملت على أهداف محدودة تضاهي قدرات القوة الموجودة تحت قيادة هاملتون. لكن الإخطار الذي جاء من وزارة الحربية بأن ثلاث فرق مشاة إضافية يجري إرسالها للانضمام إلى قوة الحملة المتوسطية أدت إلى توسيع متناسب في نطاق العمليات. وقد وضع هاملتون آنذاك تصورًا لإفلات القوات من حصارها في منطقة الإنزال في خليج سوفلا، والاستيلاء على قمة شونك بير التي يحتاج التسلُق إليها ست ساعات. وكان مطلوبًا تحقيق هذا في مواجهة نيران العدو المستمرة من التلال المحيطة من ثلاثة جوانب، وباستخدام توليفة من جنود الجيش الجديد عديمي الخبرة الذين لم يجربوا في معركة وجنود أنزاك المنهكين، وكلا الفريقين كان يفتقر إلى القدرة على الاحتمال اللازمة لتنفيذ المسيرة الشاقة إلى أعلى التل في قيظ الصيف حاملين مخاليهم ومعداتهم[45].

هجوم أغسطس

اختير تاريخ 6 أغسطس لشنّ الهجوم التعرّضي،فجُمّعت فرق الجيش الجديد الثلاثة (10 و11 و13) باسم الفيلق التاسع الذي أسندت قيادته، على نحو أثار جدلًا، إلى الفريق متقاعد السير فريدريك ستوبفورد الجنرال ذي الواحد والستين ربيعًا المرتبط ارتباطًا وثيقًا بالكوارث العسكرية التي اتسمت بها بداية حرب البوير في عام 1899. وقد كُلّف الفيلق التاسع بعمليات الإنزال الأولية في خليج سوفلا على الرغم مما أظهره ستوبفورد من تردد وعدم حسم في الاجتماعات المهمة التي عقدت في

مرحلة التحضير للمعركة. وفي الجنوب، كُلّفت قوات أنزاك والفرقة 13 البريطانية بمحاولة الإفلات من الحصار في خليج أنزاك، والاستيلاء على التل والانضمام إلى العمليات الجارية إلى الشمال منها. وكان هدفهما المشترك هو الاستيلاء على تل ساري بير الذي كان يمتد عبر وسط شبه الجزيرة من الشمال إلى الجنوب،لكنهما واجها الجيش الخامس العثماني بعد إعادة تنظيمه وتلقيه تعزيزات كبيرة فصار آنذاك يتألف من ست عشرة فرقة كلها تسيطر على أراض عالية مشرفة على مناطق الإنزال[46].

ولقد عبّر المراسل الحربي البريطاني الملحق بقوة الحملة المتوسطية إليس أشميد-بارتليت فيما كتب في 25 يوليو، أي قبل شن الهجوم بأحد عشر يومًا، عن شكوكه عند مرأى جنود الجيش الجديد يصلون من بريطانيا. وبعد أن وصفهم أشميد-بارتليت وصفًا قاسيًا نوعًا ما بأنهم «قوم عجاف الهيئة»، تساءل تساؤلًا جادًا:

أنى لهؤلاء الوافدين الجدد الذين لم يسبق لهم قط الخروج من إنجلترا مقاومة الظروف السائدة؟ إنهم يجري إنزالهم على الرمال المقفرة التي تنتصب من فوقها خيامهم حيث حرارة الشمس حارقة والماء جد شحيح،وحيث يبرّح بهم ملايين الذباب الذي ظل لأسابيع يقتات على جثث القتلى في رأس هيليس وخليج أنزاك[47].

علاوة على ذلك،أخّرت صعوبات النقل وصول ثلاث فرق تابعة للجيش الجديد، مما يعني أن الفرقة 13 فقط هي التي وصلت في الوقت المحدد كي تتأقلم (جزئيًا) وتكتسب بعض الخبرة القتالية الميدانية. وعلى النقيض من ذلك، نجد أن الفرقتيْن العاشرة والحادية عشرة خاضتا المعركة دون أي سابق رؤية لعمليات حربية من أي نوع، وكان أداؤهما أسوأ بشكل ملحوظ من الفرقة 13 نتيجة لذلك. وقد ساهم سوء عمل أركان الحرب، والهوس بالسريّة في مقر القيادة العامة للقوات برئاسة هاملتون، وأداء القيادة العام دون المستوى من ستوبفورد إلى أدنى تسلسل القيادة،كلهاجميعًا في الإخفاق النهائي للهجوم التعرضي[48].

على أية حال، بدأ هجوم أغسطس التعرّضي في 6 أغسطس بشن هجمات عند رأس هيليس وخليج أنزاك قبل الاقتحام الرئيس لخليج سوفلا. ففي هيليس، شنت ثلاث كتائب بريطانية تنتمي إلى الفرقتيْن التاسعة والعشرين والثانية والأربعين ما أريد أن يكون عملية خداعية صغيرة لكنها تحولت بدلًا من ذلك إلى سلسلة من المعارك الدموية. ولاقت الألوية البريطانية التي عرقل أداءها نقص المدفعية وتغيير آخر في القيادة مقاومة ثابتة فعالة على أيدي أربع فرق عثمانية. وأدّت الهجمات العثمانية المضادة المتكررة فيما بين 7 و9 أغسطس إلى تحويل الزخم بقوة لصالح المدافعين، وتواصل القتال حتى 13 أغسطس مع تكبّد كلا الفريقيْن خسائر بشرية فادحة. وتضمّن الهجوم الثاني في منطقة خليج أنزاك اللواء الأول مشاة التابع للقوة الأسترالية الذي سعى إلى الإفلات من موقعه المكشوف بالاستيلاء على التل الكائن عند الصنوبرة الوحيدة. وكان هذا الهجوم أنجح حيث استولى الأستراليون على خط الدفاع العثماني الرئيس واستمسكوا بأرضهم في مواجهة الهجمات العثمانية المضادة، لكن المهم أنه أخفق في هدفه الأوسع وهو تثبيت حركة عدد كبير من الجنود العثمانيين بعيدًا عن اتجاه الهجوم الرئيس عند خليج سوفلا.

بل والأدهى من ذلك والأمرّ كانت تجربة جنود كتيبة ولنغتون التابعة للواء النيوزيلندي التابع للفرقة النيوزيلندية والأسترالية الذين استطاعوا لفترة وجيزة كسر الحصار المفروض على قطاع أنزاك ووصلوا إلى قمة تل شونك بير في وقت مبكر من صباح 8 أغسطس،لكن التل كان معرضًا لنيران العدو ويصعب الدفاع عنه أو تعزيزه، ولا سيما في ظل فشل محاولات الاستيلاء على مواقع الأجناب بالغة الأهمية. وقد سارع ليمان فون ساندرز إلى تعيين مصطفى كمال ليتزعم الهجوم العثماني المضاد الذي اشتمل على ثلاث فرق بالإضافة إلى فرقتيْن أخرييْن في الطريق، وهو ما فعله بشجاعة عظيمةأكسبته مكانته الأسطورية في الجمهورية التركية فيما بعد الحرب، وفي 10 أغسطس تزعم هجومًا مضادًا طاغيًا أعاد الاستيلاء على أبرز نجاح (وإن كان مؤقتًا) حققه الحلفاء في أثناء هذه الحملة.

وعلى مدى الأيام الأربعة التي هي عمر المعركة التي دارت رحاها عند خليج أنزاك، تكبّد فيلق أنزاك خسائر بشرية بمعدلات عالية فوق العادة حيثخسر 12500 رجلً، أو ما يعادل 33 في المائة كاملة من إجمالي قوته. وفقدت الفرقة 1الأسترالية والفرقة النيوزيلندية والأسترالية فيما بينهما 5800 رجل، في حين فقدت الفرقة 13 البريطانية وحدها 5500 رجل. والأشد صدمة وترويعًا أن 711 جنديًا من أصل 760 جنديًا من كتيبة ولنغتون الذين وصلوا إلى قمة شونك بير في 8 أغسطس كانوا من عداد الضحايا. يقول بيتر هارتفي ملخصهالموجع للمعركة: «التخطيط، السريّة، الهجمات الباسلة.. في النهاية كان هجوم أنزاك بلا جدوى»[49].ومع ذلك فقد خلّف هذا الهجوم إرثًا خالدًا على كلا الجانبيْن العثماني وأنزاك، حيث رسخت مقاومة كمال البطولية مكانته الصاعدة في الهرمية العثمانية. وفي الوقت نفسه فإن الشجاعة والإقدام اللذين أظهرهما الآلاف من الأستراليين والنيوزيلنديين في مواجهة المستحيل وجدا طريقيهما إلى السرود الوطنية المؤثرة التي تطورت في أثناء الحرب وبعدها، وما زالتمخلدة ويحتفى بذكراها بعد مرور قرن من الزمان.

وبعيدًا عن هذه الهجمات التي أخذت في التكشّف تدريجيًا، نزلت الفرقتان البريطانيتان العاشرة والحادية عشرة التابعتان للفيلق التاسع عند خليج سوفلا ليلة 6-7 أغسطس، وكانتا تتمتعان بميزة عددية مقارنةبالكتائب العثمانية الثلاثة التي كانت تقاومها، لكن عمليات الإنزال أفسدتها الفوضى العامة وسوء الإدارة وارتباك الأهداف. ونتيجة لذلك لم يُحرز إلا تقدم ضئيل يتجاوز تأمين رأس الشاطئ حيث وصلت التعزيزيات العثمانية في 9 أغسطس وأجبرت القوات البريطانية على التراجع. وتكبّد الفيلق التاسع خسائر بشرية مقدارها 1700 فرد في اليوم الأول من العمليات وحدهإذقام بمحاولة صغيرة لاقتحام الأرض المشرفة التي كان يتمركز فوقها القناصة والمدافعون العثمانيون ومن هناك ألحقوا بهم تلك الخسائر الفادحة. وفي خضم شعور متزايد باليأس، أمر ستوبفورد الفرقتيْن الثالثة والخمسين والرابعة والخمسين بالقتال يوميْ9 و10 أغسطس، لكنهما هما أيضًا أخفقتا في انتزاع ميزة في مواجهة مقاومة ازدادت قوة وصارت آنذاك بقيادة كمال. فأُقيل ستوبفورد في 15 أغسطس

وحمّله رؤساؤه في وزارة الحربية المسؤولية عن الإخفاق التام الذي مُني به عملية إنزال سوفلا. وكان خليفته المؤقت على رأس الفيلق التاسع قائد الفرقة 29 اللواء بوفوار دو لايل الذي قام بمحاولة واحدة أخيرة في 21 أغسطس للربط بين عمليتيْ إنزال خليج سوفلا وخليج أنزاك.

وبالطبع كان للإخفاق العنيد الذي مُني به هجوم أغسطس التعرضي وقعه الشديد على الروح المعنوية لجنود الحلفاء في غاليبولي. لقد راهنقادتهم على رمية واحدة أخيرة للنرد لكن تدني جودة القيادة التي مارسوها خذلهم. وكان أثر ذلك على الروح المعنوية للرجال الذين قاتلوا، وقتلوا، بالآلاف ساحقًا. وقد وصف أشميد-بارتليت الحالة المزاجية الكئيبة لدى مَن عاد من الدردنيل إلى القاعدة المتقدمة في أمروز في 17 أغسطس وصفًا نابضًا بالحياة:

لم أستطع وأنا في طريقي إلى الديار مقاومة تأمل التغيير الذي طرأ على جنود أنزاك والمستعمرات منذ زيارتي الأخيرة إلى معسكراتهم قبل الهجوم الكبير. كان أنزاك آنذاك أشبه بمدينة زاهية كثيفة السكان مفعمة بالحياة والأمل تتمتع بالثقة في نفسها وفي قدرتها على تنفيذ أي مهمة قد يكلفوا بأدائها... نحو نصف جيش الجنرال وليم بيردوود كان قد تلاشى آنذاك نتيجة الموت والجراح والمرض. والرجال الذين يعودون يقفون خارج الملاجئ يفكرون في رفاقهم الذين لن يرونهم مجددًا... لهم سيماء الرجال الذين عرفوا مصائرهم لكن كلهم إصرار على أداء مهمتهم. كل ضابط وكل رجل يدرك تمام الإدراك أنه لا يمكن فعل ما هو أكثر[50].

نهاية الحملة

على الرغم من أن حملة الدردنيل استمرت أربعة أشهر إضافية قبل أن تصل إلى نهايتها، آذن إخفاق قوات الحلفاء في الإفلات من حصارها في رؤوس شواطئها في أغسطس بنهاية أية آمال متبقية في تحقيق نجاح عملياتي أو استراتيجي. ومع ذلك،فإن الاعتراف بالهزيمة والأمر بالجلاء عن شبه الجزيرة لم يكن بالأمر السهل

حيث تشابك في عقول واضعي السياسات البريطانيين مع قضية هيبة الإمبراطورية. وكان المسؤولون في لندن ودلهي والقاهرة جميعهم يخشون العواقب على الحكم البريطاني إذا ما اعتُبروا أنهم لاقوا هزيمة على أيدي عدو «آسيوي». وازداد هذا الأمر تعقيدًا بفعل هزال دعائم الحكم الإمبراطوري في ممتلكاتهم الاستعمارية. فقد كانت مجموعات صغيرة نسبيًا من الجنود والموظفين المدنيين البريطانيين،تساندهم أعداد أكبر من المتعاونين المحليين، هي التي تقرر نطاق السيطرة الإمبراطورية وعمق تغلغلها[51].وبنص كلمات المؤرخ العسكري ديفيد فرنتش كانت الهيبة هي «الأسمنت الذي وطّد أسس حكمهم وأيديولوجيتهم التي كانوا يستخدمونها لبيان تفوقهم على الرعاع الذين يحكمونهم»[52].

ولقد تزامن فتور وطأة القتال في غاليبولي مع توسيع الحملات البريطانية في أماكن أخرى في الشرق الأوسط، وتحديدًا في مصر وفلسطين وبلاد الرافدين. ولم يكن هذا من قبيل المصادفة، كما سيبيّن الفصلان التاليان. فعلى رأس أولويات واضعي السياسات البريطانيين كانت الحاجة إلى تقليل الضرر والتأثير المحتمل الناشئ عن نكستهم في الدردنيل. وقد تحقق هذا إلى حد ما من خلال الرقابة الصارمة على الإعلام والنشر والعمل الحاسم والسريع ضد المحرضين المحتملين والفعليين في مصر والهند.53 لكنه دفع أيضًا المسؤولين إلى تأييدأعمال عسكرية - أو على الأقل الانصياع لها - ضد العثمانيين في مسارح أخرى ربما لولا ذلك لما كانت تمضي قُدمًا. وهكذا من دون تأخير، وتحديدًا في مايو 1915، حذر نائب الملك في الهند السير تشارلز هاردنج من أن «الهزيمة، أو ضرورة تقليص خسائرنا في الدردنيل، أمر بالغ الخطورة في هذا البلد» مضيفًا أن الدفعة التي سيعطيها لمعارضي الحكم البريطاني ستعني أن «نزعة الوحدة الإسلامية ستكون خطرًا شديدًا جدًا»[54].وبحلول شهر أكتوبر، وفيما اتضحت خطورة الوضع في غاليبولي، أخبر وزير الخارجية السير إدوارد غراي مجلس الوزراء مستيئسًا: «نحن في الوقت الحالي مجردون من الهيبة في الشرق، وليس من الممكن أن يكون وضعنا أسوأ مما عليه الآن...»[55].وقد كان لهذا تداعيات مباشرة (وكارثية كما تبيّن) على القوة البريطانية والهندية المعسكرة

في منتصف الطريق بين البصرة وبغداد في بلاد الرافدين (انظر الفصل السادس). وفي 21 أكتوبر، دعا وزير الدولة لشؤون الهند السير أوستن تشامبرلين إلى «نجاح مذهل في الشرق» لتعويض الانكسار الذي حدث في غاليبولي، مما تمخض عن المحاولة المتعجلة سيئة الإعداد التي تبيّن في النهاية أنها كارثية للاستيلاء على بغداد في نوفمبر 1915[56].ولقد وافقه السكرتير السياسي في وزارة شؤون الهند في لندن، السير آرثر هيرتزل، في ذلك حيث قال أمام لجنة التحقيق في كارثة بلاد الرافدين التي شُكّلت فيما بعد إن الهيبة البريطانية في الشرق الأوسط في أكتوبر 1915 «كانت في مستويات أدنى من أي فترة أخرى في أثناء الخمسين سنة الأخيرة»، أي منذ التمرد الهندي لسنة 1857. وبالتالي أيّد «استحباب توجيه ضربات غير عادية» في بلاد الرافدين عوضًا عن ذلك[57].

وأما في شبه الجزيرة ذاتها فقد تسبب التغير في الفصول في مشكلات جديدة، حيث أفسحت حرارة الصيف اللافحة المجال لبرد الشتاء القارس. وفيما أخذ السّاسة والجنرالات يقلبون الرأي ويلفون ويدورون حول كيفيةإنهاء الحملة ومتى يكون ذلك، تواصل القتال في مواضع محدودة طوال الخريف. علاوة على ذلك، أسفرت سيطرة العثمانيين على التلال التي تطوق كل رأس من رؤوس الشواطئ التي أنشأتها قوات الحلفاءعن سيل مطرد من الخسائر البشرية بفعل نيران القناصة. وما أضاف إلى البؤس والمعاناة على الشواطئأن تفشت الأمراض المعدية وأمراض النقص بسرعة في المعسكرات عديمة النظافة الصحية المكتظة بساكنيها. وبحلول خريف عام 1915، يقدّر هارت أن ما يصل إلى نصف المائة ألف أو نحو ذلك من قوات الحلفاء الموجودين في شبه الجزيرة كانوا غير صالحين للعمليات العسكرية[58]. ثم ساءت الأوضاع تدريجيًا حيث حلّ الطقس السيءمع هبوب عاصفة مطيرة دامت ثلاثة أيام في أواخر نوفمبر فغمرت الخنادق وجرفت الجثث غير المدفونة إليها. وفي 28 نوفمبر، تحوّلت الأمطار إلى جليد حيث انخفضت درجت الحرارة إلى ما دون درجة التجمد وسرّعت الرياح العاتية معامل تبريد الريح. وقد ألحقت هذه التوليفة الخرابابالقوات على كلا الجانبيْن اللذيْن كانا ما زالا مجهزيْن بالأمتعة الصيفية الخفيفة

ومعرّضيْن بشدة لهبوط درجة حرارة الجسم ولسعات الصقيع. علاوة على ذلك، كانت تلك هي المرة الأولى بالنسبة لكثيرين من الجنود الهنود والأستراليين التي يعايشون فيها تجربة الأحوال الجوية المتجمدة وهطول الجليد. وعلى أية حال، تسببت العاصفة الجليدية الهائلة في أكثر من 200 حالة وفاة وأكثر من5 آلاف إصابة بهبوط درجة حرارة الجسم في منطقة خليج سوفلا وحده، بالإضافة إلى 3 آلاف في منطقة خليج أنزاك وألف في رأس هيليس، على الرغم من أنها أتاحت الفرصة لبعض الجنود البريطانيين ليطلقوا النار على جماعات من العثمانيين تركوا الأمان الذي توفره لهم خنادقهم في محاولة بائسة لجمع حطب للتدفئة فأردوهم قتلى[59].

كان احتمال جلاء الحلفاء قد أثير أول ما أثير في 11 أكتوبر 1915 عندما طلب وزير الدولة للحربية البريطاني اللورد كتشنر من هاملتون التكهّن بالتكلفة البشرية المتوقعة لأي جلاء محتمل. وعندما رفض هاملتون بعناد مجرد التفكير في هذا الاحتمال أُقيل من القيادة بعد ذلك بثلاثة أيام وعُيّن محلهالجنرال السير تشارلز مونرو. وكان مونرو قد تولى قيادة وحدات على الجبهة الغربية منذ بداية الحربحيث بدأبقيادة الفرقة 2 مشاة التابعة للفيلق الأول بقيادة دوغلاس هايغ، ثم حل محل هايغ قائدًا للفيلق في ديسمبر 1914 عندما رُقي هايغ إلى منصب قائد عام قوة الحملة البريطانية، وواصل ترقيه في المناصب في يوليو 1915 عندما وُلي مسؤولية الجيش الثالث (البريطاني) المنشأ حديثًا. وقد كان مونرو «غربيًا» ملتزمًا من حيث إيمانه الراسخ باستحالة الفوز بالحرب العظمى إلا بهزيمة العدو الأصلي (ألمانيا) في ميدان المعركة الرئيس في فرنسا والإقليم الفلامندي.وعندما أُرسل لقيادة قوة الحملة البريطانية كان نطاق المسؤولية الذي أناطه به كتشنر هو تقييم ما إذا كان الجلاء عن شبه جزيرة غاليبولي أفضل من القيام بمحاولة جديدة للاستيلاء عليها أم لا[60].

وما أن وصل مونرو إلى الدردنيل في 27 أكتوبرحتى شرع فورًا في جولة مدتها ثلاثة أيام لتفقّد مواقع القتال، وفي أثناء قيامه بهذه الزيارة وإجرائه مشاورات مع أركان حربه، طالب كتشنر في 29 أكتوبر بردّ فوري على سؤاله عما إذا كان مونرو

يؤيد «البقاء أم الرحيل». وعليه كان رد مونرو في 31 أكتوبر بمذكرة تنصح بالجلاءمع التحذير من أن هذا الجلاء قد يتكلّف ثمنًا من الخسائر البشرية غير المسبوقة قد تصل إلى ثلث قوة الحملة البريطانية[61].وكان تقييم الموقف العسكري الذي أرسله إلى كتشنر اتهامًا صاعقًالهاملتون بالحماقة:

شكّل الموقع الذي تحتله قواتنا موقفًا عسكريًا فريدًا من نوعه في التاريخ. ما تم تأمينه هو مجرد حافة الخط الساحلي،في حين أن الشواطئ والأرصفة التي يُعتمد عليها للحصول على كافة المتطلبات من أفراد وعتاد ومؤن كانت مكشوفة أمام نيران المدفعية المضبوطة والمرصودة، وغالبية خنادقنا تحت هيمنة الأتراك... خلاصة القول:إن قواتناتسيطر على خط جمع كل العيوب العسكرية،فالموقع يفتقر إلى العمقوالاتصالات غير مؤمنة وهي مرهونة بعوامل الطقس[62].

هكذا أعلن مونرو رأيه صراحة ودون مواربةمؤيدًا الجلاء: «بما أننا لا نرجو تحقيق أي غرض بالبقاء في شبه الجزيرة فإنها تكلفة بشعة تلك التي تتكبّدها الأمة نتيجة الشروع في حملة خارجية دون وجود قاعدة متاحة للنقل السريع للمؤن والإمدادات والأفراد...».63 وقد أثار هذا الرأي رد فعل هائجًا من مهندس هذه الحملة، ونستون تشرشل، الذي علّق عليه في كتابه الذي نشر بعد الحرب بعنوان «الأزمة العالمية» The World Crisis قائلًا:»الجنرال مونرو كان رجلًا سريعًا في قراراته.فقد جاء ورأى وأعلن استسلامه»[64].

وقد أبحر مونرو فور إرساله هذه الكلماتإلى مصر لمناقشة أثر الجلاء عن شبه الجزيرة. وفي لندن، قررت لجنة الحرب المشكّلة حديثًا التابعة للحكومة البريطانية إرسال كتشنر نفسه لتفقّد الأوضاع قبل اتخاذ أي قرار نهائي، فوصل كتشنر في 9 نوفمبر وكان حريصًا في البداية على القيام بمحاولة بحرية واحدة أخيرة، ربما انتحارية، لاقتحام المضيق، وهو ما ووجه بالرفض القاطع من جانب مونرو ورئيس أركانه اللواء آرثر لندن-بل اللذين اعتبرا الخطة غير قابلة للتطبيق بالمرة. وقد أقنعته المحادثات الإضافية التي جرت مع أركان حرب القوة والجولة التي تفقد فيها

جبهـة القتـال هـو أيضًـا باسـتحالة تحقيقهممكاسـب كبيـرة مـن وراء تشـبثهم بمواطـئ أقدامهـم فـي غاليبولـي[65].

وبـدلًا مـن ذلـك، عُقـد مؤتمـر شـارك فيـه القائـدان العامـان فـي مصـر وغاليبولـي وقائـد عـام القـوة الإنجليزيـة الفرنسـية المرسـلة حديثًـا إلـى سـالونيك فـي مـودروس فـي منتصـف نوفمبـر 1915. وفـي هـذا المؤتمـر «درس الجنـرالات الموقـف بالتفصيـل الشـديد» واعترفوا بـأن الموقـف العسـكري فـي غاليبولـي يـكاد يكـون ميئوسًـا منـه. وبعـد دراسـة خطـط بديلـة لـ«التغلـب علـى التهديـد التركـي الألمانـي فـي الشـرق»، سـجل المنـدوب السـامي البريطانـي فـي مصـر السـير هنـري مكماهـون بأسـى كيـف تـم الاعتـراض علـى هجـوم مقتـرح علـى ميناء الإسـكندرية الصغـرى (حاليًـا الإسـكندرونة بالقـرب مـن الحـدود التركيـة السـورية الحديثـة) العثمانـي الواقـع علـى البحـر المتوسـط. ومـن ثـم أخبـر نائـب الملـك فـي الهندبحـزن: «لقـد تدهـورت بنـا الأوضـاع حتـى وصلنـا إلـى سياسـة انتظـار هجـوم فـي بـلاد الرافديـن ومصـر مـع كل الأخطـار السياسـية التـي ينطـوي عليهـا أي تهديـد مُحـدق ومـا يصاحـب ذلـك مـن فقـدان للهيبـة والاعتبـار وقلاقـل محليـة»[66].

و فـي 22 نوفمبـر 1915، اتُّخـذ قـرار إجـلاء قـوة الحملـة المتوسـطية. وعلـى الرغـم مـن أن كتشـنر اقتـرح ألا تُسـحب غيـر القـوات المتمركـزة فـي خليـج سـوفلا وخليـج أنـزاك مـع تـرك القـوات المتمركـزة عنـد رأس هيليـس فـي موضعهـا، غلبـه قـرار لجنـة الحـرب فـي لنـدن الـذي أيّـد الانسـحاب الكامـل. وجـاء هـذا القـرار فيمـا أوصـى اجتمـاع عقـده مؤتمـر أركان الحـرب المشـتركة (الإنجليزيـة الفرنسـية) فـي فرنسـا فـي 8 ديسـمبر بالجـلاء الفـوري عـن غاليبولـي وتنظيـم وتعزيـز الجبهـة التـي فُتحـت حديثًـا فـي سـالونيك فـي شـمال اليونـان. وتـم الجـلاء عـن خليـج سـوفلا وخليـج أنـزاك بنجـاح فـي ليلـة 19 - 20 ديسـمبر 1915، تـلاه الجـلاء عـن رأس هيليـس فـي 8 ينايـر 1916. واللافـت للأنظـار أن كلتـا عمليتـيْ الجـلاء تمّـت دون خسـائر فـي الرجـال، علـى الرغـم مـن الاضطـرار إلـى تـرك كميـات كبيـرة مـن عتـاد الحـرب خلفهـم. ومـا لـم يكـن مقصـودًا،وإنْ كان مـن قبيـل المفارقـة السـاخرة، أن هاتيْـن العمليتيْـن مثّلتـا نجاحيْـن مذهليْـن للغايـة حققتهمـا حملـة كبّـدت الحلفـاء

خسائر بشرية بلغت 230 ألف فرد (بما في ذلك أكثر من 27 ألف فرد من فيلق الحملة الفرنسية الأقل شهرة) والعثمانيين ما يصل إلى 300 ألف فرد[67].

وقد جادل تشرشل في كتابه «الأزمة العالمية» في عام 1931 بأن «حملة الدردنيل تعرّضت للتجويع والعراقيل في كل مرحلة من مراحلها بسبب المعارضة المستمرة من جانب القيادتيْن العليييْنالفرنسية والبريطانية في فرنسا لسحب الجنود والذخائر من مسرح الحرب الرئيس». كما أنحى أيضًا باللائمة على هذا الانسحاب في تنشيط المجهود الحربي العثماني،وزعَم أنه نتيجة لذلك ترتب على المقاومة اللاحقة التي ووجهت في حملات سالونيك ومصر وفلسطين وبلاد الرافدين أن نمت الحملات الثلاثة كلها «بسرعة متحولة إلى التزامات عظيمة جدًا، واستمرت كلها حتى اليوم الأخير من الحرب واستنزفت الموارد البريطانية بشدة...»[68]. لكن ثمة رواية شديدة الاختلاف قدمها «المراسل الحربي» الرسمي في غاليبولي، إليس أشميد-بارتليت، عقب اجتماع مع تشرشل في 14 أكتوبر 1915 حيث وصف رجلًا نرجسيًا يعيش حالة نكران بشأن الكارثة العسكرية التي حرّض عليها:

... لدهشتي الشديدة أن وجهات نظره لم تتغير إلا قليلًا حتى مع الكوارث الأخيرة. ويبدو لي أنه لم يستفد كثيرًا من دروس الشهور القليلة الماضية وما زال يتسم بذات التفاؤل المبالغ فيه بشأن إمكانيات تحقيق نجاح في النهاية. فقد ظل يردد رأيه بأن الأسطول كان بإمكانه اقتحام المضيقلو سُمح له بالقيام بمحاولة أخرى بعد انتكاسة 18 مارس. بل إنه مضى حتى إلى حد اقتراح أن محاولة أخرى يمكن أن تنجح. وصارت هذه الفكرة هاجسًا دائمًاوولعًا يستحوذ على عقلهويعميه عن الحقائق ويملأ مخه بالأوهام[69].

والحقيقة،بالأحرى، أن قوات الحلفاء واجهت عدوًا جبارًا في غاليبولي حيث أدّت القوات العثمانية في غاليبولي أداء قتاليًاعظيم الفعالية. وبنص كلمات مؤرخ الجيش العثماني الكبير في أثناء الحرب العالمية الأولى، إدوارد إريكسون، فإن «الأتراك فازوا بحملة غاليبولي لأن جيشهم كان، من نواح عديدة،أشد في الفعالية القتاليةمن

جيوش الحلفاء في 1915... نشر الأتراك جيشًا على مستوى عال من التدريب والهمة والحماس في شبه جزيرة غاليبولي التقى فيهاالأستراليين والبريطانيين والفرنسيين رجلًا لرجل في أوضاع متكافئة تمامًا».70 علاوة على ذلك، فإن هياكل القيادة والسيطرة العثمانية، وقدرة العثمانيين الحركية العالية في التضاريس الصعبة، وسيطرتهم على مواقع محورية في شبه الجزيرة، كلها شكّلت مزايا عملياتية، ومثلها كان التعاون الوثيق والتوافق التشغيلي مع الوحدات الألمانية والمستشارين الألمان المتناثرين في الجيش العثماني. والشيء المهم أن حملة غاليبولي أعادت الروح إلى المجهود الحربي العثماني، وأحدثت -مقرونةبالانتصارات على القوات البريطانية والهندية في بلاد الرافدين في قطيسفون في نوفمبر 1915 وكوت العمارة في أبريل 1916 والانتصاريْن في معركتيْ غزة الأولى والثانية في مارس وأبريل 1917- تحوّلًا في الزخم في حملات الشرق الأوسط[71].

عرض جانبي في سالونيك

مع اقتراب حملة غاليبولي من نهايتها، تحوّل تركيز الاهتمام البريطاني والفرنسي 180 ميلًا نحو الغرب إلى مدينة وميناء سالونيك في شمال اليونان. فهناك، في أوائل أكتوبر 1915، بدأ عرض جانبي مثير للاهتمام ثبّت حركة أعداد كبيرة من قوات الحلفاء لنحو ثلاث سنوات قبل أن ينفجر فجأة ليجبر بلغاريا على الانسحاب من الحرب ويمهد الساحة للانهيار النهائي للجبهة العثمانية في أكتوبر 1918. ولنشأة حملة سالونيك علاقة أكبر بالمناورات السياسية الفرنسية الداخلية وحالة العلاقات العسكرية الإنجليزية الفرنسية منها بأي أساس منطقي استراتيجي أو حتى عملياتي كبير. ففي انعكاس للمقتضيات السياسية للتحالف، لا الاستراتيجية العسكرية، استمر الدعم البريطاني للحملة لما بعد انتكاسة غاليبولي نتيجة ضغط فرنسا ورغبتها في الحفاظ على التوافق السياسي الداخلي المضطرب الذي تقوم عليه السياسةالفرنسية.

ونقصد بهذا التوافق السياسي الداخلي المضطرب «الاتحاد المقدس»الذي وافق الجناح اليساري الفرنسي القوي بموجبه على عدم معارضة السياسات الحكومية

وعدم تقويض المجهود الحربي من خلال الإضرابات والاحتجاجات العمالية. وعلى الرغم من أن هذا الاتحاد انهار في النهاية انهيارًا مريرًا في عام 1917، فإنهأثّر في مراحله الأولى على واضعي السياسات البريطانيين الحريصين على منع رئيس الوزراء السابق جوزيف كايو من العودة إلى السلطة وإبرام تسوية سلمية مع ألمانيا (وهذا ما كانوا يخشونه). وأما المصالح الفرنسية في فتح جبهة في سالونيك فتمحورت حول شكوكهم في نوايا بريطانيا فيما بعد الحرب، والقلق من احتمال أن يجدوا أنفسهم في وضع غير موات في الشرق الأوسط. وهكذا، كما نوه ديفيد بتون، الباحث البارز المتخصص في هذه الحملة، كان بناء مركز فرنسي أقوى في منطقة البلقان مصممًا لمعادلة مركز بريطانيا في الشرق. ومن ثم، فإن مسار حملة سالونيك وإدارتها يبرهنان على التفاعل المضطرب بين الاعتبارات السياسية والعسكرية بين أهم قوتيْن حليفتيْن.

بالإضافة إلى ذلك،آذنت نشأة حملة سالونيك أيضًا بالتقاطع المؤقت بين الجبهتيْن البلقانية والعثمانية. وقد بدأ هذا فيما اجتاحت الجيوش النمساوية المجرية والألمانية صربيا في 7 أكتوبر 1915، واستولت سريعًا على العاصمة بلغراد. وبعد ذلك بأسبوع، أنهت بلغاريا سياستها القائمة على التذبذب بين الحلفاء ودول المركز ودخلت الحرب في صف الأخيرة واقتحمت ما تبقى من مقاومة صربية في مقدونيا وحطمتها،وهو ما استثار التدخل البريطاني حيث كان وزير الخارجية غراي قد تعهد في مجلس العموم بدعم صربيا في حالة تعرضها لهجوم بلغاري. وبالتالي عُبأت قوة حملة عسكرية متحالفة مؤلفة من 13 ألف رجل على عجل وحُولت من غاليبولي إلى هناك في منتصف أكتوبر على أن يتلوها سريعًا ما قوامه 18 ألف جندي فرنسي. لكن بعد تحرك القوات شمالًا من سالونيك أخفقت في اختراق الصفوف البلغارية على نهر فاردار، ناهيك عن دخول صربيا ذاتها. وبدلًا من ذلك بدأ الجيش الصربي تقهقرًا يائسًا عبر الجبال إلى ميناء دورازو المطل على البحر الأدرياتي، حيث نُقل من هناك إلى جزيرة كورفو اليونانية، ولقي ما يصل إلى 20 ألف جندي من الثلاثمائة ألف الذين انطلقوا في هذا الزحف حتفهم في أثناء

هـذا التقهقـر، وهلـك عـدة آلاف آخريـن بسـبب الأمـراض المعديـة فـي المعسـكرات التـي أقيمـت لاسـتقبالهم فـي اليونـان[72].

وعلـى الرغـم مـن ضيـاع أي أمـل فـي إنقـاذ صربيـا بحلـول نهايـة 1915، تواصلـت حملـة سـالونيك طـوال مـدة الحـرب، وفـي النهايـة توسَّـعت لتشـمل أكثـر مـن 300 ألـف رجـل. وقـد واجـه الجنـود المعسـكرون فـي سـالونيك العالقـون حتـى النخـاع فـي شـرك العمليـة السياسـية الفرنسـية الداخليـة صعوبـات شـديدة فـي السـهول التـي يتفشـى فيهـا مـرض الملاريـا فـي شـمال اليونـان وجنـوب مقدونيـا. كمـا أنهـم علقـوا أيضًـا فـي شـرك صـراع سياسـي يونانـي مزمـن بيـن حكومـة رئيـس الـوزراء إلفثيريـوس فينيزيلـوس المؤيـدة للحلفاءوالملـك قسـطنطين الأول المؤيـد لألمانيـا. وكان الأخيـر يتمتـع بقاعـدة دعمـه فـي أثينـا، وقـد تصاعـدت التوتـرات بيـن الطرفيْـن فـي أغسـطس 1916 عندمـا أسـس أتبـاع فينيزيلـوس دولـة مؤقتـة فـي شـمال اليونـان مقرهـا فـي سـالونيك ذاتهـا. وأدى هـذا عمليًـا إلـى تقسـيم البلـد إلـى نصفيْـن، ولـم يعـاد توحيـد هذيْـن النصفيْـن إلا فـي مايـو 1917، وذلـك فـي أعقـاب تنـازل الملـك عـن العـرش فـي نوفمبـر مـن العـام الـذي سـبقه، وعندئـذ عـاد فينيزيلـوس إلـى أثينـا وانضمـت اليونـان رسـميًا إلـى الحـرب فـي صـف الحلفـاء. كانـت بريطانيـا وفرنسـا قـد اعترفـت بالفعـل، منـذ انقـلاب أغسـطس 1916، بالدولـة المؤقتـة فـي شـمال اليونـان، وتعاونتـا مـع فينيزيلـوس فـي فـرض حصـار بحـري علـى القـوات المواليـة للملـك فـي شـبه جزيـرة المـورة فـي جنـوب اليونـان، فـي عمـل لافـت للنظـر مـن أعمـال الاحتـلال فـي بلـد يُفتـرض أنهمـا كانتـا متحالفتيْـن معـه[73].

والواقـع أن السـكون كان هـو الغالـب علـى الجبهـة فـي سـالونيك معظـم الوقـت. وكان هجـوم موناسـتير التعرضـي الـذي وقـع بيـن شـهريْ سـبتمبر وديسـمبر 1916 اسـتثناء كبيـرًا مـن ذلـك السـكون نجـح فـي انتـزاع السـيطرة علـى بلـدة موناسـتير مـن أيـدي البلغـار لكـن بثمـن باهـظ مـن حيـث الخسـائر البشـرية التـي شـملت 80 ألـف فـرد راحـوا ضحيـة المـرض، وهـو العـدد الـذي فـاق ضحايـا القتـال البالـغ عددهـم 50 ألـف فـرد تكبّدهـم الحلفـاء. عـلاوة علـى ذلـك، فإنـه حتـى هـذا النجـاح الموضعـي طغـت عليـه فـورًا

الانتكاسة الأكبر كثيرًا التي حدثت في رومانيا التي استسلمت للاجتياح الألماني في 6 ديسمبر 1916، أي بعد دخولها الحرب إلى صف الحلفاء بأقل من أربعة أشهر. وبعد ذلكعادت الجبهة إلى استقرارها حتى وقت قريب جدًا من نهاية الحرب في سبتمبر 1918، وذلك عندما حققت القوات الإنجليزية الفرنسية أخيرًااختراقًا حاسمًا[74].

ومع ذلك فطوال عام 1917، في وقت بلغ فيه الإنهاك من الحرب ذروته في فرنسا وبريطانيا ولم تظهر المعارك الاستنزافية البطيئة على الجبهة الغربية إلا بوادر ضئيلة على اقتراب الحرب من نهايتها بأي حال، ظلت ست فرق مشاة فرنسية وسبع بريطانية مثبّتة في سالونيك لا تستطيع حراكًا ضمن «جيش الشرق». وقد أُطلق على هذه القوات باللغة الدارجة اسم «بُستانيّو سالونيك» حيث عكفت بشكل ممنهج على تنمية وتحويل مسار الموارد المدنية إلى الاستخدام العسكري. وعلى وجه التحديد، كانت «لجنة الإمداد المختلطة بسالونيك» تشرف على زراعة مناطق واسعة من الأرض، وذلك لزيادة الإنتاج المحلي من الخضروات والقش والتبن والتصدي لتهديد الملاريا في آن واحد. وعملت هيئات أخرى على تحسين الآبار المحلية لتحسين إمدادات مياه الشرب، وأعادت فتح ستة مناجم ليغنيتلإتاحة الاكتفاء الذاتي من الفحم للقوات قدر الإمكان[75].وكانت الحملة ضد الملاريا عاجلة بوجه خاص حيث تكفّلت الأهوار والمستنقعات الكائنة عند مصب النهر بسرعة تفشي المرض بين الجنود والعمال الملحقين بالقوات، لدرجة أن 20 في المائة من القوة البريطانية كان نزيل المستشفيات في مرحلة من المراحل، وذلك قبل أن يؤدي برنامج مكثّف للبحوث الطبية وتوزيع الكينين على نطاق واسع في عامي 1917 و1918 إلى تخفيض عدد الإصابات[76].

بل والأشد لفتًا للنظر، على خلفية المحدوديات الاستراتيجية والعملياتية سالفة الذكر، أنه عندما عادت الحملة أخيرًا إلى الحياة في سبتمبر 1918 فجّرت سلسلة الأحداث التي أدت إلى نهاية الحرب في الشرق الأوسط. فقد بدأ الزحف الحاسم في 15 سبتمبر 1918 في معركة دوبرو بول حيث هاجمت قوة قوامها 36 ألف جندي

فرنسـي وإيطالـي وصربـي 12 ألـف جنـدي بلغـاري وألمانـي فاسـتولت علـى الممـرات الجبليـة الحيويـة اسـتراتيجيًّا التـي كانـت توفـر لبلغاريـا دفاعًـا طبيعيًـا ضـد الاجتياح،ممـا أعطـى الحلفـاء سـيطرة علـى الوديـان المؤديـة إلـى الشـمال والشـرق، ومنَـع هجـوم بريطانـي علـى الجانـب الأيمـن عنـد بحيـرة دويـران التعزيـزات البلغاريـة مـن الإسـراع إلـى إصـلاح الخـرق الـذي حصـل فـي الصفـوف، وإنبمعـدل خسـائر بشـرية بالغـة الارتفـاع بيـن البريطانييـن وصـل إلـى 30 فـي المائـة. وسـرعان مـا انهـارت الخطـوط الدفاعيـة التـي اتسـمت بالسـكون حتـى ذلـك الحيـن عندمـا وجـدت نفسـها تواجـه عدوًّايفوقهـا كثيـرًا فـي العـدد عاجّـل بتطويقها.وعندمـا تمـرد فوجـان بلغاريان،بـدأ تقهقـر واسـع النطـاق[77].

ولقـد نجـح سـلاح الجـو الملكـي فـي إربـاك القـوات البلغاريـة فحـوّل هـذا التقهقـر إلـى هزيمـة منكـرة، فدخـل جنـود بريطانيـون وفرنسـيون ويونانيـون الأرض البلغاريـة فـي 25 سـبتمبر. وفـي اليـوم نفسـه بـدأ صـرح دول المركـز يتداعـى فيمـا طلبـت الحكومـة البلغاريـة إبـرام هدنـة. وفـي الوقـت نفسـه، قامـت قـوات المسـتعمرات الفرنسـية بزحـف خاطـف لمسـافة 60 ميـلًا فـي 29 سـبتمبر أوصلهـا إلـى محيـط خطـوط العـدو فـي مدينـة سـكوبيه التـي أمّـن الاسـتيلاء عليهـا نهايـة الخـط الحديـدي الحيـوي الـذي كان يربـط دول المركـز بخطـوط الجبهـة، وحسـم انسـحاب بلغاريـا مـن الحـرب فـي اليـوم التالـي[78]. ومـن بعدهـا تفرّقـت قـوات الحلفـاء حيـث بـدأ الجنـود الفرنسـيون والصـرب زحفًـا مهيبًـا صـوب الشـمال لتحريـر صربيـا وعبـور نهـر الدانـوب لتهديـد إمبراطوريـة النمسـا والمجـر ذاتهـا، فـي حيـن زحفـت القـوات البريطانيـة شـرقًا عبـر تراقيـا صـوب الجـزء الأوروبـي مـن تركيـا ممـا شـكّل تهديـدًا مباشـرًا لقلـب الدولـة العثمانيـة، القسـطنطينية، علـى نحـو لـم تسـتطع ببسـاطة عمليـات الزحـف فـي فلسـطين وبـلاد الرافديـن النائيتيْـن فعله[79].عـلاوة علـى ذلـك، كانـت القـوات الألمانيـة علـى الجبهـة الغربيـة بحلـول أكتوبـر 1918 تشـهد تقهقـرًا تامًـا، ومـا كان مـن خـروج بلغاريـا مـن الحـرب إلا أن أكـد للقيادتيْـن فـي فيينـا والقسـطنطينية موقفهمـا الميئـوس منـه.

الفصل الخامس

مصر وفلسطين

يحلـل الفصـلان التاليـان الحملتيْـن الكبرييْـن اللتيْـن شـنتهما القـوات البريطانيـة (والقـوات الإمبراطوريـة، وخصوصًـا الهنديـة) فـي فلسـطين وبـلاد الرافديـن. وعلـى الرغـم مـن أن كل واحـدة منهمـا تشـكّل الأسـاس لفصـل مسـتقل، فـإن هنـاك عـددًا مـن القواسـم المشـتركة التـي يجـب أخذهـا بعيـن الاعتبـار، لـذا فـإن ثمةمبحثًـا تمهيديًـا موجـزًا سـيتناول هـذه المحـاور المشـتركة باختصـار قبـل أن يسـتأنف الفصـل تناولـه الحملـة التـي شـنتها القـوات التـي يقودهـا البريطانيـون فـي مصـر وفلسـطين. ثـم يسـتأنف الفصـل السـادس هـذا الاسـتعراض بتنـاول الحملـة التـي شـنتها فـي المقـام الأول (فـي بدايتهـا) القـوات البريطانيـة الهنديـة فـي بـلاد الرافديـن. وقـد مثّلـت هاتـان الحملتـان معًـا محـور التركيـز الرئيـس للحـرب التـي شـنتها الإمبراطوريـة البريطانيـة فـي الشـرق الأوسـط فـي أثنـاء الحـرب العظمـى، والتـي كانـت لهـا تداعيـات مـا زالـت أصداؤهـا تتـردد إلـى يومنـا هـذا.

بـدأت كلتـا الحملتيْـن بمفرزتيْـن صغيرتيْـن تابعتيْـن للجيـش الهنـدي أرسـلتا مـن الهنـد إلـى مصـر وبـلاد الرافديـن فـي خريـف 1914. ثـم توسـعت القـوات خـلال عـام 1915 وحققـت مكاسـب أوليـة مطـردة فـي تضاريـس شـبه جزيـرة سـيناء الصحراويـة وجنـوب بـلاد الرافديـن. ثـم تعرّضـت كل منهمـا لانتكاسـتيْن كبيرتيْـن خـلال سـنوات الحـرب الوسـطى، وذلـك فـي قطيسـفون وكـوت العمـارة فـي بـلاد الرافديـن بيـن نوفمبـر 1915 وأبريـل 1916، وفـي معركتـيْ غـزة الأولـى والثانيـة فـي مـارس وأبريـل 1917. وفـي كلتـا الحالتيْـن، دفعـت صدمـة الهزيمـة إلـى عمليـة إعـادة تنظيـم عسـكري شـاملة وتجديـد للهجـوم، ممـا أسـفر عـن الاسـتيلاء علـى مدينتـيْ بغـداد فـي 11 مـارس 1917 والقـدس فـي 10 ديسـمبر 1917. وقـد قوبـل كلا الحدثيْـن بالترحـاب فـي بريطانيـا وأشـيد بهمـا بوصفهمـا نجاحيْـن رفعـا الـروح المعنويـة لشـعب أنهكتـه الحـرب، وجـاءا فـي سـنة كانـت -فيمـا عـدا

ذلـك- كتيبةمليئـة بقصـص الجمـود العسـكري والسـخط الاجتماعـي الاقتصـادي المتنامـي فـي أماكـن أخـرى.

ولقـد نوهنـا فـي الفصـل الرابـع إلـى مصـر والـدور الـذي قامـت بـه بصفتهـا القاعـدة الرئيسـة لحملـة الدردنيـل سـنة 1915،وكيـف عـادت الحملـة العسـكرية المتوسـطية إليهـا فـي ينايـر 1916 وأعيـد تنظيمهـا تحـت اسـم الحملـة العسـكرية المصريـة لتبـدأ زحفهـا عبـر شـبه جزيـرة سـيناء نحـو الحـدود مـع فلسـطين العثمانيـة. وفـي بـلاد الرافديـن، تركـت عمليـات الزحـف التـي جـرت علـى امتـداد نهـريْ دجلـة والفـرات فـي عـام 1915 مفـارز مـن الحملـة العسـكرية الهنديـة «د» وتحـت سـيطرتها مواقـع منفصلـة غيـر قـادرة علـى دعـم بعضهـا بعضًـا وفـي حالـة اعتمـاد تـام علـى منظومـة نقـل نهـري مثقلـة بالأعبـاء للحصـول علـى مـا يلزمهـا مـن مـؤن وإمـدادات. وعلـى الرغـم مـن أن مسـار الحملتيْـن كان متزامنًـا بشـكل عـام (زحـف أوّلـي، ثـم وقـف التقـدم والمنـع مـن الحركـة، ثـم هجمـات تعرضيـة)، فإنهمـا اختلفتـا اختلافًـا كبيـرًا فـي الخطيْـن الزمنييْـن للعمليـات العسـكرية واللوجسـتية، حيـث سـعى المسـؤولون البريطانيـون إلىأكثـر ممـا يطيقـون وعلـى نحـو أسـرع ممـا يسـتطيعون فـي بـلاد الرافديـن بينمـا اتسـم الهجـوم التعرضـي الـذي شـهدته شـبه جزيـرة سـيناء وفلسـطين بالتأنـي فـي حشـد القـوات والمـوارد اللوجسـتية.

والواقـع أن هاتيْـن الحملتيْـن قـد أثقلتـا أيمـا إثقـال علـى المـوارد المحليـة والمجتمعات المضيفـة. فبحلـول الوقـت الـذي وضعـت فيه الحـرب أوزارهـا، كان قـوام الحملة العسـكرية المصريـة الإجمالـي 458246 رجـلًا محاربًـا وغيـر محـارب، فـي حيـن كان القـوام الإجمالـي لقـوة حملـة بـلاد الرافديـن أقـل بقليـل عـن 408138 رجـلًا محاربًـا وغيـر محـارب. وقـد أجهـدت هاتـان الحملتـان قاعدتـيْ إمدادهمـا الرئيسـتيْن فـي مصـر والهنـد إلى حـد الانهيار بحلـول عـام 1917، كمـا اسـتنزفتاالموارد مـن قـوة بشـرية ودواب وأغذية وأعـلاف في الأرض التـي وقعـت تحـت سـيطرة الاحتـلال البريطانـي فـي فلسـطين وبـلاد الرافديـن. عـلاوة علـى ذلـك، اعتمـدت الحملـة العسـكرية المصريـة وحملـة بـلاد الرافديـن علـى «جيـوش» مـن العمـال المحلييـن وأرتـال مـن دواب النقـل فـي تلبيـة حاجاتهمـا اللوجسـتية، فضـلًا

عـن المـوارد المحليـة مـن أغذيـة وأعـلاف. وقـد تداخـل التجنيـد وأنمـاط الاسـتيلاء علـى المـوارد مـع أسـواق العمـل المحليـة والاقتصـادات الريفيـة، وتسـببتا فـي خلـل كبيرحيـث ازدادت المتطلبـات بشـدة فـي عامـي 1917 و1918. عـلاوة علـى ذلـك، فـإن القاسـم بيـن مجالـيْ السـيطرة البريطانـي والعثمانـي قطـع طـرق التجـارة والمناطـق الزراعيـة الداخليـة، وفاقـم بشـدة الصعوبـات الناشـئة عـن نقـص الغـلات وتدهـور المحاصيـل بيـن عامـيْ 1913 و1916. ومـن ثـم فقـد أفضـى تطفـل قـوات عسـكرية كبيـرة علـى المجتمعـات المحليـة إلـى تدهـور التـوازن الدقيـق بيـن الطلـب المدنـي والعسـكري علـى مـوارد كانـت فـي أغلـب الأحـوال شـحيحة.

وهكـذاكان للتعـرض لفتـرات قتـال مطوّلـة أثـر شـديد علـى المجتمعـات المحليـة العالقـة فـي هـذا القتال،وقـد تطلبـت شـدة هـذا الموقـف مـن المتحاربيْـن (كلا الجانبيْـن العثمانـي والبريطانـي) تعميـق تغلغلهمـا فـي الأنمـاط السياسـية والاقتصاديـة المحليـة، فصـارت مسـتويات اسـتخراج المـوارد وتدخـل الدولـة أكثـر إرهاقًـا وإثقـالًا، حيـث ازدادت متطلبـات «اقتصـاد الحـرب» تعقيـدًا. وفـي المقابـل، أدى تنظيـم وإدارة عمليـة تعبئـة المـوارد واسـتخراجها إلـى عمليـة قوامهـا اتسـاع نطـاق سـيطرة الدولة،وهـو مـا تكشّـف بسـرعات متفاوتـة بيـن الحملتيْـن نتيجـة اختـلاف التفاعـل بيـن العوامـل السياسـية المحلية والمتطلبـات الإقليميـة والدوليـة للموقـف العسـكري. كمـا عكسـهذا التنظيـم والإدارة تفاوت أنماطالاندمـاج فـي المنظومـة الدوليـة (والاسـتعمارية) قبـل عـام 1914 واختـلاف معـدلات الاسـتيعاب فـي مجـالات نفـوذ جديـدة فـي أثنـاء الحـرب ذاتهـا. زد علـى ذلـك أن المـد والجـزر الـذي شـهده القتـال أتـاح للأفـراد والمجتمعـات السـاعين إلـى تعظيـم مصالحهـم داخـل النظـام المحلـي المتغيـر فرصًـا جديـدة.

وبالنسـبة للبريطانييـن، أدى تطـور القتـال إلـى تحـول واضـح (وإن كان تدريجيًـا) فـي المواقـف تجـاه الحمـلات العسـكرية خـارج حـدود أوروبـا. وقـد مثـل ذلـك تحـولًا حاسـمًا عن»الحمـلات الحدوديـة» الضيقـة التـي كانـت قـد هيمنـت مـا قبـل عـام 1914. فزالـت الذهنيـات القديمـة عـن الحـرب الحدوديـة وحـل محلهـا تدريجيًـا إدراك الحاجـة

إلـى توسـيع الاسـتراتيجية لاشـتمال تعبئـة القـوة البشـرية والحيوانيـة والمـوارد الزراعيـة المحليـة. ومـع ذلـك فقـد اسـتمرت العـادات القديمـة، ولا سـيما فـي الهنـد البريطانيـة، وتسـببت توليفـة مـن القيـود المؤسسـية والفكريـة فـي البدايـة فـي إلحـاق ضـرر كبيـر بالمجهـود الحربـي وتخصيـص المـوارد للقـوات فـي بـلاد الرافديـن. وربمـا نجـد مثـالًا بـارزًا علـى مـدى تحـوّل المواقـف فـي تلـك الإفـادة التـي أدلـى بهـا الضابـط البريطاني المسـؤول عـن جميـع ترتيبـات نقـل الميـاه لمفـرزة الجيـش الهنـدي التـي اسـتولت علـى البصـرة فـي نوفمبـر 1914، وذلـك أمـام «لجنـة تحقيـق بـلاد الرافديـن» فـي أكتوبـر 1916،والتـي قـال فيهـا إن الحملـة «كانمقـررًا أن تكـون حملـة سـريعة محـددة الهـدف علـى الشـاطئ فـي الخليـج العربـي... لـم يكـن لديّتصـور، لـم تكـن لـديّ فكـرة مـن أي نـوع عـن أنهـا سـتصل إلـى شـط العـرب»[1].

ولقـد شـكّلت الحملتـان اللتـان شُـنتا فـي فلسـطين وبـلاد الرافديـن الضغـط الرئيـس للهجوميْـن التعرضييْـن البريطانييْـن فـي الشـرق الأوسـط فـي أعقـاب الانسـحاب مـن الدردنيـل فـي ديسـمبر 1915. وعلـى النقيـض مـن ذلـك، كان التركيـز العثمانـي بعـد غاليبولـي منصبًـا إلـى حـد كبيـر جـدًا علـى الجبهـة الروسـية، فـي ظـل خسـارة أرضـروم فـي فبرايـر 1916 ومـا تلاهامـن قتـال عنيـف فـي ذلـك الصيـف. وكمـا سـبق وذكرنـا فـي الفصـل الثالـث، فـإن قتـال الـروس تسـبب فـي وقـوع ثلاثـة أربـاع الخسـائر البشـرية العثمانيـة كافة بيـن نوفمبـر 1915 ووقـت قيـام ثـورة فبرايـر فـي روسـيا فـي عـام 1917[2]. فخـلال سـنة الثـورات تلـك، فتـح ضعـف روسـيا وانسـحابها مـن الحـرب فـي النهايـة إمكانيـة تحقيـق مكاسـب عثمانيـة فـي آسـيا الوسـطى والقوقـاز، فتحـوّل الاهتمـام نحـو خيـار «الوحـدة الطورانيـة». وبالتالـي فبحلـول الوقـت الـذي وقـع فيـه الهجومـان البريطانيـان الضاغطـان الكبيـران صـوب بغـداد والقـدس، أضعفـت توليفـة مـن الإنهـاك العسـكري والأهـداف التوسـعية فـي أماكـن أخـرى الجيـوش العثمانيـة التـي كانـت فـي مواجهتهمـا فـي بـلاد الرافديـن وفلسـطين أشـد الإضعـاف[3]. عـلاوة علـى ذلـك، فـإن بُعـد المسـافة الجغرافيـة والعزلـة النسـبية التـي اتسـمت بهـا جبهـات القتـال عـن قلـب الدولـة العثمانيـة ترتـب عليه أنهـا لـم تكـن تنطـوي علـى تهديـد للآسِـتانةيقارب بـأي حـال التهديـد الـذي كانـت تنطـوي

عليـه الحمـلات التـي شُـنت فـي الدردنيـل، أو الزحـف انطلاقًـا مـن سـالونيك فـي سـبتمبر 1918الـذي تسـبب فـي الانهيـار النهائـي للمجهـود الحربـي العثمانـي[4].

كمـا وفّـرت الحملتـان اللتـان شـنتهما بريطانيـا أيضًـا السـياق للاتفاقيـات الجدليـة التـي أُبرمـت زمـن الحـرب مـع شـريف مكـة والفرنسـيين والصهاينـة أنصـار إقامـة «وطـن قومي» لليهـود فـي فلسـطين. فقـد أُبرمـت هـذه الاتفاقيـات فيمـا كان المسـؤولون البريطانيـون والفرنسـيون يسـعون إلـى اسـتغلال التوتـرات الداخليـة فـي الدولـة العثمانيـة بالتلاعـب بالتنافسـات وتشـجيع المشـاعر القوميـة الوليـدة[5]. ومـع ذلـك فإنهـا ألزمـت بريطانيـا باتبـاع مـا سـماه المـؤرخ يوكانيفاكيفي-موفّقًا-»نهـج السياسـات المتصادمـة تصادمًـا صارخًـا». فقـد خلقـت هـذه القـرارات المتناقضـة التـي اتُّخـذت زمـن الحـرب إرثًـا مـن المـرارة العظيمـة ومشـاعر الغـدر[6]. وسـوف نتنـاول فـي الفصـل السـابع بالتحليـل نشـأة وتفاصيـل مراسـلات حسـين مكماهونالمتبادلـة فـي عـام 1915، واتفاقيـة سـايكس بيكـو المبرمـة فـي مايـو 1916، وتصريـح بلفـور الصـادر فـي نوفمبـر 1917. وبالإضافـة إلـى هـذه «الاتفاقيـات» المهمـة الثـلاث، فـإن البيانـات التصريحيـة الأخـرى دعمًـا لطموحـات الحكـم الذاتـي المحليـة، مثـل «التصريـح البريطانـي إلـى القياديـن السـوريين السـبعة» و»التصريـح الإنجليـزي الفرنسـي» لسـنة 1918، رفعـت مسـتوى التوقعـات وزادت الآمـال فـي حـدوث تغييـر سياسـي ذي معنـى بمجـرد أن تضـع الحـرب أوزارهـا.

الحملة في مصر وفلسطين

اسـتند الحكـم البريطانـي فـي مصـر فـي العقـود الثلاثـة التـي انقضـت بيـن الاحتـلال فـي عـام 1882 ونشـوب الحـرب مـع الآسِـتانة فـي عـام 1914 إلـى وجـود رسـمي صغيـر. وكانــت تسـيّرهذا الحكمطبقـات مـن الجماعـات المتعاونـة المحلية،مثـل الموظفيـن المدنييـن ومسـؤولي المديريـات والبلديـات ورجـال الجيـش، بـل وكان الحكـم يعتمـد عليهـا فـي الحقيقـة. فقـد أدتهـذه الجماعـات دور وسـطاء علـى قـدر عظيممـن الأهميـة بيـن الصـرح الاسـتعماري «ذي اللمسـة الخفيفـة» والمطالبـات المجتمعيـة بتحسـين الأوضـاع الاجتماعيـة والاقتصاديـة وتفعيـل سـيادة القانـون. وكمـا فـي حـالات الاحتـلال الاسـتعماري

الأخرى، تمخضت التفاوتات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتأصلة في الحكم الأجنبي عن حركة قومية وروح مقاومة في مصر، وهو ما برزنوعًا ما استجابة للآثار الاقتصادية السلبية المترتبة على الاحتلال البريطاني الذي أزاح الصناع المهرة المصريين مستبدلًا بهم مهاجرين من جنوبي أوروبا، وعرقل الاتجاه إلى الصناعة في مصر من خلال إصلاحات النظامين الضريبي والقانوني، وشجع الاستغلال التجاري للزراعةالذي حرم كثيرين من أصحاب الحيازات الزراعية الصغيرة من أراضيهموفرض ربقة العبودية على كثيرين من الفلاحينورسّخ أقدام «أوليغارشية أعمال» جديدة قوامها أصحاب الأطيان الزراعية الواسعة والمستثمرون الأجانب ممن احتكروا الإمكانات المدرة للدخل في مصر قبل عام 1914. كما أدت وقائع معينة أيضًا، مثل مذبحة دنشوايسنة 1906 وما نجم عنها من تبرئة لمرتكبيها البريطانيين، إلى تعبئة الرأي القومي[7].

ولقد وضع تعرُّض مصر للحرب العظمى ومشاركتها القسرية فيها عبئًا هائلًا على الشبكات التعاونية التي كانت ترتكز عليها السلطة البريطانية وتُسقط نفوذها من خلالها، حيثاقتضت المطالب العسكرية على الموارد والقوة البشرية والدواب من السلطات البريطانية توسيع وتعميق تغلغلها في الأنماط الاجتماعية والاقتصادية المحلية بشدة. علاوة على ذلك، فإن تمديد العمليات إلى فلسطين في عام 1917 وما تلا ذلك من استيلاء على أرض للعدو اشتملا على تولي المسؤولية عن منطقة مفقرة دمرتها الحرب وعصفت بها المجاعة. فحدثت التحويلات الطارئة للمواد الغذائية والقوة البشرية الشحيحة من مصر إلى فلسطينبالضبط في الوقت الذي بدأت فيه بوادر الشح الموضعيتظهر وتنتشر على نطاق واسع في مصر ذاتها، مماقلص قدرة بريطانيا على الاحتفاظ بالسيطرة من خلال الوسائل غير المباشرة و«الرخيصة» -في إمبراطوريتها بوجه أعم كما في مصر-حيث ازداد عبء العمل الواقع على المسؤولين (وتقلّصت أعدادهم من خلال تحويلهم إلى مراكز عسكرية)، فيما بدأ المتعاونون والفئات المتضررة من المتطلبات العسكرية يطالبونبعائد ملموس على المساعدة التي قدموها زمن الحرب. ومن ثم فبنص كلمات المؤرخ البريطاني أنطوني ستوكويل،

فقد «استنزفت الحربُ الإمبراطوريةَ، وبانت الشقوق على السطح»[8].

وبالتالي فقد كانت للقرارات المتخذة فيما بين نوفمبر 1914 ونوفمبر 1918 تداعيات مهمة امتدت إلى فترة ما بعد الحرب. إذ أفضت الضغوط المترتبة على استدامة حملات عسكرية كبيرة إلى تحسين كبير في قدرات الدولة على التعبئة وقدراتها الاستخراجية. وتطورت صورة أكثر سلطوية من السيطرة الاستعمارية في ظل طلب السلطات البريطانية المزيد من الطلبات من النخب المحلية المتعاونة معها. وهذا بدوره أعاد تشكيل علاقات القوة المحلية وتمخض عن ردود أفعال محلية عنيفة ضد الطلب الذي ازداد إرهاقًا وسفورًا على الموارد والقوة البشرية. وسوف نتناول هذه المسائل بالتفصيل في الباب الثالث من هذا الكتاب، أما المباحث التالية في هذا الفصل فسوف تبيّن كيف وفّر المجهود العسكري السياق للتغيرات العميقة التي أعقبت ذلك. وبادئ ذي بدء، كان على المسؤولين البريطانيين تسوية وضع مصر داخل الإمبراطورية.

تسوية وضع مصر الشاذ

في أعقاب إعلان الحرب على الدولة العثمانية في 5 نوفمبر 1914، ركزت السياسة البريطانية على تسوية وضع مصر السياسي والعسكري داخل الإمبراطورية البريطانية. وقد كانت مصر خاضعة للاحتلال البريطاني «المؤقت» منذ عام 1882، وكانت تستضيف حامية بريطانية صغيرة تتراوح بين 4000 و5000 جندي[9]. وفي عام 1914، كان القائد البريطاني المسؤول في مصر هو الجنرال المخضرم جون ماكسويل الذي كان يتمتع بخبرة تربو على ثلاثين عامًا في مصر.وقد عمل ماكسويل بجانب شبكات الحكومة البريطانية والمستشارين التجاريين والموظفين المدنيين والمفتشين التي كانت منتشرة في كل فروع الإدارة المصرية[10]. وقد وصف أحد البريطانيين، وهو بي. جي. إلغود، هؤلاء المستشارين بأنهم «مستشارون بالاسم مسيطرون في الواقع» يعملون من خلف واجهة الحكومة المصرية في فصل نظريّ بين السلطات[11]. وقد دفع نفوذهم المستتر الإداري الإمبريالي والاستعماري البريطاني الكبير ألفريد ملنر إلى

سـكّ مصطلـح «المحميّـة المقنّعـة».

وقـد ظلـت مصـر تابعـة اسـميًا للدولـة العثمانيـة فـي نوفمبـر 1914، وكان طبيعيًـاأن ركّـز نشـوب الحـرب مـع الآسِـتانةالاهتمام علـى هـذه الحقيقـة. فاقتـرح غـراي فـي البدايـة ضـم مصـر ضمًـا صريحًـا لكـن هـذا الاقتـراح لاقـى معارضةمـن القائـم بأعمـال القنصـل العـام فـي مصـر السـير مِلنتشـيتامالذي دافـع عـن الإرث التعاونـي للاحتـلال «المؤقـت» وجـادل بقولـه إن الضـم سـيتناقض مـع هـدف الحكومـة البريطانيـة المعلـن وهـو الحفـاظ علـى حقـوق الأمـم الصغيـرة[12]. وكان البعـد الدينـي (تناولنـاه فـي الفصـل الرابـع) عامـل تعقيـد إضافيًـا دفـع المقيـم السياسـي البريطانـي فـي مصـر إلـى تأييـد نهـج حـذر فـي عـام 1914، وحـدث هـذا لأن المسـؤولين البريطانييـن كانـوا يعتبـرون المصرييـن «أعـداء محتمليـن وإن كانـوا كامنيـن، ومـن المستحسـن شـراء حيادهـم وهجوعهـم بـأي ثمـن»[13]. كمـا تنبأتشـيتام أيضًـا بالمحـاولات البريطانيـة اللاحقـة للظهـور بمظهـر الحامـي المشـجع للمشـاعر القوميـة العربيـة، حيـث أشـار إلـى إمكانيـة إسـقاط النفـوذ البريطانـي علـى المشـاعر العربيـة والإسـلامية بشـكل أفضـل مـن خـلال «إنشـاء أمـة محمديـة [هكـذا جـاءت] تحـت حمايتنـا»[14].

وكان المخططـون الدفاعيـون البريطانيـون قـد قـرروا في أغسـطس 1914أن أفضل سـبيل للدفـاع عـن المصالـح الإمبراطوريـة يكـون باسـتعادة تـوازن القـوى فـي أوروبـا، ومـن هـذا المنظـور دخلـت بريطانيـا الحـرب لكـي تحافـظ علـى الوضـع الراهـن لا لتحقـق مكتسـبات فـي الأرض فـي الشـرق الأوسـط أوفـي أماكـن أخـرى. وعلـى الرغـم مـن ذلـك، كان مركـز بريطانيـا الإمبراطـوري يسـتند إلـى الحفـاظ علـى السـيطرة علـى «شـريان الإمبراطوريـة الاسـتراتيجي»؛ ألا وهـو قنـاة السـويس التـي وُصفـت بحـق بأنهـا «الحبـل السـري» للإمبراطوريـة الـذي يصـل بيـن الهنـد ودولتـيْ الدومينيـون فـي أسـتراليا ونيوزيلنـدا، والـذي يسـمح بمـرور الرجـال والعتـاد والذخائـر إلـى مختلـف خطـوط الجبهـة ومنهـا[15]. لـذا كان تأميـن قنـاة السـويس ومـا يسـتتبعه مـن الحفـاظ علـى الاسـتقرار فـي مصـر وطـرق الوصـول إليها،بالإضافـة إلـى القضـاء علـى شـبكة ألمانيـا العالميـة مـن الاتصـالات ومحطـات

التزود بالفحم، حاسم الأهمية لتأمين سيطرة البحرية الملكية على المحيطات التي ستحافظ على بقاء إمبراطورية بريطانيا المترامية الأطراف.

وقد اتُّخذ تدبير أولي في أكتوبر 1914، وذلك قبل اندلاع فتيل الحرب، تمثل في قرار المقيمالسياسيالبريطانيتأجيل دور انعقاد الجمعية التشريعية التي كانت قد أنشئت في عام 1911. وفي 2 نوفمبر، وفيما كانت الحرب محْدقة، أصدرت السلطات العسكرية البريطانية إعلانًا لشعب مصر جاء فيه أن بريطانيا ستتولى المسؤولية كاملة عن الدفاع عن مصر وأنه لن يُطلب من مصري المشاركة في القتال. وأضافت الرقابة الصارمة التي فُرضت على الصحف والعمل الاستخباراتي المزيد من طبقات الحماية،فنجحت هذه التدابير في مجموعها في إضعاف إعلان الآستانةالجهاد في 14 نوفمبر[16]. وفي أثناء هذه الفترة، كانت الوحدات العسكرية الآتية من الهند وأستراليا ونيوزيلندا كلها تمر عبر مصر في طريقها إلى الجبهة الأوروبية. وبالإضافة إلى ذلك، وصلت فرقتان هنديتان (الفرقتان 10 و11 مشاة الهنديتان) لتكونا بمثابة نواة قوة إنجليزية جديدة في مصر أنيطت بها مهمة تأمين منطقة القناة[17].

كانت الفرقتان 10 و11 الهنديتان قد شُكلتا على عجل في الهند في ظل تدهور العلاقات بين لندن والآستانة، وكانتا تتألفان من ألوية مشاة متفرقة جُمّعت سُويا من دون ما يكفي من أركان حرب أو مدفعية أو جنود تابعين لقيادة الفرقة. ومع ذلك فقد رحّب السير رونالد ستورز، السكرتير الشرقي في مكتب المقيمالسياسيالبريطاني في مصر، بوصولهما إلى مصرحيث كان يعتقد أن مرأى القوات الهندية يمثل تصحيحًا عظيم القيمة للرأي القومي المصري الذي كان يزعم أن البريطانيين «يركبون» الهنود «مثل الحمير» وأن الهنود لن يحاربوا أبدًا في صفهم. كما كان ماكسويل أيضًا ينظر نظرة احترام للجنود الهنود الذين أعلن أنهم «مفعمون بالحماس وأنهم يتلهفونللقاء العدو». بل إنهكتب يقول إن الهنود يقينًا أفضل من ثلة من رجال الجيش الاحتياطي البريطاني كانوا قد وصلوا لتوهم من إنجلترا «والثلوج تغطيهم» ويبدون «متأثرين أشد التأثر باللقاحات التي أُعطوها فلا يكادون يقوون على الحراك».

ولقد وضع ماكسويل الفرقتيْن الهنديتيْن على امتداد قناة السويس في خط ممتد من بور سعيد في الشمال إلى السويس في الجنوب.واستفاد موقعهما هذا من خطوط المواصلات الجانبية الممتازة المتمثلة في سكة حديدية من النوع الواسع تمتد بطول مجرى القناة بأكمله، ومن سيطرة البحرية الملكية على طرق الوصول البحرية إلى السويس وبور سعيد. وفيما وراء الخط الأمامي، أسّس ماكسويل خطوط مواصلات مؤمنة على الضفة الغربية لقناة السويسربطت الإسكندرية (وجهة الإمدادات الآتية من المملكة المتحدة والغرب) والسويس (وجهة الإمدادات الآتية من الهند والشرق) والقاهرة (مكان تجميع الإمدادات المشتراة في مصر). وفي تلك الأثناء، كانت القوات الهندية تخفر «المدقالمدكوك» الذي كان يمتد بطول الضفة الشرقية للقناة بأكملها وتقوم على صيانته. وكان هذا بمثابة نظام إنذار بدائي ضد أي نشاط معاد أو رص للألغام في قناة السويس الحيوية استراتيجيًا. فلم يكن يُسمح لأي سفينة بالمرور عبر قناة السويس إلا بعد أن يقوم الضباط البريطانيون بتفتيشها عند أول ضوء كل صباح ورفع تقرير يفيد خلوها من أي أثر تجريمي أو أية شواهد أخرى[18].

وفي 19 ديسمبر 1914، أعلنت بريطانيا الحماية على مصر وخلعت الخديوي عباس حلمي الثاني الموالي للعثمانيين ونصّبت ابن أخيه المطواع الموالي لبريطانيا حسين كاملبدلًا منه سلطانًا على مصر(*). وكان في هذه الخطوة تسوية لقضية السيادة المصرية، وفي الوقت نفسه اكتسبت لندن حليفًا محليًا ثمينًا. وصار وزير خارجية الحكومة الهندية السير هنري مكماهونأول مندوب سام في القاهرة خلفًا لآخر مندوب بريطاني في مصر وهو اللورد كتشنر الذي عُيّن في منصب وزير الدولة للحربية في لندن عقب اندلاع الحرب. بيد أن مكماهون كان يفتقر إلى الخبرة السابقة بمصر، ولم يكن يتحدث العربية ولا الفرنسية (لغة موظفي الدواوين في مصر)، ولم يبذل إلا قليلًا من الجهد للتواصل مع زملائه المدنيين والعسكريين في ظل نمو مطالب زمن الحرب وازديادها مشقة وتعقيدًا[19]. وعلى أية حال، أُعلنت

* جاء في النص الأصلي أن السلطان حسين كامل ابن أخيالخديوي عباس حلمي الثاني، والصواب أنه عمه. (المترجم)

الأحكام العرفية في مصر التي ألغت نظام الامتيازات الأجنبية، وبناء على ذلك صارت القوات المسلحة البريطانية هي السلطة التشريعية والتنفيذية العليا الفعلية في مصر[20]. غير أن هذا لم يكن له في البداية إلا أثر قليل على الحياة اليومية. فقد كان ماكسويل شخصية شعبية يملك خبرة طويلة في مصر، فضمن أن تحكم «إدارته اللبقة والقوية في آن واحد» البلاد في تناغم دقيق مع الإدارة المدنية[21].

الاشتباكات الأولية في 1915

كانت هذه التدابير الأولية كافية لتفادي تأجج المشاعر المناهضة للبريطانيين التي كان كثير من المسؤولين يخشونها بعد إعلان الأعمال العدائية ضد الآستانة. وقد دام التهديد العسكري المباشر لمصر حتى 3 فبراير 1915، وذلك عندما تمكنت قوة عثمانية قوامها 20 ألف رجل ووحدة متكاملة من مدفعية الميدان من عبور صحراء سيناء آتية من فلسطين. وكان الجنرال الألماني فريدريش كريس فون كرسنشتاين(أحد أعضاء بعثة ليمان فون ساندرز العسكرية) يقود هذه القواتالتي تتألف من فرقتيْن (الفرقتان 10 و25 مشاة) قوامهما الإجمالي 25 ألف رجل، وهما تتبعان الجيش الرابع الذي يقوده جمال باشا. وقد تحدث جمال باشا في مذكراته التي كتبها بعد الحرب عن الأهداف العسكرية والسياسية المتشابكة لهذه الغارة فقال:

> كنت أرجو أن يهبّ الوطنيون المصريون، بعد أن يشجعهم استيلاء الجيش التركي على الإسماعيلية، هبة واحدة، وأن تُحرَّر مصر في زمن قصير غير متوقع بتوظيف قوة صغيرة جدًا وموارد فنية ضئيلة[22].

ولقد حاولت القوة المغيرة سد قناة السويس وتفجير ترعة المياه العذبة التي كانت تجري موازية لها. لكن الهنود المدافعين عن قناة السويس تصدوا لمحاولة التغلغل فيها باستخدام أطواف وزوارق قابلة للنفخ وكبّدواالعثمانيين خسائر بشرية فادحة تجاوزت 1500 رجل، على الرغم من تمكّن سريتيْن فعلاً من عبور القناة وإقامة رأس جسر صغير على ضفتها الغربية. لذا تقهقر كريس إلى فلسطين بعد

أن حقق أداء مشرفًا، وإن كان غير ناجح، لكن الصعوبة التي واجهها في شراء 14 ألف رأس من الإبل كانت الغارة بحاجة إليها كانت نذيرًا بمدى كثافة الاستيلاء على الموارد المحلية لصالح المجهود الحربي الذي سنراه فيما بعد. وقد آذن هذا الاشتباك بنهاية التهديد العسكري المباشر لقناة السويس[23].

وكانت مصر في أثناء عام 1915 تعد بمثابة القاعدة الرئيسة لحملة الدردنيل. وقد شغلت العمليات العسكرية في غاليبولي بال البريطانيين في أثناء الربيع والصيف في ظل اتساع الحملة في نطاقها وحجمها. فصارت مدينة الإسكندرية المصرية القاعدة الرئيسة للحملة العسكريةالمتوسطية نظرًا لعدم وجود موانئ عميقة المياه ومنشآت بنية تحتية مناسبة في شرقي بحر إيجة. فظل أسطول مؤلف من 120 سفينة نقل يقطع المسافة جيئة وذهابًا بين الإسكندرية والقاعدةالمتقدمة الموجودة فوق جزيرة مودروس، حيث كانت تلك السفن تزود القوات بما يلزمها من مؤن وذخائر وما تحتاج إليه من تعزيزات بالجنود ودواب الحمل. وفي تلك الأثناء، استفادت قاعدة الإمداد والتموين الرئيسة في الإسكندرية من القدر الكبير المتاح محليًا والموجود من قبل من منشآت تصنيع وإصلاح.كما افتُتحت أيضًا قاعدة للإمداد والتموين اشتملت في البداية على مخزونات أُخذت من مستودعات زمن السلم التابعة لجيش الاحتلال التي تعود إلى ما قبل عام 1914 في كل من الإسكندرية والقاهرة[24].

كما جنّد المسؤولون العسكريون البريطانيون في مصر «كتيبة أشغال مصرية» مؤلفة من 650 رجلًا و»فيلق عمل مصريًا» ناشئًا مؤلفًا من 1150 رجلًا للاشتغال بأعمال الإنشاء فوق جزيرة مودروس. فأدت كلتا الوحدتيْن خدمة جليلة بإنشاء أرصفة ومراسٍ وشبكة سكك حديدية خفيفة، وغالبًا ما كان يحدث ذلك في ظروف صعبة وتحت قصف المدفعية. غير أن كتيبة الأشغال تعرضت إلى «حادث مشؤوم» في سبتمبر 1915 أسفر عن مقتل تسعة مصريين وإصابة سبعة آخرين بعد أن فتح ضباط بريطانيون عليهم النار لإخماد حالة من البلبلة سادت بينهم. وكانت القلاقل قد ثارت بعد أن ادعى بعض العمال أنهم لم يتفقوا إلا على العمل لمدة ثلاثة

أشهر فقط وألا يكون عملهم تحت القصف. فطعن ضباطهم البريطانيون في صحة كلا هذيْن الادعاءيْن، وتفجرت التوترات في أعقاب أفعال قاسية ارتكبها أحد الضباط حيث أقدم على جلد العديد من الرجال. وقد انتقد المسؤولون البريطانيون في مصر «الافتقار إلى الكياسة وضبط النفس بشكل يؤسف له» من جانب الضابط الضالع في الواقعة. لكن حقيقة الأمر أن الواقعة خضعت للتعمية بفعل الرقابة الصارمة على الإعلام، على الرغم من أنها أسفرت عن استدعاء الكتيبة إلى مصر. وقد أسي هاملتون في غاليبولي لخسارة هذه الكتيبة حيث علّق في حزن على رحيلها بقوله إن «كتيبة الأشغال التي أسيء إليها والمثيرة للشغب قد قامت أيضًا بعمل رائع طوال وجودها هنا، ولكم كنت أتمنى بشدة لو كان لديّ أخرى»[25].

وفي البداية لم تكن المطالب العسكرية الصريحة التي وقع عبئها على مصر ثقيلة في عام 1915،إذ كانت تتألف في أغلبها من إقامة مستشفيات لإيواء الجرحى الآتين من غاليبولي، ومصادرة أبنية لأغراض الأشغال العسكرية، وتنفيذ لوائح عسكرية للسيطرة على رزيلتيْ شرب الخمر والدعارة. ثم ازداد دور مصر في استدامة المجهود العسكري البريطاني في شرقي البحر المتوسط زيادة كبيرة في أكتوبر 1915 بعد أن غزت القوات الألمانية والنمساوية سيبيريا واجتاحتها بسرعة. وقد بيّنّا في الفصل السابق كيف أفضى هذا إلى إرسال قوات بريطانية وفرنسية إلى مدينة وميناء سالونيك في شمالي اليونان وفتح الجبهة البلغارية المطولة في الحملة ضد العثمانيين. وبالطبع عقّد بدء هذه العمليات دور مصر بوصفها قاعدة تموينية وإدارية حيث تولت المسؤولية عن إمداد سالونيك بالإضافة إلى غاليبولي[26].

ولقد أشرف الجنرال إدوارد ألتام، مفتش عام المواصلات في مصر، على التوسيع السريع لقواعد الإمداد والتموين في الإسكندرية، حيث أعيد تنظيمها تحت اسم قواعد بلاد الشام ووُضعت تحت سيطرة وزارة الحربية المباشرة من أجل تنسيق شراء المؤن وتخصيص الإمدادات للقوات في سالونيكوغاليبولي، وكذلك للقوات الموجودة في مصر. وأنشئ مجلس موارد لتولي أمر كافة المشتريات المحلية والتغلب على

التوترات في ظل التنافس في الطلبعلى المواردالذي كان قد حدث من قبل في عام 1915 عندما وجدت الحملة العسكرية المتوسطية والقوات الإنجليزية في مصر أنفسهما تتنافسان في السوق المفتوحة على السلع ذاتها[27].

وترتّب على الطلبات العسكرية بغرض إعاشة القوات في غاليبولي وسالونيك أن كانت السياسة العسكرية في مصر محدودة نسبيًا في عام 1915. فبالإضافة إلى إخماد الثورة التي وقعت في الصحراء الغربية (نناقشها في المبحث التالي)، اقتصر دور الستين ألف جندي الذين كانوا يشكّلون قوام القوات الإنجليزية في مصرعلى الدفاع السلبي عن قناة السويس،مما أثار مخاوف فيما بين السلطات العسكرية في لندن مفادها أن «القناة هي التي يبدو أنها تدافع عن الجنود وليس الجنود هم الذين يدافعون عن القناة». وبالتالي أمر ماكسويل في 16 نوفمبر 1915 بتكديس المؤن والعتاد لتعزيز الدفاعات عن القناة،وهو الإجراء الذي اشتمل على إقامة ثلاثة خطوط دفاع متدرجة في بعدها عن قناة السويس تحميها سلسلة من النقاط الخارجية التي يدعم بعضها بعضًا وتغطي رءوس الجسور والمراكز الحيوية على الضفة الشرقية. وقد أتم العمال المصريون الذين جُندوا ضمن فيلق العمل المصري، في أعقاب عودته من غاليبولي، هذا العمل في مطلع عام 1916.

الثورة السنوسية في الصحراءالغربية

شنّت القوات البريطانية والإمبراطورية أيضًا حملة عسكرية لإخماد التمرد السنوسي في الصحراء الغربية الواقعة بين مصر وليبيا. وكانت أصول هذا التمرد تعود إلى المقاومة السنوسية للغزو الإيطالي لليبيا في عام 1911، حيث قامت انتفاضة مسلحة في نوفمبر 1914 في إقليم طرابلس وإقليم فزان الواقع في جنوبي ليبيا قبل أن تنتشر غربًاإلى معقل الحركة السنوسية في إقليم برقة الواقع على حافة الصحراء الغربية المصرية(*). ودفع قرار إيطاليا دخول الحرب العظمى في صف بريطانيا

* جاء في النص الأصلي أن الانتفاضة المسلحة انتشرت غربًا إلى إقليم برقة، والصواب شرقًا لأن هذا الإقليم يقع في شرق ليبيا. (المترجم)

وفرنسا العثمانيين إلى زيادة مستوياتالدعم المادي الذي يقدمونه إلى الحركة السنوسية التي كانت هيذاتها قد أعلنت الجهاد من قبل ضد الوجود الإيطالي في إقليم برقة في أوائل عام 1913. وقد تقلّصت قبضة إيطاليا على ليبيا باطراد وبحلول نهاية عام 1915 اختزلت في مدينتيْ طرابلس وبنغازي الساحليتيْن. علاوة على ذلك فقد تعرّض الطليان لانتكاسة كبيرة في أبريل 1915 في معركة القرضابيةعلى أيدي حليفهم المحلي السابق رمضان السويحلي المصراتي، مما أسفر عن الإبادة الفعلية للقوة الإيطالية في ليبيا[28]. ثم ألحق السويحلي هزيمة أخرى بحامية إيطالية كانت موجودة في بني وليد، وصار بمساعدة من تدفقات المعونات العثمانية والألمانية الشخص الأعظم نفوذًا من بين الأعيان في شرقي إقليم طرابلس، حيث شكّل حكومة محلية تمكنت من ممارسة السيطرة على قبيلة ورفلة المتنفذة في الإقليم. وانتقامًا لما حدث، أمرت السلطات الإيطالية التي كانت تزداد يأسًا يومًا بعد يوم بإعدام أكثر من 700 ليبي شنقًا، لكن هذا العمل البشع لم يزد زخم وعمق حركة المقاومة المناهضة للاستعمار إلا شدة[29].

وإلى الشرق من هناك، تزايد الضغط العثماني على السنوسيالكبير،السيد أحمد الشريف، لشن هجوم على القوات البريطانية في مصر من الخلف. وقد آتى هذا الضغط ثماره في نوفمبر 1915 حيث عبرت قوة قوامها 5 آلاف مقاتل الحدود وسارت شرقًا على امتداد الساحل نحو الإسكندرية. وبالتزامن مع ذلك، قامت غواصة ألمانية بنقل ضباط عثمانيين وألمان إلى مستوطنة السلوم الساحلية المصرية فتغلبت على قوة بريطانية كانت موجودة هناك. وردًا على ذلك، شكّل البريطانيون قوة باسم «قوة الحدود الغربية» مؤلفة من لواءين (أحدهما مشاة والآخر راكب) وسرب من الفيلق الجوي الملكي ووحدات من أستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا والهند. وقد اتخذت القوة مقرها الرئيس في مرسى مطروح الواقعة في منتصف الطريق بين الإسكندرية والسلوم، وبدأت تصد الزحف السنوسي بشكل ممنهج. وقد أُنجزت هذه المهمة فيما بين ديسمبر 1915 ومارس 1916 في سلسلة تألفت من خمسة اشتباكات آذنت بنهاية التهديد السنوسي على امتداد ساحلالبحر المتوسط. لكن فتيل

القتال اشتعل من جديد في أكتوبر 1916 عندما احتلت القوات السنوسية عددًا من الواحات الاستراتيجية، مما أجبر القوات البريطانية على تحويل وجهة قوات من حملة سيناء للاحتفاظ بحامية في الصحراء الغربية. وأخيرًا، وذلك في فبراير 1917، ألحق لواء سيارات مدرعة خفيفة بريطاني هزيمة بالسنوسي وقواته وأجبرهم على الانسحاب النهائي إلى الجهة الأخرى من الحدود الليبية.

وفي مفاوضات السلام التي تلت ذلك، رتب البريطانيون لإقصاء السيد أحمد الشريف الذي كانوا يعتبرونه ذا نزعة جهادية وصاحب ميول وحدوية إسلامية،وإحلال ابن عمه إدريس السنوسي (وهو الذي صار فيما بعد ذلك بزمن طويل أول ملك لليبيا وذلك في عام 1951 إلى أن أطاحه العقيد معمر القذافي عام 1969) محله. وكان إدريس يؤيد إقامة علاقات طيبة مع البريطانيين ويُنحي على أحمد باللائمة في الهزائم العسكرية التي تكبّدتها الحركة السنوسية في عام 1916. وقد جرّت بريطانيا رجله إلى شبكة محسوبيتها، فأبعد أحمد وبطانته من الضباط العثمانيين عن برقة،مما حقق هدف بريطانيا الاستراتيجي الذي كان يتمثل في السيطرة على نظام عميلٍ مطواع على امتداد جانبها الغربي ووقف انتشار التأثير السنوسي إلى المتعاطفين مع الحركة في مصر وأماكن أخرى في شمال أفريقيا[30]. وبقضاء البريطانيين على تهديد تعرضهم لهجوم من المؤخرة، استطاعوا التركيز على الزحف شرقًا عبر شبه جزيرة سيناء ومنها إلى فلسطين العثمانية.

إلى سيناء وفلسطين

عادت قوة التجريدة المتوسطية إلى مصر في يناير 1916 بعد نجاحها في الجلاء عن غاليبولي. وفي 9 يناير، خلف الجنرالأُرشيبالدموراي الجنرالَ مونرو على منصب القائد العام. وتعايشت قوة موراي في البداية في جو من الشراكة المضطربة بجانب القوات الإنجليزية في مصر، حيث تولى موراي المسؤولية عن دفاعات القناة في حين احتفظ ماكسويل بالمسؤولية عن الشؤون الداخلية والأمن على حدود مصر الغربية. وعلى الرغم من ذلك تمخض وجود قيادتيْ جيش عن ثنائية في القيادة

وتعقيد دفع ماكسويل إلى أن اقترح على لندن إلغاء منصبه في مارس 1916، معللاً هذا بأنه وجد النظام الثنائي «غير ضروري، وينطوي على هدر، وغير مريح،بل وقد يكون خطيرًا في أوقات الشدة»[31]. فتولى موراي المسؤولية منفردًا عن القوة المندمجة التي سماها قوة التجريدة المصرية. غير أن رحيل ماكسويل حرم مصر من قائد محترم صاحب خبرة طويلة في الأوضاع المحلية. وعلى النقيض من ذلك، كان خلفه يفتقر إلى الخبرة بالأوضاع المصرية، وفي أثناء الفترة التي قضاها هناك (وهي التي استمرت حتى يونيو 1917) جادل النقاد بأن مقر القيادة العامة صار مجتمعًا منغلقًا ومنعزلًا عن الوعي بالقضايا والمشكلات المصرية[32].

ولقد واجه موراي تحديًا فوريًا بصفته القائد الأوحد في مصر حيث كان الموقف العسكري في ربيع 1916 تغلب عليه الفوضى. فقد عادت إحدى عشرة فرقة بريطانية وإمبراطورية من غاليبولي وكانت بحاجة إلى إيوائها وتزويدها بالمؤمن وإعادة تجهيزها وإرسالها إلى جبهات أخرى. وبلاشك فإن هذه المهمة أثقلت كاهل قدرات الإمداد والتموين المحلية إلى أقصى درجة حيث عجزت الموارد المتوافرة في مصر بشكل متزايد عن إمداد الجنود والدواب بالمواد الغذائية والأعلاف. وصار الوضع حرجًا عندما لاح في الأفق انهيار وشيك في الإمدادات الغذائية حيث طغى الطلب على الموارد القائمة. ولم يُتدارك هذا الموقف إلا بفضل شحنة طارئة هائلة من الخبز والتبن وصلت من الهند في مارس 1916[33]. وكان هذا بمثابة إنذار مبكر بالصعوبات المترتبة على نقل قوات عسكرية كبيرة وزرعها في مجتمعات مدنية لم تكن تتمتع بهامش كفاف كبير. وسوف تكون هذه مشكلة متكررة في مواجهة المجتمعات المضيفة والقوات المتحاربة في مصر وبلاد الرافدين مع مضيّ الحملات قدمًا وتوسعها، وكذلك في مواجهة الهند التي كانت «المورّد الذي يمثل الملاذ الأخير» حتى اقتربت مخزوناتها هي نفسها من شفا الأزمة في أواخر 1918.

وفيما بين مارس ويونيو 1916، أعيد تنظيم عشر فرق مشاة وأعيد تجهيزها وأرسلت إلى فرنسا، في حين أرسلت فرقة واحدة (13 مشاة) إلى بلاد الرافدين.

وظلت أربع فرق تابعة للجيش الاحتياطي البريطاني في مصر حيث بدأ موراي يعيد النظر في الوسائل المثلى لتأمين منطقة قناة السويس، وهوما تبلور في 15 فبراير 1916. فقد أبلغ موراي خلفه على منصب رئيس الأركان العامة الإمبراطورية في لندن، وليم روبرتسون، بأن أفضل وسيلة للدفاع عن مصر هي الزحف عبر شبه جزيرة سيناء إلى بلدة العريش القريبة من الحدود مع فلسطين العثمانية. وعلل موراي بأن هذا سيحرم العدو من الوصول إلى سيناء بتأمين السيطرة البريطانية على العريش، وهي البلدة الوحيدة القادرة على تزويد واستدامة أي قوة مغيرة بالمياه، مما يستحيل معه أي تكرار لهجوم فبراير 1915الاقتحامي. علاوة على ذلك فإن الاستيلاء على العريش سيضع قوة التجريدة المصرية في وضع يمكّنها من القيام بعمل هجومي سريع ضد أي حشد للعدو في جنوب فلسطين[34].

وكانت الخطط البريطانية القاضية بالقيام بزحف منهجي تنبني على إعداد لوجستي دؤوب، وهو ما عكس وعي البريطانيين المتزايد بالانهيار الراهن في الترتيبات اللوجستية في بلاد الرافدين (وهو الذي نناقشه في موضع لاحق في هذا الفصل). وفي سيناء، تَقرّر أن يترافق الزحف مع إنشاء سكة حديدية ذات اتجاه واحد وخط أنابيب لنقل المياه،وكان كلاهما يبدأ عند ميناء القنطرة المطل على قناة السويس ويشكّل ما سماه أحد المراقبين المعاصرين «الحبل السري» الرابط بين القوات الزاحفة وبين طعامها ومياهها ومستلزماتها العسكرية[35]. ولقد كان إنشاؤهما ضروريًا لأن التضاريس الصحراوية الرملية الناعمة كاد يستحيل معها استخدام النقل بالسيارات، وأما المياه التي كانت تجود بها الكثير من الآبار فكان معروفًا أنها آسنة غير صالحة للاستهلاك الآدمي.

وفي 9 مارس، أقرت وزارة الحربية في لندن إنشاء السكة الحديدية الممتدة من القنطرة إلى قاطية الواقعة على بعد 28 ميلًا شرق القناة، وهي التي تكمن قيمتها الاستراتيجية فيما بها من عيون كثيرة، وكذلك في رمانة التي تبعد عنها 5 أميال. ولقد كانت قاطية ورمانة تحتويان فيما بينهما على آخر إمدادات مياه متاحة قبل

العريش التي تبعد عنهما نحو 60 ميلًا في اتجاه الشرق. وبالإضافة إلى كونهما منطلقيْن حيوييْن لقوة التجريدة المصرية في أثناء زحفها، حرم احتلالهما العدو من مخزونات المياه التي ستكون ضرورية لاستدامة أي هجوم على القناة. وقد قاد كريس فون كرسنشتاين قوة عثمانية ثانية مغيرة مؤلفة من نحو 4 آلاف رجل عبر شبه جزيرة سيناء لشن هجوم مباغت على اللواء الخامس الراكب في قاطية في 23 أبريل. وكما حدث مع محاولة شن غارة على القناة في اليوم نفسه، ومع الهجوم الاقتحامي الذي سبق ذلك في فبراير 1915، صُد هذا الهجوم وإن بثمن فادح من الخسائر البشرية بين البريطانيين وبعد تقهقرهمفي أول الأمر عن مواقعهم. وكان هذا الهجوم بمثابة إشعار آخر بالحاجة إلى تأمين عمق استراتيجي في سيناء. وقد وصلت السكة الحديدية البريطانية إلى رمانة في 19 مايو، ومكّنت الفرقة 52 من الزحف والاحتفاظ بالموقع وما يحتوي عليه من آبار[36].

وجاء آخر تهديد عثماني لمصر وقناة السويس في 4 أغسطس 1916 عندما قامت قوة تجريدة ألمانية عثمانية مشتركة مؤلفة من الفرقة 3 مشاة (الأناضولية) وسرايا رشاشات وكتائب هاون خنادق من مجموعة «الباشا 1» الألمانية بمهاجمة القوات البريطانية وقوات أنزاك في رمانة. فانضم اللواءان الأول والثاني خيالة خفيفة الأستراليان واللواء الراكب النيوزيلندي إلى اللواء الخامس الراكب لصد المهاجمين في قيظ ذلك اليوم من أيام الصيف، فأسروا ما يزيد على 4 آلاف أسير وأوقعوا خسائر بشرية بلغت 9 آلاف رجل بقوة قوامها 18 ألف رجل. وفي 12 أغسطس، تخلى المغيرون عن موقع الترحيل الذي كانوايحتلونه في بئر العبد وتراجعوا إلى العريش. وأمّن انتصار بريطانيا في معركة رمانة أخيرًا قناة السويس من هجوم العدو. وعند النظر إلى ذلك الانتصار بأثر رجعي، نجد أنه آذن بنهاية الدفاع عن مصر وبداية انتقال حملة سيناء من المناورات الدفاعية دفاعًا عن قناة السويس إلى وضع هجومي تعرضي يهدف إلى غزو الأراضي العثمانية في فلسطين ذاتها[37].

وقد استولت القوة الشرقية التابعة لقوة التجريدة المصرية على العريش في 21

ديسمبر 1916 وواصلت زحفها لتستولي على بلدة رفح الحدودية في 9 يناير 1917. وآذن هذان الاشتباكان بنهاية العمليات العسكرية في سيناء، وقد مكّن سير العمل التدريجي (وإن كان غير مطرد) في السكة الحديدية وخط أنابيب المياه عبر الصحراء الجنرال موراي من حشد قوة عسكرية كبيرة على الحدود مع فلسطين العثمانية،مما سمح لقوة التجريدة المصرية بالمضي قدمًا بأعداد كبيرة والإعداد لزحف في أرض العدو. وبحلول مارس 1917، كانت ثلاث فرق مشاة وفرقتا فرسان قد زحفتا إلى الأمام إلى مجموعة جديدة من خطوط الجبهة قبالة مدينة غزة مباشرة. وردًا على ذلك، أمرت السلطات العثمانية بالإخلاء الجماعي للسكان المدنيين في المناطق الواقعة في جنوب فلسطين، بما في ذلك سكان يافا وعددهم 50 ألفًا، لأسباب من بينها أنهم كانوا يخشون احتمال استمالتهم على أيدي القوات البريطانية الغازية[38].

وبحلول ديسمبر 1916، كانت السلطات العسكرية البريطانية مسؤولة عن تأمين إعاشة قوة قوامها 200 ألف فرد مقاتل وغير مقاتل على امتداد الحدود مع فلسطين. وكانت الكمية المطلوبة يوميًا من المياه البالغة مليونًا ومائتي ألف غالون تعكس تعقيد العملية اللوجستية التي قام عليها الزحف وحجمها،حيث اشتملت هذه العملية على وحدات من قبيل فيلق العمل المصري وفيلق هجانة النقل اللذين شكّل كلاهما طلبًا متناميًا باستمرار على أرياف مصر للحصول على القوة البشرية والموارد. ومع اتساع نطاق العمليات في عام 1917، صارت الصلة بين الجاهزية اللوجستية والنجاح (أو الإخفاق) الاستراتيجي أو العسكري لا تنفصم. غير أن هذا تطلب من المسؤولين البريطانيين التدخل بشكل أشد عدوانية بكثير من أجل التغلغل وتحويل النشاط الزراعي والاقتصادي نحو المجهود الحربي. كما كشف أيضًا عن انقسامات داخل الإدارة البريطانية في مصر بفرعيْها المدني والعسكري، وهو الانقسام الذي برز إلى الوجود في عام 1916 مع خوض مكماهون في «نزاعات متكررة مريرة» مع موراي. زد على ذلك أن مكماهون نقل قدرًا كبيرًا من السيطرة إلى مستشاره المالي إدوارد سيسيل الذي كان مكروهًا من سلطان مصر ووزرائه المصريين، مما بث بذور الصراع المستقبلي على فصل السلطات بين فرعيْ الإدارة البريطاني والمصري[39].

الهجمات على غزة (1917)

في مارس 1917، شنت قوة التجريدة المصرية عمليات هجومية تعرضية في جنوب فلسطين. وكان الهجوم الاقتحامي على بلدة غزة العثمانية في 26 مارس بمثابة المنعطف الذي تحولت عنده الحملة التي كانت حتى ذلك الحين دفاعية هدفها حماية قناة السويس إلى هجوم ضاغط في أرض العدو. وكانت توليفة من العوامل العسكرية-اللوجستية والجغرافية السياسية الأعم تكمن وراء قرار تمديد الحملة إلى الأراضي العثمانية، حيث كان الاستيلاء على غزة وبلدة بئر سبع من شرقها سيؤمن السيطرة على مصدريْ إمدادات المياه الرئيسيْن في المنطقة[40]. وكان مناخ غزة المائل إلى الاعتدال وطبيعتها الإيكولوجية بما تشتمل عليه من عشب وحقول قمح وشعير وحدائق وبساتين سيوفران لقوة التجريدة المصرية قاعدة صيفية أنسب صحيًّا من السهل الساحلي المفعم بالملاريا، فضلاً عن الإمدادات الحاسمة من أطعمة وأعلاف للجنود وما بصحبتهم من دواب نقل. وقد وصف أحد الملازمين البريطانيين المنطقة بأنها «ريف يبعث في النفس البهجة، وهو مزروع بدرجة عالية من الإتقان» وأعرب عن «ارتياحه لمرأى هذا الريف بعد أميال وأميال من الرمال الجرداء...»[41]. كما أن السيطرة على غزة وبئر سبع ستحرم العثمانيين من استخدام هاتيْن البلدتيْن لسد طرق زحف قوة التجريدة المصرية. علاوة على ذلك، فإن الاستيلاء عليهما سيوفر غطاء لتمديد السكة الحديدية العسكرية إلى داخل فلسطين ذاتها[42].

ولقد تفاعلت هذه العوامل المحلية مع الاعتبارات الجغرافية السياسية على المستوى الكلي والاعتبارات الدولية في تشكيل السياسات العسكرية البريطانية. فخلال الأشهر الأولى من عام 1917، كان رئيس الوزراء الجديد ديفيد لويد جورجضالعًا في صراع مرير مع الجنرال وليم روبرتسون، رئيس الأركان العامة الإمبراطورية. وكان هذا النزاع المدني-العسكري يخص اتجاه العمليات العسكرية ومسألة ما إذا كان ينبغي نشر القوة العسكرية في المقام الأول على الجبهة الغربية أم في أماكن أخرى. وتجدر الإشارة إلى أن لويد جورج قد خلف هربرتأسكويث على منصب رئيس

الوزراء في ديسمبر 1915، إلى حد كبير بفضل دعمه مجهودًا حربيًا أكثر عدوانية، لكنه كان أيضًا من منتقدي الخسائر المتصاعدة في فرنسا والإقليم الفلامندي، وسعى إلى اتباع نهج جديداعتمد على إصراره على اتخاذ نظرة أبعد مدى للحرب تحافظ على القوة البشرية البريطانية التي كان يشعر أنها تتعرض للتبديد في سلسلة من المعارك الاستنزافية على الجبهة الغربية. وقد اقترح بحث مبدع أجراه بروك ميلمان أيضًا أن الهجمات التعرضية التي شُنت في فلسطين وأماكن أخرى في الشرق الأوسط ربما كان هدفها تعزيز مكانة بريطانيا العالمية في حالة إبرام أي سلام بالتفاوض أو بالتراضي مع ألمانيا[43].

وعلى أية حال، كان اجتياح جنوب فلسطين جزءًا من استراتيجية دولية أعم لممارسة ضغط مجمّع على دول المركز على كل الجبهات، وهو ما جرى الاتفاق عليه في المؤتمر الإنجليزي الفرنسي الذي عُقد في كاليه في 26 فبراير 1917، وهذه مناسبة معروفة بمحاولة لويد جورج تهميش وتجاوز روبرتسون والجنرال السير دوغلاس هايغ بإنشاء هيكل عسكري موحد تحت قيادة القائد الفرنسي روبرت نيفيل[44]. وعلى الرغم من هذا الجدل (تهديد روبرتسون بالاستقالة)، كان مجلس وزراء الحرب في لندن تعتقد أن فتح فلسطين سيساعد على إحياء الاستراتيجية البريطانية في الشرق. وكان هذا مهمًا بوجه خاص في أعقاب ما ذاقه البريطانيون من إهانة وهزيمة عسكرية في كوت العمارة في بلاد الرافدين في أبريل 1916، وهما اللتان كان المسؤولون يخشون أنهما وجهتا ضربة مؤذية لهيبة بريطانيا وهالة القوة المحيطة بها. كما كانوا يأملون أيضًا أن يستنهض النجاح في شن الحملة الثورة العربية في الحجاز، ويخفف ضغط القوات العثمانية عن القوات الروسية في أرمينيا والقوات البريطانية في بلاد الرافدين، ويساعد بوجه عام في طرد العدو من الشرق الأوسط[45].

وفي 26 مارس 1917، قامت قوة التجريدة المصرية بالمحاولة الأولى مما سيصير في النهاية ثلاث محاولات للاستيلاء على غزة. وفي البداية نجح الهجوم الاقتحامي،

إذ سرعان ما طوّقت وحدات الفرسان البلدة، على الرغم من أن خطط استخدام قذائف مدفعية مملوءة بالغاز السام لم تتحقق. وقد حدث هذا جزئيًا بسبب تقدير بريطاني خاطئ مفاده أن العثمانيين سيتراجعون إلى خط ممتد من القدس إلى يافا ولن يتشبثوا بموقعهم في غزة، ومن ثم فلم يكن موراي مستعدًا لأن «يكشف عن أسلحة المفاجأة التي في حوزته قبل الأوان»، وآثر بدلًا من ذلك أن يحتفظ بذخائره الكيميائية لاستعمالها في اشتباك مستقبلي[46]. ولكن كان لهذا القرار، فضلًا عن التفاؤل المبكر، تأثير عكسي شديد حيث أسفرت توليفة من سوء أداء أركان حرب القوة وسوء الاتصال عن صدور أمر قبل الأوان بسحب وحدات الفرسان إذخشي ضباط الأركان خطأً احتمال نفاد ما لديهم من مياه قبل حلول الليل[47]. وقد ألمح التأريخ الأسترالي الرسمي لحملة سيناء وفلسطين إلى عقم هذه المعركة حيث إنها «أثرت على الجنود على كلا الجانبيْن على نحو غير متكافئ بالمرة مع الخسائر البشرية التي تكبّدها الجانبان...»[48].

وعلى الرغم من هذا، أرسل موراي إلى لندن وصفًا للمعركة ممعنًا في التضليل والتفاؤل، وقد تناولتها التغطيات الصحفية للأعمال العسكرية بصفتها نجاحًا. وردًا على ذلك، طلب مجلس وزراء الحرب من مواري مواصلة الزحف في أرض العدو في فلسطين[49]. واستلزم هذا محاولة ثانية للاستيلاء على غزة في 17-19 أبريل تضمنت في النهاية أول استخدام للغاز السام في أي مسرح حرب شرق أوسطي. وسعت العملية التي اشتملت على مرحلتيْن إلى الهجوم على الدفاعات العثمانية الرئيسة على امتداد خط طوله 4 كيلومترات، وفي الوقت نفسه تثبيت تعزيزات العدو في جهة الشرق في أماكنها ومنعها من التحرك[50]. ومع ذلك فقد صُد هذا الهجوم على أيدي حامية عثمانية معزّزة لديها سابق إنذارتفوق 20 ألف رجل في العدد، وهكذا لم يحرز أي تقدم مقابل الخسائر البشرية الباهظة التي تُكبّدت[51]. وقد تركت هذه الانتكاسة الثانية قوة التجريدة المتوسطية هابطة الروح المعنوية منهزمة، وسرعان ما نُحّي موراي وقائد القوة الشرقية الجنرال تشارلز دوبل عن منصبيْهما.

وخلـف مـوراي فـي منصبـه الجنـرالُ السـير إدمونـد ألنبـي فـي 1 يونيـو. وكان قـد سبق لألنبـي قيـادة الجيـش الثالـث البريطانـي فـي الجبهـة الغربيـة فـي أثنـاء الهجمـات التعرضيـة التـي شُـنت فـي ربيـع 1917، لكنـه دفـع ثمـن الإخفـاق فـي اسـتغلال اختـراق تحقـق فـي معركـة أراس فـي أبريـل. كمـا أنـه كان مختلفًـا مـع هايـغ فـي التكتيـكات فـي إطـار صـدام شـخصيات بيـن رجليْـن صموتيْـن وجـدا نفسـهما ذات مـرة بمفردهمـا داخـل إحـدى غـرف مقـر القيـادة العامـة فلـم يقـدرا علـى التفـوه بكلمـة واحـدة لأحدهمـا الآخـر[52]. وبالتالـي كان نقلـه إلـى الشـرق الأوسـط يمثـل زجـرًا بقـدر مـا كان يمثـل لـه فرصـة كـي يعيـد صياغـة سـمعته العسـكرية، وقـد وصـل إلـى فلسـطين فـي حالـة مـن اليـأس تخيّـم عليـه سـحابة مـن الريبـة، علـى الرغـم مـن أنـه كان ذا معرفـة وثيقـة بالكتـاب المقـدس (واللغـة اليونانيـة) وجغرافيـة الأرض المقدسـة[53]. وعلـى الصعيـد العملـي، اسـتفاد ألنبـي مـن آخـر قـرار لمـوراي وهـو فـي موقـع المسـؤولية، وكان يتمثـل فـي اتخـاذ تدابيـر متأخـرة لدمـج شـبكته اللوجسـتية فـي رؤيـة اسـتراتيجية صاعـدة، وبالتالـي يكـون بمقـدوره دعـم زيـادة كبيـرة فـي قـوة التجريـدة المصريـة فـي مواجهـة غـزة[54]. وخـلال صيـف وخريـف 1917، مكّـن الاسـتقرار الـذي تمخـض عنـه جمـود خـط الجبهـة فـي غـزة أيضًـا قـادة قـوة التجريـدة المصريـة مـن تكويـن صـورة دقيقـة لنوايـا العـدو الاسـتراتيجية وقـدرات قواتـه فـي فتـرة التحضيـر لاسـتئناف العمليـات الهجوميـة[55]. كمـا حظـي ألنبـي أيضًـا بالدعـم السياسـي الكامـل مـن جانـب رئيـس الـوزراء ديفيـد لويـد جـورج الـذي كلفـه بمهمـة تحقيـق نجـاح يرفـع الهمـم والـروح المعنويـة ويبـث الحيـاة مـن جديـد فـي الجمهـور البريطانـي الـذي أضنتـه الحـرب يومًـا بعـد يـوم.

وفـي يوليـو، أقـر مجلـس وزراء الحـرب فـي لنـدن ازدواجيـة خـط السـكك الحديديـة الممتـد مـن القنطـرة إلـى خـط الجبهـة. وفـي تلـك الأثنـاء، رسـم الضابـط القائـد الجديـد للقـوة الشـرقية، وهـو الفريـق فيليـب تشـيتوود، ورئيـس أركانـه العميـد غـاي دونـاي خطـة جديـدة لتطويقمـوارد الميـاه فـي بئـر سـبع والاسـتيلاء عليهـا، قبـل أن يعـودوا أدراجهـم إلـى غـزة ويتعاملـوا مـع الدفاعـات العثمانيـة[56]. وكانـت خطتهمـا تهـدف إلحلحلـة الجمـود الـذي سـيطر علـى ميـدان المعركـة وتعتمـد علـى إعـادة تنظيـم شـاملة للسـكك

الحديدية الجانبية ومستودعات الإمدادات الاحتياطية على مدى شهور الصيف. وقد مكّن هذا التحضير المنهجي الجنرال ألنبيمن تجميع فرقتيْ مشاة (العشرون والحادية والعشرون) وفيلق واحد راكب (الفيلق الصحراوي الراكب) بمجموع عشر فرق إجمالًا. ولقد واجهت تلك القوات الجيش الثامن العثماني الذي شُكّل حديثًا تحت قيادة كريس فون كرسنشتاين، والذي كان يتألف من تسع فرق مشاة وفرقة واحدة فرسان. وعلى الرغم من أن العثمانيين كانوا قد قووا خطوط دفاعاتهم بدرجة أكبر في غزة منذ الربيع، فإن قدرتهم العملياتيةضعفت بفعل ارتفاع معدل تهرب الجنود من مواقعهم والنقص في وسائل النقل والذخائر والمواد الغذائية وانصباب محور التركيز الاستراتيجي الإقليمي على بلاد الرافدين لا على فلسطين[57].

ولقد دارت رحى معركة غزة الثالثة بين 31 أكتوبر و7 نوفمبر 1917،فبدأت بالاستيلاء على بئر سبع وما بها من إمدادات مياه على أيدي الفيلق العشرين والفيلق الصحراوي الراكب في 31 أكتوبر. وأطلقت الفرقة الثانية والخمسون قذائف الغاز على غزة لكن تبين عدم جدواها بوجه عام. وعزي ذلك في حينه إلى حقيقة أن «نسيم البحر في غزة صعّب استخدام الغازحيث كان الهواء صافيًا متطايرًا بدرجة أكبر مما يسمح بأن يكون الغاز شديد الفعالية، ولم يكن لدينا قط ما يكفي من غاز لإطلاق غلالة جيدة من قذائف المدفعية المملوءة به»[58]. وبدلًا من ذلك اشتُهرت معركة غزة الثالثة بالهجوم المفاجئ الشهير الذي شنّه اللواء الرابع خيالة خفيف الأسترالي الذي اجتاح الخنادق العثمانية وأسفر عن الاستيلاء (الحيوي) على 15 بئرًا من أصل 17 بئرًا دون أن يمسها أذى. وقد وصف الضابط قائد الوحدة، وهو المقدم مورابيوشر، في تقريره العسكري الذي أرسله إلى مقر القيادة كيف أن «روح العدو المعنوية اهتزت بشدة بعد أن وثب خيالتنا على مواقعه وبالتالي تسببوا في فقدان رماة البنادق ورماة المدافع الرشاشة لدى العدو السيطرة على الانضباط في تنفيذ أوامر الرماية»[59]. وفي ظل أمان جانب العثمانيين الأيسر، هاجم الفيلق الحادي والعشرون غزة في 2 نوفمبر، ونجح في اختراق الخطوط العثمانية في 7 نوفمبر[60]. وكان مدى إعادة التنظيم اللوجستية التي نفذت منذ معركتيْ غزة الأولى

والثانيـة كبيـرًا جـدًا لدرجـة أن المعركـة الثالثـة استُهلت بأكبـر قصـف مدفعـي خـارج الحـدود الأوروبيـة فـي الحـرب كلهـا. وكان تكثيـف رمايـة المدفعيـة يضاهـي مـا شـهده يـوم 1 يوليـو فـي معركـة السـوم، وهـي شـهادة علـى نجـاح عمليـة الصيانـة التحضيريـة الدؤوبـة التـي خضعـت لهـا شـبكات الإمـداد والنقـل[61].

ومـع تقـدم الفيلـق العشـرين بعـد ذلـك صـوب الشـمال، واجـه عندئـذ مقاومـة عثمانية شـديدة فـي تـلال يهـودا. فقـد أجبـر الاختـراق الـذي حـدث فـي غـزة وبئـر سـبع رئيـس الأركان العامـة الألمانيـة السـابق (وفـي عـام 1917 قائـد عمـوم القـوات العثمانيـة فـي فلسـطين) الجنـرال إريـش فـون فالكنهايـن علـى سـحب الجيشـيْن السـابع والثامـن إلـى القـدس. وقـد دخـل الجيـش السـابع علـى وجـه الخصـوص فـي اشـتباك حـرس مؤخـرة قـويّ أوقـف تقـدم قـوة التجريـدة المصريـة وتطلـب قتـالًا شـديد العنـف للتغلـب عليـه[62]. ووقعـت ثلاثـة اشـتباكات كبـرى عنـد قمةجبـل المغـار(13 نوفمبـر) وتـلال النبـي صموئيـل (17 - 24 نوفمبـر) بالإضافـة إلـى سلسـلة مـن الهجمـات العثمانيـة المضـادة التـي بـدأت فـي 27 نوفمبـر. وعلـى الرغـم مـن هـذه الهجمـات، وأيضًـا علـى الرغـم مـن الصعوبـات الناميـة فـي الإمـداد والنقـل فـي ظـل تـرك القـوات الإمبراطوريـة البريطانيـة نهايـات خطوطهـا الحديديـة خلفهـا وسـيرها فـي التـلال البـاردة المكشـوفة، استسـلمت القـدس فـي 9 ديسـمبر 1917. فبـدأت القـوات المدافعـة عنهـا انسـحابًا غيـر منظـم حيـث كانـت معظـم وحـدات الجيـش العثمانـي فـي المنطقـة فـي حالـة رثةتعانـي مـن نقـص مزمـن فـي المـؤن والتعزيـزات وتقـع تحـت ضغـط متواصـل مـن قـوة التجريـدة المصريـة، وفـي حالـة معنويـة شـديدة التدنـي. وبعـد ذلـك بيوميْـن دخـل ألنبـي المدينـة رسـميًا عبـر بـاب الخليـل سـيرًا علـى الأقـدام محاطًـا بمسـؤولين مدنييـن وعسـكريين مـن ضمنهـم تـي. إي. لورنـس وفرنسـوا جـورج بيكـو، فضـلًا عـن ممثليـن مـن القوتيـن العسـكريتين الإيطاليـة والفرنسـية الصغيرتيـن الملحقتيـن بقـوة التجريـدة المصريـة[63].

وفـي 27 ديسـمبر حـاول هجـوم عثمانـي مضـاد اسـتعادة المدينـة، فأخفـق فـي تحقيـق هـذا الهـدف لكنـه كبّـد قـوة التجريـدة المصريـة خسـائر فـي الأرواح تزيـد عـن 1300

رجل، وتواصلت عمليات صغيرة من حول المدينة حتى فبراير 1918. كما دفعت الانتكاستان اللتان تعرض لهما العثمانيون في غزة وبئر سبع أيضًا القيادة العليا العثمانية إلى أن تحوّل إلى فلسطين مجموعة جيوش «الصاعقة»تحت قيادة الجنرال الألماني إريش فون فالكنهاين (وفيما بعد تحت قيادة ليمان فون ساندرزابتداء من فبراير 1918)التي أريد لها أن تشكّل نواة هجوم عثماني مضاد في بلاد الرافدين في عام 1917. وكانت هذه المجموعة التي تعرضت لاستنزاف شديد لقوتها تتألف من ثلاث كتائب مشاة ألمانية وتسع فرق عثمانية موعودة، لكن هذه الفرق أخفقت في الوصول قبل سقوط القدس، وأخيرًا وصلت بين كر وفر وكانت موهَنة بشدة حتى أن أحد المؤرخين المحدثين لحملة فلسطين، وهو المؤرخ ماثيوهيوز، وصفها بأنها «تشكيل من ورق» هو «مجرد اسم أكثر منه حقيقة»[64]. وعلى الرغم من ذلك فإن الوحدات العثمانية أوقفت انسحابها وتخندقت في خط ممتد من الساحل شمال يافا مرورًا بتلال يهودا وصولًا إلى نهر الأردن. وتوقفت العمليات العسكرية الكبيرة في فلسطين آنذاك حيث كاد الألمان يخترقون صفوف الجيشيْن الثالث والخامس البريطانيين في فرنسا في هجومهم الربيعي الكبير في 21 مارس 1918. وفي غمرة الاندفاع لتعزيز الجبهة الغربية، حوّل ألنبي اثنتيْن من فرقه البريطانية الثلاث إلى فرنسا، واضطر إلى إعادة تنظيم قوته مستخدمًا وحدات شُكّلت على عجل في الهند. ولم يُستأنف الزحف إلا في سبتمبر 1918، مع تحول الزخم العام تحولًا حاسمًا في اتجاه الحلفاء، وكانت النتائج مدمرة[65].

ولقد مثّل الاستيلاء على القدس في ديسمبر 1917 انتصارًا سياسيًّا أكثر بكثير منه انتصارًا عسكريًّا أو استراتيجيًّا. فقد جاء هذا الانتصار في نهاية فترة عصيبة للغاية بالنسبة لدول الوفاقوحلفائهم، وذلك بعد سنة شكّلت فيها الثورات الروسية والتمردات الفرنسية تهديدًا وجوديًّابمعنى الكلمة، وبدا أن الجمود العسكري الدموي في إيبروباشنديلينهك الروح المعنوية للشعب البريطاني بقدر ما ينهك قوة تشكيلات العدو. وتحقيقًا لرغبة جورج لويد جورج في لفتة مبهرة بتقديم القدس ك»هدية للأمة البريطانية بمناسبة عيد الميلاد»، احتُفي بالاستيلاء على المدينة بدق أجراس

الكنائس في عموم بريطانيا، بالإضافة إلى نشر رسم كاريكاتوري إبداعي في مجلة «بنْتش» Punch الهزلية البريطانية بعنوان «الحملة الصليبية الأخيرة» ظهر فيه ريتشارد قلب الأسد وهو ينظر من علٍ إلى المدينة ويقول: «لقد تحقق حلمي»![66]. ومع ذلك فهو لم يفعل شيئًا لتقرير محصلة الحرب العظمى أو حتى التوازن المحدود في الحملة ضد الدولة العثمانية. ومن ثم كان تقييم الألمان لسقوطها أكثر براغماتية وتبصرًا نوعًا ما حيث قالوا: «هذا بلا ريب نجاح للإنجليز، وإن كان نجاحًا معنويًا أكثر منه عسكريًا... فمن يفتح المدينة يكتسب بالطبع هالة تكسوه»[67].

فلسطين: الغزو والاحتلال

تطلب تمديد الحملة العسكرية إلى فلسطين من قوة التجريدة المصرية تولي المسؤولية عن أرض خربها أثر الحرب الاقتصادي. فقد كانت ولايات سوريا ولبنان وفلسطين العثمانية تعاني من صعوبة وخلل اقتصادي لا يمكن تصورهما في أثناء سنوات الحرب. كما تضررت تلك الولايات بوجه خاص من مجاعة شديدة بدأت في عام 1914 واستمرت حتى عام 1916، وعُزيت جزئيًا إلى مواسم متعاقبة من تدهور المحاصيل ووباء الجراد الذي حلّ بأرض فلسطين فيما بين مارس وأكتوبر 1915، والطلب العثماني الشديد على القوة البشرية والحيوانية المحلية، وإغلاق طرق التجارة الذي حدث نتيجة تقسيم المنطقة إلى مناطق نفوذ وسيطرة متحاربة. فقد أتت أسراب الجراد على كل شيء أخضر في مناطق عديدة في سوريا وفلسطين وأفنت غالبية الإمدادات الغذائية المحلية، في حين أثرّت رياح حارة متواصلة هبّت في يونيو 1916 تأثيرًا سيئًا على حاصلات القمح في منطقة إنتاج الحبوب المحيطة بحلب في سوريا. وتقلّصت إمدادات المواد الغذائية أكثر بفعل تعطيل التجارة، وعدم كفاية وسائل النقل لحمل المحاصيل إلى الأسواق، والافتقار إلى أي تنظيم لتنسيق إمداد الأغذية واستهلاكها[68]. وبالتزامن مع ذلك، جُنّدَ آلاف الشباب للمشاركة في الآلة العسكرية العثمانية وألوية العمل في الوقت الذي أدت فيه مصادرة الأيدي العاملة ودواب الجرّ والمواشي والحاصلات الزراعية إلى تحويل وجهة ما كان متاحًا

مـن مـوارد شـحيحة للاسـتخدام العسـكري. وقـد فرضـت هـذه التدابيـر وطـأة شـديدة جـدًا علـى السـكان المدنييـن فـي سـوريا ولبنـان حيـث بـدأت مشـكلات نقـص الغـذاء فـي المـدن والبلـدات قبـل أن تنتشـر بسـرعة إلـى المناطـق الريفيـة، فمـات بسـبب المجاعـة مـا يقـارب نصـف مليـون شـخص[69].

ولقـد عظُـم أثـر هـذه السياسـات الاسـتخراجية بفعـل التدابيـر العثمانيـة القهريـة التـي قيّـدت تدفـق الإمـدادات إلـى بـلاد الشـام خشـية وقوعهـا فـي أيـدي العـدو. وفـي عـام 1915، عُيّـن جمـال باشـا حاكمًـا عسـكريًا علـى سـوريا بصلاحيـات عسـكرية ومدنيـة خاصـة وواسـعة. وكان جمـال باشـا، بالإضافـة إلـى قيادتـه الجيـش الرابـع العثمانـي، عضـوًا فـي دكتاتوريـة اتحـاد «تركيـا الفتـاة» الثلاثيـة بصفتـه وزيـر البحريـة بالإضافـة إلـى وزيـر الحربيـة أنـور باشـا ووزيـر الداخليـة طلعـت باشـا. ولعـل إرسـاله إلـى سـوريا كان يعكـس ارتيـاب الدكتاتوريـة الثلاثيـة فـي ولاء السـكان العـرب السياسـي للدولـة العثمانيـة وخصوصًا فـي المراكـز الحضريـة النابضـة بالحيـاة التـي ترعرعـت بيـن أحضانهـا الجمعيـات الثقافيـة والقوميـة الوليـدة السـرية قبـل عـام 1914. وكان هـذا المنـاخ مـن الارتيـاب المتبـادل إلـى حـد مـا انعكاسًـا للنفـور المتنامـي لـدى الـرأي العـام والأعيـان فـي سـوريا منتبنيحكومـة جمعيـة الاتحـاد والترقـي فـي الآسِـتانةتوجهًا قوميًـا يغلـب عليـه الطابـع التركـي[70]. عـلاوة علـى ذلـك، صـارت الطوائـف المسـيحية فـي المنطقـة، ولا سـيما فـي لبنـان، مثـار ريبـة علـى خلفيـة صلاتهـا بالمصالـح الفرنسـية والنفـوذ الفرنسـي. ولا شـكأن وضـع المنطقة تحت الإشـراف المباشـر لشـخصية قويـة متنفـذة مثـل جمـال باشـا كان ينـم عـن نيـة الآسِـتانة وضعهـا تحـت المراقبـة الدقيقـة. وخـلال السـنوات الثلاثـة التاليـة، اكتسـب جمـال باشـا عـن اسـتحقاق لقـب «السـفاح» بفضـل القمـع الـذي أخضـع لـه المعارضيـن السياسـيين، ولا سـيما القومييـن العـرب.

وسـرعان مـا تـلا وصـول جمـال باشـا إلـى سـوريا فـي أوائـل عـام 1915 حـدثٌ تمخّـض عنـه انقسـامات بيـن مركـز الدولـة العثمانيـة التركـي ومحيطهـا العربـي، حيـث ضُبطـت وثائـق سـرية فـي القنصليتيْـن الفرنسـيتيْن فـي بيـروت ودمشـق تحتـوي علـى تفاصيـل

دقيقـة تخـص أنشـطة شـبكة مـن القوميـين العـرب الذيـن يمارسـون أنشـطة هدّامـة فـي كلتـا المدينتيْـن. فأُلقـي القبـض علـى عـدد مـن كبـار الأعيـان العـرب ووُجهـت إليهـم تهمـة الخيانـة اسـتنادًا إلـى تلـك الوثائـق، وأصـدرت محاكـم عسـكرية عليهـم أحكامًـا بالإعـدام، فشُـنق أحـد عشـر شـخصًا علـى المـلأ حتـى المـوت فـي بيـروت فـي أغسـطس 1915 تلاهـم واحـد وعشـرون آخـرون شـنقوا فـي بيـروت ودمشـق فـي مايـو 1916. وقـد صدمـت هـذه الإعدامـات المجتمـع العربـي حيـث كان مـن بيـن المشـنوقين عضوبمجلسـالأعيان (الشـيوخ) وثلاثـة أعضـاء بمجلسـالمبعوثان (النـواب) وأبنـاء العديـد مـن كبـرى العائـلات فـي سـوريا وأشـخاص آخـرون علـى صلـة بنشـاط حـزب اللامركزيـة الإداريـة العثمانـي. وقـد وصـف أحـد المؤرخيـن البارزيـن، وهـو وليـم كليفلانـد، كيـف أن إعدامهـم الـذي حـدث قبيـل قيـام الثـورة العربيـة مباشـرة «منـح الضحايـا هالـة الشـهادة... وصـار يرتبـط فـي أذهـان النـاس بقضيـة العروبـة»[71].

ولقـد تقاطـع إرث جمـال باشـا بمـا اشـتمل عليـه مـن سياسـات قمعيـة متزايـدة القسـوة مـع التعبئـة العثمانيـة الأشـد عمقًـا وتغلغـلًا للمـوارد البشـرية والزراعيـة إبـان الحـرب، وازداد الوضـع تفاقمًـا بفعـل تأثيـر الحصـار الـذي ضربـه الحلفـاء علـى الموانـئ البحريـة في فلسـطين وسـوريا، فضـلًا عـن الخلـل الاقتصـادي الناجـم عـن تعطيـل طـرق التجـارة فيمـا بيـن القبائـل بعضهـا البعـض وداخـل القبيلـة الواحـدة، وخصوصًـا الطـرق الممتـدة إلـى الموصـل. ونتيجـة لذلـك، فـإن المناطـق التـي انتقلـت إليهـا قـوة التجريـدة المصريـة فـي عامـي 1917 و1918 كانـت مبتـلاة بالمجاعـة والأوبئـة مثـل التيفـوس، وهـو مـا فاقمـه سـوء التغذيـة والترحيـلات القسـرية للسـكان والمسـتويات البالغـة مـن المديونيـة الشـخصية والخـراب المالي.وأثّـرت هـذه الأوضـاع علـى سـكان الحضـر والريـف فـي فلسـطين وسـوريا علـى حـد سـواء، ووجهـت سـلطات الاحتـلال بالحاجـة الملحـة إلـى إعـادة إنشـاء مـا يشـبه سـلطة الدولـة واتخـاذ تدابيـر تخفيـف طارئـة. وكانـت المسـتعمرةالأمريكية فـي القـدس قـد وفـرت منـذ عـام 1915 قـدرًا مـن التخفيـف لهـذه الشـدائد عـن كاهـل السـكان المحلييـن مـن خـلال الأعمـال الخيريـة وافتتـاح دور لرعايـة الأيتـام ومطاعـم للفقـراء وإدارة المستشـفيات العسـكرية العثمانيـة[72].

وفـي يوليـو 1917، ذكـر الأمريكـي وليـم ييـل، موظـف شـركة سـتاندرد أويـل النيويوركيـة الـذي عـاش فـي القـدس فيمـا بيـن مـارس 1915 ومايـو 1917، فـي تقريـر لـه أن «ثـلاث سـنوات مـن الحـرب صيّـرت فلسـطين إلـى حالـة يرثـى لهـا، حيـث اسـتنزفت القـرى بفعـل التجنيـد العسـكري وخُرِّبـت بفعـل الكوليـرا والتيفـوس والحمـى المتكـررة»، وأضـاف أن الأوضـاع فـي لبنـان أسـوأ حتـى مـن هـذا[73]. وكان ييـل قـد أُرسـل إلـى الشـرق الأوسـط فـي عـام 1913 للتنقيـب عـن النفـط وعـاش فـي أول الأمـر فـي الآسِـتانة قبـل أن يرتحـل جنوبًـا. ثـم رحـل عـن فلسـطين فـي عـام 1917 لتولـي منصـب عميـل خـاص فـي القاهـرة لـدى وزارة الخارجيـة الأمريكيـة، ليعـود إليهـا بعدهـا فـي عـام 1918 مراقبًـا عسـكريًا أمريكيًـا بصحبـة قـوات ألنبـي. وفـي تلـك الأثنـاء، وثّـق اللبنانـي جـورج حبيـب أنطونيـوس مـؤرخ بـزوغ نجـم القوميـة العربيـة (والمراقـب المعاصـر للحملـة) أيضًـا روايـات شـهود عيـان علـى المعانـاة فـي سـوريا ولبنـان فقـال: «كانـت هنـاك مشـاهد يعجـز المـرء عـن وصفهـا، ومـن ذلـك أن أسـرًا بأكملهـا كانـت تتلـوى مـن الوجـع علـى الأرض العاريـة داخـل أكواخهاالبائسـة، وكانـت آهاتهـا تسـمعمن علـى مسـافة ميـل. وكانـت هـذه الأسـر قـد باعـت كل ماالديهـا مـن أمتعـة المنـزل لشـراءالخبز...»[74].

ولقـد أكّـد مسـؤولون بريطانيـون هـذه الروايـات التـي تتحـدث عـن الحرمـان والصعـاب التـي كابدهمـا سـكان المنطقـة المدنييـن، حيـث نـوّه السـير مـارك سـايكس فـي يونيـو 1916 إلـى أن «شـعب لبنـان يتعـرض الآن للإبـادة الممنهجـة بالتجويـع»[75]. وفـي أعقـاب الاسـتيلاء علـى القـدس فـي ديسـمبر 1917، نـوّه حاكمهـا العسـكري الجديـد السـير رونالـد سـتورزإلى أن «المشـكلة الأكثـر إلحاحًـا بالطبـع هـي الغـذاء» حيـث إن «الكابـوس الـذي يقلقنـي أشـد القلـق ويقـض مضجعـي كان شـح الغـذاء الـذي يصـل إلـى حـد المجاعـة». وعكـس هـذا حقيقـة أن الاسـتيلاء علـى المدينـة حقـق «بهـاء ومجـدًا قلمـا تمخضـت عنـه الحـرب العظمـى، لكـن... القليـل ممـا سـوى ذلـك». وقـد عـزا سـتورز هـذا إلـى حقيقـة أن القـدس كانـت تعيـش علـى مـؤن لا تـكاد تسـد الرمـق منـذ ثـلاث سـنوات، حيـث انقطعـت عنهـا إمداداتهـا التـي كانـت تصلهـا فيمـا قبـل الحـرب مـن حبـوب تأتيهـا مـن أوديسـا وأيضًـا -قريبـا مـن الديار-مـن المناطـق المنتجـة للحبـوب علـى الجهـة الأخـرى مـن نهـر

الأردن[76]. وكان ارتفاع معدلات انتشار الأمراض في المناطق التي خضعت للحكم البريطاني في أثناء عام 1917 مشكلة أخرى. كما كان تفشي مرض التيفوس في ربيع 1916 قد أودى بحياة آلاف الأشخاص في عموم جنوب فلسطين. وفي الوقت نفسه، وجدت دراسة بريطانية أجريت بعد الاستيلاء على القدس بزمن قصير أن 27.3 في المائة من تلاميذ مدارسها لديهم طفيليات ملاريا في دمائهم. وكانت الملاريا صورة شديد الخباثة ينشرها نوع خاص من البعوض (الأنوفيليسالمتشعب) يزدهر في كثير من الخزانات التي تحتوي على مياه الأمطار في المدينة[77].

الجمود والحل في 1918

في هذا السياق الاجتماعي الاقتصادي البائس بدأت سلطات الاحتلال البريطاني تنشئ هيكل إدارة محلية في المناطق الواقعة تحت سيطرتها في فلسطين. وكما سبق وفصّلنا، فإن العمليات العسكرية واسعة النطاق توقفت بعد الاستيلاء على القدس في ديسمبر 1917، باستثناء مبادرات صغيرة نسبيًا لتعزيز وتقوية خط دفاع قوة التجريدة المصرية. واشتملت هذه المبادرات على الاستيلاء على مستوطنة أريحا القديمة في منتصف فبراير وتمديد للخط في أوائل مارس ليصير أكثر عمقًا. وكان الاستثناءالرئيس من هذا النشاط الموضعي غارتان فاشلتان على الضفة الشرقية من نهر الأردن نحو عمان في مارس ومايو 1918، وكانتا تهدفان إلى دعم الجيش العربي الشمالي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين في أثناء تنفيذه عملياته الهجومية من الأجناب بأسلوب حرب العصابات في الحجاز. وقد وقع الهجوم الأول فيما بين 21 و30 مارس لكنه صُد على أيدي القوات العثمانية والألمانية التي دافعت بنجاح عن مدينة عمان. وبدأ هذا الهجوم بالتزامن مع الهجوم الألماني الكبير على الجبهة الغربية، وأفضى في النهاية إلى إعادة تنظيم شاملة لقوة التجريدة المصرية لكنه لم يحل دون القيام بهجوم ثان (أكثر طموحًا) على منطقة شرق نهر الأردن بين 30 أبريل و4 مايو. ومن جديد أخفق هذا الهجوم في زحزحة الجنود العثمانيين والألمان عن مواضعهم، كما أدى هجومهم المضاد على مدينة السلط إلى انسحاب

الفيلـق الصحـراوي الراكـب مـن وادي نهـر الأردن[78].

وقصـرت قـوة التجريـدة المصريـة أنشـطتها خـلال الصيـف علـى الغـارات الصغيـرة الراميـة إلـى تحسـين مواقعهـا علـى مسـتوى شـديد المحليـة. وناهيـك عـن عـدم استحسـان القيـام بعمليـات كبيـرة فـي قيـظ الصيـف، كان ألنبـي بحاجـة إلـى إعـادة تنظيـم قوتـه بعـد خسـارته معظـم كتائبـه البريطانيـة لصالـح الجبهـة فـي فرنسـا. وقـد تمخـض هـذا عـن صعوبـات لوجسـتية حيـث احتاجـت الكتائـب البديلـة الآتيـة مـن الهنـد إلـى نقلهـا إلـى مصـر وتجهيزهـا وتدريبهـا قبـل أن ترسـل إلـى الجبهـة فـي فلسـطين[79]. عـلاوة علـى ذلـك، فـإن محـور تركيـز الحـرب الأوسـع كان يميـل بشـدة إلـى الوضـع علـى الجبهـة الغربيـة فـي أوروبـا حيـث إن الجيـوش البريطانيـة والفرنسـية كانـت تقاتـل فـي البدايـة مـن أجـل البقـاء بعـد الهجمـات الربيعيـة الألمانيـة ثـم بـدأت تحوّلدفـة الأمـور بالنصـر الـذي حققتـه فـي معركـة أميـان فـي 8 أغسـطس. وبعدئـذ فقـط، ومـع تتابـع سلسـلة الانتصـارات العسـكرية فـي «المائـة يـوم» بثبـات، تمكـن الحلفـاء مـن تحطيـم المقاومـة المتداعيـة مـن جانـب دولالمركـز فـي جنـوب أوروبـا والشـرق الأوسـط.

فقـد بـدأت معركـة مجـدو النهائيـة فـي 19 سـبتمبر 1918،وتزامنـت مـع الاختـراق الحاسـم الـذي حققـه الجنـرال لويـس فرانشـيه ديسـبيريه مـن جبهـة سـالونيك فـي معركـة دوبـرو بـول، وبالتالـي أدرك دول المركـز وهـي فـي حالـة تراجـع عـام. واقتحمـت قـوة ألنبي فـي فلسـطين مـن جانبهـا الخطـوط العثمانيـة فـي هجـوم تعرضـي مشـترك بيـن المشـاة والخيالة،وقطعـت أعـداد كبيـرة مـن الطائـرات وسـيارات النقـل الطريـق علـى الجيـوش العثمانيـة المنسـحبة ودحرتهـا فـي معركـة اعتُبـرت فيمـا بعـد مثـالًا نموذجيًـا للمعركـة العميقـة خفيفـة الحركـة[80]. وتحـول الانسـحاب العثمانـي غيـر المنظـم إلـى هزيمـة نكـراء أدهشـت ألنبـي نفسـه وفاقـت توقعاتـه. ومهّـد تدميـر الجيشـيْن السـابع والثامـن العثمانييْـن وتقهقـر الجيـش الرابـع العثمانـي عـن عمـان الطريـق أمـام قـوة التجريـدة المصريـة للزحـف شـمالًا عبـر سـوريا ولبنـان[81]. وهـو مـا أسـفر عـن الاسـتيلاء علـى دمشـق فـي 30 سـبتمبر.وقد قـدم تـي. إي. لورنـس وصفًـا حيًـا لذلـك المشـهد البشـع الـذي رآه

فـي إحـدى المستشـفيات المحليـة فـي كتابـه «أعمـدة الحكمـة السـبعة» Seven Pillars of Wisdom، إذ يقـول:

خطـوت إلـى داخـل المستشـفى لتزكـم أنفـي رائحـة نتنـة تثيـر الاشـمئزاز. ثـم ازدادت عينـاي اتسـاعًا لمـرأى مشـهد يثيـر الغثيـان حيـث كانـت الأرضيـة الحجريـة مغطـاة بجثـث الموتـى المرصوصـة جنبًـا إلـى جنـب. وكان بعضهـا مرتديًـا الـزي العسـكري الكامـل وبعضهـا الآخـر مرتديًـا الملابـس الداخليـة وبعضهـا الثالـث عاريًـا تمامًـا. وربمـا كان عـدد الجثـث ثلاثيـن، وفيمـا بينهـا كانـت تتسـلل الفئـران التـي أحدثـت فيهـا أشـكالًا فنيـة حمـراء بأنيابهـا. وبـدا أن بعضهـا جثـث حديثـة الوفـاة، ربمـا لـم يمـض علـى وفـاة أصحابهـا إلا يـوم أو يومـان، وأن بعضهـا الآخرقـد مضـى عليهـا زمـن طويـل وهـي ممـددة علـى الأرض[82].

وعلـى أيـة حـال فقـد وقـع نحـو 75 ألـف جنـدي عثمانـي فـي الأسـر فـي أثنـاء ذلـك الهجـوم التعرضـي الـذي توقـف بعـد الاسـتيلاء علـى حلـب فـي 26 أكتوبـر نظـرًا لتجـاوز الفرسـان وسـيارات النقـل خطـوط إمداداتهـا ونهايـات خطـوط السـكك الحديدية بمسـافات كبيـرة، حيـث كانـت الفرقـة الرابعـة فرسـان التابعـة للجنـرال ألنبـي- علـى سـبيل المثـال- قدتقدمـت لمسـافة 70 ميـلًا فـي أقـل مـن يـوم (فـي 20 سـبتمبر) متجـاوزة بذلـك خدمـات الإمـداد والتمويـن والنقـل الخاصـة بهـا بمسـافة 50 ميـلًا. وأمـا الفرقـة الراكبـة الأسـترالية أيضًـا فتقدمـت بسـرعة (11 ميـلًا فـي 70 دقيقـة فقـط فـي يـوم 21 سـبتمبر)، وكانـت لهـذا التقـدم ميـزة غيـر متوقعـة وهـي مفاجـأة العـدو والاسـتيلاء علـى كميـة ضخمـة مـن المـؤن مصونـة فـي جنيـن، ومـن حسـن حظهـم أن كان مـن ضمنهـا 120 صنـدوق شـامبانيا ألمانيةوُزّعـت فـورًا علـى الجنـود الأسـتراليينالذين سـروا أيمـا سـرور[83].

وقـد انتهـت حملـة فلسـطين رسـميًا بهدنـة مـودروس الموقّعـة فـي 30 أكتوبـر التـي أخرجـت الدولـة العثمانيـة مـن الحـرب. وعلـى الرغـم مـن ذلـك كان لغـزو فلسـطين واحتلالهـا بقيـادة بريطانيـا فـي 1917 - 1918 مضاميـن إداريـة وإقليميـة بعيـدة المـدى. ففـي أعقـاب الاسـتيلاء علـى القـدس فـي ديسـمبر 1917، أسّـس ألنبـي إدارة أرض العـدو المحتلـة فـي فلسـطين تحـت رعايـة كبيـر المسـؤولين السياسـيين فـي قـوة التجريـدة

المصرية غلبرتكلايتون، مع تعيين الجنرال رونالد ستورزفي منصب الحاكم العسكري للقدس. وكان لهذا التعيين الأخير وقع المفاجأة على ستورز الذي قال في مذكراته «إنني لم أكن أملك كفاءة عسكرية من أي نوع، ولا أملك من الخبرة الإدارية إلا قليلًا»[84]. وقد عكس تعيينهما في هذيْن المنصبيْن الحاجة الملحة إلى استعادة النظام وإيجاد إطار يمكن من خلاله ممارسة السيطرة على الأرض المحتلة. وعلى الرغم من ذلك فقد تعارضت دعوة كلايتون إلى إقامة إدارة عسكرية باعتبار أن هذا هو السبيل الوحيد للحفاظ على النظام في الأراضي المحتلة حديثًا مع فحوى اتفاقية سايكس بيكو[85].

والواقع أن مسألة الإدارة المحلية صارت أشد إلحاحًا في المواقع العثمانية المتداعية بسرعة بعد معركة مجدو في سبتمبر 1918. ففيما تقدمت قوة التجريدة المصرية صوب الشمال عبر سوريا ولبنان، تولت المسؤولية عن منطقة عصفت بها المجاعة وهي تعيش في حالة انهيار اقتصادي. وركّز الفراغ الإداري الذي نشأ عن انسحاب العثمانيين في نهاية الحرب مع الدولة العثمانية الاهتمام في لندن وباريس على الأشكال المحتملة التي يمكن أن يتخذها الحكم المحلي والإقليمي في المناطق الواقعة تحت الاحتلال. وتطلب هذا أيضًا من المسؤولين التوفيق بين مختلف التصريحات والتعهدات الصادرة في أثناء الحرب ذاتها، وهو ما تبلور في «التصريح الإنجليزي الفرنسي» الصادر في 7 نوفمبر 1918 بما اشتمل عليه من وعد بأن بريطانيا وفرنسا سوف «تساعدان في إقامة حكومات وإدارات وطنية في سوريا وبلاد الرافدين»، وإنْ لم يتضمن -بشكل صريح-الوضع في فلسطين. وتوجهت الأفكار العسكرية بالإضافة إلى ذلك إلى إمكانيات تحقيق المخططات التوسعية الإقليمية الأكبر التي بدأت آنذاك تخرج إلى النور مع انهيار الدولة العثمانية[86].

وسوف نأتي على هذه المسائل في الباب الثالث من هذا الكتاب، لكن يكفينا الآن أن ننوّه إلى أن البريطانيين أصدروا في 23 نوفمبر 1918 مرسومًا عسكريًّا يقسّم المنطقة رسميًّا إلى ثلاث مناطق عدو محتلة؛ فشملت أرض العدو المحتلة

الجنوبية فلسطين وتقرر أن توضع تحت الاحتلال البريطاني، وفي المقابل كانت أرض العدو المحتلة الغربية تتألف من مناطق سوريا الساحلية ووُضعت تحت المسؤولية الفرنسية، فيما شملت أرض العدو المحتلة الشرقية مناطق سوريا الداخلية الممتدة من حلب إلى العقبة وأوكلت إلى إدارة عربية تحت قيادة الأمير فيصل بن الحسين(ابن شريف مكة وقائد الجيش العربي الشمالي). وأخيرًا كانت هناك أرض العدو المحتلة الشمالية التي اشتملت على البقاع الواقعة خارج هذه المناطق الثلاث (وأبرزها قيليقية) ووضعت تحت الإدارة الفرنسية. ومن نافلة القول أن هذه القرارات تعارضت مع مختلف الاتفاقيات التي أبرمت في أثناء الحرب وبثت البذور للكثير من المرارة والشقاق المستقبليين[87].

وبهذه القرارات وصلت الحملة التي شُنت في مصر وفلسطين إلى نهاية رسمية وإن كانت فوضوية. غير أن الإرث الذي خلفته مشاق زمن الحرب ومضامين الاتفاقات السياسية المبرمة فيما بين عامي 1916 و1918 صارت شبحًا يطارد أشكال السيطرة فيما بعد الدولة العثمانية،وما زالت تمثل قضايا شائكة بعد مرور قرن من الزمان، سواءمن حيث أثرها الباقي على الديناميات الإقليمية أومن حيث الأمم والدول التي خرجت إلى الوجود (أو التي لم تخرج إلى الوجود كما في الحالة الكردية) بعد الحرب. علاوة على ذلك فإنها تشابكت مع آليات بناءالدولة لتؤثر على طبيعة أنماط التنظيم السياسي والتعبئة الاقتصادية والمؤسسات الاستخراجية التي تطورت لاحقًا في العقود التكوينية فيما بين الحربيْن العالميتيْن (وكذلك بعد الحرب العالمية الثانية) من بناءالدولة وإرساء دعائمها في الشرق الأوسط[88].

الفصل السادس

بلاد الرافدين

«إنني مسؤول عن السيطرة المطلقة والكاملة على كافة المناطق التي تعمل بها القوات البريطانية. لكن جيوشنا لا تدخل مدنكم ولا أراضيكم غازية أو معادية، بل محرّرة»[1]. هذا التصريح لم يصدر عام 2003 عندماكانت القوات البريطانية تكتسح البصرة في إطار غزو العراق الذي دعا إليه جورج دبليو. بوش أيام صدام حسين، بل في 19 مارس 1917 —ومصادفة بعد مرور 86 عامًا على اليوم الذي دُشنت فيه «عملية حرية العراق»— على لسان قائد قوة تجريدةبلاد الرافدين الفريق السير فريدريك مود. وقد تنبّأ إعلان بغداد الذي خطّه الإمبريالي البارز السير مارك سايكس بشكل عجيب بالمشاعر نفسها التي كان يمكن أن يعرب عنها بعدها بتسعة عقود الرئيس بوش أو دونالد رامسفلد أو طوني بلير. ولقد تبلورت الإيحاءات التاريخية للصراع التالي إذ أطلقت واحدة من جماعات المقاومة العراقية الرئيسة على نفسها اسم «كتائب ثورة العشرين» تخليدًا لذكرى ردّة الفعل الوطنية التي تبعت الحرب العالمية الأولى.

وقد استمرت الحملة العسكرية في بلاد الرافدين من نوفمبر 1914 إلى نوفمبر 1918. وعلاوة على ضرب مثال للتدخل الغربي الذي تكرر ثلاث مرات (في الأعوام 1941 و1991 و2003)، فقد مهدت هذه الحملة الطريق أمام إنشاء دولة العراق الحديثة عام 1921. ولذلك مثّلت التطور السياسيّ-التاريخيّ التشكيليّ في التاريخ العراقيّ الحديث[2]. لكن هذه النتيجة لم تكن تبعة لسياسة منسجمة أو متسقة، بل إنها نبعت من «سلسلة من التبعات غير المقصودة» بحسب ما ورد في أحدث تأريخ مدون باللغة الإنجليزية لهذه الحملة[3]. إضافة إلى ذلك، كان إرث القرارات السياسية التي اتخذت خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة محوريًا في

صياغة طبيعة الدولة العراقية التي انبثقت عن الثورة العراقية الكبرى. ولقد عكس الاستيطان السياسي والطائفي، أكثر بكثير من رسم الساسة البريطانيين ل«خطوط في الرمال» (حسب عنوان كتاب حديث لجيمس بار)، أنماط المشاركة في زمن الحرب من قبل مجتمعات وجماعات محلية. وبتعبير آخر، كانت الوكالة المحلية ممثلة بالقدر نفسه باعتبارها هيكلًا (الأشكال الهرمية للسلطة المميزة للحقبة العثمانية) في تحديد التطورات اللاحقة.

وبالطبع تقاطعت المصالح البريطانية والعثمانية والمحلية بعدة طرق مختلفة طوال فترة الحملة العسكرية في بلاد الرافدين. وعكس ذلك التحولات التي حصلت في ميزان القوة العسكرية حيث تذبذب بين اتجاهين قبل أن يميل في نهاية المطاف باتجاه البريطانيين عام 1917. وتدريجيًا اكتسبت الحملة العسكرية «جانبًا مزدوجًا» مربكًا حيث اشتبك المسؤولون البريطانيون المدنيون والعسكريون مع بعضهم بعضًا بسبب الأهداف العملياتية ومستويات بناء المؤسسات في منطقة الاحتلال التابعة لهم. واكتسبت خطوط السياسة البريطانية المتشعبة زخمًا بينما دارت رحى الحرب. وبلغت ذروتها في نوفمبر عام 1918 بالتزامن مع التقدم المتسرع للاستيلاء على مدينة الموصل بعد عشرة أيام من إنهاء هدنة مودروس للحرب مع الدولة العثمانية. وجاء إخضاع المدينة بعد النهاية الوشيكة للأعمال العدائية بقيادة القائم بأعمال المفوض المدني البريطاني في بغداد أرنولد وِلسون للحث على بذل قصارى الجهود من أجل «تحقيق أكبر مكاسب ممكنة عند نهر دجلة قبل ضياع الفرصة»[5].

ولقد أبان مسار الحرب العالمية الأولى في بلاد الرافدين بوضوح شديد التفاعل ما بين المتطلبات العسكرية والمدنية للنظام الإداري واستخراج الموارد كما سلف وصفه في الفصل الثاني. وبينت الحملة أيضًا كيف شكلت العمليات العسكرية طبيعة التوغل الكولونيالي وعمقه في المجتمع، والصراع المرير ما بين المفاهيم البريطانية والبريطانية-الهندية للإمبراطورية والإمبريالية. فقد كان استسلام الحامية البريطانية في كوت العمارة في أبريل 1916 أكبر خزي عسكري للإمبراطورية البريطانية على الإطلاق،

حيث كشف عن انهيار السيطرة العملياتية بين السلطات المتشظّية في لندن ودلهي وعلى أرض المعركة في البصرة. لكن المطالبات العسكرية للموارد المحلية تجاوزت تحديد مستوى تعبئة الأنماط الاجتماعية-الاقتصادية والتجارية الحالية وحسب. فقد لعبت ردود الأفعال المختلفة لهذه المطالبات دورًا محوريًا في تحديد تشكيلة بنى دولة العراق ما بعد الحرب والأشكال الهرمية للسلطة[6].

أصول الحملة العسكرية وأهدافها

مثلت ولايات البصرة وبغداد والموصل الثلاثة الحد الجنوبي الشرقي للدولة العثمانية. وخلال القرن التاسع عشر، خلقت التحسينات التي طرأت على وسائل الاتصالات والبنية التحتية روابط سياسية واقتصادية وصلت ما بين الأقاليم الثلاثة وجعلتها وحدة إقليمية محدّدة تحديدًا فضفاضًا بغداد مركز ثقلها[7]. ومع ذلك، فبعدها الجغرافي عن قلب الدولة العثمانية كان يعني أن الترحال منها إلى الآستانة يستغرق حوالي 14 يومًا حيث تبلغ المسافة حوالي 2400 كم بينهما. وقد أجبر ذلك الإدارة العثمانية على تحديد أولويات مهامها وأن تحصر عمليًا دورها في المهام الإدارية وتقديم الخدمات في المناطق الحضرية الكبرى وحدها[8].

ورغم أن المسافة التي تفصل تلك الأقاليم عن الآستانة عَقَّدَت الاتصالات الإمبريالية، فإن ولاياتبلاد الرافدين استفادت من عوامل أخرى. وتضمنت تلك العوامل مكانة الموصل بالنسبةلطرق التجارة المربحة الممتدة شرقًا وغربًا بين الشرق وبلاد فارس، والسيطرة على المواقع الشيعية المقدّسة بالنجف الأشرف وكربلاء التي اجتذبت الحجاج من شتى أرجاء العالم الإسلامي، وموقع البصرة الجغرافي عند تقاطع شط العرب مع الخليج العربي. وكانت البصرة تحديدًا ذات موقع استراتيجي بطول البرّ الرئيس وطرق التجارة المحمولة بحرًا التي تشعبت باتجاه الغرب إلى شبه الجزيرة العربية، وشرقًا باتجاه بلاد فارس، وجنوبًا باتجاه موانئ الخليج العربي والهند وشرق أفريقيا. ولقد عزز ذلك من رؤية عالمية وداخلية التوجه في المدينة. كما ساعدت تلك العمليات -إذا ما نظرنا إليها إجمالًا- على دمج ولايات بلاد الرافدين بقوة

وإحكام فأمست شبكات إقليمية و(بشكل متزايد) دولية من التجارة والتبادل[9].

كذلك ازدهرت التجارة مع العالم الأوسع -وبما يخدم المصالح التجارية البريطانية- بسرعة مهولة بعد أن اكتسبت مصالح الشحن البريطانية حقوق الملاحة في نهريْ دجلة والفرات عام 1846 وافتتاح قناة السويس عام 1869. وبحلول عام 1914، سيطرت المصالح البريطانية أو البريطانية-الهندية التجارية على أكثر من ثلثيْ الواردات ونصف الصادرات التي تمرّ عبر البصرة[10]. علاوة على ذلك (كما فصَّلْنا في الفصل الأول)، فقد كان المخطّطون الاستراتيجيون البريطانيون حسّاسين بشدة، بل وبشكل مبالغ فيه، تجاه مخاوف من توسعة ألمانيا أو روسيا لنفوذهما فيما اعتبر «جنب» الهند. وأوجزت مقالة افتتاحية في صحيفة تايمز حوالي عام 1903 تلك المخاوف إذ حذرت قائلة:

«إذا فقدنا سيطرتنا على الخليج، فلن نحكم الهند لفترة طويلة... ولحظة أن عُرِفَ أن روسيا أو ألمانيا أو فرنسا أو أي دولة أخرى قوية أقامت مركزًا لها على مقربة من شواطئ الهند، سيتجلى أثر لا يمحى لسرعة زوال الحكم البريطاني في شتى أرجاء هندوستان[11].

ولقد تفاقمت هذه المخاوف بسبب المخاوف البريطانية الهندية من التهديد المرتقب النابع من الوحدة الإسلامية في ظل «ولاء» السكان المسلمين لها في الهند (وفي مصر). وتعمقت ذكريات المسؤولين عن ردود الأفعال القومية الوليدة في الهند عام 1857 وفي مصر عام 1882، وكذا الثورة الكبرى على الحدود الشمالية العربية للهند عام 1897. وعزز من تلك المخاوف نوعًا ما الملالي و(في واقعة واحدة بوادي سوات) دعوة للجهاد. ولذلك كانت الحساسيات البريطانية تجاه رأي المسلمين الهنود عاملًا ضمن العوامل الأساسية في حسابات وضع السياسات في منطقة الشرق الأوسط، حيث اعتبر بعض المسؤولين أن الدولة العثمانية تستقر في قلب الوحدة الإسلامية المنبعثة من رقادها[12].

وبالتالي كان المسؤولون في لندن ودلهي بحاجة إلى أن يضعوا نصب أعينهم مجموعة من الاعتبارات الأكثر شمولًا إذ عكفوا على وضع إطار لسياسة بلاد الرافدين. وتولّت حكومة الهند وممثلوها في وزارةشؤون الهند في لندن مسؤولية الحملة، وكان من المقرر أن يقوم الجيش الهندي بأولى العمليات العسكرية. ومع ذلك، اختلفت الرؤية «الهندية» المستقبلية كثيرًا عن «العروبة» التي يتبناها الكثير من المسؤولين البريطانيين في وزارة الخارجية ومكتب المقيم السياسي البريطاني في القاهرة. وخلق ذلك الاختلاف أيضًا مجموعة متشعبة من الضغوط المحلية في السياستين المدنية والعسكرية. وبالطبعكان لهذا الصراع الثلاثي الأضلاع ما بين أقطاب السياسة البريطانية في الشرق الأوسط (لندن والقاهرة ودلهي) تبعات عميقة على (سوء) التصرف اللاحق للحملة في بلاد الرافدين. فقد أدّت الآراء المتضاربة إلى فجوات قاتلة في السياسة أسهمت في الارتباك بشأن أهدافها الكلية[13].

موطئ قدم في البصرة

رغم أن القوات البريطانية والهندية أرسلت إلى الخليج العربي وحسب في أكتوبر عام 1914، فإن خطط تشكيل قوة تجريدة هندية (إلى جانب القوات التي أُرسلت إلى فرنسا وشرق أفريقيا ومصر) بدأت بعد اندلاع الحرب في أوروبا مباشرة. ففي الحادي عشر من أغسطس، وصلت تقارير إلى لندن مفادها أن الجيش العثماني شرع في عمليات التعبئة في بغداد وكان بصدد الاستحواذ على الممتلكات البريطانية بالمدينة. وحقيقة الأمر أن الجيش العثماني بدأ عملية التعبئة العامة في 3 أغسطس، وبعدها بثلاثة أيام أعلنت السلطات في بغداد عن العمل بالأحكام العرفية «نتيجة اعتراضات عامة الشعب على الالتحاق بالخدمة العسكرية»[14]. وتمت عملية التعبئة بطريقة عشوائية حيث أرسلت فصائل منفصلة شمالاً إلى الموصل وجنوبًا إلى البصرة. وذكر شاهد عيان أن «حاكم بغداد أقر بأنه ليس لديه علم بعلة تعبئة الجنود، لكن الرأي العام في المدينة ترقب أن ثمة اضطرابات ستقع من جهة روسيا»[15]. وبحلول منتصف سبتمبر، كان الجنود العثمانيون في البصرة يعدون العدة لاتخاذ

مواقع دفاعية بطول ساحل شط العرب، وكانت ثمة محاولات محدودة (ولو أنها لم تكلل بالنجاح) لتعبئة القبائل الكبرى التي تعيش حول بغداد[16].

ومع ذلك، أثارت الأنباء التي تسربت من بلاد الرافدين قلق السير إدموند بارو السكرتير العسكري بوزارة شؤون الهند في لندن. وكانت وزارته وحكومة الهند مسؤولتيْن عن مشيخات الكويت والبحرين وإمارات الساحل المتصالح الخاضعة للحماية البريطانية في الخليج العربي. فقد خشي بارو أن تشوه تصرفات العثمانيين المكانة البريطانية المرموقة بالمنطقة وتزعزع ولاء مشايخ القبائل المحلية الذين اعتمد التفوق التجاري والسياسي والاستراتيجي البريطاني على تعاونهم في منطقة الخليج. وبالتالي اقترح إرسال قوة عسكرية إلى شط العرب بالرأس الشمالي للخليج. وزعم بارو أن ذلك من شأنه رأب الصدع في المكانة البريطانية وطمأنة أي حلفاء محليين متذبذبين. علاوة على ذلك، فهذا من شأنه استعراض القوة العسكرية البريطانية للمراقبين الإقليميين، وحماية منشآت شركة النفط الإنجليزية الفارسية وخط الأنابيب الواقع بمدينة عبّادان على ساحل الخليج الشرقي، وكفالة الغطاء اللازم لأية تعزيزات قد تقتضيها الضرورة لاحقًا[17].وفي تلك المرحلة، وفي تضارب صارخ مع الأهمية التي اكتسبها نفط بلاد الرافدين لاحقًا عام 1918، كانت المصالح البريطانية في المقام الأول مدفوعة بمسألة المكانة والسؤدد لا مسألة السيطرة الاستراتيجية على المناطق الغنية بالنفط.

وقد غادر اللواء 16 الهندي التابع للفرقة 6 بالجيش الهندي بومباي في 16 أكتوبر 1914 ضمن قافلة متجهة إلى مصر، ومنها إلى فرنسا، لتعزيز قوة التجريدة الهندية «أ». ومع ذلك، صدرت أوامر لذلك اللواء بالانفصال عن القافلة والانطلاق إلى مشيخة البحرين الخليجية الخاضعة للحماية البريطانية حيث وصل في 23 أكتوبر. وما أن وصل اللواء حتى واجه -على غير المتوقع- استياءً محليًا شديدًا من وجوده مما اضطر 5000 رجل و1200 حيوان أن يمكثوا في سفن نقل الجند المكتظة في ظروف جوية حارة قاسية[18]. وقد ظلوا ماكثين كذلك حتى الحادي والثلاثين من

أكتوبر. ومع قرب إعلان الحرب على الدولة العثمانية، أبحر اللواء 16 شمالًا باتجاه شط العرب على رأس الخليج العربي وأعد العدة لشن هجمة على شبه جزيرة الفاو جنوبي شرقي البصرة. وفي الساعة 6 صباح يوم 6 نوفمبر 1914، أطلقت البارجة أودين أولى دانات الحملة إذ قصفت القلعة العثمانية المحلية وأنزلت 600 جندي على شبه الجزيرة. وتقدم اللواء باتجاه مدينة عبّادان (في الأراضي الفارسية) في 9 نوفمبر حيث ترجل بشيء من الصعوبة نظرًا لعدم وجود مركبات نهرية ملائمة ورياح عاتية. وبعدها بيومين تصدى اللواء لهجوم عثماني مضاد لتأكيد موطئ قدمهم على شبه الجزيرة[19].

ولقد شكل اللواء 16 (ومن بعده ما تبقى من الفرقة 6) نواة ما أمسى قوّة التجريدة الهندية «د» في بلاد الرافدين. لكن مسؤولي الجيش البريطاني في لندن ودلهي لم يقيموا لها وزنًا كافيًا حيث اعتبروها غير مناسبة للقتال في أوروبا، بل كافية للعمليات الكولونيالية وحسب. ولا شك أن ذلك كان يعكسالاعتقاد السائد بين أبرز القادة العسكريين بالجيش الهندي وداخل قوّة التجريدة الهندية«د» نفسها بأن العملية العسكرية لن ترقى لشيء يتجاوز ممارسةتقليديةل«دبلوماسية القوّة». وحقيقة الأمر أنه في عام 1916 (بإدراك متأخر) اعترف كبير ضباط النقل البحري المسؤول عن كل ترتيبات نقل المياه لقوّة التجريدة الهندية للجنة تحقيق بلاد الرافدين أنه تخيّل حملة «كان مقررًا أن تكون سريعة محددةالهدف على الشاطئ في الخليجالعربي... لم يكن لديّ تصور، لم تكن لديّ فكرة من أي نوع،عن أنها ستصل إلى شط العرب»[20].وقد أسفرت هذه العقلية والفرضية العامة بأن قوة التجريدة الهندية«د» ستضطلع بعملية محدودة على الحدود عن مغادرة اللواء 16 للهند دون دعمه البري الممثّل في الجِمال والحمير، وكذلك دون قواربه النهرية[21].

وأدى إعلان الحرب على الدولة العثمانيةإلى إرسال السلطات العسكرية في الهند للّواء مشاة ثانٍ على وجه السرعة (اللواء 18) لتعزيز اللواء 16. ووصل اللواء 18 إلى مدينة عبّادانفي 14 نوفمبر وعلى رأسه قائد قوّة التجريدة الهندية«د» الجنرال آرثر

باريت وكمية كبيرة من الذخيرة والمدفعية ووحدات النقل بالجِمال. وبعدها بيومين، أعطى مجلس الوزراء في لندن الضوء الأخضر للسيطرة على البصرة شريطة أن يكون الموقف السياسي العربي والظروف العسكرية العامة مواتية. وقد وقع اشتباك شديد بمدينة صالح في 17 نوفمبر، وسط انهمار الأمطار التي أحالت الصحراء إلى «بحر حقيقي من الطين»، وأسفر عن مقتل حوالي 500 جندي بريطاني وهندي وإصابة ما يربو على 1000 جندي عثماني[22].وخفّف هذا الاشتباك من الضغوط على الموارد النادرة المنقولة عبر النهر بالفعل إذ أتاح لقوّة التجريدة الهندية«د» عددًا من المراكب في ميناء المحمرة، ومهّد الطريق للتوغل الأخير إلى البصرة. واستحوذ على المدينة في 21 نوفمبر في مؤشر أوّلي على الانتصارات البريطانية في الحرب العالمية الأولى[23]. ومما أدخل السرور على الضباط البريطانيين المشاركين في القوّة «د» أن النادي الإنجليزي لم يتأثّر بأعمال السلب والنهب التي وقعت إثر انسحاب العثمانيين، مما سمح لهم باحتساء «كمية كبيرة جدًا من الجعة الألمانية العتيقة»[24].

وقد أكمل احتلال البصرة الهدف المبدئي لقوّة التجريدة الهندية«د». فقد كان بمثابة المفاجأة للأركان العامة العثمانية نوعًا ما حيث لم تتوقّع هجومًا بريطانيًا على بلاد الرافدين. علاوة على ذلك، أقرّت قيادة الأركان العامة أن القوات العثمانية البالغ عددها 17 ألف جندي في الولايات الثلاثة كانت «دون مستوى التجهيزات، ودون المستوى من حيث التدريب والانضباط، وافتقروا إلى التنظيم المناسب للإمداد والصيانة»[25]. وبعيدًا عن هذه الإخفاقات، فقد ضمن احتلال المدينة مركزًا استراتيجيًا مهمًا على رأس الخليج العربي، وضمن تأمين منشآت شركة النفط الإنجليزية الفارسية بمدينة عبّادان، وولاء أكابر العرب ومشايخ القبائل الكبرى في البصرة وما حولها. إذ أذعنت كل الشخصيات المحلية البارزة للاحتلال البريطاني، ورحّب المجتمع التجاري بالمدينة به. وعكس إظهار الدعم هذا العلاقة الملتبسة ما بين المجتمعات المحلية والدولة العثمانية البعيدة إلى حد كبير، علاوة على مستويات التفاعل والتواصل الأكبر ما بين البريطانيين والبصرة. وقد أدّى دور الوسيط في التفاعل والتواصل بين الطرفين الحلفاء المحلّيون الممثّلون في شيوخ الكويت والمحمرة عبر علاقات تجارية

أقيمت قبل عام 1914، وبالقرب الجغرافي للبصرة من الاتحادات القبلية القوية مثل اتحاد قبائل المنتفق وبني لام والبو محمد[26].

توسيع العمليات العسكرية المبدئية

لم يفضِ الاستحواذ الناجح على البصرة إلى وقف في العمليات العسكرية في بلاد الرافدين، بل توسّعت الحملة العسكرية، لأسباب تتعلق بالمنزلة والوجاهة إلى حدّ كبير، طوال عام 1915. وأدّى ذلك إلى تعرض قوّة التجريدة الهندية «د» إلى الخطر بشكل مهول لوجودها في مراكز يستحيل دعمها، وتعويلها على شبكة إمداد ونقل صدّعت عند أطرافها قبل أن تنهار كليًّا في أوائل عام 1916. كما حدث التوسع المستمر في العمليات العسكرية على خلفية انعدام الإشراف الكافي حيث ظلّ منقسمًا ما بين لندن ودلهي. وقد عَكَسَ ذلك وعززه تقسيم المسؤوليات قبل عام 1914 للتجهيز العسكري وجمع المعلومات ما بين وزارة الحربية في لندن وحكومة الهند[27]. وكانت النتيجة عملية اتخاذقرار متشظّية أنتجت فجوات في القيادة أثّرت بشدّة وبشكل سلبي على تنفيذ العمليات العسكرية في بلاد الرافدين. وكشف ذلك أيضًا عن الإخفاقات المادية والمفاهيمية لحكومة الهند غير المنظمة ببساطة بحسب تصريحات نائب الملك المنتهية ولايته اللورد هاردنجعام 1916 «بما يكفل لها التكيف مع الحرب الدائرة رحاها على مستوى مهول الآن... حيث ما يجدي للحرب لستة أسابيع لن يكون ذا فائدة على الجبهة مطلقًا...»[28].

سياسةالوجاهة

كان خلط محدد يشوب الطبيعة التضاريسية التي تتجاوزها أيّة حملة تقتحم بلاد الرافدين. ولم يتبع امتلاك الحكومة البريطانية لمصالح نفطية مهولة في الخليج العربي عام 1914 أيّ إيضاح فيما يتعلق بكيفية الدفاع عن تلك المصالح إذا ما دعت الضرورة. ولم يكن هناك حتى موظّفين سياسيين أو ضباط مخابرات في الهند يتمتعون بمعرفة محلية بالظروف الجغرافية أو القبلية أو الاجتماعية إمّا في بلاد

الرافديـن أو فـي بـلاد فـارس[29]. وضاهـى قصـور مشـاركة المعلومـات مـا بيـن لنـدن ودلهي، بعـد إعـلان الحـرب فـي نوفمبـر، قصـور الاستشـارات أو الوعـي بطبيعـة العمليـة المتوقّعـة فـي بـلاد الرافديـن. وعلـى المسـتوى العملـي، تجلّـى ذلـك أيّمـا تجـلٍّ فـي الإخفاقـات الجسـيمة فـي المعرفـة بالأنهـار التـي كانـت تمثّـل سـبل التوغـل الوحيـدة داخـل البلـد. فقـد تباينـت تلـك الأنهـار تباينًـا كبيـرًا عـن الأنهـار الهنديـة مـن حيـث ضحالتهـا وتنوّعاتهـا الموسـمية الشـديدة. لكـنّ هـذه الاختلافـات لـم يسـتوعبها واضعـو الخطـط العسـكرية البريطانيـون فـور أن تولّـوا القيـادة العملياتيـة للحملـة العسـكرية. وكانـت النتيجـة، باعتـراف مسـؤول للجنـة تقصّـي حقائـق بـلاد الرافديـن عـام 1916، أن «سـمات نهـري دجلـة والفـرات كانـت مجهولـة تقريبًـا سـلفًا لتوغلنـا فيهمـا» حيـث لـم تكـن هنـاك خطـط لأجـل «إنشـاء وصيانـة أسـطول نهـري مناسـب أو وافٍ لمتطلبـات العمليـات العسـكرية»[30].

ولقـد تضاعفـت أوجـه النقـص بفعـل الضغـوط المسـتمرة مـن دلهـي ومـن وزارة شـؤون الهنـد فـي لنـدن (ولـو بقـدر أقـل) بغيـة توسـعة نطـاق العمليـات العسـكرية إلـى مـا وراء البصـرة. وترتّـب ذلـك علـى الحاجـة المرتقبـة للحفـاظ علـى الهيبـة والمكانـة العسـكرية، وأوضـح أيضًـا إغـراءات تحقيـق سلسـلة متتابعـة مـن الانتصـارات العسـكرية «اليسـيرة» التـي لـم تكلّـف قـوّة التجريـدة الهنديـة "د" الهجوميـة الكثيـر نسـبيًّا خـلال عـام 1915. وسـاق خليـط هـذه العوامـل المسـؤولين البريطانييـن فـي وزارة شـؤون الهنـد وحكومتهـا إلـى إجـازة شـنّ سلسـلة مـن الهجمـات العسـكرية التـي كانـت، بحسـب زعمهـم، ضروريّـة لتعزيـز السـيطرة علـى البصـرة والأراضـي الداخليـة الأوسـع نطاقًـا تدريجيًّـا. عـلاوة علـى ذلـك، أمسـت الغنيمـة العظيمـة الممثّلـة فـي بغـداد مصـدرًا مغريًـا للوجاهـة الضروريّـة إذ وصـل القتـال فـي أوروبـا إلـى حالـة مـن الأزمـة الدمويّـة بشـكل متزايـد. وفـي هـذا السـياق، اسـتبعد السـكرتير السياسـي بـوزارة شـؤون الهنـد السـير آرثـر هيرتـزل القيـود العملياتيـة التـي تواجـه قـوّة التجريـدة الهنديـة "د" زاعمًـا (فـي 25 نوفمبـر 1914؛ أي بعـد احتـلال البصـرة بأربعـة أيـام) أن «الاحتـلال الحتمـي لبغـداد أمـر منشـود جـدًّا ممـا يجعلـه ضروريًّـا مـن الناحيـة العمليّـة»[31].

وحتـى فـي هـذه المرحلـة المبكـرة، قـدّم بارو (السـكرتير العسـكري بـوزارة شـؤونالهند) أيضًـا الدعـم لفكـرة التوغـل باتجـاه بغـداد، وكذلـك السـير بيرسـي كوكـس كبيـر الموظفيـن السياسـيين الملحقيـن بقـوّة التجريـدة الهنديـة "د"[32]. وأثيـرت مسـألة هيبـة الإمبراطوريـة مجـددًا بعـد ثلاثـة أيـام وحسـب مـن مذكـرة هيرتـزل. وفـي 27 نوفمبـر، حـذّرَ بـارو مـن «سياسـة الجمـود السـلبي» إن «شـئنا إبهـار العالميْـن العربـي والهنـدي بقدرتنـا علـى دحـر كل المخططـات التـي تُحـاك ضدنـا». وبنـاءً علـى ذلـك، اقتـرح أن تتقـدّم قـوّة التجريـدة الهنديـة «د» إلـى مدينـة القرنـة التـي تبعـد 50 ميـلاً عـن البصـرة جهـة الشـمال، وتقـع عنـد ملتقـى نهـري دجلـة والفـرات. فاحتـلال تلـك المدينـة، بحسـب زعمـه، «سـيضمن لنـا ميـزة اسـتراتيجية قويّـة ومركـزًا مهيمنًـا» يكفـل لنـا غطـاءً للطـرق المؤدّيـة إلـى البصـرة[33]. وسـيمكّن ذلـك القـوّة «د» مـن السـيطرة علـى الميـاه العميقـة الممتـدة بالكامـل بيـن البصـرة والقرنـة، وهـي النقطـة التـي لـم تكـن سـفن النقـل ذات الغاطـس العميـق تسـتطيع أن تتجاوزهـا بـأيّ حـال مـن الأحـوال. ووافـق الجنـرال السـير بوشـامب داف رئيـس أركان الجيـش الهنـدي علـى ذلـك المقتـرح، وأضـاف (دون أن يـزور البصـرة قـط) أن القرنـة «كانـت بمنتهـى الوضـوح المركـز المتقـدّم للبصـرة حتـى أن احتـلال الثانيـة يسـتتبع ضمنًـا احتـلال الأولـى أيضًـا»[34].

ولقـد كشـف التوغّـل إلـى القرنـة فـي بدايـة الأمر مـدى القيـود اللوجسـتية التـي أعاقت القـوّة «د» لاحقًـا. وضاعـف مـن قصـور عـدد المراكـب النهريـة المناسـبة حقيقـة أن ميـاه النهريـن كانـت فـي أدنـى مسـتوياتها بعـد أشـهر الصيـف القائظـة. ودعـت الحاجـة إلـى التخلـي عـن المحاولـة الأولـى للاسـتحواذ علـى القرنـة فـي 4 ديسـمبر حيـث أجبـر نقـص عـدد الحيوانـات المسـتخدمة فـي نقـل الإمـدادات (وهـي التـي كان مـن المسـتحيل حملهـا فـي النهـر بعكـس اتجـاه التيـار) الفرقـة المتوغّلـة علـى العـودة إلـى البصـرة. واسـتدعى هـذا الفشـل محاولـة ثانيـة بـاءت بالنجـاح، رغـم المواجهـة العنيـدة للمقاومـة العثمانيـة، فـي احتـلال المدينـة فـي 9 ديسـمبر 1914[35]. ومثّـلَ الاسـتيلاء عليهـا حـدًا فاصـلاً فـي الحملـة الوليـدة ببـلاد الرافديـن، حيـث إنـه مـن هـذه المرحلـة فصاعـدًا تحوّلـت ركيـزة الإشـراف علـى العمليـات العسـكرية مـن وزارة شـؤونالهند فـي لنـدن (وهـي التـي كانـت

قد أقرّت كل التحركات حتى ذاك الحين) إلى السلطات السياسية في الهند و«الرجال الموجودين في أرض المعركة» بصحبة قوة التجريدة الهندية «د» في البصرة[36].

فجوات في المسؤولية

حدث هذا التخلي عن المسؤولية إلى حدّ كبير نتيجة للتعقيد المتزايد للعمليات العسكرية في أوروبا، وخلال عام 1915 في الدردنيل. فقد هيمنت تلك العمليات على نقاشات مجلس الوزراء البريطاني، ولم يلق أحد بالًا للتطورات الجارية في بلاد الرافدين. وفي الهند، كانت الحواجز المُحَصَّنَة بين حكومة الهند والجيش الهندي تعني أن الحكومة لم تتدخّل في أنشطتها الخاصة ولا تكترث بها أصلًا. ونتيجة لذلك الفراغ في السيطرة والإشراف، آلت السلطة إلى الموظفين العسكريين (والسياسيين) في قوّة التجريدة الهندية «د» حيث تجلت عملية كبرى بشكل افتراضي تقريبًا. وعلى مدار عام 1915، أحدث ذلك تحولًا في عملية الإعاقة المبدئية في الخليج العربي التي أمست حملة عسكرية واسعة النطاق جدًا حتى أن مخططيها لم يتوقّعوها ولم يعدّوا لها العدّة.

لقد شوّشت نشوة الانتصارات العسكرية المبدئية على الصعوبات اللوجستية التي كادت أن تفسد التوغّل إلى مدينة القرنة. وبدلًا من ذلك، عزّزت تلك الانتصارات من الشعور بالرضا بينما أقرّت حكومة الهند إرسال لواء مشاةثالث إلى بلاد الرافدين في يناير 1915. وإذ كانت الغاية منه تعزيز السيطرة على الأراضي المُحتلة حديثًا، كان هذا اللواء واحدًا من الكثير من «مستجدات المهمة» التي وقعت في الأشهر التالية. وأدّى ذلك في نهاية المطاف إلى وصول فرقة مشاه ثانية شكّلَت العمود الفقري للتحركات شمالًا باتجاه نهرَيْ دجلة والفرات. وفي الوقت الذي كانت فيه لندن منشغلة بالحرب الأوروبية وتسلسل معارك الاستنزاف على الجبهة الغربية عام 1915، ضحّت حكومة الهند بالتفاصيل الإدارية واللوجستية لقاء انتصارات رخيصة. ومع ذلك، ضمن انقطاع الاتصالات ما بين لندن وحكومة الهند الإخفاق في الكشف عن ثغرات متسعة في السياسة وحلّها قبل فوات الأوان ووقوع الكارثة.

وخلال عام 1915، توسّعت قوّة التجريدة الهندية «د» إلى ما وراء نقطة انتشارها حيث تجاوز تمدّدها العملياتي بكثير قدرة شبكة إمدادها ونقلها المنهكة. وحدثت عمليات توغّل متزامنة باتجاه نهري دجلة والفرات، ولكن دون أن تتسق مع أيّة خطة استراتيجية. واستُولي بسهولة نسبية على مدينتيْ العمارة (الواقعة على نهر دجلة) والناصرية (الواقعة على الفرات) في يونيو ويوليو، بينما صُدّ هجوم عثماني مضاد واسع النطاق بمدينة شيبة في 12 أبريل. وبحلول شهر يوليو، جعل هذا التمدّد العشوائي القوّة «د» موزعة عبر خمسة مراكز مختلفة متباعدة في جنوب بلاد الرافدين: البصرة والقرنة والأحواز والعمارة والناصرية. علاوة على ذلك، كانت القدرات الاستخباراتية القاصرة تعني أنه لا قائد فيلق الجيوش الجديد الفريق جون نيكسون (وهو «جنرال مقاتل من النوع المندفع») ولا القائد العام للفرقة 6 اللواء تشارلز تاونسندكان واعيًا بوصول التعزيزات العثمانية الكبيرة إذ بدت بغداد دانية جدًا حتمًا. وكان ذلك يرجع إلى «الحماس الغضّ» للموظفين السياسيين الوافدين الذين صارعوا من أجل التكيف مع الأعباء الواقعة على:

... المكاتب السياسية المكتظّة بمقدمي العرائض المفتقرة للأثاث المناسب القائم عليها موظفون هنود التي شهدت قضايا حيازة الأراضي والتصرف فيها وقضايا العوائد وقضايا القبائل والمحاكمات الجنائية والأعمال البلدية والشُرَطيّة ومحاولات سدّ العجز في المعلومات والذخيرة والعمالة والإمدادات العسكرية التي لم تفتأ تزداد[37].

ولقد أسهمت تطورات أكبر في الحرب واعتبارات دولية أيضًا في تحمّس المسؤولين في لندن ودلهي للإنجازات العسكرية التي كان من شأنها تعويض حالة الجمود القائمة في الدردنيل. وإذ أدّت الهيبة البريطانية دورًا محوريًا في «التمويه الإمبريالي» الذي مكّنَ مجموعات من الجنود والموظفين الحكوميين من السيطرة على قطاعات كبيرة من الأراضي الهندية (والمصرية آنذاك)، أمسى المسؤولون متشوقين لأنباء عظيمة من شأنها التشويش على الفشل في شقّ الصف العثماني ودحر القوات العثمانية بحسم في معركة غاليبولي[38]. وتصاعدت نبرة مخاوفهم

بقـدر أكبـر بسـبب حساسـيات مواجهـة عـدو خليفتـه هـو نفسـه الزعيـم الروحانـي للإسـلام السُـنّي، وحقيقـة أن الحملـة التـي شُـنّت فـي بـلاد الرافديـن كانـت قريبـة مـن مدينتـيْ النجـف الأشـرف وكربـلاء الشـيعتيْن المقدسـتيْن. وبينمـا أثـار الجانـب السـنيّ قلـق السـلطات البريطانيـة فـي مصـر (ذات الأغلبيـة السـنية)، فقـد أدار الجانـب الشـيعيّ وجهـه القبيـح فـي أوائـل 1915 إذ رفـض نائـب الملـك فـي الهنـد اللـورد هاردنجإرسـال الكتيبـة 136 إلـى بـلاد الرافديـن لأنـه شـعر أنـه لا يسـتطيع الوثـوق بـولاء سـريتيْها (الشـيعيتيْن) المنسـوبتيْن لقلبيـة الهـزاره[39].

وفـي هـذا المنـاخ المعقّـد مـن الآمـال والتوقّعـات المشـوبة بالخـوف والترقّـب، سـتر الاسـتيلاء الناجـح (فـي نهايـة المطـاف) علـى البصـرة والقرنـة حـالات العجـز اللوجسـتي والإداري والعملياتـي لقـوّة التجريـدة الهنديـة «د». وبينمـا توسّـع اللـواءان فتحـوّلا إلـى فرقـة مشـاة كاملـة (الفرقـة 6 بقيـادة تاونسـند)، ظلّـت تلـك الفرقـة مفتقـرة تاريخيًّـا إلـى وسـائل نقـل نهريـة وبريـة. وكمـا حصـل فـي المحاولـة الأولـى الفاشـلة للاسـتيلاء علـى مدينـة القرنـة فـي ديسـمبر 1914، سـرعان مـا أمسـت هـذه مشـكلة خـلال فيضـان فصـل الربيـع فـي فبرايـر 1915. فقـد أحـال هـذا الفيضـان التربـة الطينيـة حـول البصـرة والقرنـة إلـى أرض سـبخة شـلّت حركـة كل أشـكال النقـل البـري (بالـدواب أو بالمركبـات). وقـد وصـف أثـر هـذا الفيضـان المدمـر ببراعـة الرائـد هربـرت يونـغ إثـر نقلـه إلـى بـلاد الرافديـن مـن الحـدود الشـمالية-الغربية للهنـد:

مـن الصعـب علـى أيّ شـخص لـم يـرَ أثـر الأمطـار علـى الصحـراء الرسـوبية المنبسـطة لدلتـا البصـرة أن يشـكّل فكـرة عـن المشـهد الشـنيع المترتـب علـى ذلـك حيـث يتشـكّل نـوع شـديداللزوجةمن الوحـل يسـتحيل الوقـوف منتصبًـا فيـه، وتعلـق فيـه السـيارات والعربـات التـي تجرهـا الـدواب بسـرعة، وتنزلـق فيـه الخيـل والإبـل فـي كل اتجـاه[40].

وتذكّـر يونـغ كيـف «وجـد جنودنـا أنفسـهم فـي البصـرة خـلال فيضـان عـام 1915 علـى جزيـرة وشـطّ العـرب علـى يمينهـم شـرقًا والمنطقـة المغمـورة بالميـاه ممتـدة لعشـرة أميـال جهـة الغـرب...». وذكـر أيضًـا كيـف أن قـوّة التجريـدة الهنديـة «د» افتقـرت إلـى

الأفـراد الذيـن «لديهـم أيـة معرفـة بالظـروف المحليـة أو بأثـر الريـاح والمـدّ والأمطـار علـى ميـاه وتربـة حـوض دجلـة والفـرات»[41].

وبالتزامـن مـع توسّـع نطـاق عمليـات القـوّة «د» باسـتمرار طـوال عـام 1915، ربـط قصـور الدعـم البـري الكافـي منطقـة العمليـات العسـكرية بالنهريْـن. وزاد ذلـك مـن اعتماد الجنـود علـى المركـب النهـري المنهـك بالفعـل فـي عمليـات الإمـداد والنقـل كلهـا. عـلاوة علـى ذلـك، كان نمـو حجـم القـوّة «د» يمثـل عبئًـا كبيـرًا علـى منشـآت الميـنـاء «المنعدمـة تقريبًـا» بالبصـرة، وهـي نقطـة الدخـول الوحيـدة للإمـدادات الضروريـة للحفـاظ علـى الحملـة فـي ظـل الغيـاب الكامـل تقريبًـا لأيّـة بدائـل يمكـن شـراؤها محليًـا. وعندمـا احتلـت البصـرة عـام 1914، لـم تسـتطع أن تسـتقبل سـوى ناقلتيْـن كل ثلاثـة أسـابيع، كمـا أن حكومـة الهنـد رفضـت، شُـحًا منهـا، أن تقـر أيّـة نفقـات إضافيـة لزيـادة قـدرات قـوّة التجريـدة الهنديـة «د». ونتيجـة لذلـك عندمـا وصـل جـورج ماكمـون ربيـع عـام 1916 ليتولـى منصـب المفتـش العـام للاتصـالات لـم يجـد «مفهومًـا مطلقًـا لمـا يقتضيـه النقـل الحديـث» حيـث إن «أحـدًا لا يعـي مـا يتطلبـه الأمـر إذا زاد حجـم القـوّة العسـكرية أو تحركـت أعلـى النهـر»[42].

توسع دون إشراف

فـي خضـم هـذا التضـارب مـا بيـن قـدرات القـوّة العسـكرية والقـدرات اللوجسـتية، زاد وصـول المزيـد مـن الجنـود وحسـب مـن المتطلبـات اللوجسـتية، وفاقـم مـن التكـدس والاكتظـاظ والفوضـى فـي البصـرة وخطـوط الاتصـال والإمـداد المطوّلـة. وهنـاك عامـلان جعـلا الموقـف أسـوأ حتمًـا؛ الأول القيـود الماليـة الشـديدة التـي فرضتهـا حكومـة الهنـد علـى الفريـق نيكسـون والقـوّة «د». فقـد رفـض المسـؤولون فـي دلهـي، بقيـادة عضـو اللجنـة الماليـة الواسـع النفـوذ السـير وليـم مايـر، بإصـرار إقـرار أيّـة نفقـات لمنشـآت الميـنـاء أو غيـر ذلـك مـن أعمـال البنيـة التحتيـة الأخـرى مثـل سـكك الحديـد المقترحـة من البصـرة إلـى الناصريـة لتخفيـف الأعبـاء عـن النهـر مـا لـم يسـتقر الـرأي علـى احتـلال بـلاد الرافديـن احتـلالًا دائمًـا. عـلاوة علـى ذلـك، لـم تسـتوعب حكومـة الهنـد ببسـاطة مـدى

التدخل الدولي والتعبئة اللازمين لإدارة الحرب الصناعية ضد عدوّ حديث. فمنذ بداية الحرب حتى منتصف عام 1916 (عندما لم يعد من الممكن التغاضي عن إخفاقاتها في بلاد الرافدين)، اتبعت دلهي استراتيجية «تجارية كالعادة» لم تنفصل عن المبادئ العزيزة لـ«الإدارة الهندية»، ولاسيما الضرائب المنخفضة وسياسة الحرية الاقتصادية. ومن المدهش أن الموازنة العسكرية التي اعتمدت في مارس 1915 للعام المالي 1915-1916 ظلّت على حالها كما في أوقات السلم، ولم يتناول أحد بالمناقشة تنفيذ العمليات العسكرية الخاصة بالجيش الهندي (في مصر وشرق أفريقيا وبلاد الرافدين) في مجلس نائب الملك قبل عام 1916[43].وقد أعاق أثر هذه السياسة باستمرار محاولات توسعة نطاق جهود الحرب الهندية حتى عام 1916 بينما ازدادت المتطلبات العملياتية بسرعة مهولة. ولقد أشار رئيس هيئة الشؤون الإدارية بالجيش الهندي السير فينتون أيلمر إلى «الإرهاب الذي خلقه المسؤول المالي» [ماير]، واختتم حديثه بنبرة تشاؤمية قائلًا إنّ «محاولة إدخال أي شيء إلى مدينة شيملا الهندية أشبه برجل يصارع للخروج من الرمال المتحركة، أو مستنقع موحل، وقد أنهكته المقاومة من كل الجوانب»[44].

ولقد وضعت هذه السياسة حكومة الهند في تناقض صارخ مع عملية التعبئة الاستراتيجية المطّردة الجارية في لندن في الفترة بين عامي 1914-1915. وتفاقم الشحّ المالي بفعل إخفاق شديد في الإشراف على العمليات المتصاعدة في بلاد الرافدين. وعكس ذلك الفجوات المتوسّعة في المسؤولية ما بين حكومة الهند ووزارةشؤون الهند في لندن والموظفين السياسيين والعسكريين لدى القوّة «د» في البصرة. وفي لجنة التحقيق في أحداث بلاد الرافدين عام 1916، أقرّ السير روبرت كارلايل عضو مجلس نائب الملك المسؤول عن الإيرادات والزراعة (وهو الذي يعتبر في موقف يسمح له بتقديم إسهام عظيم في تعبئة الموارد الهندية) أن «الحرب لم تُعَامَل كشيء تنعدم بجانبه أهمية أي شيء آخر»[45]. ورفض السير بوشامب داف رئيس أركان الجيش الهندي زيارة بلاد الرافدين خلال فترة عمله وعرقل بإصرار كل طلبات الدعم اللوجستي. وظلّت القيادة السياسية والعسكرية على حدّ سواء في

دلهي جاهلة إلى حدّ كبير بالانهيار التدريجي للخدمات الإدارية في بلاد الرافدين[46].

كذلك كان رؤيتهم قصيرة النظر أيضًا واضحة في العامل الثاني الذي أسهم في التمدد الكارثي الحتمي لقوّة التجريدة الهندية «د». وقد تمثّل هذا العامل في إخفاق العاملين في دلهي ولندن في إدراك الطلبات العاجلة بتوفير المزيد من المراكب النهرية أو التصرف بناءً على تلك الطلبات لسدّ متطلبات الإمداد والنقل المتزايدة للقوّة «د». وكما ذكرنا آنفًا، تباينت السمات المحددة لنهري دجلة والفرات إلى حدّ كبير عن ظروف الأنهار في الهند مما جعل مجموعة المراكب المتنوعة التي جُمِعَت من شركة إيراوادي فلوتيلا وغيرها من الشركات المورّدة في الهند غير ملائمة للعمل في مجرى النهر المؤدّي لمدينة القرنة، وتفاقمت صعوبة الإتيان بمراكب مناسبة إذ أطلعت حكومة الهند القوّة «د» باستحالة تصنيع مثل هذه المراكب في الهند نفسها. وعكس ذلك قاعدة التطوير الصناعي البريطانية المشوّهة المحدودة في الهند قبل عام 1914 التي حالت دون إنشاء «مجمع صناعي عسكري» محلي يستضيف مجموعات من المهارات المحلية على الأسس الزائفة لـ«الأمن القومي»[47].

ونتيجة لذلك، قُدِّمَت طلبيات إنشاء القوارب النهرية في إنجلترا. ولكن تسبب الجمود البيروقراطي الذي تمكّن من حكومة الهند ومكتبها، وكذلك قصور التعاون أو الاتصال المشترك بينهما، في حالات تأخر طويلة في إنشاء تلك القوارب. وكانت أبرز تلك الطلبيات طلبية كبيرة قُدِّمَت في 3 أغسطس 1915 لتوفير 9 بواخر نهرية و8 زوارق سحب و43 عبّارة لم تُلَبّى إلا في أغسطس 1916.وحينئذ لم يُسَلَّم فعليًا سوى باخرة نهرية واحدة و8 زوارق سحب و20 عبّارة لبلاد الرافدين حيث وصلت تلك الشحنة بعد سلسلة من الكوارث العسكرية حاقت بالقوّة «د» في الفترة ما بين نوفمبر 1915 وأبريل 1916. وفي تلك الظروف، أمست القوّة «د» تعوّل بشدّة على المراكب النهرية التي يمكن الحصول عليها محليًا. فقد رافق عدد كبير من الزوارق الشجرية والمراكب الشراعية حملة تاونسند العسكرية باتجاه مدينة الكوت، وعُرِفَت هذه المجموعة البائسة من القوارب باسم «زوارق تاونسند»[48].

وحتـى فـي ظـلّ تلـك القـدرات الإضافيـة، أخفـق الأسـطول النهـري فـي مواكبـة الزيادات السـريعة فـي أعـداد الجنـود وخطـوط النقـل والإمـداد الطويلـة بينمـا توغلـت القـوّة «د» فـي الوقـت نفسـه بطـول نهـر الفـرات وصـولًا إلـى مدينـة الناصريـة وبطـول دجلـة وصـولًا إلـى الكـوت. وكان هنـاك إقـرار متنـامٍ بيـن العامليـن الإدارييـن فـي البصـرة بإخفاقـات الحملـة، ممـا دعـا عضـوًا بـارزًا بمجموعـة العامليـن (الرائـد كيمبـال) فـي يوليـو 1915 إلـى التحذيـر مـن أنـه «إذا لـم تُتَخَـذ خطـوات جـادة للوفـاء بتلـك المتطلبـات، فإننـا بصـدد مواجهـة خطـر الانهيـار التـامّ فـي أيّـة لحظـة». ومـع ذلـك، كانـت ردّة الفعـل مـن الهنـد تأكيديـة بقـدر مـا كانـت رافضـة حيـث حـذّرَ داف قـادة القـوّة «د» مـن إزعاجـه «بالمزيـد مـن المطالبـات المُعاتبـة والمشاكسـة للشـحن»[49]. وعكـس ردّ فعلـه الموقـف الضعيـف داخـل وزارة شـؤون الهنـد فـي لنـدن حيـث كان السـكرتير العسـكري بـارو فـي إجـازة عنـد اسـتلام مذكـرة كيمبـال التـي حـذّرَ فيهـا مـن انهيـار الأوضـاع. وأقـرّ بـارو لاحقًـا للجنـة بـلاد الرافديـن بـأن أول مـرة سـمع فيهـا عـن المذكـرة كانـت عندمـا عرضهـا عليـه المفوّضـون فـي أثنـاء مقابلتـه الشـخصية (عـام 1916). وعـزّز صـورة الجهـل المؤسسـيّ هـذه -فـي دلهـي ولنـدن علـى حـد سـواء- وزيـر الدولـة لشـؤون الهنـد حيـث أبلـغ اللـورد كريـو اللجنـة أنـه خـلال فتـرة ولايتـه (وهـي التـي امتـدّت حتـى مايـو 1915) لـم تكـن هنـاك أيّـة «أمـارة أو تحذيـر مـن أن قـدرات النقـل كانـت قاصـرة» فـي البصـرة[50].

ردود الفعل المحلية تجاه التوغل البريطانيّ

اسـتفزّت هـذه المرحلـة المفتوحـة مـن الحملـة مجموعـة متنوعـة مـن ردود الأفعـال مـن أطـراف محليـة وإقليميـة. وقـد تجلّـت ردود الأفعـال هـذه عبـر مجموعـة مـن العوامـل السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعية-الثقافيـة. عـلاوة علـى ذلـك، فقـد أجبـرت حقيقـة أن ولايـة البصـرة كانـت مشـهد القتـال مـن البدايـة القبائـل المحليـة (واتحـادات قبليـة أكبـر حجمًـا) علـى تبنـي اسـتراتيجيات حفـظ الـذات و/أو التحيـز فـي الصـراع الوليـد لفئـة مـا. ويحـدد ثائـر كريـم ثلاثـة معاييـر مهيمنـة فـي صناعـة القـرارات القبليـة: تاريـخ ارتباطهـا السـابق بالسـلطة السياسـية المركزيـة، والمنافـع «السياسـية-الاقتصادية» التـي تتوقّـع أن

تجنيها من التحيّز لأيّ من القوات المتنافسة، واعتبارات الضرورة المتعلقة بالتوازن القائم ما بين القوات. ويقترح أن «أقصى حدّ للمزايا الشخصية يصبو إليه الكثير من المشايخ كان الاعتبار المطلق الذي يحدّد المواقف الفعلية التي تتبناها العديد من القبائل». ومن الأهمية بمكان التذكير بأن هذه المصالح لم تكن ثابتة أو جامدة؛ إذ كانت تتبدل مع تغيّرزخم العمليات العسكرية حيث نكص كثير من مشايخ القبائل الذين تعاونوا مع القوات البريطانية خلال عمليات التوغل عام 1915 على أعقابهم وانحازوا للجانب العثماني إثر معركة المدائن في نوفمبر[51].

وثمّة حالة جديرة بالدراسة تمثّلت في المواقف المختلفة تجاه تصور السلطة السياسية العثمانية وتجاربها. فعلى النقيض من الفكر الرسمي البريطانية (والبريطاني-الهندي)، لم تشكّل الجماعات والاتحادات القبلية المتنوعة في بلاد الرافدين بالتأكيد كتلة موحدة، بل على العكس تمامًا كشفت عن تنوّعات كبيرة في الهيكل القبلي وعلاقته بالحكومة المركزية. وعكست تلك التنوّعات التشوه الذي صُوِّرَت به السلطة العثمانية قبل عام 1914. فقد كانت القبائل التي تعيش بطول نهر دجلة أكبر حجمًا وأكثر تجانسًا ولها تاريخ أطول من الانفتاح على السلطة المركزية بموجب موقعها بطول الشريان التجاري لبلاد الرافدين العثمانية[52]. وتباينت ظروف تلك القبائل بشدّة عن ظروف القبائل التي تقطن منطقة وسط وجنوب الفرات التي كانت أكثر عشوائية من حيث التنظيم ومتفرقة إلى عدد كبير من الوحدات القبلية الثانوية. وكان لتلك القبائل أيضًا تاريخ طويل من التمرد على تصور السلطة الحكومية. وعكس ذلك موقفًا وقائيًا بشراسة تجاه أراضيهم الزراعية من الدولة التي ينحون باللائمة عليها لإهمالها للأراضي، ما ترتّب عليه تغرين التربة وإفساد الإنتاجية الزراعية[53].

وهناك عامل إضافي كان له يد في ردود الأفعال المحلية، ألا وهو التركيبة الطائفية للحكومة العثمانية. ورغم أنني لا أودّ المغالاة في هذا الشقاق، ورغم اتفاقي الكامل مع ملاحظة فنار حدّاد أن «العلاقات الطائفية تتحدى التعميمات النموذجية» وترتبط بـ«اعتبارات اجتماعية-اقتصادية وظروف سياسية أكثر اتساعًا»[54].فإننيلا أجد مفرًا

مـن الإقـرار بـأن الشـيعة كانـوا دُخـلاء فـي الدولـة العثمانيـة ولـم يُعاملـوا بمسـاواة مـع الأغلبيـة السُـنيّة[55].ففي مـدن بـلاد الرافديـن كان أكابـر الحضـر مـن السُـنّة، وكانـوا يهيمنون علـى مقاليـد السـلطة الإداريـة بدعـم مـن طبقـة التجّـار التـي تضمنـت الكثيـر مـن أفـراد الطوائـف اليهوديـة والمسـيحية. ولقـد جعـل الاحتـلال البريطانـي الطائفـة الأخيـرة تحديـدًا عُرضَـة لاسـتهداف الدولـة العثمانيـة. ففـي أبريـل 1915، وصـف المجلـس الأمريكـي فـي بغـداد كيـف «أن هنـاك تحيـزًا كبيـرًا فـي بغـداد ضـد المسـيحيين» بعـد إعـدام ثلاثـة منهـم علـى المـلأ إثـر اتهامـات بالتجسـس.

ولقـد وصـف المـؤرّخ الفلسـطيني حنّـا بطاطـو ببراعـة تنـوع التركيبـة السـكانية لمجتمـع بـلاد الرافديـن فـي مؤلَّفِـه الكلاسـيكي «الطبقـات الاجتماعيـة القديمـة والحـركات الثوريـة فـي العـراق». فإضافـة إلـى سـرد العديـد مـن الأقليـات الدينيـة والعرقيـة «كالأكـراد والتركمـان والفـرس والسـوريين والأرمـن والكلدانييـن واليهـود واليزيدين والصابئـة وغيرهم» ممكـن شـكّلوا «كتـلاً مـن مجتمعـات متمايـزة متعارضـة متقوقعـة علـى ذاتهـا»، حـدّد بطاطـو أيضًـا انقسـامات اجتماعيـة وسياسـية واقتصاديـة وثقافيـة كبيـرة بيـن المجتمعـات الحضريـة والريفيـة[56]. وعكسـت تباينـات أخـرى الأنمـاط المتشـعّبة للتوجّهـات التجاريـة والاقتصاديـة التـي أمسـت بموجبهـا الروابـط المهيمنـة فـي الموصـل غربيـة التوجـه مـع سـوريا وتركيـا، أمـا الروابـط التـي ربطـت مـا بيـن بغـداد والمدينتيـن الشـيعتين المقدسـتين النجـف وكربـلاء فكانـت مـع بـلاد فـارس، بينمـا انحـاز أهـل البصـرة جنوبًـا فـي علاقاتهـم باتجـاه شـبه الجزيـرة العربيـة ومـا وراءهـا وصـولًا للهنـد[57].

ولاحـظ عطيـة فـي دراسـته الاجتماعية-السياسـية المؤثّـرة للعـراق أن الحـرب العظمـى «أمسـت اختبـارًا للـولاء السياسـي للعديـد مـن الطوائـف الاجتماعيـة داخـل الدولـة العثمانيـة»[58]. فقـد خلقـت التركيبـة العرقيـة والطائفيـة والاجتماعيـة المعقّـدة لمجتمـع بـلاد الرافديـن صدوعًـا اسـتطاعت الجيـوش الغازيـة اسـتغلالها. ولكـن التعقيـد نفسـه أيضًـا كان يُمثّـل تحديًـا مفاهيميًـا عميقًـا للموظفيـن السياسـيين (والعسـكريين) البريطانييـن لحظـة أن تولـوا مسـؤولية الإدارة المحليـة. ولقـد اسـتعين بهـؤلاء المسـؤولين غالبًـا مـن

الإدارة البريطانية في الهند، وكانوا متأثرين إلى حدّ بعيد بـ«النماذج الهندية» للحكم الإمبريالي. ووفّرت تجاربهم السابقة الأطر المرجعية لهم وهميضعون قوانين إدارية لمناطق السيطرة الجديدة في بلاد الرافدين. ولذا استُخلِصَت قوانين النزاعات الجنائية والمدنية القبلية التي سُنَّت ووضعت موضع التنفيذ في فبراير 1916 دون تغيير فعلي من القانون الكولونيالي الذي طُبِّقَ على الحدود الشمالية-الغربية للهند.

ولذلك فاقم من أوجه القصور في المعرفة المحلية ردود الأفعال غير المناسبة الساعية لتصحيح الفجوات الناجمة عنها. وذكر توبي دودج كيف كانت القوانين الجديدة قائمة على سوء فهم معيب جدًّا لانقسام ثنائي ظاهريًّا في المجتمع بين المدن «الفاسدة» والقبائل «النبيلة». وأدّى هذا المفهوم إلى سوء توصيف المسؤولين البريطانيين لشيوخ القبائل باعتبارهم «ركائز المجتمع الريفي» الذين يستطيعون من خلالهم الهيمنة والحكم ونقل سلطتهم إلى من هم دونهم[59].ونتيجة لذلك، كان هدف السياسة البريطانية عكس ممارسة العثمانيين فيما يختص بتشجيع التشظّي القبليّ. وقام المسؤولون بتقسيم المناطق التي وقعت تحت الاحتلال إلى أقسام سياسية لكل منها موظف سياسي يتولّى مهمة جمع القوائم القبلية وتحديد المشايخ المحليين الذين يمكن إعادة تشكيل السلطة حولهم[60]. وعَضَّدَ من الولاء القبلي المعونات السخية الممثّلة في الذهب وكذلك، من بداية عام 1917، تهديد الانتقام الجوّي السريع من القبائل المتمردة[61].

كوت العمارة وقطيسفون

بحلول صيف عام 1915، كانت قوّة التجريدة الهندية «د» قد استولت بنجاح على ما كان يعرف بولاية البصرة ما قبل عام 1914، ولو أن السيطرة الفعلية ظلّت قاصرة على المدن الكبرى والمراكز العسكرية، وظلّت المبادرات الإدارية في مهدها. ولمّا حوصرت القوّة «د» ما بين رائحة الانتصارات والموقف اللوجستي غير المستدام بشكل متزايد، اتجهت مترنحةً باتجاه الكارثة في خريف عام 1915. فإثر الاستيلاء على العمارة في يوليو، أدّى منطق «توسّع مهمة البعثة» القاسي إلى أن

حـدد واضعـو الخطـط السياسـية والعسـكرية للقـوة «د» مدينـة كـوت العمـارة لتكـون الهـدف التالـي بطـول النهـر باعتبارهـا محوريّـة للسـيطرة علـى الأراضـي المحتلـة حديثًـا. وجـاء ذلـك بوضـوح فـي برقيّـة أرسـلها نائـب الملـك إلـى وزيـر الدولـة لشـؤون الهنـد إذ ذكـر هاردنـج أن احتـلال كـوت العمـارة هـو «ضـرورة اسـتراتيجيّة بمـا أنهـا تهيمـن علـى الألسـنة المنبسـطة لنهـريْ دجلـة والفـرات» وأنـه ضـروري «لضمـان الهـدوء المسـتقبلي فـي كلٍّ مـن العمـارة والناصريـة»[62]. ولقـد كان الفـراغ فـي المسـؤوليات مـا بيـن البصـرة ودلهـي ولنـدن يعنـي أن وجهـة النظـر هـذه لا يوجـد مَـن يدحِضهـا بقـدر كافٍ حتـى فـي ظـلّ الدليـل الناشـئ علـى أن القـوّة «د» أمسـت ممتـدة علـى نطـاق واسـع بشـكل يمثّـل خطـورة جسـيمة.

وعـلاوة علـى المخـاوف المحليـة مـن الحفـاظ علـى الزخـم وفـرض السـيطرة علـى القبائـل القويّـة بجنـوب بـلاد الرافديـن، مثـل اتحـاد قبائـل المنتفـق الكائـن حـول الناصريّـة وقبيلـة بنـي لام المحيطـة بمدينـة كـوت العمـارة، طـرح الفشـل العسـكري الوشـيك عنـد مضيـق الدردنيـل بعـدًا خارجيًّـا قويًّـا لصنـع السياسـة البريطانيـة فـي منطقـة الشـرق الأوسـط. فطـوال صيـف وخريـف عـام 1915، أمسـت الأقـدار المتشـبعة للقتـال «الدامـي جـدًّا» فـي غاليبولـي، والاسـتيلاء اليسـير ظاهريًّـا علـى المراكـز العسـكرية فـي بـلاد الرافديـن حيـث «أبـدى الجنـرال نيكسـون براعـة حربيـة منقطعـة النظيـر وضـرب الأتـراك فـي مقتـل»، أكثـر جـلاءً مـن ذي قبـل[63]. ولذا أمسـى الساسـة والقـادة العسـكريون فـي بريطانيـا والهنـد متحمسـين لنصـر مـؤزّر -كمـا حـدث عنـد إسـقاط بغـداد- لموازنـة الأضـرار المرتقبـة للهيبـة الإمبرياليـة بمعركـة غاليبولـي[64]. وتقاطعـت هـذه المسـارات الإقليميـة مـع التبعـات الكارثيـة حتمًـا التـي ألمّـت بالقـوّة «د» فـي الفتـرة مـا بيـن سـبتمبر وديسـمبر 1915.

وتحديـدًا أنهـك قصـور وسـائل النقـل النهريـة إلـى حـدّ كبيـر القـدرات العملياتيـة للفرقـة 6 بقيـادة تاونسـند قبـل حتـى أن تتعثّـر أخيـرًا بمعركـة قطيسـفون فـي 22 نوفمبـر. فقـد عرقلـت نسـب عاليـة مـن داء الإسـقربوط وغيـره مـن أمـراض نقـص التغذيـة كفـاءة

قتـال الجنـود. وعُـزي ذلـك نوعًـا مـا إلـى الشـحّ الشـديد لأي منتـج طـازج (كاللحـوم أو الخضـراوات) فـي مؤونتهـم. وتفاقـم الموقـف بفعـل رفـض القـوات المسـلمة تنـاول اللحـم المُعَلَّـب أو لحـم الجيـاد فـي ظـل عـدم وجـود فتـوى تسـمح بتناولهـا. فأسـهم الضعـف الغذائـي الـذي ارتبـط بالعجـز عـن نقـل مخزونـات كافيـة إلـى البصـرة وشـمالًا باتجـاه النهـر فـي ارتفـاع معـدّل الوفيـات بنسـبة مرعبـة بسـبب الأمـراض. وأصبـح مـدى أثـر هـذا الضعـف واضحًـا تمامًـا فـي الأرقـام التـي جمعتهـا وزارة الحربيـة فـي لنـدن والتـي رصـدت 207000 إصابـة نتيجـة الأمـراض عـام 1916 فـي مقابـل 23300 إصابـة وحسـب بسـبب الاشـتباك مـع العـدو[65].

وبينمـا تحرّكـت الفرقـة 6شـمالًا باتجـاه مدينـة كـوت العمـارة فـي سـبتمبر 1915، كان قادتهـا يفتقـرون أيضًـا لوسـائل النقـل البريـة لتخفيـف العـبء عنالنقـل النهـري وتيسـير حركـة الإمـدادات والجنـود. ولـم يكـن للنقـل الآلـي وجـود تقريبًـا قبـل عـام 1916 إذ كان قاصـرًا علـى مجموعـة محـدودة مـن السـيارات وسـتّ عربـات إسـعاف. وفـي غيـاب وسـائل النقـل، خطّـط القـادة للاعتمـاد علـى وسـائل النقـل التـي تجرهـا الحيوانـات (وهـي الوسـيلة التقليديـة التـي يتبعهـا الجيـش الهنـدي) خـلال العمليـات المحوريـة بيـن سـبتمبر ونوفمبـر 1915. ولكـن هـذا الأسـلوب خلـق صعوبـات خاصـة بـه حيـث تطلّـب قطيـع مـن العجـول أُرسـل مـن الهنـد لجـرّ المدفعيـة الثقيلـة علفًـا أكثـر ممـا يمكـن تأمينـه محليًّـا. وبحلـول فبرايـر 1916، تعيّـن الأمـر سـحب الوحـدة العسـكرية، وأعطيـت الأوامـر بـألا ترسـل الهنـد أيّـة وحـدات أخـرى حيـث اسـتحال ببسـاطة إطعـام الحيوانـات[66]. ونتيجـة لذلـك ظلّـت القـوّات تعـوّل بشـكل مبالـغ فيـه علـى النهـر لإمداداتهـا.

ولقـد كان لعـدم كفايـة جميـع أشـكال النقـل النهـري والبـري تبعـات مباشـرة علـى توغّـل تاونسـند شـمالًا. فقـد حـدث التوغّـل فـي منتصـف سـبتمبر عندمـا كان نهـر دجلـة فـي أدنـى مسـتوياته إثـر الجفـاف الصيفـي الطويـل، ومـن ثـمَّ كان غيـر مناسـب قـط لأغلـب أنـواع المراكـب النهريـة. ونتيجـة لذلـك عجـزت القـوّة «د» عـن إمـداد حيوانـات وقـوّات المشـاة وفـرق الخيالـة فـي المقدمـة بالعلـف والطعـام. وترتـب علـى ذلـك أنهـم

لـم يسـتطيعوا اسـتغلال المسـاحات المفتوحـة مـن الصحـراء أو تنفيـذ عمليـات تتطلّـب كفايـة ذاتيـة مـن الطعـام أو الميـاه. وحالـت نقـاط الضعـف تلـك مـا بيـن فرقـة الخيالـة ومطـاردة الوحـدات العسـكرية العثمانيـة المنسـحبة وتدميرهـا بعـد معركـة كـوت العمـارة الأولـى (الناجحـة) فـي سـبتمبر عـام 1915. عـلاوة علـى ذلـك، فقـد فرضـت نقـاط الضعـف هـذه تعطيـل العمليـات العسـكرية لمـدة سـتة أسـابيع لاسـتحضار إمـدادات كافيـة لمركـز التجمّـع المتقـدّم فـي العزيزيـة. ومنـح ذلـك العثمانييـن وقتًـا كافيًا لإعـادة تنظيـم الصفوف بتعزيـزات ضخمـة وافـدة مـن بغـداد[67].

ورغـم أن النصـر الـذي تحقّـق فـي كـوت العمـارة كشـف عـن حـالات قصـور مثيـرة للقلـق فـي القـدرات اللوجسـتية للقـوّة «د»، فإنـه عـزّز بقـدر أكبـر مـن الزخـم الـذي دفـع تاونسـند إلـى حافـة الهاويـة. ولقـد أدّت التصـورات السـابقة بـأن الهيبـة البريطانيـة سـتتضرّر، أو سـتضيع، إذا مـا توقّفـت عمليـة التوغّـل بصانعـي السياسـات إلـى التشـجيع، مجـددًا، علـى الاسـتمرار فيهـا ومباشـرتها. وتجلّـى ذلـك بوضـوح فـي الرسـالة التـي أرسـلها نائـب الملـك فـي دلهـي إلـى وزيـر الدولـة لشـؤون الهنـد فـي 6 أكتوبـر، أي بعـد المعركـة بسـتّة أيـام. فقـد احتـوى هاردنـج ببراعـة وجهـة نظـر «سياسـات الهيبـة» وخلـق لهـا سـياقًا بداخـل ملامـح الحـرب العظمـى إذ قـال:

مـن ناحيـة أخـرى، ومـن وجهـة نظـر سياسـية، يمكـن أن يتـرك احتـلال بغـداد انطباعًـا مهـولًا علـى منطقـة الشـرق الأوسـط، ولاسـيما علـى بـلاد فـارس وأفغانسـتان وعلـى حدودنـا، ومـن شـأنه أيضًـا معادلـة الانطبـاع السـلبي الـذي خلقـه إخفاقنـا فـي الدردنيـل. كمـا سـيعزل أيضًـا الفـرق الألمانيـة فـي بـلاد فـارس، ويحبـط الخطـط الألمانيـة السـاعية إلـى تصعيـد أفغانسـتان والقبائـل، بينمـا سـيكون أثـره فـي أرجـاء الجزيـرة العربيـة مذهـلًا. كذلـك سـيكون الانطبـاع فـي الهنـد جيـدًا لا شـكّ. وإننـي أعلـق أهميـة شـديدة علـى تلـك الاعتبـارات[68].

وقـد آتـت هـذه الصرخـة مـن القلـب ثمارهـا إذ اسـتجاب أوسـتن شـامبرلين بعدهـا بيوميـن قائـلًا إن «مجلـس الـوزراء انبهـر بشـدّة بالمزايـا السياسـية والعسـكرية لاحتـلال

بغداد لدرجة أن كل جهد نبذله لتجهيز القوّة العسكرية بات ضروريًا جدًّا». ولكن من المهم أن وزير الخارجية الموفد للهند قال: «لا نريد أن نقدم على محاولة الاحتلال هذه بعدد غير كافٍ من الجنود»، وسأل هاردنج ما إذا كان يظنّ أنّ فرقة مشاة واحدة ستكفي[69]. ومع ذلك، وفي اليوم نفسه، بعث نيكسون ببرقية مفادها أنه «ما من تعزيزات ضرورية لقوّتي العسكرية لهزيمة نور الدين واحتلال بغداد. وأنا على يقين من ذلك»[70]. وبينما مرّ خريف عام 1915، ساءت الأنباء الواردة من الدردنيل بقدر أكبر، وأمست الحاجة المتوقعة لما أسماه شامبرلين في 11 أكتوبر «نجاحًا مدويًّا في الشرق» ماسة[71].

غير أن الحاجة إلى إعادة التنظيم وجلب الإمدادات استوجبتوقف العمليات العسكرية، مما يعني أن حوالي شهرين مرّا ما بين الاشتباك في كوت العمارة في 25 سبتمبر واندلاع معركة قطيسفون في 22 نوفمبر. وخلال تلك الفترة، كان لدى رئيس الأركان العثمانية نور الدين باشا وقت كافٍ لإعداد موقعين دفاعييْن يمكن تعزيزهما بشكل مشترك. وواجهت فرق المشاة التي يبلغ عدد أفرادها حوالي 18000 جندي الفرقة 6 المنهكة بقيادة تاونسند التي كانت في تلك المرحلة في حالة تنقّل لأكثر من شهرين ويجثم عليها آنذاك مزيج من المناخ السيء والأراضي الرطبة. علاوة على ذلك، فقد أخفق 2000 حمار نقل وكمية كبيرة من العربات التي جُمِعَت في البصرة في الوصول إلى العزيزية في الوقت المناسب لتجديد التوغّل شمالًا في الحادي عشر من نوفمبر. وكان ذلك نتيجة حقيقة أن أكثر من نصف الزوارق النهرية كانت ضرورية لنقل الأغراض الضخمة الصالحة للأكل كالحبوب والحطب والعلف اللازمة ليقتات عليها جنود المقدمة يوميًّا[72].

وعلى ذلك، مُنِعَ تاونسند من بناء احتياطيّ من الجنود أو وسائل النقل. وأمست هذه الإخفاقات حرجة إثر فشل الفرقة 6 في اختراق الدفاعات العثمانية في قطيسفونفيما بين22 و24 نوفمبر. وقد تكبّد الطرفان خسائر مهولة جدًا وأصابهما الإنهاك بفعل القتال العنيف غير الحاسم. ولم يترك انعدام الاحتياطي الاستراتيجي

والعـبء الزائـد علـى وحـدات النقـل الحاليـة (الممثّـل فـي خسـائر المعركـة البالغـة 3500 روح) إلا خيـارًا محـدودًا، فمـا كان منـه إلا أن انسـحب إلـى كـوت العمـارة وانتظـر التعزيـزات. ووصلـت الفرقـة 6فـي 3 ديسـمبر، واتخـذ تاونسـند قـرارًا مأسـاويًا بالتوقـف هنـاك حيـث كانـت المدينـة تحـوي احتياطيّـات وإمـدادات ضخمـة. ولقـد كانـت هـذه الاحتياطيّـات والإمـدادات أصـلًا مكدسـة بوصفهـا احتياطيًـا لدعـم التوغّـل النهـري شـمالًا، لكـن تاونسـند كان يعـوزه آنـذاك وسـائل النقـل النهـري لإرسـالها إلـى البصـرة. عـلاوة علـى ذلـك، فقـد كان جنـوده منهكيـن بفعـل أسـابيع مـن القتـال العنيـف المسـتمر. ولـذا ففـي 4 ديسـمبر قـرر تاونسـند أن يسـتقرّ فـي كـوت العمـارة ويحيـل المدينـة إلـى معسـكر مسلّح بينمـا ينتظـر وصـول التعزيـزات مـن البصـرة. وعلـى ذلـك، أخطـر نيكسـون أنـه يمتلـك مؤونـة شـهر واحـد فقـط للجنـود البريطانييـن وإمـدادات تكفـي الجنـود الهنـود الذيـن يشـكّلون غالبيـة الفرقـة 6 لمـدة 55 يومًـا[73].

وكان لرسـالة تاونسـند التـي أبلـغ فيهـا القيـادة تقديراتـه تبعـات جسـيمة علـى العمليات اللاحقـة السـاعية إلـى إنقـاذه مـن هـذا المـأزق. فرغـم أنـه لـم يكـن يعـرف مـا يجـري آنـذاك، فـإنّ رجالـه صمـدوا فـي نهايـة المطـاف لأكثـر مـن أربعـة أشـهر علـى الاحتياطيـات المتاحـة. ولقـد خلـق سـوء تقديـره إحساسًـا (كاذبًـا) بحساسـية الموقـف لـدى القيـادة البريطانيـة فـي البصـرة، وأسـهم فـي تنفيـذ عمليـات إغاثـة متسـرّعة غيـر منظّمـة وُضِعَـت دون تخطيـط أو إعـداد كافٍ.

وحقيقـة الأمـر أنـه بينمـا أسـرعت فرقتـا المشـاة الهنديتـان القابعتـان فـي فرنسـا (الفرقـة 3والفرقـة 7) إلـى البصـرة إلـى جانـب الفرقـة 13 التـي انحرفـت عـن الدردنيـل، فضـح الوصـول العشـوائي للوحـدات العسـكرية والمـؤن القيـود التـي تعانيهـا البصـرة بوصفهـا مينـاء وقاعـدة عسـكرية. ونتيجـة لرفـض حكومـة الهنـد السـابق الذكـر أعـلاه لإقـرار أيّـة نفقـات تتجـاوز الحـد الأدنـى الضـروري، لـم يكـن المينـاء يحـوي أيّـة منشـآت حديثـة لإرسـاء السـفن وتفريغهـا أو لتخصيـص أماكـن لتخزيـن المـؤن. وبالتالي كان متوسـط معـدل التفريـغ بارجتيـن كل ثلاثـة أسـابيع حيـث كانتتُفـرَّغ الشـحنات والرجـال مـن السـفن

العابرة للمحيطات إلى الصنادل التابعة للشركات المحلية، ومن ثم يُعاد شحنها على المراكب النهرية لنقلها إلى منبع النهر[74].

ولذلك أربك وصول فرق المشاة الثلاثة الإضافية معزّزة بوحدات مساعدة في الفترة ما بين يناير وأبريل 1916 المنشآت البديلة المؤقّتة بالبصرة. وشكّلَ مجيئها واحدًا من الأسباب الأساسية للانهيار التدريجي للعمليات العسكرية الذي بلغ ذروته عندما استسلم تاونسند وفرقته (الفرقة 6) في 29 أبريل. وأمست البصرة وميناؤها مكتظّين بشدّة ومنهكين جدًا إذ وصلت تعزيزات من الجنود والمؤن بمعدل أسرع مما يسمح بتفريغها وإرسالها شمالًا باتجاه النهر. وثبت أن القاعدة العسكرية وما يحيط بها من منشآت غير قادرة على التعامل مع التكدّس المروري المتزايد في غياب أرصفة الميناء والعدد الكافي من الصنادل وزوارق الجر وقصور عدد العاملين وتوافر مساحات اليابسة على الجبهة النهرية نفسها. وباتت كل هذه العوامل حرجة بالنسبة للأعمال غير المنجزة التي تراكمت، واقتات كل منهما على الآخر بشكل متداخل خلق إحساسًا معزّزًا بالارتباك والفوضى في القاعدة العسكرية[75].

وتضاعفت هذه الإخفاقات اللوجستية بشدّة بفعل تقدير تاونسند الخاطئ للإمدادات. ووصف التاريخ البريطاني الرسمي لهذه الحملة على استحياء كيف أجبر ذلك الجنرال فينتونأيلمر على تنفيذ ثلاث عمليات إغاثة «بطاقم محدود الإمكانات وتنظيم بديل مؤقّت ووسائل قاصرة»[76]. والأدهى أن الحاجة الماسة للعجلة كانتتعني أن العمليات ستُنفَّذ في أسوأ وقت لها خلال العام على الإطلاق من الناحية المناخية والبيئية. وقد أمست النتائج واضحة جليّة في 11 يناير عام 1916 إذ باء هجوم على مواقع عثمانية في مدينة حنا بالفشل بعد أن أحالت الأمطار الغزيرة أرض المعركة إلى مستنقع موحل أصاب كل التحركات والاتصالات بالشلل[77].

وفي البصرة، تدهور الوضع الصحي لنيكسون وحلّ محلّه قائد القوّة «د» السير بيرسي ليك الذي تولّى المسؤولية في 19 يناير 1916. وعلى الفور أيّد ليك توغّلًا جديدًا نظرًا «للريبة في تاريخ وصول التعزيزات وكفاية عدد المراكب النهرية اللازمة

لصيانـة ودعـم تلـك التعزيـزات علـى الجبهـة»[78]. ولكـن عنـد هـذه المرحلـة كان داف فـي الهنـد وروبرتسـون فـي لنـدن قـد تراجعاعـن حماسـهما تجـاه عمليـات التوغّـل العسـكري السـابقة إذ حـذّرا مـن هجمـة مبتسـرة وحثّـا أيلمـر علـى التـروي وانتظـار وصـول المزيـد مـن التعزيزات[79].بيـد أن الاكتظـاظ داخـل البصـرة نفسـها والعـبء الواقـع علـى منشـآت مينائهـا كانـا مهوليْـن جـدًا حتـى أن هـذا الاقتـراح الحـذر اعتُبِـرَ غير مناسـب عمليًـا. وبحلول 15 فبرايـر، بلغـت الأزمـة ذروتهـا إذ أخطـر ليـك لنـدن بـأن القصـور فـي وسـائل النقـل أصبـح حـادًا جـدًا لدرجـة أنـه يسـتحيل نقـل الفرقـة 13 إلـى الجبهـة. وأقـرّ أيضًـا بـأن «عـدد الـزوارق النهريـة يحـدّ مـن عـدد الجنـود والحيوانـات الذيـن يمكـن اسـتيعابهم بالجبهـة»، وأخطـر داف بـأن إرسـال المزيـد مـن الأعـداد باتجـاه المنبـع سـيقلّص كميـة الإمـدادات التـي يمكـن نقلهـا فـي الـزوارق النهريـة الشـحيحة بنسـبة 40 فـي المائـة. وخلاصـة القـول إن قـوّة التجريـدة الهنديـة «د» كان بإمكانهـا إمـا نقـل الإمـدادات أو الجنـود، لا الاثنيـن معًـا[80].

وثمّـة محاولـة ثانيـة قـام بهـا أيلمـر لإغاثـة تاونسـند بـاءت بالفشـل فـي 8 مـارس إذ صـدّ العثمانيـون هجومًـا علىحصـن الدجيلةوألحقـوا بالمهاجميـن خسـائر جسـيمة. وبعـد هـذه الانتكاسـة، اسـتُبْدِلَ بأيلمـر نفسـه الفريـق جـورج غوريـنـج («قاسـي القلـب») ليكـون قائـدًا عامًـا لفيلـق دجلـة. ومجـدّدًا أخطـر ليـك القيـادة العامـة للجيـش الهنـدي فـي الهنـد فـي 13 مـارس أن العمليـات العسـكرية علـى نهـر دجلـة أصابهـا الشـلل بسـبب الوصـول المتأخـر المنقـوص للـزوارق النهريـة[81].وكان نقـص وسـائل النقـل يعنـي أن علـى الفرقـة 13أن تمضـي راجلـة إلـى الجبهـة وأن تشـارك فـي المحاولـة الثالثـة لإغاثـة كـوت العمـارة بيـن 5 و9 أبريـل دون أن تحظـى بقسـط مـن الراحـة أو تحصـل علـى وسـيلة نقـل بريّـة مريحـة. وكمـا حـدث فـي المحاولـة الأولـى الملغـاة فـي ينايـر، صـادف أن هطلـت الأمطـار فـي أثنـاء هـذه المحاولـة أيضًـا، وفاضـت الأرض بالميـاه التـي أفسـدت العمليـة العسـكرية حيـث باتـت أرض المعركـة «مسـتنقعًا حقيقيًـا». وفـي هـذه الظـروف، اسـتطاع العثمانيـون تعطيـل الفرقـة المنهكـة ومنعهـا مـن الوصـول إلـى مبتغاهـا[82].

وانتهت محاولة أخرى أخيرة يائسة للمضي قدمًا وإغاثة الفرقة 6 بالفشل في 25 أبريل. وعند تلك المرحلة، شعر غورينجبأنه مضطر لإخطار الهند بأن فيلق دجلة وصل إلى أقصى حدّ له على الإطلاق من حيث قدراته الهجومية. وأضاف أنه لا يستطيع المضي قدمًا دون وقف العمليات العسكرية حيث إن رجاله كانوا في حالة اشتباك مع العدوّ مستمرة تقريبًا منذ 5 أبريل، وقد تكبّدوا إصابات في صفوفهم بلغت 9700. وشكّلَ هذا العدد تقريبًا ربع قوتها القتالية، ومع ذلك فقد ظلّت على بعد يتجاوز 12 ميلًا من كوت العمارة[83].لكن الحامية المُحاصَرَة كانت أيضًا قد بلغت أقصى حدود تحملها حيث كان رجال تاونسند على شفا المجاعة ويعانون من حالات مرضية يومية متصاعدة. وفي 24 أبريل، أُقدِمَ على محاولة بائسة يائسة أخيرة لإعادة إمداد تاونسند، وذلك بتسيير سفينة محملة بإمدادات تكفي لشهر كامل باتجاه منبع النهر. ولكن هذه المحاولة أيضًا باءت بالفشل مما حدا بوزير خارجية الحرب في لندن اللورد كتشنرإلى أن يصدر أوامره على استحياء لداف ببدء المفاوضات على استسلامتاونسند والفرقة 6. ولقد كان استسلامهم في 29 من أبريل يُعتبر آنذاك أعظم إهانة عسكرية تعرّض لهاالجيش البريطاني لدرجة أنها لا تضارع في بشاعتها سوى سقوط سنغافورة في ديسمبر 1941. ولم يكن كتشنرنفسه في ريب من حجم الضرر النفساني الذي ترتب على الاستسلام على الهيبة البريطانية في المستعمرات البريطانية خارج أوروبا. فقد راسل كتشنر داف سرًا قبل استسلام تاونسند بفترة وجيزة قائلًا: «آمل مخلصًا أن تدرك أنت وجميع الضباط العموميين الذين يعملون تحت إمرتك أنه سيكون عار على بلدنا للأبد إذا استسلم تاونسند»[84].

والخلاصة أن تسليم كوت العمارة كان نتيجة للتداخل العشوائي لبعض العوامل التي نشأ كل منها استنادًا للآخر وعظّمَ من أثره. وقد لحق العار ببعض القادة في أرض المعركة وفي دلهي، وانتحر داف في يناير عام 1918، وخلصت لجنة بلاد الرافدين لتقصّي الحقائق إلى أن نيكسون كان مسؤولًا بصفة أساسية عن هذه الكارثة. أماتاونسند فلم يتغلب قط على ما لحق به من عار استسلامه والمعاملة التفضيلية التي تلقاها وهو حبيس في بيته بالآستانة بينما كابد جنوده عقوبات بشعة إذ

أجبروا على قطع الصحراء السورية، ليموت مخزيًا عام 1924. ولقد أصدرت لجنة تحقيق بلاد الرافدين التي شكّلتها الحكومة البريطانية تقريرًا مضرًا جدًا بخصوص الخطب الذي ألَمَّ بتلك الحملة لدرجة أن الحكومة حارت لشهرين كاملين فيما إذا كان من الحكمة نشره أم لا. وعندما خرج إلى النور، أطاح التقرير بوزير الدولة لشؤون الهند أوستن شامبرلين حيث سلط الضوء بكثافة على سوء التصرف الإداري من جانب حكومة الهند وعجزها عن فهم العمليات العسكرية الحديثة أو الاضطلاع بها. ولكن التقرير أنحى باللائمة أيضًا على ازدواجية السيطرة بين وزارة شؤون الهند في لندن وحكومة الهند في دلهي؛ الأمر الذي أسهم في الإحساس بالشقاق والإخفاق في الإشراف على الحملة وهي تتعثّر[85]. ورغم أنه ما من عامل وحيد كان حاسمًا في إفشال المحاولة الأولى للاستيلاء على بغداد، فإن العوامل جمعاء أربكتالقدرات العسكرية البدائية لقوّة التجريدة الهندية «د». وبالطبع أدّت الصدمة التصحيحية لتراكم الإخفاقات إلى إعادة تنظيم واسعة النطاق للمسؤولية العمليّاتية والإدارية واللوجستية، ومهّدت الطريق أمام مواصلة التوغّل بعد أشهر من البحث عن الذات.

إعادة تنظيم الصفوف وتجديدها، 1916-1917

اثنا عشر شهرًا فصلت ما بين العار الذي لحق بتاونسند بمدينة كوت العمارة ودخول الجنرال مود بغداد منتصرًا في 11 مارس عام 1917. وخلال تلك الفترة، تحولت قوّة التجريدة الهندية «د» إلى قوّة تجريدةبلاد الرافدين وأعيد تجهيزها وتنظيمها. وأجرى الساسة البريطانيون في لندن تحقيقًا شاملًا في نطاق ومدى أهدافهم زمن الحرب بالمنطقة. وأضفى هذا الوضوح الشديد قدرًا من التحديد على الغايةمن العمليات العسكرية الجارية في بلاد الرافدين، والأهم من ذلك أنه أماط اللثام عن الموارد المادية والبشرية الهندية المهولة التي يُستعان بها في المجهود الحربي. وفي تلك الأثناء، سرعان ما اضمحلّت المكاسب العثمانية التي جُنيت من الانتصار على تاونسند وإلحاق هزيمة ساحقة بالجيش البريطاني في مواجهة الخسائر الجسيمة المتلاحقة على الجبهة الروسية. وفي بداية عام 1917، تلاقت تلك التوجهات

حيث واصلت قوّة تجريدةبلاد الرافدين توغّلها في الوقت نفسه تقريبًا الذي شنّت فيه قوّة التجريدة المصرية أولى هجماتها على غزة. ورغم أن أول هجمتين لموراي على غزة أخفقتا في اختراقالتحصينات والتوغّل في المدينة (كما سلف وأوضحنا في الفصل السابق)، فإنهما أسهمتا في التركيز العام للحرب المتعددة الجبهات في مواجهة إمبراطورية عثمانية أنهكتها الحرب بشكل متزايد. ولاحقًا في عام 1917، أحدث هذا التزامن فرقًا مهمًا حيث حال دون المحاولات العثمانية لتبديل القوات ما بين مواقع المعارك المختلفة بما يسدّ حاجاتها الأكثر إلحاحًا.

نعم تعطّلت الحملة العسكرية في بلاد الرافدين إثر الاستسلام الفاضح لحامية تاونسند بمدينة كوت العمارة، ولكن القوّة العسكرية تعرّضت على مدار الأشهر القليلة التالية إلى عملية غربلة ارتبطت بإعادة تنظيم شبيهة للمساهمة الهندية في الحرب. ويبدو أن الأمر كان يستدعيالتعرّض لصدمة ما حدث لتاونسند لاستيعاب مدى الاختلال الذي عانت منه القوّة «د» وسوء إدارة الجوانب الأكثر شمولًا للحملة في بلاد الرافدين. لذا شُكّلَت لجنة تقصّي حقائق في لندن لبحث الإخفاقات في بلاد الرافدين وفي الدردنيل. وخلال صيف وخريف عام 1916 والأشهر الأولى من عام 1917، تلقّى أعضاء تلك اللجنة سيلًا من الإدانات بخصوص قصور الإشراف الاستراتيجي والتخطيط العملياتيّ والأعطال اللوجستية التي بلغت ذروتها في محاولات إنقاذ مدينة كوت العمارة. وصدر التقرير النهائي للجنة تحقيق بلاد الرافدين في مايو 1917 بعد أن أفضى الاستيلاء على بغداد إلى استعادة الهيبة والكرامة البريطانيتين نوعًا ما، لكن بشاعة محتواه (كما ذكرنا آنفًا) دفعت وزير الدولة لشؤون الهند أوستن شامبرلين إلى الاستقالة، وتسبّبت في حرج عام لداف الأمر الذي أفضى لاحقًا إلى انتحاره في 20 يناير عام 1918[86].

كذلك فإن الآلات الإدارية واللوجستية التي عملت بوصفها دعامات ضرورية للحملة تحوّلت هي الأخرى في أواخر عام 1916 وأوائل عام 1917. فتولّتوزارةالحربية في لندن المسؤولية الإدارية عن الحملة في يوليو 1916 وتولّتالمسؤولية بالفعل

عـن جانبهـا العملياتـي فـي فبرايـر. وفـي وقـت متأخـر، دُمِجَـت الحملـة فـي المجهـود الحربـي البريطانـي، ووضعـت ضمـن إطـار عمـل مركـزي لأول مـرة. وأنهـى ذلـك العلاقـة مـا بيـن واضعـي الخطـط العسـكرية فـي بريطانيـا والهنـد التـي أفضـت إلـى فجـوات كارثيـة فـي السياسـة والإشـراف. وتحوّلـت حيثيـة الهنـد للحملـة العسـكرية آنـذاك مـن السـيطرة العملياتيـة إلـى التعاطـي معهـا بوصفهـا مـزودًا رئيسًـا للجنـود والمـوارد الماديـة لتمويـن قـوّة تجريدةبـلاد الرافديـن. وقـد أدّى ذلـك إلـى اسـتغلال المـوارد المدنيـة والعسـكرية علـى حـدّ سـواء لحكومـة الهنـد بشـكل أفضـل حيـث دشـنت فـي وقـت متأخـر التعبئـة الاسـتراتيجية للمـوارد التـي قامـت بهـا الـدول المتحاربـة فـي أوروبـا عـام 1915[87].

وقـد تمثّـل العامـل الرئيـس فـي التحـول الـذي طـرأ علـى دور الهنـد فـي إحـلال الجنرال تشـارلز كارمايـكل مونـرو المُعَيَّـن مـن قبـل وزارةالحربيـة محـل داف الفاقـد لمصداقيتـه المُحَـال إلـى الأعمـال المكتبيـة بتاريـخ 1 أكتوبـر 1916. وكان مونـرو يتمتـع بخبـرة طويلـة فـي القيـادة الميدانيـة، وسـبق (كمـا ذكرنـا آنفًـا) أن تولـى قيـادة قـوة التجريـدة المتوسـطية فـي غاليبولـي. وقـد اسـتقطب حولـه مجموعـة مـن المسـؤولين الإدارييـن البارعيـن ذوي الخبـرة العسـكرية الحديثـة فـي مصـر وفـي الدردنيـل فـي نمـوذج أولـيّ لاسـتيعاب الـدروس المسـتفادة فيمـا بيـن الحمـلات العسـكرية[88]. وثمـة مثـال آخـر علـى هـذا المسـار تمثّـل فـي تعييـن الجنـرال مـود قائـدًا عامًـا للقـوة التـي سـميت حديثـا قـوة تجريدةبـلاد الرافديـن فـي 28 أغسـطس. فعلـى النقيـض مـن سـلفه العجـوز ليـك، تولـى مـود مؤخـرًا قيـادة الفرقـة 13 فـي غاليبولـي، وكان يلقـب بـ «جـو النظامـي» فـي إشـارة واضحـة إلـى أسـلوبه المنهجـي. والواقـع أن مـود ومونـرو قـد أقاماعلـى حـد سـواء وزنًـا لتعقيـدات الحـرب الصناعيـة الحديثـة وأهميـة وضـع المتطلبـات العسـكرية داخـل إطـار عمـل أعمـق مـن التعبئـة الاسـتراتيجية لجميـع أشـكال المـوارد[89].

وخـلال صيـف وخريـف عـام 1916، وُسِّـعَت منشـآت ميـنـاء البصـرة بسـرعة مهولـة، وأنشـئ مينـاءان ثانويـان فـي المعقـل ونهـر عمـر لتخفيـف التكـدّس بقـدر أكبـر. وزادت هـذه الإجـراءات مـن معـدل الأطنـان التـي تُفـرَّغ مـن 38916 طنًـا فـي يوليـو 1916 إلـى

أكثر من 100 ألف طنّ في منتصف عام 1917، وبناءً على ذلك أمكن إرساء 14 سفينة وصرفها في المرة الواحدة في غضون ثلاثة أيام. وطرأت التحسينات على الجهاز التنظيمي والإداري أيضًا بسرعة كبيرة، وخلقت عملية انسيابية من تلقّي المخزونات ونقلها أعلى النهر. لقد أحال مود ومونرو البصرة إلى ميناء إقليمي رئيسي شرق السويس، وعكسا بعدًا واحدًا للتصحيح العام لحملة بلاد الرافدين. وكان البعد الآخر الذي لم يكن يقل أهمية يتمثّل في إعادة تنظيم خدمات النقل وتحويلها إلى منظومة متجانسة مسؤولة عن سياسة النقل العامة[90].

ولقد بدأت مديريات السكك الحديدية والأشغال المؤسسة حديثًا في إعادة تشكيل خطوط الاتصال التي وصلت ما بين البصرة والوحدات الأمامية والمراكز الدفاعية بينما أحدثت كميات من العربات المدرّعة والطائرات تحوّلًا في القدرة الحركية العملياتية لقوّة تجريدة بلاد الرافدين. والأهم أن ذلك حرّر قوّة التدخل السريع من تعويلها شبه الكامل على الأنهار، ومكّنَ مود من إنشاء سلسلة من مراكز الإمداد المتقدمة والمستودعات والمستشفيات العسكرية بطول نهر دجلة استعدادًا لمواصلة التوغّل. وخلال عام 1917، توسّعت شبكة السكك الحديدية سريعًا كخطوط متشعّبة للخارج من البصرة وبغداد بعد الاستيلاء على الأخيرة في مارس. ومع ذلك فقد أُنجز هذا التوسّع بطريقة عشوائية متقطعة، وأدّى إلى تطوّر ثلاثة تجمعات من السكك الحديدية المنفصلة التي ما برحتتعتمد على الهند فيما يتعلق بإرسال قاطرات ومعدات دارجة دون المستوى غالبًا[91].

ولا شكّ أن الإصلاح الكامل للخدمات الإدارية لقوّة تجريدةبلاد الرافدين كان مبشرًا محوريًا للتجديد النهائي للعمليات في ديسمبر 1916. فقد جاء هذا التجديد على خلفية وصول الغطاء الواقي بالكامل الممثّل في الحملات العسكرية الصناعية بكل ما تتمتّع به من متطلبات لوجستية ضخمة. وكما هو الحال في أيّ مكان آخر، خلق ذلك تعويلًا جديدًا شديدًا على السلع المُنْتَجَة صناعيًا حيث وصلت كميات مهولة من المدفعية الخفيفة والذخيرة وآليات نقل السكك الحديدية والنقل الجوّي.

واقتضت المتطلبات النهمة للحرب الحديثة تعبئة موارد القوة العاملة المحلية والمحاصيل الزراعية واستخلاصها بالتزامن مع تطور بصمة أقوى بغية التغلغل في أنماط محلية للنشاط الاقتصادي[92]. وسندرس هذا الجانب تفصيلاً في الفصل الثامن، لكن من الضروري هنا أن نذكر أن الفترة ما بين ديسمبر 1916 ومارس 1917 شهدت نقطة تحوّل حاسمة في بلاد الرافدين. فمن تلك المرحلة فصاعدًا أفسحت الحملة العسكرية الطريق تدريجيًا أمام تكثيف الهيمنة السياسية والاقتصادية البريطانية على القبائل والمجتمعات التي لم تكن معتادة حتى تلك اللحظة على تجلّي سلطة الدولة، والتي كانت تحمي بضراوة وشراسة مواردها الشحيحة.

تأكيد الهيمنة الإقليمية

لقد اكتسبت عمليات التعزيز هذه أيضًا بُعدًا إقليميًا إذ دعّمت السياسات البريطانية من مكانتها لدى مشيخات الخليج العربي ذات الأهمية الاستراتيجية وفي شبه الجزيرة العربية نفسها. ورغم أن الكويت والبحرين وإمارات الساحل المتصالح التأمت معًا في شكل خليط غير متجانس من الممتلكات الإمبريالية خلال القرن التاسع عشر، فقد تطلّبت الضربة الموجهة للهيبة البريطانية إجراء مضادًا لإعادة تأكيد هذه الهيبة. وكانت الكويت ذات أهمية خاصة بموجب قربها الجغرافي وعلاقاتها القبلية والاقتصادية المتداخلة مع البصرة. وقد سبق أن تعاون حاكمها الشيخ مبارك بن صباح الصباح عن كثب مع القوة البريطانية الغازية، وساهم بآلاف الروبيات إلى الصليب الأحمر البريطاني، وقدّم دعمًا لوجستيًا لقوّة التدخل السريع «د»، وسمح للسفن الاستشفائية البريطانية بالإرساء في ميناء مدينة الكويت ذي المياه العميقة. لكن مبارك الذي وقّعَ على الاتفاقية الإنجليزية الكويتية عام 1899 توفّي في 28 نوفمبر 1915، وخلفه ابنه الشيخ جابر المبارك الصباح[93].

وعلى النقيض من دعم أبيه الشديد للإمبراطورية البريطانية، كان الشيخ جابر أكثر استقلالية بكثير من الناحية الفكرية. ورغم أن فترة حكمه القصيرة لم تدم إلا 15 شهرًا وحسب حيث توفّي في فبراير 1917، فإنه بدّلَ ولاءه وانحاز للعثمانيين حيث

سـهّل حركـة قوافـل الجمـال نوعًـا مـا بيـن الكويـت وسـوريا. ونتـج عـن حركـة التجـارة المترتبـة علـى هـذا التحيّـز كسـر الحصـار البريطانـي المضـروب علـى منطقـة شـرق البحـر المتوسـط، وأمَّنَتهـذه الحركـة وصـول إمـدادات حيويّـة للقـوات العسـكرية العثمانيـة فـي دمشـق[94]. وقـد بلغـت الاحتجاجـات البريطانيـة المكثّفـة ذروتهـا فـي اجتمـاع عُقـد فـي 23 نوفمبـر 1916 فـي مدينـة الكويـت بيـن السـير بيرسـي كوكـس وأكابـر رجـالات الكويـت. وحـاول كوكـس، وهـو كبيـر الموظفيـن السياسـيينبقوّة تجريدةبـلاد الرافديـن، إعـادة تأكيـد الدعـم المحلـي للأهـداف البريطانيـة الإقليميـة لكـن الاجتمـاع انتهـى بـلا حسـم. وتولـى الشـيخ سـالم المبـارك الصبـاح بعـد أخيـه الحكـم فـي فبرايـر 1917، فـزادت التجـارة مـع العثمانييـن لدرجـة أن البحريـة الملكيـة بالفعـل حاصـرت الكويـت بغيـة منـع تدفقـات الإمـدادات ووضـع نهايـة لهـا، الأمـر الـذي نسـبه سـالم (المتضـرر) إلـى عمليـات التهريـب المخالفـة للقانـون[95].

وإلـى الجنـوب مـن الكويـت، حقّـق البريطانيـون نجاحًـا أكبـر إذ دمجـوا قطـر (وهـي المشـيخة الخليجيـة الوحيـدة التـي لـم تربطهـا بهـم علاقـات حمايـة مـن قبـل) إلـى حظيرة الإمبراطوريـة البريطانيـة. وكانـت عائلـة آل ثانـي الحاكمـة قـد دنـت مـن العثمانييـن بقـدر أكبـر فـي سـبعينات القـرن التاسـع عشـر، لكـن المصالـح القطريـة والبريطانيـة تلاقـت بقـدر أكبـر تدريجيًّـا خـلال فتـرة الحـرب. وحـدث ذلـك عندمـا سـعى الحـكام القطريـون إلـى تأميـن سـيطرتهم علـى مشـيختهم الصغيـرة فـي مواجهةاسـتعراض عبـد العزيـز آل سـعود لسـطوته الأوسـع انتشـارًا علـى شـبه الجزيـرة العربيـة. ولحمايـة اسـتقلاليتهم المحليـة والحصـول علـى ضامـن خارجـي منشـود لأمنهـم، وقّعـوا علـى الاتفاقيـة الإنجليزيـة القطريـة فـي 3 نوفمبـر 1916. ورغـم أن البريطانييـن لـم يُصَدِّقـوا عليهـا حتـى 23 مـارس 1918، فقـد منحـت قـدرًا محوريًّـا مـن الدعـم للقيـادة القطريـة، وكانـت وسـيلة لإعـادة التـوازن فـي مواجهـة الثقـل الأكبـر للقـوات السـعودية الناشـئة[96].

وكمـا بيّنـا أعـلاه، عكـس توتـر عائلـة آل ثانـي فـي قطـر إعـادة تشـكيل ميـزان القـوى داخـل شـبه الجزيـرة العربيـة نفسـها. وقـد سـبق ذلـك الحـرب العظمـى، إذ انتـزع عبـد

العزيز آل سعود السيطرة على الرياض ومنطقة وسط نجد من عائلة الرشيد المنافسة له عام 1902. واستجابت الدولة العثمانية لهذا التحدي المحلي للوضع القائم بأن انحازت لعائلة الرشيد التي يربطهم بها تاريخ من التعاون، وأرسلوا قوّات إلى شبه الجزيرة العربية. ورغم أنهم هزموا عبد العزيز آل سعود في بداية الأمر عام 1904، فإن هذا النصر لم يدم طويلًا إذ استعاد عبد العزيز سيطرته على منطقة نجد وانطلق شرقًا وصولًا إلى ساحل الخليج العربي بحلول عام 1912. وعزّز هذا النصر مكانته المحلية في مواجهة المشيخات الساحلية المحمية من قبل الإمبراطورية البريطانية، وكذلك تحركاته المبدئية الساعية إلى توطين القبائل البدوية المحلية وتعبئتهم في قالب ميليشيا الإخوان المسلمين الدينية المهيبة. وقد حدثت أولى عمليات التوطين الزراعي هذه عام 1913[97].

وكان المسؤولون البريطانيون قد عقدوا اتفاقية مع عبد العزيز آل سعود بعد بداية الحرب بفترة وجيزة في إطار بحثهم عن حلفاء إقليميين داعمين. ولعلهم استفادوا من العلاقة التي أقامها المندوب السياسي البريطاني في الكويت سابقًا الكابتن وليم شكسبير. فقد تواصل شكسبير مبدئيًا مع عبد العزيز آل سعود خلال رحلاته عبر الجزيرة العربية، وأمسى لاحقًا مستشاره العسكري. وفي نوفمبر عام 1914، طلبت حكومة الهند منه تأمين دعم عبد العزيز آل سعود للعمليات التي تضطلع بها قوّة التجريدة الهندية «د» في البصرة. ولكنه قُتِلَ بعدها بشهرين في معركة ضد فلول آل الرشيد، وبعدها بفترة طويلة حلّ محلّه (تحديدًا في نوفمبر 1917) سانت جون فيلبي المُسْتَعْرِب البارز والد الجاسوس سيء السمعة كيم فيلبي. ولكن في تلك الأثناء اتخذت العلاقة الوليدة ما بين آل سعود والبريطانيين شكلًا رسميًّا في «معاهدة العقير» عام 1915 التي اعترفت بعبد العزيز حاكمًا على نجد والأحساء والقطيف والجبيل. وباعتبارها الاتفاقية الدولية الأولى التي يوقّع عليها عبد العزيز، فقد عزّزت موقفه وسمحت له بتدعيم هيمنته على شبه الجزيرة وإحباط الأهداف العثمانية هناك[98].

ولن يتجلّى الأثر الكامل لهذه التحالفات في إعادة التنظيم الإقليمية سوى في أعقاب الحرب. فهذه ليست المرة الأولى التي يؤدّي فيها السعي قصير الأجل وراء المتعاونين المحليين إلى إقحام الأطراف المتحاربة في شبكات من التحالفات التي ثبت في نهاية المطاف فشلها وتضاربها. وسنمحّص في هذه التحالفات بالتفصيل في الفصل الثامن. وفي حالة شبه الجزيرة العربية الخاصة، خلقت علاقات بريطانيا إبّان الحرب مع آل سعود التباسًا شديدًا في ظلّ دعمها لشريف مكة في الثورة العربية حيث كان الطرفان يتنافسان على الهيمنة على شبه الجزيرة. كما هدّدت تلك العلاقات أيضًا استقرار وأمن المشيخات الأصغر حجمًا والأضعف بكثير والواقعة تحت الحماية البريطانية على الخليج العربي.

الزحف إلى بغداد

مع قرب اكتمال عملية إعادة التنظيم المحلية ورسوخ أقدامهم إقليميًا بقدر أكبر، واصل البريطانيون توغّلهم باتجاه بغداد في 14 ديسمبر 1916 إذ شنّت قوّة تجريدة بلاد الرافدين هجومًا على المواقع العثمانية في مدينة الحي. وهناك رسّخوا أقدامهم عبر روافد بلدةالحي، لكن الأمطار الغزيرة عرقلتأيّة عمليات جديدة حتى 19 يناير 1917 عندما استُولي على بلدة الحي نفسها. وفي 25 يناير، شنّت قوّة تجريدةبلاد الرافدين هجومًا على خط الدفاع الأمامي المحوري استراتيجيًا لبلدة الحي. وكان هذا الهجوم احترافيًا جدًا بالمعايير العسكرية حيث تضمن مُعايرة مبدئية للمدفعية وغطاء من النيران وقصفًا مبدئيًا مكثّفًا على المواقع العثمانية، ثم هجمة منسقة من سلاح المشاة على هيئة أربع موجات بدعم من غارات القصف ونيران البنادق الآلية. وقد كشف هذا الهجوم عن أن قوّة تجريدة بلاد الرافدين باتت على دراية واسعة بأحدث التقنيات العسكرية التي تمارسها القوات البريطانية على الجبهة الغربية في أوروبا. ورغم أن القوة تكبّدت خسائر جسيمة، فإنها سحقت الخط الدفاعي للبلدة في 4 فبراير 1917[99].

وعلى الفور أتبع مود هذا النصر بالاستيلاء على الصناعيات في 23 فبراير. وكشف

هـذا الفتـح لـه موقعًـا اسـتراتيجيًا ومكَّـنَ قـوّة تجريـدة بـلاد الرافديـن مـن عبـور نهـر دجلـة وإعـادة الاسـتيلاء علـى مدينـة كـوت العمـارة فـي 25 فبرايـر؛ أي بعـد عشـرة أشـهر مـن الفتـرة التـي مثَّـلَ فيهـا سـقوط المدينـة نفسـها قـاع المجهـود الحربـي البريطانـي. ودلّـت تبعـات هـذه المعركـة علـى القـوّة الجديـدة التـي أمسـت رهـن يميـن مـود حيـث تعرضـت الوحـدات العسـكرية العثمانيـة المنسـحبة إلـى نيـران كثيفـة مـن الفيلـق الجـوّي الملكـي بينمـا لاحقتهـم العربـات المدرعـة وأنهكتهـم. وبعدهـا توقـف التوغّـل مؤقتًـا للسـماح بإنشـاء سلسـلة متعاقبـة مـن الموانـئ المؤقتـة ومخـازن الإمـدادات الوسـيطة. وفـي 4 مـارس، أقـرّ قائـد الأركان العامـة الإمبراطوريـة فـي لنـدن وقائـد عـام الجيـش الهندي التوغّـل الأخيـر نحـو بغـداد. وبـدأ هـذا التوغّـل فـي 5 مـارس، وبلـغ ذروتـه بعدهـا بسـتة أيـام إذ تقـدم اللـواء 35 مشـاة إلـى بغـداد لاسـتعادة الأمـن والنظـام فـي المدينـة ووضـع حـدّ لعمليـات النهـب التـي بـدأت إثـر إجـلاء العثمانييـن فـي اليـوم السـابق[(100)].

ولقـد كان احتـلال بغـداد بمثابـة نصـر سياسـي مذهـل وأوّل نجـاح كبيـر يحققـه البريطانيـون فـي الحـرب. وبالطبـع أسـهم إلـى حـدّ كبيـر فـي إصـلاح الضـرر الـذي لحـق بالهيبـة البريطانيـة عـام 1916. وقـد ألقـى مـود بنفسـه فـي 19 مـارس بيانـه علـى سـكان بغـداد الـذي تعهّـد فيـه بـأن جيشـه لـم يـأت غازيًـا بـل محـررًا. ولكـن نظـرًا لمـا كان يتمتـع بـه مـن غـرور وعنجهيـة، لـم يوقـف الاسـتيلاء علـى بغـداد الحملـة العسـكرية فـي بـلاد الرافديـن ولـم يحقّـق نصـرًا عسـكريًا أقـرب علـى الدولـة العثمانيـة ودول المركـز. كما عكس ذلـك الموقـف المحيـط بالحملـة العسـكرية الممثّـل فـي التـوازن الجغرافـي الاسـتراتيجي الأوسـع للقـوى حيـث نشـأ تعـارض متنـامٍ بيـن اسـتمرارها والاعتبـارات العسـكرية الأشـمل. ومـع ذلـك، واصلـت قـوّة تجريـدة بـلاد الرافديـن وتيرتهـا العملياتيـة حتـى نهايـة الحـرب فـي نوفمبـر 1918، وزادت باسـتمرار مـن مسـؤولياتها فـي الوقـت الـذي انبثـق فيـه شـقاق بيـن المسـؤولين البريطانييـن المدنييـن والعسـكريين فـي بـلاد الرافديـن فيمـا يختـص باتجـاه الحملـة ونطـاق أهدافهـا.

كذلـك عـزّزت العمليـات المبدئيـة إثـر الاسـتيلاء علـى بغـداد الهيمنـة البريطانيـة علـى

الطـرق المؤديـة للمدينـة والمناطـق الداخليـة الإقليميـة الملحقـة بهـا. فقـد اتخـذت قـوّة تجريدةبـلاد الرافديـن خطـوات لتأميـن المسـارات النهريـة المؤدّيـة إلـى بغـداد، فاحتلـت بعقوبـة (الواقعـة علـى نهـر ديالـى) فـي 18 مـارس، والفلوجـة (الواقعـة علـى الفـرات) فـي 19 مـارس، ونهايـة السـكك الحديديـة العثمانيـة بمدينـة سـامراء (الواقعـة علـى نهـر دجلـة) فـي 23 مـارس[101]. وفـي فتـرة لاحقـة مـن العـام نفسـه (تحديـدًا فـي خريـف 1917)، بسـط المزيـد مـن عمليـات التوغّـل نطـاق الهيمنـة البريطانيـة علـى مـا تبقّـى مـن ولايـات عثمانيـة بالاسـتيلاء علـى مـدن الرمـادي والكفـل وتكريت.وكانـت هـذه المكاسـب كبيـرة حيـث حرمـت العثمانييـن مـن ثلاثـة خطـوط اقتـراب رئيسـة لأيّـة هجمـة مضـادة علـى بغـداد[102]. عـلاوة علـى ذلـك، فقـد شـدّدت قـوّة تجريدةبـلاد الرافديـن حصارهـا الاقتصـادي علـى المواقـع العثمانيـة المتبقيـة فـي محاولـة لسـدّ الثغـرات التـي أحدثتهـا التجـارة الكويتيـة مـع الأطـراف المحليـة والإقليميـة. وكان المقـدّم جيـرارد ليشـمان (ويُكنّـى بـ «قائـد الصحـراء») مسـؤولًا عـن ذلـك الحصـار، وقـد نفّـذه بـلا هـوادة ولا رحمـة لدرجـة أنـه أمسـى مكروهًـا جـدًا مـن السـكان المحلييـن. وقـد وصـف مهمـة مـن مهامـه «لتأديـب قبيلـة كرديـة» بأنهـا «رائعـة جـدًا لكنهـا كريهـة جـدًا فـي آن واحـد». وربمـا لـم يكـن مـن المسـتغرب فـي ظـلّ تكتيكاتـه العدائيـة أنـه قُتِـلَ علـى يـد مجموعـة مـن أعضـاء قبيلـة زوبـع علـى مقربـة مـن الفلوجـة فـي أثنـاء ثـورة عامـة اندلعـت فـي أغسـطس 1920[103].

تداعي القوة: بلاد فارس والتنمية الزراعية

مـات مـود علـى حيـن غـرّة فـي 18 نوفمبـر 1917 متأثـرًا بمـرض الكوليـرا. وخلفـه فـي قيـادة قـوّة تجريدةبـلاد الرافديـن الفريـق السـير وليـم مارشـال. ومـع الانتهـاء مـن توحيـد الولايـات التابعـة لبغـداد، مثّـلَ مفتـرق الطـرق هـذا نقطـة منطقيّـة كان مـن المفتـرض أن تتوقّـف عندهـا العمليـات العسـكرية فـي بـلاد الرافديـن. ومـع ذلـك، فقـد اسـتمرت تلـك العمليـات مجـدّدًا شـتاء عـام 1917 وخـلال الأشـهر الأولـى مـن عـام 1918 بعدمـا أدّى خـروج الـروس مـن الحـرب إلـى اسـتحضار مخـاوف خياليةلـدى الساسـة البريطانييـن فـي لنـدن ودلهـي مـن توغّـل تركي-ألمانـي مشـترك عبـر منطقـة القوقـاز وبـلاد فـارس باتجـاه

الهنـد[104]. واسـترجاعًا لأحـداث الماضـي، تبـدو هـذه المخـاوف غيـر واقعيـة مغرقـة فـي الخيـال عندمـا نضـع نصـب أعيننـا الاعتبـارات اللوجسـتية وحالـة الإنهـاك التـي يعانـي منهـا الجيشـين العثمانـي والألمانـي فـي أوائـل عـام 1918. لكنهـا أدّت مـع ذلـك إلـى إرسـال بعثـة عسـكرية بريطانيـة قوامهـا حوالـي 1000 مـن خيـرة القـوات البريطانيـة والكنديـة والأسـترالية والنيوزيلانديـة إلـى بـلاد فـارس تحـت قيـادة الجنـرال ليونيـل دونسـترفيل. وقـد أضفـى ذلـك تعقيـدًا علـى خطـوط الاتصـال فـي مواجهـة مارشـال، وخاصـة بعـد الهجمـة العسـكرية الألمانيـة القويّـة علـى الجهـة الغربيـة فـي 21 مـارس 1918. إذ كانـت الحاجـة لنقـل وحـدات بريطانيـة إلـى فرنسـا، وكذلـك الضغـوط التـي فُرِضَـت علـى ألنبـي فـي فلسـطين، تفـرض إجـراء عمليـة إعـادة تنظيـم سـريعة علـى قـوّة تجريدةبـلاد الرافديـن حيـث اسـتبدلت بتلـك الوحداتأخـرى تـم تشـكيلها دون سـابق إنـذار فـي الهنـد[105].

وعلـى أيّـة حـال، تقدّمـت «قـوّة دونسـتر» والوحـدة الملحقـة بهـا (قوامهـا 750 مركبـة مدرعـة) لأكثـر مـن 500 كـم عـام 1918، وفـي نهايـة المطـاف وصلـت إلـى مدينـة باكـو الأذربيجانية،ولكنهـا كانـت تمثّـل ثقـلًا شـديدًا علـى القـدرات اللوجسـتية لمارشـال الـذي شـكى مـن اضطـراره إلـى تحويـل كل وسـائل نقلـه إليهـا. وفـي مايـو عـام 1918، أمسـت نتائـج هـذا التمـدد المبالـغ فيـه واضحـة إذ عجـز مارشـال عـن إقامـة حاميـة فـي مدينـة كركـوك الواقعـة شـمال بـلاد الرافديـن إثـر إسـقاط قـوّة تجريدةبـلاد الرافديـن لهـا. وعـزي ذلـك ببسـاطة إلـى إنـه لـم يكـن لديـه سـوى عـدد قليـل جـدًا مـن وحـدات النقـل المتاحـة لـه فـي بـلاد الرافديـن لإقامـة حاميـة فـي كركـوك. ولقـد اسـتجاب مارشـال بغضـب للقيـود المفروضـة علـى قـوّة تجريـدة بـلاد الرافديـن، ممـا نجـم عنـه حالـة مـن الإحبـاط العـام بيـن كثيـر مـن الضبـاط البريطانييـن فـي بـلاد الرافديـن حتـى أن العمليـات العسـكرية بـدت آنـذاك محصـورة فـي «ملاحقـة مؤخّـرة الجيـش التركي إلـى أن نفـدت إمداداتنـا»[106].

والواقـع أنـه لـم يكـن لهـذه التحـركات أيّـة أهميـة مطلقًـا علـى النتيجـة النهائيـة للحرب مـا بيـن البريطانييـن والدولـة العثمانيـة. ولـم يكـن كذلـك ثمّـة أهميـة للانحـراف الكبيـر لقـوّة تجريدةبـلاد الرافديـن فـي أواخـر عـام 1917 وغالبيـة عـام 1918 إذ انخرطـت فـي

عملية عشوائية لـ «بناء الدولة» المبدئي في بلاد الرافدين. فمن ناحية، كان تطوير خطط التنمية الزراعية الكبرى ردّة فعل عملية لحالات القصور في الشحن بغية استيراد المواد الغذائية والأغراض المهمّة للحملة من الهند[107].ومن ناحية أخرى، خلق التمدد السريع في مساحة الرقعة الواقعة تحت احتلال قوّة تجريدةبلاد الرافدين إثر الاستيلاء على بغداد صعوبات شديدة في سدّ الحاجات المدنية والعسكرية للموارد، ولاسيما المواد الغذائية. وأوجبت هذه الصعوبات استغلال قرار سابق اتخذته وزارة الحربية في لندن في يوليو 1916 يقضي باستفادة حكومة الهند من الموارد المحلية قدر الإمكان للوفاء باحتياجات قوّة تجريدةبلاد الرافدين. وعلى ذلك، أقرّت السلطات البريطانية في خريف عام 1917 في بغداد خطة للتنمية الزراعية واسعة النطاق في إطار مشروع طموح لتحقيق الاكتفاء الذاتي من القمح والشعير والقش[108].

ولذلك حصل تكثيف استخلاص الموارد المحلية إلى جانب الغزو العسكري لبغداد والولايات المحيطة بها. وصرّح مود في 3 مارس 1917 أنه توقّع أن يُمَكِّنَه من «استغلال جوارها إلى حدّ كبير لأغراض الإمداد، وخاصة إمداد المواد الغذائية والعلف». وقد شغلت هذه الأشياء الضخمة مساحة نقل كبيرة. ومع احتلال الفلوجة في التاسع عشر من مارس، بسطت قوّة تجريدةبلاد الرافدين هيمنتها على مناطق زراعة المحاصيل الخصبة في وادي الفرات التي كانت بغداد والأراضي الداخلية التابعة لها تقتات عليها. وقد اعتبرت غيرترود بل سكرتيرة الشؤون الشرقية لدى المندوب السامي البريطاني في بغداد خسارة العثمانيين لتلك المنطقة الغنية بالمحاصيل «واحدة من أكثر التبعات كارثيّة لسقوط بغداد»[109].

وإذ توسّعت الهيمنة البريطانية في شتّى أرجاء بلاد الرافدين، تصاعدت بحدّة كميات الإمدادات والموارد المحلية المنشودة.وانتشر الموظفون السياسيون في الأراضي العراقية بمساعدة من الوحدات العسكرية التي أضافت إلى قوتهم الجبريّة في جهودهم الساعية إلى كسب الولاء القبلي بأساليب توافقية. ولكن ثمّة استثناء مهمًا تمثّل في مدينتي النجف وكربلاء الشيعيتين المقدستين اللتين كانت إدارتهما

تتمّ بشكل غير مباشر عن طريق مشايخهما المحليين. وقد يسّرت السيطرة المباشرة (وغير المباشرة) إنشاء مديرية الموارد المحلية، وسهّلتها أيضًا شبكات الإمداد ومسؤولو النقل الذين رافقوا الموظفين السياسيين إذ خفّفوا من توتّر القبائل المحلية. وتسارعت وتيرة التجنيد المنظم للعمالة في الوحدات اللوجستية لقوّة تجريدةبلاد الرافدين بسرعة مهولة إثر الاستيلاء على بغداد. وشكّلت تلك التطورات العمود الفقري لمؤسسات الصناعات الاستخراجية التي بدأت آنذاك تنظيم التعبئة الشاملة لجميع الموارد الاقتصادية والمجتمعية المحلية للمجهود الحربي. وانطوى ذلك على ما أسماه البريطانيون تخفيفًا لوقعه «الإخضاع بالوسائل السياسية» للقبائل المحلية غير المعتادة إلى حدّ كبير على إسقاط الهيمنة المركزية على شؤونها الداخلية[110].

لكن هذه الإجراءات شكّلت خلفية نزاع شديد على تحديد السيطرة المدنية والعسكرية تفاقم بين مود وكوكس. فباعتباره رئيس أركان قوّة تجريدةبلاد الرافدين، وانطلاقًا من تكليفه بمسؤولية الشؤون العسكرية في بلاد الرافدين، عارض مود إنشاء إدارة مدنية وأراد أن يركز كل طاقته على إدارة دفّة الحرب. وفي يوليو عام 1917، حذّر مود السلطات العسكرية البريطانية في لندن ودلهي من أنه «لو حاولنا... تطوير المدينة... سنكون قد جاوزنا الحدّ وستبوء محاولاتنا بالفشل»[111].وقدأثار هذا الرأي غضب كوكس، فاستجاب واصفًا مود بأنه «جندي قح لا يمتلك أيّة خبرة سابقة عن الشرق»، وبالتالي فهو «غير متفهم للمشكلات السياسية ويضيق صدره بها نوعًا ما»[112].وأخيرًا تُوصّل إلى حلّ وسط حيث عُيّنَ كوكس مفوضًا مدنيًا في بغداد بينما احتفظ مود بالسلطة المطلقة في بلاد الرافدين. ولكن غسان عطية لاحظ أن هذا الاتفاق «لم يثنِ كوكس إلا قليلاً عن سياسته الساعية إلى إقامة إدارة مدنية»، وأن ذلك عجّلَ بوفاة مود في نوفمبر[113].

النفط والموصل

أدار لنا التفاعل بين السياسة العسكرية والمناورات السياسية وجهه القبيح مجدّدًا في الأشهر الأخيرة من الحرب العظمى، وأفضى إلى التعجّل في احتلال الموصل قبل

نهايـة الأعمـال العدائيـة فـي ميادين الحـروب العثمانيـة. وحـدث ذلـك بعـد أن أدرك مجلـس وزراء الحـرب فـي لنـدن متأخـرًا قيمـة بسـط السـيطرة علـى ولايـة الموصـل باعتبارهـا مصـدرًا محتمـلًا لإمـدادات النفـط للإمبراطورية البريطانيـة. ورغـم أن النفـط اكتُشِـفَ فـي بـلاد فارس المتاخمـة عـام 1908، وكان مـن بيـن مبـرّرات إرسـال جنـود بريطانييـن وهنـود إلـى البصـرة عـام 1914 حمايـة منشـآت الشـركة الإنجليزيـة الفارسـية فـي المنطقـة، فإنـه لـم يُشَـكِّل عاملًا مهمًّـا ضمـن «غايـات الحـرب» البريطانيـة فـي بـلاد الرافديـن سـوى قـرب نهايـة الحـرب. ففـي 30 يوليـو 1918، وصـف السـير موريـس هانكـي (الأميـن العـام الواسـع النفـوذ لمجلـس وزراء الحـرب) السـيطرة علـى الإمـدادات النفطيـة (المفترضـة) لبـلاد الرافديـن بأنهـا «مـن أبـرز غايـات الحـرب البريطانيـة»[114]. وفـي رسـالة أمسـت ذات أهميـة حاليًا إلـى وزيرالبحرية (السـير إيريـك غيديـس)، صـرّح هانكـي بأنـه «يبـدو مـن المحبـذ قبـل أن نبـادر ببحـث عمليـة السـلام أن نحكـم سـيطرتنا علـى المناطـق الغنيـة بالنفـط فـي بـلاد الرافديـن وجنوبـي بـلاد فـارس حيثمـا كانـت». عـلاوة علـى ذلـك، أضـاف هانكـي أن «بسـط السـيطرة علـى دولـة أخـرى غنيـة بالنفـط... قـد يجعـل مـن الجديـر بالنسـبة لنـا أن نمضـي قدمًـا فـي بـلاد الرافديـن رغـم أهميتهـا المحـدودة نسـبيًّا مـن وجهـة نظـر اسـتراتيجية بحتـة»[115].

ولقـد اسـتند تحـوّل هانكـي إلـى قيمـة تمديـد الهيمنـة البريطانيـة فـي بـلاد الرافديـن إلـى مذكّـرة لا تقـلّ أهميـة خطَّهَـا الفريقأولبحرياالسـير إدمونـد سـليد بعنـوان «موقـف البتـرول فـي الإمبراطوريـة البريطانيـة». وفيهـا احتجّسـليد بـأن السـيطرة علـى مصـادر (ومواقـع) وقـود السـفن محـوريّ جـدًّا «لبقائنـا كإمبراطوريـة»، وأنـه بمـا أن النفـط مـن المتوقّـع أن يحـلّ محـلّ الفحـم تدريجيًّـا فـي مجـال النقـل البحـري، «فمـن المهـمّ جـدًّا بالنسـبة لنـا أن نبسـط سـيطرتنا الكاملـة بـلا منـازع علـى أكبـر كميـة ممكنـة مـن البتـرول تصـل إليهـا أيدينـا». وفـي مثـال مبكّـر علـى «تأميـم المـوارد»، صـرّح بـأن «السـيطرة يجـب أن تكـون مطلقـة، ولا يجـب أن تكـون هنـاك أيّـة مصالـح أجنبيـة مشـمولة»، وأنـه «حينئـذ فقـط سنسـتطيع تأميـن الموقـف الاسـتراتيجي، وسـنتمكن مـن استشـراف المسـتقبل بثقـة بقدرتنـا علـى الهيمنـة علـى اتصـالات العالـم البحريـة حـال انـدلاع حـرب أخـرى»[116]. وتجـدر الإشـارة إلـى أنـه كان لـدى سـليد مصلحـة قويّـة انطلاقًـا مـن كونـه مديـر الشـركة

الإنجليزية الفارسية للنفط، ونصيرًا لشراء الحكومة البريطانية لحصة مسيطرة منها عام 1914. ولقد طرحت مذكرته أدلة مغرية على تأمين السلطة والنفوذ البريطانيين في عالم ما بعد الحرب العالمية في فترة كان فيها ميزان القوّة في الحرب العظمى قد بدأ يميل نحو الحلفاء.

وسرعان ما نالت وجهة النظر هذه دعم رئيس الأركان الجوّية المسؤول عن سلاح الجوّ الملكيالمُنشأ حديثًا الذي أضاف أن «مستقبل سلاح الجوّ بأكمله يعوّل على إمدادات كافية من النفط السائل»، وأن «المناطق التي تحوي هذا النفط يتعيّن حمايتها بحزام عريض جدًا من الأراضي التي تفصل بينها وبين الأعداء المرتقبين»[117]. وأدّى تراكم الدعم من أجل حيازة بريطانيا لمساحات شاسعة من بلاد الرافدين وبلاد فارس بهانكي إلى أن يراسل وزير الخارجية (ورئيس الوزراء الأسبق) السير آرثر بلفور مشجعًا إيّاه على دعم المقترحات الجديدة. ورغم تردّد بلفور في بداية الأمر فيما يختص بما أسماه «غاية إمبريالية محضة من غايات الحرب»، ألحّ هانكي في طلبه كاتبًا أنه «يكاد يكون من الحتمي أن نمتلك المناطق الشمالية لبلاد الرافدين». وليضفي ثقلًا على محاجته ويخفّف من دور المصالح النفطية فيها، أضاف نقطة ذات أهمية تتعلق بضمان السيطرة باتجاه المنبع على الموارد المائية لنهري دجلة والفرات للحيلولة دون سقوطها في أيدي العدوّ، الأمر الذي من شأنه أن يسدّ النهرين لأغراض الريّ ومن ثَمّ يقلل من تدفّق المياه باتجاه المصبّ. ولهذا السبب، طلب هانكي من بلفور إقرار توغّل جديد في شمال بلاد الرافدين «بقدر ما تقتضيه الضرورة لتأمين إمدادات مناسبة من المياه. وسيؤمّن لنا ذلك بشكل عرضيّ أغلب الأراضي الحاوية للنفط»[118].

إن هذه الجهود الساعية إلى استمالة أبرز متخذي القرار البريطانيين آتت ثمارها في نهاية المطاف. ففي أواخر أكتوبر 1918، انطلق فيلق الجيوش الأول التابع لقوّة تجريدة بلاد الرافدين إلى الموصل بعد أن أدّت النهاية الوشيكة للأعمال العدائية مع الدولة العثمانيةبالقائم مقام المفوض المدني (في غياب كوكس في لندن) السير آرنولد وِلسون إلى أن يشجّع «كل الجهود... الساعية إلى السيطرة على أكبر قدر

ممكـن مـن الأراضـي الواقعـة علـى نهـر دجلـة قبـل انكشـاف الأمـر». وقـد فـرض التوغّـل ضغوطًـا إضافيـة شـديدة علـى قـوّة عسـكرية كانـت منهكـة جـدًا بالفعـل بسـبب العمليـات التـي نفذتهـا فـي بـلاد فـارس وفـي باكـو، ممـا دلّـل علـى أن هـذا القـرار كان قـرارًا جغرافيًـا اسـتراتيجيًا خاليًـا مـن الغايـات العسـكرية. وحقيقـة الأمـر أن الموصـل لـم تُحتـل فـي النهايـة حتـى 10 نوفمبـر 1918. هـذا اليـوم الـذي كان قبـل نهايـة الحـرب فـي أوروبـا، ولكنـه جـاء بعـد 11 يومًـا مـن إنهـاء هدنـة مـودروس للصـراع العثمانـي[119].

وقـد وضـع الاسـتيلاء (المتأخـر) علـى مدينـة الموصـل نهايـة للحملـة العسـكرية فـي بـلاد الرافديـن. وتحوّلـت العمليـة العسـكرية المحـدودة النطـاق التـي تصوّرهـا واضعـو الخطـط البريطانيـون فـي الهنـد فـي أكتوبـر 1914 إلـى واحـدة مـن أكثـر الحمـلات العسـكرية الممتـدّة زمنيًـا خـارج المسـرح الأوروبـي للحـرب العظمـى. وعلـى الجانـب البريطانـي، جمعـت الحملـة بيـن سـوء الإدارة المبدئـي الجسـيم والخـزي الحتمـي مـن ناحيـة والانتصـارات اللاحقـة والمحـاولات المُدبّـرة لتأسـيس الدولـة. وبالنسـبة للعثمانييـن، كَمُـنَ النجـاح الأساسـي للحملـة فـي حصرهـا لعـدد مهـول مـن القـوات البريطانيـة والهندية فـي ميـدان معركـة نـاءٍ جـدًا حيـث لا يسـتطيعون الإضـرار بقلـب الإمبراطوريـة إلا قليـلًا. وفـي تلـك الأثنـاء، سـعت الجماعـات القبليـة المحليـة فـي بـلاد الرافديـن والخليـج العربـي إلـى اسـتغلال الأقـدار المتقلبـة للطرفيـن المتحاربيـن لتعظيـم مكاناتهـم وقوّتهـم المحليـة.

وكمـا سـنوثّق لاحقًـا بالتفصيـل فـي هـذه الدراسـة، كان للجهـود المبدئيـة لبنـاء الدولـة التـي قـام بهـا المسـؤولون البريطانيـون فـي بـلاد الرافديـن فـي عامـيْ 1917 و1918 تبعـات ممتـدّة. فقـد انعكسـت خططهـم علـى الأراضـي المحتلـة فـي سياسـات سـترت على اسـتحياء خطّتهـم لمـا بعـد الحـرب. وسـيصف الفصـل الثامـن كيـف أدّى ذلـك إلى إنشـاء دولـة مركزية تختلـف اختلافًـا كبيـرًا عـن سـابقتها العثمانيـة فـي مـدى سـيطرة الدولـة وعمـق اختراقهـا للمجتمـع. ومـع ذلـك، فقـد أثـرّ التفـاوت الـذي رُسـمت بـه الهيمنـة البريطانيـة والبريطانيـة-الهنديـة، وكـذا ردود الأفعـال المتباينـة التـي أثارهـا هـذا التفـاوت، علـى ملامـح الثّـورة التـي اندلعـت عـام 1920، ومعهـا كذلـك الحكومـة العراقيـة التـي تطـوّرت بعدهـا.

الباب الثالث

السياسة والدبلوماسية

الفصل السابع

الصراع على الهيمنة السياسية في الشرق الأوسط

وصف الفصلان الثالث والسادس تفصيلاً الحملات العسكرية الأساسية التي جُرّدت في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في الفترة ما بين أغسطس 1914 ونوفمبر 1918. فقد أمست المنطقة بأسرها مسرحًا للصراع ما بين القوة المهيمنة ما قبل الحرب العالمية الأولى الممثلة في الدولة العثمانية والمصالح الإمبريالية الصاعدة لبريطانيا وفرنسا. وفاقم من أثر العمليات العسكرية شكل مبكر من أشكال «الثورة في الشؤون العسكرية» نتج عن الحرب ذات الطابع الصناعي الدائرة في المناطق التي يغلب عليها الطابع ما قبل الصناعي. فعلاوة على تعريض الدول والمجتمعات المعنية للتداعي الاقتصادي الوارد ذكره أعلاه والمشقات المتلاحقة المعاصرة لفترات الحرب، أفضت الحرب أيضًا إلى خطط لإعادة تشكيل النظام الإقليمي في الشرق الأوسط وإعادة رسم علاقته بنظام عالمي في حالة ميوعة وتغير دائم. ولقد بثت مجموعة كبيرة من الوعود المبهمة والاتفاقيات المتسرعة المبرمة زمن الحرب خلال الفترة بين عامي 1915 و1917 البذور الخبيثة للسخط والصراع ما أن أمسى مداها الكامل وطبيعتها الإمبريالية المتعارضة بشكل صارخ واضحًا وجليًا عام 1918. إضافة إلى ذلك، فقد تضاربت تلك الوعود، خلال العام الأخير من الحرب، بالتزامن مع ظهور نقاط الرئيس الأمريكي ولسون الأربع عشرة استنادًا إلى فكرة «تقرير المصير» المخولة لمن يعتنقها، رغم المحاولات العقيمة للمراقبين البريطانيين للحيلولة دون الإعلان عن شروطهم في مصر وفلسطين وبلاد الرافدين.

ويستكشف الفصلان الأخيران من هذا الكتاب الأبعاد السياسية للصراع الساعي إلى إعادة تشكيل الشرق الأوسط في ضوء الفرصة التي أتاحتها الحرب العالمية الأولى للمسؤولين الإمبراطوريين والقوميين المحليين على حد سواء. ويروي هذا

الفصل قصة الجهود التي بذلها المسؤولون البريطانيون والفرنسيون لبسط نفوذهم عبر المنطقة وتعظيم مكاسبهم في أية تسوية نهائية ما بعد الحرب. ويعد هذا الفصل أيضًا رواية للتناقضات والمعلومات والمعارف الاستخبارية التي أدت إلى تركيز المعارف واتخاذ القرار في المراكز الإمبراطورية الخاضعة لسلطة عدد قليل ممن نصَّبوا أنفسهم خبراء. وفي ظل مواجهة المسؤولين المزيد من الضغوط الوشيكة لمواصلة الحرب الأوروبية، منح هذا التعارض في المعلومات الخبراء الإقليميين درجة أكبر من الحرية في تشكيل السياسات بحسب ما يتراءى لهم. ولم يتجلَّ ذلك أكثر مما حدث في السياسات التي تبناها أيه. تي. وِلسون في بلاد الرافدين عام 1918 وأوائل عام 1919. وما زالت أسماء بعض هؤلاء، ولاسيما تي. إي.لورنس (العرب) والسير مارك سايكس وفرنسوا جورج-بيكو، يتردد صداها في شتى أرجاء المنطقة بعد الحرب بقرن كامل، وكذا ذِكر وزير الخارجية البريطاني عام 1917 السير آرثر بلفور الذي ما برح تصريحه في نوفمبر من ذاك العام موضوعًا خلافيًا حادًا وإرثًا مطعونًا فيه.

ويصف الفصل الحالي أيضًا كيف تفاعل النفط، وغيره من الأسباب الجغرافية-التجارية والجغرافية-الاستراتيجية، مع الاقتصاد السياسي الدولي المتغير (بحسب وصف نقاط الرئيس الأمريكي ولسون الأربع عشرة)، بحيث اقتضى الأمر تبريرًا جديدًا للسيطرة الإمبريالية في الشرق الأوسط. ولقد تطلب ذلك من القوى الخارجية أن تنأى عن المخططات الإمبريالية بشكل فاضح، وتبتكر حججًا جديدة لوجودها. ومع ذلك، فقد تسلل المناخ المتغير في السياسات الدولية إلى الشرق الأوسط على الرغم من الجهود الإنجليزية-الفرنسية للسيطرة على تدفق المعلومات التي تصل إلى المنطقة. ولذا، فالفصل التالي والأخير يوثّق صعود نجم الحركات القومية وغيرها من حركات المقاومة في الشرق الأوسط، وجولات المساومات التي داعبت آمال وأحلام الأطراف المحلية طمعًا في أن تكون جزءًا من أية عملية إعادة تنظيم للمنطقة فترة ما بعد الحرب. ولقد تحطمت هذه الآمال بالتبعية أثناء مؤتمر باريس للسلام، ويختتم الفصل الثامن ببحث كيف أن الامتعاض القومي من محاولات القوى الإمبريالية

إضفاء شرعية على قواها فترة الحرب وتوسعة نطاق تلك القوى رسميًا إلى حقبة ما بعد الحرب تلاقى مع الصعوبات والمآسي الاجتماعية-الاقتصادية المتعددة الناجمة عن الحرب التي لحقت فعليًا بكل مَن في المنطقة. وكانت النتيجة اصطفافًا خبيثًا لتحالفات متغيرة تجتمع حول برنامج غامض يقضي بحماية الموارد المحلية من المزيد من المطالبات الطامعة وضمان المنافع السياسية المترتبة على اختياراتهم فترة الحرب ومساوماتهم.

التحايل من أجل احتلال مكانة متميزة

ما أن دخلت الدولة العثمانية الحرب حتى شعر خصومها بأن الفرصة باتت سانحة لتقسيم المناطق التي طالما سعوا إليها في الشرق الأوسط والسيطرة عليها. فطوال القرن التاسع عشر سُميِّت الآستانة «عجوز أوروبا»، ويبدو أن المسؤولين المتحمسين في لندن وباريس وموسكو وممثليهم في الخارج قد بدا لهم في ذلك الوقت أن تداعي الدولة وتفسخها صار وشيكًا. فمنذ 5 ديسمبر 1914، أي بعد أسبوعين من احتلال القوات البريطانية والهندية مدينة البصرة العثمانية في بلاد الرافدين، بعث نائب الملك في الهند اللورد هاردنجبرقية إلى لندن «يوصي فيها بشدة بالاحتلال الدائم للبصرة»[1]. فهذا من شأنه أن يؤمِّن «تفوقنا في الخليج العربي، وهذه الفرصة العظيمة لتدعيم مكانتنا هناك قد لا تلوح في الأفق مرة أخرى». ومع ذلك، فقد فوّتت الحكومة البريطانية هذه الفرصة الأولى للاحتلال الإمبريالي مبينةً أن ضم البصرة سيكون «مناقضًا لمبدأ أن احتلال المناطق من قبل الحلفاء مؤقت ريثما تتم التسوية النهائية بنهاية الحرب»[2]. ولكن، في مثال على التسرع الذي كانت تُصنع به السياسات عام 1914، دعم وزير الخارجية البريطاني السير إدوارد غراي في الوقت نفسه فكرة ضم مصر، وصده الممثل البريطاني في القاهرة مِلن تشيتام الذي جادل بأن هذه الخطوة ستقوض من غاية بريطانيا المعلنة بالتمسك بحقوق الشعوب الصغيرة[3].

وبدأ التنافس بين القوى العظمى يظهر بمجرد بدء العمليات العسكرية الجادة،

وسرعان ما أفضى إلى تشظي واجهة سياسات التحالف. ومن بين الأمثلة الصارخة على ذلك العمليات التي قامت بها البحرية البريطانية في مضيق الدردنيل، وتداعيات التنافس الإنجليزي-الفرنسي على المصالح في البحر المتوسط. كانت بريطانيا وفرنسا قد وقعتا اتفاقية في 6 أغسطس 1914، أي بعد يومين وحسب من دخول بريطانيا الحرب، تنص على أن تؤدي البحرية الملكية البريطانية دور الريادة في توجيه العمليات البحرية في المحيط الأطلسي وبحر الشمال ومضيق دوفر، بينما يمكن أن تتحمل البحرية الفرنسية المسؤولية العامة عن البحر المتوسط والقطاع الغربي من القنال الإنجليزي. ولقد عكس ترسيم السيطرة هذا إيمان واضعي الخطط الإنجليز بأن بحر الشمال سيكون مسرح العمليات البحرية الحاسم للحرب، ومن ثم كان تركيز الوجود العسكري البريطاني هناك مهمًا[4]. ولكن الهيمنة الفرنسية في البحر المتوسط كانت دومًا شكلية، ولم يكن لها وجود فعلي، حيث إن أهمية مصر للمصالح الإمبريالية البريطانية اقتضت أن تتخذ لندن على الفور إجراءات شرقي البحر المتوسط من أجل حماية أمن مصر. وقد تسبب هذا في إثارة قلق باريس بسبب انتهاك بريطانيا الواضح لبنود الاتفاقية، فحث وزير البحرية الفرنسي ديوان البحرية في باريس على الإصرار على التقسيم الملائم لمناطق المصالح المُتفق عليها في أغسطس، ولكن رئيس ديوان البحرية في لندن ونستون تشرشل رفض ذلك. وفي يناير 1915، أثار دعمه لهجوم بريطاني على ميناء الإسكندرونة العثماني دعمًا للعمليات المزمعة في الدردنيل أحقادًا وشكوكًا فرنسية شديدة في التكتيكات التوسعية المفترضة لبريطانيا. وتفاقم الموقف إذ أرسل وزير البحرية الفرنسي إلى تشرشل قائلاً:

يصر الوزير على الزعم أنه ينفذ بنود معاهدات 6 أغسطس والمسار الكامل الذي تسلكه العمليات في البحر المتوسط. وبموجب تلك الشروط، فإن أية عملية يجب التخطيط لها وإدارتها بمعرفتنا[5].

ولقد ظلت العلاقات ما بين بريطانيا وفرنسا، وكلتاهما قوة إمبريالية ذات مخططات إقليمية بالشرق الأوسط، متوترة طوال فترة الحرب حيث توخت كلتاهما

الحيطة والحذر من الأخرى. وكما قال ديفيد داتون: «لم يشعر أي من الطرفين أنه قادر على أن يغمض الطرف عن المميزات التي يجنيها شريكه في الحرب»، مما أدى إلى مخاوف من أن تُترجم المكاسب العسكرية الفردية إلى إمكانية الهيمنة السياسية بعد الحرب[6].

كان الروس أول مَن أعلنوا سيطرتهم الفعلية الرسمية على مناطق عثمانية. فبالاستفادة من جهاز المخابرات الرائع الذي حذَّرَ المسؤولين الروس من تجهيزات العثمانيين لهجوم مفاجئ على روسيا، رفع السفير الروسي في الآستانةإم. إن. غيرس تقريرًا إلى سانت بطرسبرغ في 11 أكتوبر 1914. وإذ رفع تقريره بعد أن أدى إغلاق العثمانيين لمضيق الدردنيل أمام حركة الملاحة الدولية إلى تعطيل حركة الملاحة الروسية والتدفق التجاري، قال غيرس في تقريره «نريد زعيما قويا يحكم القسطنطينية، وبما أننا لا نستطيع ترك أي قوة تتولى هذا الدور، فلا بد من أن نستولي عليها لأنفسنا». وأضاف السفير أن الصراع الوشيك مع العثمانيين يتيح لروسيا فرصة «لحل مشكلة المضايق إلى الأبد»[7]. وفي مارس 1915، أكد وزير الخارجية سيرغي سازونوف نية موسكو القديمة في ضم الآستانة والسيطرة على مضيقيْ البسفور والدردنيل اللذين من دونهما ستظل حركة الملاحة البحرية ما بين الموانئ الروسية على البحرين الأسود والمتوسط عُرضة للتعطيل والشلل التام.

وقد قبلت فرنسا مطالبة روسيا، وبدأت في وضع مطالب خاصة بها في الشام بطول الخط الساحلي الجنوبي الشرقي لتركيا. وبلغ بها الأمر أن طالبت بالاستحواذ على سوريا الكبرى (وهي التي تضم في وقتنا الحالي سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) علاوة على مدينتيْ الإسكندرونة وأضنة العثمانيتيْن[9]. واستجابة لهذه التحركات، أعلن وزير الحربية البريطاني اللورد كتشنرأن الغنيمة السابق ذكرها الممثلة في مدينة الإسكندرونة ينبغي أن تنضوي تحت اللواء البريطاني في حالة حدوث أي تقسيم للمناطق العثمانية لموازنة ظهور روسيا على الساحة باعتبارها قوة من القوى المهيمنة على حوض البحر المتوسط وحصول فرنسا على موطئ قدم في

الشام. ورغم أن خطة كتشنر حظيت بدعم تشرشل بوصفها برنامجًا ملحقًا بخطط الهجوم والسيطرة على شبه جزيرة غاليبولي، فإن غراي ورئيس الوزراء البريطاني هربرت أسكويث عارضا الخطة لأن التركيز البريطاني كان منصبًا على الدردنيل. ولكن بعيدًا عن الخشية من تعزيز المخاوف الفرنسية من أهداف لندن في حوض البحر المتوسط والشرق الأوسط على نطاق أوسع، لفت تدخل كتشنر نظر المسؤولين البريطانيين إلى ضرورة تحديد «الطموحات البريطانية في تركيا-آسيا في حالة إنهاء الحرب بنجاح»[10].

وفي أبريل 1915، عُيِّنَت لجنة دي بونسن المشتركة بين الوزارات وأصدرت تقريرها بتاريخ 30 يونيو. وكان رئيس اللجنة السير موريس دي بونسن مساعد وكيل وزارة الخارجية في لندن، وأما أعضاء اللجنة فاختيروا من وزارة البحرية ووزارة الحربية ووزارة شؤون المستعمرات ووزارة شؤون الهند. وحلّل التقرير النهائي بعناية أربعة احتمالات فيما يتعلق بالمصالح البريطانية في تركيا والشرق الأوسط، حيث أقر بأن هذه المصالح كانت مقيدة بضرورة الحال بفعل مصالح القوى المتحالفة. وتراوحت الخيارات التي بحثتها اللجنة ما بين تقسيم الدولة العثمانية والحفاظ عليها كدولة مستقلة في آسيا. وأوصى التقرير بأنه يمكن تأمين المصالح البريطانية بشكل أفضل بالحفاظ على الدولة العثمانية كيانًا مستقلًا، وإن كان لامركزيًا، مما يوحي بأن التقسيم في تلك المرحلة المبكرة من الحرب لم يكن حتميًا -ولا حتى محبذًا- من قبل واضعي السياسات البريطانيين[11].

ولقد فتح موقف بريطانيا الحَذِر والمُنَاوِئ للتوسع بصفة عامة الباب أمام المزيد من الرؤى الطموحة الإمبريالية بشكل كاسح في ظل توسع الحملات الجارية في الشرق الأوسط. خاصة أن ذلك تزامن مع توسُّع أثر رجال من أمثال كتشنر والسير مارك سايكس توسعًا مهولًا في صياغة سياسات لندن، وكذلك بذل المسؤولون البريطانيون في القاهرة ودلهي مجهودات أكبر من أجل إقناع واضعي السياسات المرتبكين بشكل متزايد بفعل ثقل مسؤوليات فترة الحرب في فرنسا والإقليم

الفلامنـدي. فخـلال المرحلـة المبكـرة مـن الحـرب عامـيْ 1914 و1915، مَـارَسَ كتشـنر ضغوطًـا شـديدة علـى عمليـة وضـع السياسـات البريطانيـة مسـتغلًا خلفيتـه العسـكرية المرموقـة بوصفـه قائـدًا عسـكريًا وسياسـيًا إمبرياليًـا. ففضـلًا عـن النظـر إليـه علـى أنـه بطـل مـن أبطـال الحـرب فـي بريطانيـا بعـد أن خـدم فـي السـودان (الأمـر الـذي يتجلـى فـي لقبـه «كتشـنر إيـرل الخرطـوم») وحـرب البويـر، خـدم كتشـنر أيضًـا باعتبـاره رئيسًـا لأركان الجيـش فـي الهنـد خـلال الفتـرة بيـن عامـيْ 1902 و1909، وعُيِّـنَ مندوبًـا وقنصـلًا عامًـا لبريطانيـا فـي القاهـرة بيـن عامـيْ 1911 و1914. وإبّـان انـدلاع الحـرب فـي أغسـطس عـام 1914، أصـاب كتشـنر إذ تنبـأ بـأن الأعمـال العدائيـة لـن تقـع «بحلـول أعيـاد الميـلاد المجيـدة»، وطفـق ينظـم التعبئـة العامـة لـ«الجيـوش الجديـدة» التـي شـكّلت العمـود الفقـري لمجهـود الحـرب البريطانـي[12].

ولذلـك كان لـرأي كتشـنر ثقـل كبيـر بيـن أقرانـه المدنييـن بمجلـس الـوزراء فـي لنـدن. كمـا أن سـجله فـي الخدمـة ميّـزه عـن غالبيـة زملائـه الذيـن كانـت خبرتهـم بالشـرق الأوسـط والعالـم الإسـلامي محـدودة جـدًا[13]. وبوصفـه وزيـر الدولـة للحـرب، راح كتشـنر يؤيـد بشـكل قـوي إقامـة دولـة عربيـة تتسـق تمامًـا مـع المصالـح البريطانيـة فـي منطقـة الشـرق الأوسـط. ففـي خطـاب شـخصي أرسـله إلـى غـراي فـي 11 نوفمبـر 1914، دعـا كتشـنر وزيـر الخارجيـة أن يتخيـل «العـرب وهـم يشـنون حربًـا علـى الأتـراك. أعتقـد أن سياسـتنا حينئـذ يجـب أن تكـون الاعتـراف بخليفـة جديـد لمكـة أو المدينـة مـن السـلالة المناسـبة، وضمـان حمايـة الأماكـن المقدسـة مـن أي عـدوان خارجـي وكـذا مـن أي تدخـل أجنبـي»[14]. وفـي تلـك الرسـالة، سـلط الضـوء علـى الخـوف الـذي يكتنـف المسـؤولين البريطانييـن فـي القاهـرة ودلهـي علـى مكانـة بريطانيـا فـي الـرأي العـام العربـي، وذلـك إلـى حـد كبيـر بغيـة موازنـة التداعيـات الحرجـة المحتملـة لإشـراك مسـلمي الإمبراطوريـة فـي حـرب ضـد الخليفـة العثمانـي.

ورغـم أن المسـؤولين البريطانييـن لاحقًـا كانـت لهـم الريادة فـي المفاوضـات والصفقات السـريّة الخلافيـة بشـكل حـاد التـي أجريـت بيـن عامـي 1915 و1916، فإنهـم لـم يمثلـوا

وجهة نظر موحدة بعد أن قُسمت مسؤولية وضع السياسات الشرق أوسطية بين العديد من المنظمات والمواقع. وتضمنت تلك المنظمات حكومة الهند في دلهي والمقيم السياسي البريطاني والمكتب العربي بالقاهرة (المنشأ حديثًا ليكون مركزًا إقليميًا لجمع المعلومات الخاصة بالحلفاء العرب والتنسيق معهم) ووزارة الخارجية ووزارة الحربية في لندن نفسها. وكانت التقسيمات ما بين المراكز دون الإمبريالية البريطانية في القاهرة ودلهي حادة، وعدائية تحديدًا، سواء على المستوى الشخصي أو المستوى المؤسسيّ[15]. فحكومة الهند بأساليب سيطرتها المُجزَّأة ومسؤوليتها عن حكم عدد كبير من السكان المسلمين في الهند لم تُرَحِّب بالسياسية «الموالية للعرب» من جانب المندوبية السامية في القاهرة.علاوة على ذلك، فإن المسؤولين في دلهي أقاموا خلال العقود السابقة للحرب بكد واجتهاد شبكة من المشيخات العربية المتعاونة في الخليج العربي لضمان المصالح التجارية والاستراتيجية الأساسية عوضًا عما اعتبروه خطة كتشنر (وخطة الثورة العربية النهائية) المتكلفة لإقامة كيان عربي وحيد. وعلى مدار الحرب، أدى ذلك إلى ما وصفه يوكا نيفاكيفي بـ«نُهج السياسات المتعارضة تعارضًا صارخًا» حيث اتبعت كل مجموعة من واضعي السياسات في كل من تلك الأقطار الثلاثة —لندن والقاهرة ودلهي— أجنداتها الخاصة المتصادمة في أغلب الأحيان[16].

وكانت عملية وضع السياسات في بريطانيا أيضًا تمُر بالعديد من مستويات الفرز الممثلة في «خبراء» ظاهريين. فقد لقي كتشنر نفسه حتفه في 5 يونيو 1916 وهو في طريقه إلى مهمة دبلوماسية في روسيا إذ اصطدمت البارجة «هامبشاير» بلغم بحري وغرقت على مقربة من جزر أوركني في أسكتلندا. وكان قد بدأ يفقد نفوذه خلال الأشهر القليلة السابقة لوفاته نظرًا للنقد المتزايد للطريقة التي يتعامل بها مع المجهود الحربي وعاداته العشوائية في العمل التي أكسبته لقب «كتشنر الفوضوي». وبعد وفاته، خفت وطأة بعض التصريحات البليغة الخاصة بدعم القضية العربية تدريجيًا لصالح أسلوب أكثر تحفظًا، لكن أوجه الخلاف الأساسية بين دلهي والقاهرة ظلت كما هي، وكذا الاعتماد على مجموعة جديدة من الوسطاء. وحل محل كتشنر

السير مارك سايكس عضو البرلمان المحافظ والمُحرّض على إقامة المكتب العربي وجورج كيرزون نائب الملك الأسبق بالهند وكاتم سر رئيس الوزراء المُقْبِل ديفيد لويد جورج. وفي عام 1918، صرح وزير الحصار السير روبرت سيسيل بأن تعاقب اللجان ما بين الإدارات التي تأسست لتشكيل وصياغة السياسة البريطانية في الشرق الأوسط «الغرض منه أساسًا تمكين جورج كيرزون ومارك سايكس من أن يفسّر الواحد منهما للآخر مدى محدودية معلوماته عن الموضوع»[17].

اتفاقيات زمن الحرب

سبقت الاتصالات الأولى ما بين المسؤولين البريطانيين والعرب تاريخيًّا اندلاع الحرب العالمية الأولى. ففي أوائل عام 1914، قام عبد الله بن الحسين ابن شريف مكة بزيارة إلى القاهرة التقى خلالها السكرتير الشرقي بالمندوبية البريطانية السير رونالد ستورز، القائم بأعمال المقيم السياسي كتشنر. ولم يكن هذا الاجتماع حاسمًا حيث رفض ستورز طلب عبد الله الحصول على إمدادات عسكرية في حالة قيام الشريف بثورة ضد الآستانة. ورغم أن الشريف حسين بن علي كان تاريخيًّا شخصية عظيمة الأهمية في العالم الإسلامي باعتباره الوصي على مدينتيْ مكة والمدينة، وكان على اتصال بجمعيات قومية سريّة تشكّلت من ضباط جيش عرب في سوريا، فإن السياسة البريطانية تجاه سلالته الهاشمية وُجدت في جو مضطرب مع دعم مماثل لمنافسه عبد العزيز بن سعود المطالب بالسلطة في الجزيرة العربية، والذي انتصر في نهاية المطاف بين عاميْ 1924 و1932 في الصراع المندلع من أجل توحيد الحجاز وقلب نجد المركزي والخط الساحلي الشرقي فيما يُعرف حاليًّا باسم المملكة العربية السعودية. ولكن كتشنر أجاز لستورز باعتباره وزير الدولة للحربية في 24 سبتمبر 1914 تجديد التواصل مع عبد الله ليستشف ما إذا كان عبد الله «وأبوه وعرب الحجاز معنا أم ضدنا»[18]. وبعدها بخمسة أسابيع، وتحديدًا في 31 أكتوبر قبل إعلان الحرب على الدولة العثمانية بخمسة أيام وحسب، صدرت أوامر لستورز من كتشنر في برقية جديدة بإخطار الشريف حسين بالتالي:

إذا ساعدت الأمة العربية إنجلترا... ستضمن إنجلترا ألا يحدث أي تدخل خارجي في الجزيرة العربية، وستقدم للعرب كل الدعم والعون ضد أي عدوان خارجي. ولعل عربيًا أصيل النسب يتولى الخلافة في مكة والمدينة.

وتبع هذا التعهد إعلان بريطاني صدر في 5 ديسمبر 1914 جاء فيه عرض بالاعتراف بـ«الاستقلال التام» للعرب إذا طردوا الأتراك. وتبلورت هذه الوعود البرّاقة، وبعضها زين له ستورز في القاهرة استنادًا إلى النصوص الأصلية المُرسلة من لندن، في تعهد بريطاني في أبريل عام 1915 بأن «تظل شبه الجزيرة العربية والأماكن المقدسة المحمديَّة مستقلة. وإننا لن نضم شبرًا واحدًا من تلك الأراضي، ولن نسمح لأية قوة بأن تفعل ذلك»[19].

وعلى هذه الخلفية، تبادل حسين سلسلة من الرسائل مع السير هنري مكماهون الذي خلف كتشنر في مصر في أواخر عام 1914 بوصفه مندوبًا ساميًا (مقارنة بمنصب المقيم السياسي). وبلغت المراسلات المتبادلة بين حسين ومكماهون في نهاية المطاف ثماني رسائل خلال الفترة من 14 يوليو 1915 حتى 30 يناير 1916. واختصت تلك الرسائل بمستقبل المكانة السياسية للمناطق العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية، وارتقت أساسًا إلى مفاوضات على الشروط التي سيشجع بناءً عليها حسين العرب ويقودهم في ثورتهم ضد العثمانيين. وتحديدًا في 24 أكتوبر 1915، عرض مكماهون على حسين خيار الاستقلال العربي ضمن الحدود المحددة فيما خلا إقليميْ البصرة وبغداد العثمانييْن. وفي ظل تقدم القوات البريطانية والهندية بعد ذلك سريعًا باتجاه بغداد، صرح المسؤولون في لندن والقاهرة بأن أراضي بلاد الرافدين يجب أن تخضع للحكم باعتبارها وحدة إدارية خاصة بمساعدة بريطانية مباشرة. وسرعان ما انهار هذا السيناريو المتفائل بسبب الأحداث حيث انهزمت قوة التجريدة الهندية في مدينة قطيسفون، وأُجْبِرَت على الاستسلام المهين في كوت العمارة في أبريل عام 1916، وساعتها توقفت المراسلات ما بين حسين ومكماهون. ومنذ ذلك الحين، سُجلت طبيعة الرسائل ومغزى محتوياتها ونشبت شجارات بشأنها

لفتـرة طويلـة شـاركت فيهـا جميـع الأطـراف حيـث اسـتعان حسـين ومكماهـون بوسـطاء لحـل الخلافـات، وكانـت مشـكلات التفسـير والترجمـة تعنـي أنـه حتـى المعنـى الأصلـي للرسـائل كان غالبًـا غيـر دقيـق ويعـوزه الوضـوح[20].

وحتـى فـي هـذه المرحلـة، بـدأت مشـكلات التخبـط والازدواج بيـن مختلـف مراكـز الثقـل فـي عمليـات اتخـاذ القـرار البريطانيـة فـي الظهـور. فالعـرض الـذي قدمـه مكماهـون فـي 24 أكتوبـر 1915 المتعلـق بمنـح الأراضـي (سـواء أكان صادقًـا أم لا) أبطلـه علـى الفـور تقريبًـا توقيـع معاهـدة اسـتقلال مـا بين السـير بيرسـي كوكـس كبير المسـؤولين السياسـيين فـي البصـرة وعبـد العزيـز آل سـعود فـي نجـد. وأبرمـت المعاهـدة فـي 26 ديسـمبر 1915 إثـر المفاوضـات التـي سـيّرها المنـدوب البريطانـي فـي الكويـت والتـي تعتبـر جـزءًا مـن منطقـة المراقبـة التابعـة لحكومـة الهنـد. وضمنـت المعاهـدة لعبـد العزيـز الدعـم البريطانـي ضـد أي عـدوان أجنبـي، ومنحـت الزعيـم السـعودي المسـتقبليّ إقـرارًا بمكانتـه الدوليـة المسـتقلة. ولقـد عكسـت المندوبيـة البريطانيـة فـي الكويـت وكوكـس نفسـه بوصفـه مقيمًـا سياسـيًّا أسـبق فـي الخليـج، وكان آنـذاك مُعـارًا لقـوة التجريـدة الهنديـة فـي البصـرة، النهـج «الهنـدي» فـي الشـرق الأوسـط. وبالطبـع أطاحـت المعاهـدة بالعهـود التـي قُطِعَـت لحسـين الـذي اسـتقى دعمـه مـن المندوبيـة السـامية البريطانيـة والمكتـب العربـي فـي القاهـرة. وكان الدعـم المنافـس لعبـد العزيـز فـي وسـط الجزيـرة العربيـة (نجـد) ولحسـين علـى الخـط السـاحلي الغربـي لشـبه الجزيـرة العربيـة (الحجـاز) إيذانًـا بانـدلاع معركـة التفـوق الإقليمـي مـا بيـن السـلالتيْن السـعودية والهاشـمية التـي اسـتمرت لفتـرة طويلـة بعـد نهايـة الحـرب عـام 1918[21].

وقـد تضاربـت المراسـلات مـا بيـن حسـين ومكماهـون جزئيًـا مـع المفاوضـات الأولـى الممهـدة لمـا سـيصبح لاحقًـا اتفاقيـة سـايكس-بيكو. ووقعـت هـذه المفاوضـات مـا بيـن الدبلوماسـي الفرنسـي فرنسـوا-جورج بيكـو، سـليل عائلـة اسـتعمارية شـهيرة والقنصـل العـام الأسـبق فـي بيـروت الـذي أفضـى تسـاهله فـي تدميـر الوثائـق إلـى مداهمـة وإعـدام أربعـة عشـر ناشـطًا قوميًـا عربيًـا فـي بيـروت فـي مايـو 1916، وسـايكس السياسـي

البريطانـي المحافـظ القريـب مـن كتشـنر الـذي ألحقـه بلجنـة دي بونسـن عـام 1915[22].
كانـت سـطوة سـايكس فـي لنـدن قـد زادت بسـرعة البـرق حيـث تمتـع بنفـوذ عظيـم فيمـا يتعلـق بتشـكيل السياسـة البريطانيـة فـي منطقـة الشـرق الأوسـط، وكان رائـدًا مـن رواد المكتـب العربـي الـذي تأسـس فـي القاهـرة فـي ديسـمبر عـام 1915 تحـت إشـراف غلبـرت كلايتـون. ولكـن سـايكس لـم يتفـق دومًـا وبشـكل تـام مـع المكتـب وطاقـم عملـه البـارز، بمـن فيهـم شـخصيات مرموقـة مثـل تـي. إي. لورنـس وأوبـري هربـرت وغيرتـرود بـل، ولـم يُشـرك المؤسسـة فـي مفاوضاتـه مـع بيكـو[23].

وقـد أبرمـت اتفاقيـة سـايكس-بيكو فـي أكتوبـر 1916، وإن كانـت مفاوضاتهـا اسـتمرت عـدة أشـهر، وبـدأت تحديـدًا فـي أواخـر عـام 1915 بينمـا كان مكماهـون يتبادل المراسـلات مـع حسـين حيـث قـررت الحكومتـان البريطانيـة والفرنسـية إبـرام اتفاقيـة رسـمية حـول تقسـيم المناطـق العثمانيـة بعـد الحـرب. وفتتـت الاتفاقيـة النهائيـة، وهـي التـي وافقـت عليهـا روسـيا أيضًـا شـريطة قبـول بريطانيـا وفرنسـا لمطالباتهـا الإقليميـة الخاصـة بالأقاليـم العربيـة للدولـة العثمانيـة، إلـى مناطـق نفـوذ بريطانيـة وأخـرى فرنسـية. وتـم التصديـق عليهـا فـي يونيـو 1916، أي بعـد عشـرة أيـام مـن بدايـة الثـورة العربيـة. وبموجـب شـروطها الخاصـة، أُسـندت إلـى بريطانيـا السـيطرة الرسـمية علـى ولايتـي بغـداد والبصـرة فـي بـلاد الرافديـن، ومسـؤولية غيـر رسـمية علـى المنطقـة الممتـدة مـن غـزة وصـولًا إلـى شـمال الجزيـرة العربيـة فـي كركـوك. وتولـت فرنسـا المسـؤولية الرسـمية عـن المنطقـة السـاحلية لسـوريا وقيليقيةفـي الشـام، والمسـؤولية غيـر الرسـمية عـن منطقـة شاسـعة مـن دمشـق وحلـب شـرقًا إلـى الموصـل. وحـددت الاتفاقيـة أيضًـا حـدود المناطـق التـي طالبـت بهـا روسـيا فـي القوقـاز، وتركـت مصيـر فلسـطين ليتحـدد لاحقًـا بموجـب «إدارة دوليـة». وكمـا ذكـر يوجيـن روغـان بفطنـة وعلـى اسـتحياء: «خلقـت اتفاقيـة سـايكس-بيكو مشـاكل أكثـر ممـا حلـت مـن معضـلات» كمـا أنهـا أيضًـا «لـم تحتـرم روح ومحتـوى مراسـلات» حسـين ومكماهـون[24].

وعندمـا وضعـت الحـرب أوزارهـا فـي ظـل اسـتحواذ القـوات البريطانيـة فـي بـلاد

الرافديـن وفلسـطين علـى مكاسـب إقليميـة مهولـة إثـر الاسـتيلاء علـى بغـداد فـي مـارس والقـدس فـي ديسـمبر 1917، نـدم المسـؤولون البريطانيـون علـى العهـود التـي قطعوهـا لحسـين والفرنسـيين. وفـي يونيـو 1919، قـال رئيـس الأركان الإمبرياليـة العامـة السـير هنـري وِلسـون للجنـرال ألنبي(وهـو الـذي كان حينئـذ فعليًـا الحاكـم العسـكري لمصـر): «إننـا قطعنـا علـى أنفسـنا كثيـرًا مـن العهـود للجميـع لدرجـة أننـي لا أعـرف كيـف لنـا أن ننقـذ أنفسـنا مـن هـذه الفوضـى دون أن نخلـف عهدنـا مـع أحدهـم»[25]. وكان كيـرزون أكثـر حسـمًا وحـدة حيـث صـرح فـي اجتمـاع للجنـة الشـرقية التابعـة لمجلـس وزراء الحـرب البريطانـي انعقـد فـي نوفمبـر 1918 قائـلًا: «لقـد تعرضنـا لحـرج شـديد» بسـبب تعهـدات مكماهـون لحسـين، مضيفًـا أن اتفاقيـة سـايكس-بيكو «ظلـت عبئًـا ثقيـلًا معلقًـا فـي رقابنـا... وفـي مايـو 1916، التزمنـا التزامًـا مشـددًا بهـذه الاتفاقيـة البائسـة التـي يبـدو، كمـا نعلـم جميعًـا، أن الفرنسـيين ميالـون للالتـزام بهـا بـكل مـا أوتـوا مـن قـوة»[26].

والواقـع أن الوسـاوس البريطانيـة بخصـوص اتفاقياتهـم السـرية عكسـت الموقـف المتغيـر الـذي وجـدوا أنفسـهم فيـه بنهايـة الحـرب. ولكـن ببسـاطة شـديدة، خـلال الفتـرة بيـن عامـيْ 1915 و1916، كانـت بريطانيـا بحاجـة إلـى حلفـاء محلييـن ودولييـن لتعويـض ضعفهـا العسـكري فـي الشـرق الأوسـط بعـد هزيمتهـا فـي معركـة غاليبولـي واستسـلامها المهيـن فـي الكـوت. وبحلـول عـام 1918، تحـول الموقـف إلـى هيمنـة عسـكرية، ولكـن الموقـف الدولـي نفسـه تغيّـر هـو الآخـر. وعكـس هـذا التغيـر تطوريْـن أساسـييْن: إقـدام النظـام السـوفيتي علـى الكشـف علنًـا عـن الاتفاقيـات المبرمـة زمـن الحـرب، وإضافـة تعهـد جديـد بإقامـة وطـن قومـي لليهـود فـي فلسـطين. لكـن هذيْـن التطوريْـن وقعـا فـي أواخـر عـام 1917، وتبعهمـا تطـور ثالـث مهـم؛ ألا وهـو النقـاط الأربعـة عشـرة التـي أعلنهـا الرئيـس الأمريكـي وودرو وِلسـون فـي 8 ينايـر 1918، ونشـأة مبـدأ تقريـر المصيـر فـي العلاقـات الإقليميـة والدوليـة.

فبعـد فتـرة وجيـزة مـن الثـورة الروسـية الثانيـة (والأخيـرة) فـي أكتوبـر 1917، وفـي جهـود مبذولـة لزعزعـة الثقـة فـي المسـاعي الدبلوماسـية للنظـام القيصـري، بـدأ النظـام

البلشـفي الجديـد فـي نشـر وثائـق سـرية عُثـر عليهـا فـي أرشـيفات وزارة الخارجيـة فـي سـانت بطرسـبرغ. ومـن بيـن الوثائـق التـي أعلـن عنهـا نـص اتفاقيـة سـايكس-بيكو الـذي نُشـر أولًا فـي صحيفـة برافـادا الروسـية فـي 23 نوفمبـر 1917، ومـرة أخـرى فـي صحيفـة مانشسـتر غارديـان البريطانيـة بعدهـا بثلاثـة أيـام. ولقـد خلـق محتـوى الاتفاقيـة معضـلات خطيـرة للمسـؤولين البريطانييـن والفرنسـيين فـي شـتى أرجـاء الشـرق الأوسـط، حتـى بينمـا تصاعـدت حـدة الخلافـات مـا بيـن شـريكيْ الحـرب بسـبب «تفسـير وتنفيـذ» بنـود الاتفاقيـة[27]. عـلاوة علـى ذلـك، كانـت الاتفاقيـة دعايـة للانقـلاب علـى العثمانييـن الذيـن حاولـوا علـى الفـور الاسـتفادة مـن الثـورة العربيـة لمصلحتهـم الشـخصية باسـتغلال الثقـة المزعزعـة المتزايـدة بيـن العـرب وحلفائهـم البريطانييـن والفرنسـيين. ولكـن الاتفاقيـة كانـت، إبّـان تلـك الفتـرة، منتهيـة الصلاحيـة بالفعـل بعـد أكثـر مـن عام بقليـل، بينمـا بدلت التطـورات (والوعـود) فـي فلسـطين وفـي الحجـاز مسـار السياسـات الخاصـة بالمنطقـة تبديـلًا عميقًـا، ممـا أسـفر عـن تبعـات بعيـدة المـدى مـا زال صداهـا يتـردد إلـى الآن.

الثورة العربية ووعد بلفور

فـي خضـم تلـك التعهـدات المتعارضـة المتضاربـة، أشـعل الشـريف حسـين وأبنـاؤه ثـورة عربيـة فـي يونيـو 1916. ولقـد أرّخ كثيـرون لهـذه الثـورة، ولاسـيما عـن الـدور (المبالغ فيـه) الـذي لعبـه تـي. إي.لورنـس فـي كتابـه «أعمـدة الحكمـة السـبعة»الذي ظـل يُنشـر علـى مـدار سـبعة عقـود متعاقبـة، وأُعتُبِـرَ فيلـم «لورنـس العـرب» إنتـاج عـام 1962 بطولـة بيتـر أوتـول وعمـر الشـريف واحـدًا مـن كلاسـيكيات السـينما العالميـة. ولكـن حقيقـة الأمـر أن الثـورة العربيـة كانـت عاديـة أكثـر ممـا صورتهـا السـينما حيـث أخفقـت سلسـلة الهجمـات المحـدودة المفتقـرة للتنسـيق علـى نطـاق واسـع علـى القـوات العثمانيـة أن تتـرك انطباعًـا قويًـا علـى تـوازن القـوى فـي الشـرق الأوسـط، بـل كان وقعهـا أقـل مـن العـادي إذا مـا نظرنـا إلـى نتيجـة العمليـات العسـكرية ضـد الدولـة العثمانيـة بصفـة أكثـر شـمولًا. بيـد أن الثـورة العربيـة أمسـت أسـطورة بوصفهـا تجسـيدًا للمحـاولات العربيـة للاسـتحواذ علـى المبـادرة بعيـدًا عـن قـوى الاحتـلال والقـوى الخارجيـة، واسـتعادة السـيطرة

للمواطنين والمجتمعات التي تحملت وطأة التفكك الاجتماعي والاقتصادي الناجم عن الحملات العسكرية. وما زال وقعها المستمر يتجلى في استخدام بعض المعلقين على الأحداث لعبارة «الثورة العربية الثانية» لتوصيف ثورات الربيع العربي التي اندلعت عام 2011.

لقد كانت النشأة السياسية والاقتصادية للثورة العربية كامنة في العديد من العوامل التي تقاطعت في بداية ومنتصف عام 1916. وكما رأينا أعلاه، رغم التصريحات البريطانية الكاذبة على لسان مكماهون بدعم الشريف حسين في أكتوبر 1915 وما بعدها، فإن ثمة أدوات قهر عززت منها كحصار قوات التحالف للجزيرة العربية الذي اعترض طرق التجارة والحج والإمدادات الغذائية، وإن كان هذا الحصار قد انحسر باعتباره دافعًا للحاكم الهاشمي. كما تسبب القمع الوحشي على أيدي جمال باشا للجماعات والزعماء العرب في بيروت ودمشق الخاضعتيْن للسيطرة العثمانية في غضب شديد بين القوميين في الحجاز، وقدَّمَ للثورة الوشيكة أول شهدائها[28]. وعلى أية حال تصاعدت هذه العوامل إلى أن أفضت إلى اندلاع الثورة العربية في 5 يونيو 1916. ويبدو أن الشريف حسين تمنى أن يبسط سيطرته على شتى بقاع شبه الجزيرة العربية والشام، ورأى أن ثمة فرصة سانحة لتحقيق ذلك بالدعم البريطاني. ففي أكتوبر 1916، اتخذ لقب «ملك العرب» في محاولة لتحييد منافسه الأبرز على السلطة الإقليمية عبد العزيز آل سعود الذي كان يتلقى دعمًا بريطانيًا هو الآخر، ولو أنه كان موجهًا عبر شبكة المشيخات والعملاء السياسيين التابعة لحكومة الهند في الخليج العربي[29].

وفي مقابل طموحات الشريف حسين العظيمة، كانت هناك القوة المحدودة التي استطاع هو وأبناؤه ممارستها وحقيقة أن نفوذهم مهدد في شبه الجزيرة العربية نفسها، لاسيما من قِبل عبد العزيز آل سعود. علاوة على ذلك، استقرت قبائل عربية على خياراتها الشخصية حيال الطرف الذي ستدعمه، وغالبًا ما بدلت ولاءها بحسب إملاءات الموقف. وثمة تحليل حديث للقبائل في بلاد الرافدين خلال الحرب

انتهى إلى أن «المميزات الشخصية القصوى التي سعى وراءها الكثير من المشايخ كانت الاعتبار المطلق الذي حدد المواقف الفعلية لكثير من القبائل»[30]. ولذا، فإن ما يصل إلى 5000 رجل من رجال القبائل المحسوبين على تحالف المنتفق القوي في وسط بلاد الرافدينانضموا إلى القوات العثمانية التي كانت تعرقل المحاولات البريطانية لتحرير الكوت في يناير 1916، ولم يحيلوا دعمهم إلى البريطانيين سوى في فبراير 1917، ذلك التاريخ الذي تحول الزخم بحلوله تحولًا حاسمًا[31]. ولذلك، كان لمدى الانتصارات العسكرية البريطانية المتأخرة، سواء في بلاد الرافدين أو في فلسطين في الفترة بين عاميْ 1917-1918، بزعم الجميع أثر أعظم على الخيارات القَبَليَّة والمجتمعية من دعوة الحسين للثورة.

ولقد مارس الشريف حسين سيطرة على منطقة محدودة من جزيرة العرب (أرض الحجاز)، وانطوت الثورة على عدد أقل نسبيًا يتراوح ما بين 10 آلاف و15 ألف رجل قبلي بأسلحة بدائية. وانقسم هؤلاء إلى وحدات نظامية وعصابات من مقاتلي حرب الشوارع غير النظاميين الذين اشتهروا لاحقًا بغزواتهم الانتهازية على شبكة السكك الحديدية في الحجاز. ورغم أنهم استطاعوا تأمين الحجاز والموانئ الواقعة على ساحل البحر الأحمر كجدة وينبع، واستحوذوا بصورة مذهلة على العقبة في 6 يونيو 1917، فقد واجهوا مقاومة ضعيفة من العدو وظلوا يعولون على الإمدادات البريطانية من مال وسلاح ومساعدات عسكرية بحرية، وأخفقوا في نشر دعوتهم للثورة بين الأقاليم العربية أو بين وحدات الجيش العثماني. ومن المخيب للآمال خصيصًا للشريف علي قصور عدد الملتزمين بدعوتهم للثورة، سواء بين الضباط العرب الذين يخدمون في الجيش العثماني أو بين أبناء القبائل العربية. وبدلًا من ذلك، سرعان ما تم احتواء الثورة في منطقة محدودة نسبيًا من الحجاز والممتدة شمالًا باتجاه الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية ومنه إلى البحر الأحمر الذي استطاعت بريطانيا من موانيه إعادة إمداد الرجال بالسلاح والمال المرسل من السودان[32].

وحتـى لورنـس الـذي أمَّـن لـه دوره المميـز بوصفـه وسـيطًا الشـهرة الواسـعة بعـد نهايـة الحـرب أقـر فـي أكتوبـر عـام 1916 بـأن «القـادة العـرب يعانـون مـن قصـور المـوارد الماديـة، وسـيظلون علـى قصورهـم هـذا دائمًـا وأبـدًا، وذلـك لأن عالمهـم عالـم زراعـي رعـويّ، ولا يمكـن لهـم أن يكونـوا أثريـاء أو أقويـاء جـدًا». ولـو أنـه أضـاف أن هـذا القصـور أتـاح لبريطانيـا فرصًـا مهولـة لتحقيـق مكاسـب مـا بعـد الحـرب «أعظـم بكثيـر مـن المـال والسـلاح والذخيـرة التـي يدعونـا البعـض الآن للحفـاظ عليهـا واسـتدامتها»[33]. ورغـم ذلـك، حيـث حَـلَّ علـى مينـاء رابـغ الحجـازيّ فـي 16 أكتوبـر 1916، شـعر لورنـس بـأن «الظـروف كانـت مثاليـة لحركـة عربيـة»، ولـو أنـه اسـتند فـي تقييمـه إلـى وجهـة نظـر متفائلـة بشـكل مبالـغ فيـه مفادهـا أن النجـف وكربـلاء كانتـا فـي حالـة ثـورة وفـوران فـي بـلاد الرافديـن، وأن «العـرب الباقيـن فـي جيـش هليـل كانـوا، وفقًـا لاعترافـه الشـخصي، خائنيـن لتركيـا»[34]. لكـن زمـلاءه المدنييـن والعسـكريين فـي القاهـرة كانـوا أقـل اندهاشًـا بالتراجـع المنحسـر للثـورة حيـث كانـت قـوات حسـين القبليـة لا تضاهـي مشـاة الجيـش العثمانـي النظامـي، وهـي عاجـزة عـن مجابهتهـم فـي ميـدان المعركـة المفتـوح دون عـون خارجـي[35]. وقـد وصـف واحـد مـن كُتَّـاب السـير الذاتيـة للورنـس، وهـو المـؤرخ العسـكري البريطانـي لورنـس جيمـس، بالتفصيـل المـدى الكامـل للعـون البريطانـي وغيـره مـن المسـاعدات المقدمـة إلـى الثـورة العربيـة علـى النحـو التالـي:

حتـى نهايـة الحـرب، كان العـرب يعولـون علـى عمليـات نقـل لا حصـر لهـا لأسـلحة الحلفـاء وذخائرهـم، إضافـة إلـى الذهـب البريطانـي كـي تصمـد قواتهـم فـي أرض المعركـة. وفـي المعركـة، دعمهـم المتخصصـون البريطانيـون والفرنسـيون والمصريـون والهنـود، فمنهـم المهندسـون ومنهـم المدفعيـون وضبـاط الإشـارة وضبـاط الإمـداد، عـلاوة علـى المدرعـات والعربـات المصفحـة والطائـرات. وأمَّـنَ المحاربـون البريطانيـون والفرنسـيون قواعدهـم العسـكرية فـي جـدة وينبـع البحـر ولاحقًـا فـي الوجـه والعقبـة[36].

ولقـد سـاورت رئيـس أركان قـوة التجريـدة المصريةأرشـيبالد مـوراي مثـل هـذه الشـكوك فيمـا يختـص بالفعاليـة العملياتيـة للقـوات العربيـة غيـر النظاميـة. وحتـى الاسـتحواذ

المـدوي علـى ميناء العقبـة فـي يونيـو 1917، حيـث كانـت دفاعـات المدينـة مصممـة لحمايتها مـن الهجمـات البحريـة لا مـن الهجمـات البريـة، كان يديـن بالكثيـر للدعـم الـذي قدمتهاالبحريـة الملكيـة بقصفها تلـك الدفاعـات[37]. وفـي عـام 1918 وحسـب، فـي ظـل المسـتويات المتصاعـدة للدعـم العسـكري للحلفـاء والمسـاعدات الماديـة، أمسـى الجيـش العربـي الشـمالي أكثـر فعاليـة بقـدر طفيـف باعتبـاره قـوة محاربـة، وحينئـذ قُسِّـمَ الجيـش إلـى وحـدات نظاميـة وغيـر نظاميـة، وشـعبة بريطانيـة ومفـرزة فرنسـية. واكتسـب الجيـش العربـي أيضًـا إمكانـات اسـتخباراتية، وشـرع يمـد قـوات ألنبـي بمعلومـات مفيـدة حـول التطـورات علـى الجبهـات الجنوبيـة والشـرقية[38]. لكـن المرتيـن اللتيـن تعـاون فيهمـا الجيـش العربـي الشـمالي مـع قـوة التجريـدة المصريـة التابعـة للجنـرال ألنبي —وهمـا الغارتـان اللتـان نُفذتها علـى الجهـة الأخـرى مـن نهـر الأردن فـي محاولـة للسـيطرة علـى عمّـان فـي مـارس وأبريـل 1918— باءتـا بفشـل ذريـع، ودمرتـا المكانـة الرفيعـة لبريطانيـا آنـذاك بعـد النجاحـات العسـكرية التـي حققتهـا فـي فلسـطين، وأقنعتـا القبائـل العربيـة المتـرددة بالتـزام الإخـلاص والـولاء للسـلطان العثمانـي[39].

وعلـى مـدار العقـود المتخللـة أمسـت الثـورة العربيـة أسـطورة، ويرجـع ذلـك إلـى حـد كبيـر إلـى الجاذبيـة الشـخصية لقاداتها بمـن فيهـم لورنـس نفسـه وفيصـل بـن الحسـين الـذي أمسـى لاحقًـا أول ملـك للعـراق. عـلاوة علـى ذلـك، فإنـه علـى الرغـم مـن إطاحـة ملـوك العـراق الهاشـميين عـام 1958 وعـدم اسـتمرار سـطوتهم علـى سـوريا سـوى لأشـهر قلائـل عـام 1919، أمسـت السـلالة التـي أسسـوها فـي الأردن واحـدة مـن الأعمـدة الفقريـة لـ«قـوى الاعتـدال» المواليـة للغـرب فـي الشـرق الأوسـط الحديـث. وليـس أدل علـى ذلـك مـن سـارية العلـم العملاقـة التـي تحمـل علـم الثـورة العربيـة علـى العقبـة، وهـي مـن أعلـى السـاريات فـي العالـم حيـث تُـرى بوضـوح مـن أربـع دول هـي مصـر وإسـرائيل والسـعودية والأردن. ومـع ذلـك، فـإن الشـهرة اللاحقـة للثـورة العربيـة مبالـغ فيها بشـكل كبيـر بالنسـبة لأهميتها المعاصـرة، سـواء علـى المسـتوى العسـكري —لدرجـة أن حسـين لـم ينجـح لا فـي إشـعال ثـورة عربيـة عامـة ولا فـي القضـاء علـى منافسـيه البارزيـن أمثـال آل سـعود— أو علـى المسـتوى السياسـي. بـل علـى العكـس، يقـدم لنـا أشـهر مـؤرخ

للجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى، ويُدعى إدوارد إريكسون، التقييم البليغ التالي:

... كان الجيش العثماني قادرًا على التعامل مع الجيوش العربية المتمردة بتجاهلها وحسب. ولقد أغارت عصابات لورنس على مواقع متفرقة، وبوتيرة أكبر دمرت خط السكك الحديدية العثماني الواصل إلى المدينة. وكانت تلك الخسائر مؤرقة للأتراك... فحتى في الحملة الأخيرة في سوريا، نشر الأتراك قوات عسكرية محدودة ضد العرب. علاوة على ذلك، فهم لم يصبهم القلق قط حيال ثورة عربية حقيقية وراء خطوطهم حيث كان للمتمردين تواصلًا محدود مع السكان المدنيين في كل من سوريا وفلسطين... وتسجيلًا للأحداث، لم تكن الثورة العربية قط حركة يدعمها بشكل عام الجمهور العربي[40].

وبالتوازي مع نشأة وعي سياسي عربي، شهدت الصهيونية تطورًا مشهودًا بوصفها مشروعًا قوميًا منافسًا. وبينما طالب الطرفان بالأراضي نفسها في فلسطين، اشتبك القوميون العرب الصاعدون والصهاينة في صراع على الأرض والموارد. وقد استلهمت الصهيونية، شأنها شأن الحركة العربية الموازية لها والقوميات العلمانية في أوروبا، مبادئها من الثورة الفرنسية ومبادئ التنوير الخاصة بالعقد الاجتماعي والمواطنة. ولعل الصهيونية أيضًا تطورت بوصفها استجابة لتصاعد نبرة عداء السامية في المجتمع الأوروبي التي تجلت مثلًا في سلسلة بشعة من المذابح جنوبي روسيا عام 1881. فقد أثارت تلك المذابح وغيرها من أشكال عداء السامية العنيفة نزعة لإقامة وطن يهودي في أرض إسرائيل التي جاء ذكرها في التوراة. وحدثت الهجرة الأولى إلى فلسطين خلال الفترة بين عامَيْ 1882 و1903 إذ أسست جماعات صغيرة من الصهاينة من أوروبا الشرقية أول مستوطنات يهودية في روش بينا وبتاحتكفا وريهوفوت وريشون ليزيون[41]. وبالتوازي مع تلك الهجرة، أتاح نشر كتاب «الدولة اليهودية» لمؤلفه تيودور هيرتزل عام 1896 وعقده للمؤتمر الصهيوني الأول في بازل في العام التالي «إطار عمل عمليا ومؤسسيا» لإنشاء دولة يهودية. وقد جمع

المؤتمر اليهودي لأول مرة ما بين صهاينة من أوروبا الشرقية والغربية، وتمخض عن إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية التي كان من المقدر لها أن تلتزم بـ»إنشاء وطن لليهود في فلسطين يكفل له القانون العام الحماية». وكان من المقرر «تحقيق هذا المشروع بشكل تدريجي بواسطة شراء الأراضي والاستيطان فيها من ناحية، والجهود الدبلوماسية ومباركة القوى الكبرى من ناحية أخرى»[42].

ولذلك كانت الصهيونية قوة سياسية قومية متنامية بحلول عام 1914. وأدت موجة جديدة من المذابح في روسيا في أعقاب الثورة الدستورية عام 1905 إلى هجرة بأعداد غفيرة لليهود إلى فلسطين. وحتى عام 1914، كان مقر المنظمة الصهيونية العالمية برلين، وكان أبرز رجالاتها ومفكريها إلى حد كبير ألمانيين ونمساويين- مجريين أصلًا[43]. ولقد أعاد مزيج من الديناميكية والقوة الأكبر للصهيونية والرغبة في تفادي خسارة دعاية الحرب أمام العدو تدريجيًا توجيه الدعم الحكومي البريطاني باتجاه الغايات والأهداف الصهيونية. علاوة على ذلك، كان الصهاينة بالفعل قد انخرطوا في جهود الحرب البريطانية في الشرق الأوسط حيث ألحق الفيلق اليهودي بقوة التجريدة المتوسطية في معركة غاليبولي، وخدمت العديد من الكتائب اليهودية تحت لواء الجنرال ألنبي في فلسطين[44]. وجدير بالذكر أن شبكة نيلي للتجسس تحديدًا، وهي التي شملت حوالي 40 جاسوسًا يهوديًا، كان مقرها مدينة حيفا في فلسطين، ووزع أفرادها في أرجاء فلسطين وسوريا عام 1917 قبل أن يتم الكشف عنهم ومداهمتهم[45]. ولا شك أن تعيين ديفيد لويد رئيسًا للوزراء وآرثر بلفور وزيرًا للخارجية —وكلاهما متعاطف مع الصهيونية— كان بمثابة الخطوة الأخيرة التي أحدثت تحولًا في السياسة البريطانية على أعلى مستوى، وإن لم يكن الأمر كذلك بين الموالين للعرب في وزارة الخارجية.

غير أن ثمة اختلافات في الآراء كبيرة بين اليهود البريطانيين فيما يختص باقتراح إقامة وطن يهودي في فلسطين. فقد صعد نجم هربرت صموئيل —وزير الداخلية البريطاني خلال الفترة بين يناير وديسمبر 1916، وأحد الثقات المقربين لوايزمان

وفيما بعد أول مندوب سام في فلسطين خلال الفترة بين عامي 1920 و1925— باعتباره المهندس الرئيس لإنشاء وطن يهودي في فلسطين تحت رعاية بريطانية. وقد عارضه في ذلك ابن عمه إدوين مونتاغيو الذي انضم إلى مجلس الوزراء كوزير دولة لشؤونالهند عام 1917، والذي كان يخشى أن يمسي هذا الوطن اليهودي في فلسطين «سببًا حاشدًا للمعاديين للسامية في كل دولة من دول العالم». فضلاً عن إيمان مونتاغيو بأن المشروع القومي المقترح سيقوض مكانة اليهود في بقاع أخرى بالشرق الأوسط، ويلقي بظلال الشك على ولاء المجتمعات اليهودية في أوروبا. لذا سلَّمَ مونتاغيو مذكرة لزملائه بمجلس الوزراء وضع فيها أوجه اعتراضه على الصهيونية قائلًا: «أكاد أستسلم لإغراء حظر المنظمة الصهيونية باعتبارها مخالفة للقانون ومخالفة للمصالح القومية... وإنني أطلب من الحكومة البريطانية أن يتسع صدرها لرفض مقترح يجعل المواطنين اليهود ضمنًا، إن لم يكن قانونًا، غرباء وأجانب»[46].

ولقد أرجأ تدخل مونتاغيو المقترح، لكنه لم يستطع في نهاية المطاف أن يطيح به. وفي 2 نوفمبر 1917، أرسل بلفور رسالته إلى حاييم وايزمان رئيس مجلس إدارة المنظمة الصهيونية البريطانية الذي عُيِّنَ أول رئيس لإسرائيل عام 1948. وكان وايزمان يعمل خلال الحرب العالمية الأولى أستاذًا لمادة الكيمياء بجامعة مانشستر، وكان بإمكانه الوصول بلا قيد أو شرط إلى أرفع المستويات في الحكومة البريطانية. وقد استندت علاقاته تلك نوعًا ما إلى أبحاثه الرائدة التي أجراها إبَّان الحرب فيما يختص بإنتاج مادة الأسيتون للدانات المدفعية. وبالطبع سمحت له علاقاته بالترويج للقضية الصهيونية وفكرة البحث عن وطن يهودي لدى بلفور ولويد جورج.

وبلغت عملية بناء الدعم للصهيونية أوجها بإصدار وعد بلفور التاريخي الذي نص على ما يلي:

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل قصارى جهدها من أجل تسهيل تحقيق هذه الغاية، على شرط عدم ممارسة شيء من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية

التـي تتمتـع بهـا الطوائـف غيـر اليهوديـة المقيمـة فـي فلسـطين ولا الحقـوق والوضـع السياسـي الـذي يتمتـع بـه اليهـود فـي البلـدان الأخـرى[47].

وتضمنـت الدوافـع البريطانيـة الداعيـة لإصـدار وعـد بلفـور الرغبـة فـي الفـوز بدعـم الطوائـف اليهوديـة ذات النفـوذ فـي الولايـات المتحـدة وروسـيا، وكذلـك تقويـض جهـود الحـرب الألمانيـة مـن خـلال إقصـاء المشـاركين فيهـا. وبحلـول عـام 1917، «أمسـى الصهاينة قـوة ديناميكيـة متوسـعة» بيـن الطوائـف اليهوديـة فـي كلتـا الدولتيْـن «يتعيـن علـى الحكومـة البريطانيـة بشـكل مُلّـح التأثيـر فيهـا، ولـم يكـن عليهـا، فيما خـلا الدعاية، سـلطان كبيـر»[48]. عـلاوة علـى ذلـك، فـإن إعـلان الدعـم البريطانـي لتحقيـق الهـدف الصهيونـي فـي فلسـطين خلـق دفعـة لضمـان تخصيـص المنطقـة لبريطانيـا بـدلًا مـن فرنسـا. ولقـد عـزز اسـتحواذ الجنـرال ألنبـي علـى القـدس ودخولـه المدينـة بعدهـا بخمسـة أسـابيع سـيطرة بريطانيـا علـى فلسـطين، وكان مؤشـرًا علـى انتهـاء تدويـل الوضـع الفلسـطيني (بحسـب اشـتراطات اتفاقيـة سـايكس-بيكو)[49].

وإبّـان الفتـرة التـي شـرع فيهـا السـوفييت فـي الإفصـاح عـن تفاصيـل اتفاقيـات وقـت الحـرب السـريّة، كان علـى بريطانيـا أن تحقـق التـوازن مـا بيـن ثـلاث مجموعـات مـن التعهـدات المتعارضـة. وعلـى رأس هـذه التعهـدات التعهد بإعادة تنظيم السـلطة السياسـية فـي الشـرق الأوسـط فيمـا بعـد الحكـم العثمانـي. وقـد عـادل الوعـد المبهـم الـذي قطعـه مكماهـون علـى نفسـه لحسـين بإقامـة دولـة عربيـة مسـتقلة ذلـك الوعـد المبهـم بالقـدر نفسـه بإقامـة وطـن يهـودي فـي فلسـطين، علـى الرغـم مـن أن الوعديـن ذاتهمـا كانـت تقوضهمـا التعهـدات الإقليميـة الـواردة فـي اتفاقيـة سـايكس-بيكو. لكـن بحلـول عـام 1917 تَعَقَّـدَت سلاسـة ويقيـن تـوازن القـوى والمصالـح فـي الشـرق الأوسـط بقـدر أكبـر بينمـا اشـتعلت المعـارك مجـددًا. وفـي هـذا السـياق، يقـص المـؤرخ الفلسـطيني رشـيد خالـدي كيـف أن وعـد بلفـور «اسـتهل مسـألة خيبـة أمـل العـرب عمومًـا فـي الحلفـاء»، وذلـك لأن الوعـد أُعلـن عنـه «قبـل بضعـة أسـابيع مـن دخـول قـوات ألنبـي للقـدس فـي ديسـمبر 1917، فـي وقـت أمسـى واضحًـا فيـه أن البريطانييـن سـيكونون الحـكام الجـدد للدولـة»[50].

ولـذا، ففـي الوقـت نفسـه تقريبًـا الـذي قطـع البريطانيـون علـى أنفسـهم عهـدًا بدعـم إقامـة وطـن يهـودي، صـار لديهـم أيضًـا سـلطان علـى الأرض فـي فلسـطين يسـمح لهـم بـأن يبـروا بعهدهـم[51].

النقـاط الأربعـة عشـر والتصريـح البريطانـي إلـى السـبعة والاتفاقيـة الإنجليزيـة الفرنسـية

لقـد أربـك إعـلان السـوفييت عـن الاتفاقيات السـريّة التـي أبرمـت إبّان الحـرب الحكومة البريطانيـة. ودفـع الغضـب الواسـع النطـاق الـذي أثـاره الإفصـاح عـن تلـك الاتفاقيـات فـي منطقـة الشـرق الأوسـط وبيـن حلفـاء بريطانيـا رئيـس الـوزراء لويـد جـورج إلـى أن يلقـي كلمـة غايـة فـي الأهميـة عـن «أهـداف الحـرب» أمـام مؤتمـر النقابـات العماليـة فـي 5 ينايـر 1918. وكمـا لاحـظ ديفيـد وودوارد، فقـد أدت الضغـوط الدفاعيـة المتصاعـدة مـن أجـل مواجهـة ردة الفعـل السـلبية للاتفاقيـات السـريّة إلـى «التصريـح بأبـرز بيـان بريطانـي علـى الإطـلاق إبّـان فتـرة الحـرب حـول أهـداف الحـرب» و«اعتبـر محاولـة للتخفيـف مـن حـدة أهـداف حـرب دولتـه»[52]. ولقـد فاجـأت صراحـة الكلمـة و«توجهها الليبرالـي» بـلا شـك الجمهـور الأساسـي الـذي استمع لهـا؛ ألا وهـو واضعـو السياسـات الأمريكيـون برئاسـة الرئيـس وودرو وِلسـون الـذي كان يعـد العـدة هـو نفسـه لإلقـاء كلمتـه الشـهيرة «النقـاط الأربعـة عشـرة» بعدهـا بثلاثـة أيـام وحسـب. ففـي كلمتـه، قطـع لويـد جـورج علـى نفسـه وعـدًا بـ«الإقـرار بشـروطهم القوميـة المنفصلـة» لرعايـا الدولـة العثمانيـة، وأكـد دعم الحكومـة البريطانيـة للتسـوية الإقليميـة مـا بعـد الحـرب «اسـتنادًا إلـى حـق تقريـر المصيـر أو موافقـة المحكـوم». ولكنـه تراجـع عـن طموحـه الجـريء علـى الفـور مضيفًـا التحذيـر القائـل إن «ماهيـة الشـكل المحـدد لهـذا الإقـرار فـي كل حالـة خاصـة لا ينبغـي مناقشـتها هنـا، اللهـم إلا أننـا يجـب أن نوضـح أنـه مـن المسـتحيل اسـتعادة سـيادتهم السـابقة...»[53].

وبعدهـا بثلاثـة أيـام، ألقـى الرئيـس وِلسـون كلمـة أمـام جلسـة مشـتركة للكونجـرس بيّـنَ فيهـا رؤيتـه لأهـداف الحـرب الأمريكيـة والنظـام السياسـي المسـتدام مـا بعـد الحـرب. ومثّلـت الكلمـة نتـاج جماعـة بحثيـة واسـعة النطـاق جمعهـا وِلسـون فـي سـبتمبر 1917

لتطويـر الأهـداف الرسـمية للحـرب للولايـات المتحـدة الأمريكيـة. وتـرأس تلـك الجماعـة إدوارد إم. هـاوس مستشـار السياسـة الخارجيـة القريـب مـن وِلسـون. وعُرفـت الجماعـة باسـم «التحقيـق» وضمـت حوالـي 150 أكاديميًـا وخبيـرًا بالعلاقـات الدوليـة. وشـملت الأبعـاد الأربعـة عشـرة لكلمـة وِلسـون نطاقًـا عريضًـا مـن الموضوعـات التـي تراوحـت مـا بيـن حريـة البحـار وإزالـة الحواجـز الاقتصاديـة وممارسـة الأعمـال الدبلوماسـية المفتوحـة بـدلًا مـن إجـراء المفاوضـات السـريّة. والأهـم أن وِلسـون أيضًـا أوغـل فـي تفاصيـل التعديـلات الإقليميـة التـي آمـن بأنهـا ينبغـي أن تعـزز أيـة اتفاقيـة سـلام. وبعـد أن فَصَّـلَ الخطـوط العريضـة لهـذه الاتفاقيـات فـي أوروبـا، انصبـت النقطـة الثانيـة عشـرة علـى الدولـة العثمانيـة وأقاليمهـا الشـرق أوسـطية:

12. ينبغـي ضمـان سـيادة آمنـة للشـطر التركـي مـن الدولـة العثمانيـة، لكـن الجنسـيات الأخـرى الخاضعـة الآن إلـى الحكـم التركـي ينبغـي أن نضمـن لهـا حيـاة آمنـة وفرصـة لا مسـاس بهـا مطلقًـا للتطـور المسـتقل، وينبغـي فتـح مضيـق الدردنيـل دائمًـا وأبـدًا بوصفـه ممـرًا حـرًا للسـفن والتجـارة لـكل الأمـم بموجـب ضمانـات دوليـة[54].

لقـد اسـتحدث وِلسـون مبـدأ تقريـر مصيـر الشـعب باعتبـاره مبـدأً ينبغـي أن ينبنـي عليـه هيـكل العلاقـات الدوليـة فتـرة مـا بعـد الحـرب. ورغـم أن الرئيـس لـم يتشـاور مـع حلفائـه قبـل الكلمـة التـي ألقاهـا، فإنـه التـزم هـو ولويـد جـورج —علـى الأقـل علنًـا— بسياسـة تقريـر المصيـر فـي الشـرق الأوسـط، ولـو أن الشـيطان كان كامنًـا فـي التفاصيـل أو إن شـئنا الدقـة قصـور التفاصيـل، فيمـا يتعلـق بالأقاليـم المحـددة فـي النطـاق العثمانـي الجغرافـي.

وعلـى الفـور، أقـر المسـؤولون البريطانيـون والفرنسـيون فـي لنـدن وباريـس وفـي مراكزهـم الاسـتيطانية الاسـتعمارية بأهميـة الموقـف الدولـي المتغيـر، وأدركـوا أن هـذا الموقـف سـيكون لـه تداعيـات علـى خططهـم السـاعية إلـى إعـادة تنظيـم الشـرق الأوسـط. فقـد كانـت النقـاط الأربعـة عشـرة عـلاوة علـى إفصـاح السـوفييت عـن الاتفاقيـات السـريّة إيذانًـا بتحـول جـذري فـي العلاقـات الدوليـة مـا بعـد الحـرب العالميـة الأولـى، ممـا عجَّـلَ

بتحول في السياسة الرسمية في بريطانيا وفرنسا بالتبعية. وكان بعض المسؤولين، أمثال رئيس أركان قوة تجريدة بلاد الرافدين الجنرال وليم مارشال، رافضين صراحةً لـ«الثرثرة الجارية حول تقرير المصير وحقوق الشعوب الصغيرة» التي اعتبروها «مجرد صيحات ببغاوية آنية»[55]. وأعرب البعض الآخر، مثل أرنولد وِلسون المفوض المدني البريطاني في بلاد الرافدين عام 1918، عن استيائهم من المنهج الجديد للويد جورج والرئيس وِلسون الذي أقحم «معطيات مزعجة في الموقف» في الشرق الأوسط. ومن ثم، رفض وِلسون قبول التغير الطارئ على السياسة، وتجاهله ببساطة لكونه «غير متساوق مع الأهداف التقليدية للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط»[56].

علاوة على ذلك، فإن إعلان الرئيس الخطوط العريضة التي يجب أن تتبناها أية مستوطنة ما بعد الحرب تعارض مع الافتراضات السائدة في لندن وباريس. وبعيدًا تمامًا عن المنافسة الناشئة على شق نطاقات نفوذ متنافسة في الشرق الأوسط، فضَّلَ الرئيس[1] الفرنسي جورج كليمنصو هزيمة عسكرية ساحقة حاسمة لألمانيا وفرض إجراءات عقابية رادعة على المعتدي، بينما سعت حكومة لويد جورج إلى حماية وتمديد نطاق مصالحها في الشرق الأوسط. ولم تتبنى أي من الحكومتيْن النقاط الأربعة عشرة، رغم أن كلتيهما أدركتا أن العلاقات الدولية المتبدلة للصراع اقتضت منهجًا جديدًا للممارسات الدبلوماسية ووضع السياسات. ولذا، كان للتطوريْن الأبرز عام 1917 —ألا وهما مشاركة أمريكا في الحرب والثورات الروسية وخروج روسيا اللاحق من الصراع— تداعيات على إعلان أهداف الحرب وغايات ما بعد الحرب لدول التحالف. وببساطة، فإن إحلال جمهورية مثالية محل دولة إمبريالية أخرى يعني أن حق الغزو لا يجوز اعتباره بعد أساسًا كافيًا للاستحواذ الإقليمي.

وفي لندن تحديدًا، شرع مسؤولون رفيعو المستوى بالتبعية في صياغة سياسات جديدة من شأنها تعميق وتأمين السيطرة البريطانية على المكاسب العسكرية التي تحققت في الشرق الأوسط. وبحث واضعو السياسات في وزارة شؤون الهند ووزارة

(1) جاء في النص الأصلي أن كليمنصو رئيس فرنسا، والصواب أنه رئيس وزرائها. (المترجم)

الخارجية البريطانية عن سبل جديدة لتبرير السيطرة البريطانية فيما بعد الحرب على كل من بلاد الرافدين ومصر وفلسطين. وقد تلقوا عونًا من السير بيرسي كوكس الذي استدعي مؤقتًا إلى لندن من مقر عمله بوصفه مفوضًا مدنيًا في بغداد لاستشارته. وكانت عملية إعادة التقييم التي أجرتها وزارة شؤون الهند بقيادة السكرتير السياسي السير آرثر هيرتزل، وخلفه السير جون شوكبرغ، قد دفعت هيرتزل إلى الإقرار بأن «التغير الكبير الذي حدث في الموقف السياسي العام» اقتضى «إعادة نظر وتعديلًا مبكرًا للسياسة المزمع تنفيذها في الأراضي المحتلة». وإذا كان القسم السياسي بوزارة شؤون الهند قد أقر بالسياق الدولي المختلف جذريًا، فإنه حاجج بأن أي مطالبة بهيمنة ما بعد الحرب يجب أن تكون قائمة على «أساس آخر بخلاف حق الغزو وحسب». ولذلك أوصى بضرورة أن تهدف السياسة البريطانية إلى «بناء المصالح والنفوذ البريطاني في الدولة... على أساس آمن جدًا بحيث يضمن صيانتها تحت رعاية أي نظام إداري قد يستحدث في نهاية المطاف»[57]. ويشمل ذلك، بحسب مقترح القسم السياسي، ترسيخ المصالح التجارية البريطانية في بلاد الرافدين إلى ما يتجاوز «الواجهة العربية» في بغداد. وفي أبريل عام 1918، تبنت اللجنة الشرقية التي شكّلها مجلس وزراء الحرب في لندن، وكذا وزير الخارجية السير آرثر بلفور، رسميًا إعادة توجيه السياسة البريطانية[58].

ولاحقًا في عام 1918، أضافت النهاية السريعة غير المتوقعة للحرب إثر فشل حملات الربيع التي شنها الألمان والتعاقب السريع للاختراقات الإنجليزية والفرنسية على الجبهة الغربية المزيد من الإلحاح للبحث عن سيطرة إقليمية بعد انتهاء الأعمال العدائية. وبينما كانت ركيزة سياسة زمن الحرب البريطانية والفرنسية في النصف الأول من العام هي القتال المستميت من أجل البقاء في مواجهة الهجوم الألماني، فتح التحول الجذري في زخم الحرب من شهر أغسطس فصاعدًا الباب أمام إمكانات جديدة مذهلة للتقدم العسكري والمكاسب الإقليمية. وفي تلك الأثناء، وخلال العام، بدأت جماعات قومية عبر منطقة الشرق الأوسط في تشكيل منصات سياسية وتطويرها بالتزامن مع انتشار أنباء النقاط الأربعة عشرة للرئيس الأمريكي

ولسون، رغم الجهود المستميتة للمراقبين الإنجليز والفرنسيين. ومن ثم كان الطريق ممهدًا لصدام متزايد بين الطموحات القومية المتصاعدة والمحاولات الإنجليزية-الفرنسية العميقة لتعزيز سطوتها وتمديدها إلى ما وراء فترة ما بعد الحرب. وعلى رأس أفكار كل من هذه الجماعات الفرص —وكذلك التحديات— التي تقدمها النهاية الوشيكة للأعمال العدائية.

وثمة تطور خطير حدث في سوريا حيث أُسس جديد باسم حزب الاتحاد السوري في أواخر عام 1917، أي إثر صدور وعد بلفور ونشر البلشفيين لاتفاقية سايكس-بيكو بفترة وجيزة. ولقد استجاب القلب المفكر للحركات العربية القومية الناشئة والناشطين في سوريا والمجتمع السوري الكبير في القاهرة للأنباء المتعلقة بوعد بلفور بإصدارهم مطالبات مضادة خاصة بهم. وقام ناشطان بارزان من سوريا ولبنان (فوزي البكري وسليمان ناصيف) بزيارة المكتب العربي لتسليم برقية ممهورة بتوقيعهما وبتوقيع اثنين آخرين من الأعيان تفيد أن فلسطين جزء لا يتجزأ من سوريا. ولكن المسؤولين البريطانيين رفضوا إرسال هذه البرقية إلى لندن، وكذلك نصحوا النشطاء بوقف احتجاجاتهم[59]. ولما أحسّ سبعة من أعيان سوريا محسوبون على حزب الاتحاد السوري بالقلق من هذه التطورات، وشعروا بالسخط بشكل متزايد من قيادة الشريف حسين للثورة العربية، أصدروا في 28 أبريل 1918 مذكرة يطالبون فيها «بضمانة للاستقلال التام لشبه الجزيرة العربية». وزعموا في هذه المذكرة أنهم يمثلون الكثير من النوادي والجمعيات العربية التي «مُنحت سلطة كاملة للتعبير نيابة عن الشعب». والحقيقة أن هؤلاء السبعة امتد نفوذهم إلى أبرز الجمعيات النشطة في سوريا، ومثلوا فيما بينهم «كل طبقات المجتمع، ولاسيما طبقة المفكرين والقادة الدينيين والطبقة الأرستقراطية»، وكذلك «كانت لهم صلات بشيوخ القبائل البدوية»[60].

وقد جاء في تلك المذكرة طلب للحكومة البريطانية بالاستجابة إلى سلسلة من الأسئلة والإيضاحات التي كان على رأسها مطالبة بريطانيا أن تؤكد على الملأ نيتها

منح الأراضي العربية، وهي التي عُرفت بشبه الجزيرة العربية وسوريا وبلاد الرافدين وأجزاء من جنوب شرق تركيا، الاستقلال التام. وطالب الأعيان السبعة أيضًا الحكومة البريطانية ببيان هياكل السيطرة السياسية التي تخيلتها للأراضي السابق ذكرها.61 وهذه المرة، أقر المسؤولون البريطانيون في القاهرة بأهمية المذكرة والموقعين عليها وأرسلوها إلى لندن، وأوكل إلى مارك سايكس وضع مسودة برد الحكومة في 11 يونيو 1918 فيما عُرف باسم «تصريح إلى السبعة» بعد أن قُرأ على الأعيان السبعة في اجتماع عُقد بالقاهرة في 16 يونيو. وقسَّمَ هذا التصريح الأراضي العربية إلى أربعة أقسام: 1) المناطق التي كانت مستقلة قبل اندلاع الحرب؛ 2) المناطق التي حررتها الحركات العربية خلال الحرب من الهيمنة العثمانية؛ 3) المناطق التي كانت واقعة تحت السيطرة العثمانية في السابق واحتلتها قوات التحالف خلال الحرب؛ 4) المناطق التي ما زالت تحت الهيمنة العثمانية. فأما القسمان الأول والثاني فتعهدت الحكومة البريطانية بـ»الاعتراف بالاستقلال التام السيادي» للسكان العرب، وأما القسم الثالث فأكدت على أنه «ينبغي على الحكومة المستقبلية لتلك المناطق الاستناد إلى مبدأ موافقة المحكوم»، وأما القسم الرابع فصرحت بأن «رغبة وأمنية حكومة جلالة الملكة هي أن تحصل الشعوب المضطهدة بهذه المناطق على حريتها واستقلالها...»[62].

ولقد كان التصريح إلى السبعة بارزًا في المقام الأول لأنه شَكَّلَ أول بيان بريطاني للعالم العربي يتحدث صراحةً عن مبدأ حق تقرير المصير القومي. واستنادًا إلى وجهة النظر المؤثرة لجورج أنطونيوس فترة ما بعد الحرب، كان هذا هو الإعلان «السياسي الأبرز على الإطلاق الذي تفصح عنه بريطانيا العظمى فيما يختص بالثورة العربية» حيث أكد على «العهود السابقة التي قطعتها بريطانيا للعرب بأسلوب أبسط من أي شكل لفظي عام أسبق» وأتاح «إشهارًا سلطويًا للمبادئ التي تستند إليها تلك العهود»[63]. ولذلك، فقد تجاوز الإعلان خطاب «أهداف الحرب» للويد جورج الذي ألقاه في يناير عام 1918، لكن شأنه شأن الإعلان الأسبق تراجعت أهميته بفعل القيود والأجزاء المبهمة[64].

والواقع أن التصريح إلى السبعة لم يحصل على ترويج واسع النطاق، وسرعان ما تجاوزته سلسلة من الأحداث المتكشفة سريعًا حيث تداعت أخيرًا مقاومة دول المركز في خريف 1918. ومع ذلك، ظل هذا الإعلان شهادة على الوعي السياسي المتصاعد بين المجتمعات السياسية العربية وإيمانها المتزايد بأن السياق الدولي بدّل معالم (وإمكانية قبول) الأشكال التقليدية للحكم الكولونيالي. كما أنه سلط الضوء على الحافز الذي أتاحته الحرب لطموحات الاستقلال المحلي بين الطبقات القومية الناشئة في شتى أرجاء الدولة العثمانية، وعبر المناطق البريطانية والفرنسية في شمال أفريقيا. ولكن هذه التعبئة المحلية سرعان ما تضاربت مع التقدم البريطاني السريع في سوريا وبلاد الرافدين في سبتمبر وأكتوبر 1918، مما استتبع إعلانًا نهائيًا حاسمًا للسياسة البريطانية والفرنسية[65].

ولقد ترتب على التقسيم الثلاثي للمصالح البريطانية والفرنسية والعربية الإعلان الإنجليزي الفرنسي الصادر في 7 نوفمبر 1918. والحقيقة أن هذا الإعلان تفوق على كل ما سبقه من إعلانات في شجبه للكولونيالية استنادًا إلى ضم الأراضي، وفي تحقيق الانسجام ما بين السياسة البريطانية والفرنسية ومبدأ تقرير المصير القومي، ولو على الورق وحسب. وقد ظهر هذا الإعلان في نفس التوقيت الذي كان المسؤولون في لندن يسعون فيه إلى إعادة تعريف هيمنتهم على مساحات كبيرة من الشرق الأوسط بطريقة تتساوق مع الاتجاه الفكري السائد. وبالطبع كان هؤلاء المسؤولون أيضًا على دراية بالقيود المُكتشفة حديثًا لاتفاقية سايكس-بيكو حيث شهد الموقف العسكري على أرض المعركة تحولاً جذريًا لصالحهم.66 ولقد أقر اللورد روبرت سيسيل، العضو باللجنة الشرقية التابعة لمجلس وزراء الحرب التي قدمت استشاراتها للويد جورج حول كيفية تحقيق أعظم فائدة ممكنة من الانتصارات العسكرية، بالشيء نفسه في مذكرة أرسلها للمسؤولين الفرنسيين في 8 أكتوبر 1918 (مع الموافقة الكاملة لرئيس الوزراء) حيث قال:

فيما يتعلق بالاتجاه المستقبليّ للأقاليم الأخرى المذكورة في الاتفاقية

الإنجليزيةالفرنسية لسنة 1916، تعتقد حكومة جلالة الملكة أنه من الصواب بيان أن الموقف العام تغير تغيرًا جذريًا منذ التوقيع على هذه الاتفاقية حتى أن شروطها لا... تبدو مناسبة للظروف الحالية.67

وهكذا وجد المسؤولون البريطانيون أنفسهم يواجهون التمرد الفرنسي بسبب إعادة فتح قضية الاستيطان الإقليمي المتفق عليها عام 1916 من ناحية، والطموحات العربية التي ترى أن النهاية المفاجئة للحرب ستفضي إلى تنازلات تكافئ العرب على دعمهم خلال فترة الحرب للندن من ناحية أخرى. فجاء الإعلان الإنجليزي الفرنسي ليكون بمثابة محاولة للمصالحة بين الضغوط المتشعبة بشكل متزايد على وضع السياسات. وقد بدأ هذا الإعلان الذي وضع مسودته سايكس نفسه كالعادة بالتأكيد الجريء (المتعارض بالكامل مع اتفاقيات زمن الحرب السريّة) على أن الأهداف البريطانية والفرنسية في الشرق الأوسط طوال فترة الحرب كانت تبغي تأمين «التحرير التام النهائي للشعوب التي طالت معاناتها من ويلات الاضطهاد التركي، وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستقي سلطتها من الممارسة الحرة لمبادرة واختيار السكان الأصليين».68 ومضى الإعلان يتعهد بالتالي:

سعيًا منا لتحقيق هذه النوايا، توافق فرنسا وبريطانيا العظمى على دعم تأسيس حكومات السكان الأصليين في سوريا وبلاد الرافدين التي حررها الحلفاء، علاوة على الأراضي التي يشارك الحلفاء في تأمينها، ومد يد المساعدة لها، والاعتراف بها فور أن تتأسس بالفعل. وبعيدًا عن الرغبة في فرض أي مؤسسات بعينها على سكان تلك المناطق، يؤكد الحلفاء أنهم معنيون وكفى بدعمهم ومساعدتهم الوافية من أجل العمل المنتظم للحكومات والإدارات المختارة بحرية من قبل هؤلاء السكان أنفسهم.. (69).

وما أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى صعدت المسارات المتضاربة لإعلانات ووعود زمن الحرب سريعًا -وبشكل حتمي- إلى السطح. فضلًا عن أن ثمة مصلحة أخرى تجلت عام 1918 وأدت إلى إعادة هيكلة طبيعة التفاعل ما بين

الشرق الأوسط والنظام الدولي على مدار القرن العشرين بأسره بشكل جذري. وقد تمثلت تلك المصلحة في الوعي المتزايد بأهمية النفط بوصفه وقودًا لتشغيل العالم الحديث، وكذا الأهمية الجغرافية السياسية للسيطرة على الاحتياطيات المعروفة والمحتملة منه في العالم. وهكذا ظهر النفط والجغرافيا السياسية معًا بوصفهما غاية محورية للحلفاء في الشرق الأوسط عام 1918 في الوقت نفسه الذي فتح فيه الانهيار المفاجئ لدول المركز إمكانات جديدة للتدخل والهيمنة الغربيتين.

النفط والجغرافيا السياسية

ركزت التطورات في العام الأخير من الحرب انتباه واضعي السياسية على إمكانات احتياطيات النفط الواقعة في منطقة الشرق الأوسط. وأعلى ذلك من الأهمية الجغرافية السياسية التي من المتوقع أن تتمتع بها المنطقة طوال الفترة المتبقية من القرن العشرين وما بعده. كان أصحاب الامتيازات البريطانيون قد اكتشفوا النفط في الشرق الأوسط في منطقة مسجد سليمان في بلاد فارس (إيران الآن) في مايو عام 1908. وتبع هذا الكشف المذهل بعام إنشاء شركة النفط الإنجليزية الفارسيةوتأسيس مصفاة نفط ضخمة في عبّادان بمحاذاة الساحل الفارسي للخليج. وقد افتتحت هذه المصفاة في عام 1913، أي في العام نفسه الذي تفاوضت فيه شركة النفط الإنجليزية الفارسية مع وزير البحرية في لندن ونستون تشرشل بشأن إحلال النفط محل الفحم في البحرية الملكية. وفي تلك الفترة، كانت الدول الكبرى المنتجة للنفط هي الولايات المتحدة الأمريكية ورومانيا وروسيا والهند الشرقية الهولندية والمكسيك، بينما كانت وزارة البحرية تفتقر إلى مصدر إمدادات تحت السيطرة أو على الأقل خاضع للنفوذ البريطاني. وقبل عام 1914، بلغ نصيب الولايات المتحدة من إمدادات النفط إلى المملكة المتحدة 62.3 في المائة تبعتها رومانيا (11.6٪)، ثم روسيا (7.7٪) والمستعمرات الهولندية (7.7٪)، ثم المكسيك (4.1٪)، بينما كانت تمدها دول أخرى -من بينها كندا التي كانت المصدر الوحيد لإنتاج النفط داخل المنظومة الإمبراطورية البريطانية عام 1914- بالنسبة المتبقية وهي 6.5 في المائة[70]. والواقع

أن الإمبراطورية البريطانية لم تكن تنتج سوى 2.5 في المائة من نفط العالم. وفي نقاش جرى بمجلس العموم بشأن تلك المسألة في يوليو 1913، حدد تشرشل أس المشكلة على النحو التالي:

... ليس من المستحب أن نحصل على كل إمداداتنا من مصدر وحيد، ومن الضروري أن تُطوِّر القطاعات التي سيكون لحكومة جلالة الملكة عليها سلطان بحيث تقدر في فترات الأزمات على تعويضنا على وجه السرعة عن أية حالات عجز قد تنشأ بسبب تعطل عمليات التسليم في أماكن أخرى»[71].

وفي الوقت نفسه، شكّلت الحكومة البريطانية لجنة ملكية للنفط والمحركات تحت رعاية اللورد فيشر الذي تقاعد لمّا كان قائدًا للقوات البحرية عام 1910، ليستعيد منصبه عام 1914 قبل أن يستقيل احتجاجًا على حملة غاليبولي التي دعمها تشرشل عام 1915[72]. وقد أوكل لهذه اللجنة فحص «سبل الإمداد والتخزين للوقود السائل في فترات الحرب والسلم» مع الوضع في الاعتبار تحويل القطع البحرية من الفحم إلى النفط. فوضعت اللجنة ثلاثة تقارير سريّة أوصت فيها بمراكمة احتياطيات نفطية ضخمة في المملكة المتحدة وفي شتى أرجاء الإمبراطورية البريطانية. وفي الوقت نفسه، أعربت اللجنة عن غايتها في أن تصبح وزارة البحرية مالكًا ومنتجًا مستقلًا لإمداداتها من النفط[73].

ولقد جعلت القفزات التكنولوجية امتلاك مصادر وفيرة من النفط غاية ماسّة بشدة. فقد كانت السفن التي تعمل بالنفط أكثر وفرًا في تشغيلها وأسرع في حركتها من السفن التي تعمل بالفحم. وفي ظل انشغال بريطانيا وألمانيا بسباق التسليح البحري قبل عام 1914، سارع المسؤولون في لندن وبرلين لانتهاز أية فرصة تلوح لهم. وقد أتاح قرب ألمانيا من الحقول الرومانية مصدرًا مناسبًا للإمدادات أدى في النهاية إلى احتلال ألمانيا لرومانيا عام 1916. ولم يكن لدى بريطانيا دولة نظيرة، كما ترتب على فقدان الإمدادات الرومانية والروسية إبّان الحرب أنه بحلول عام 1917 ستصبح الولايات المتحدة المورد الوحيد للنفط مما سيفضي إلى اعتماد

مفرط غير صحي كان بحد ذاته عُرضة لاعتراض. وحقيقة الأمر أن المملكة المتحدة بحلول عام 1918 كانت بحاجة إلى 10 ملايين طن من النفط المستورد كل عام، بينما كانت كل بارجة في البحرية الملكية بحاجة إلى 6000 طن من النفط يوميًا لتعمل بسلاسة[74].

وتبع ذلك تحويل تشرشل للبحرية الملكية إلى النفط بعد استحواذ الحكومة البريطانية على نصيب الأسد من شركة النفط الإنجليزية الفارسية. وفي أبريل 1914، أورد تقرير عن وزارة البحرية أن الحقل الحالي لشركة النفط الإنجليزية -الفارسية قادر على «تلبية قسم كبير من متطلبات البحرية لفترة طويلة»، وأوصى بأنه «في حالة الاستفادة بروية من الامتياز بأكمله من الممكن تأمين احتياجات بحرية جلالة الملك من الوقود»[75]. وفي العشرين من مايو، اشترت الحكومة البريطانية أسهمًا بنسبة 51 في المائة في شركة النفط الإنجليزية الفارسية. وفي 10 أغسطس —أي بعد ستة أيام من إعلان بريطانيا الحرب على ألمانيا— حظي مشروع القانون الخاص بشركة النفط الإنجليزية الفارسية (مشروع قانون الاستحواذ على رأس المال) على الموافقة الملكية[76]. وبعدها أمسى الدفاع عن حقول النفط الخاصة بشركة النفط الإنجليزية الفارسية ومصفاتها وخطوط أنابيبها بمدينة عبّادان، كما تبيّن في الفصل السادس، واحدًا من أهداف بريطانيا من إرسال قوات للبصرة في أكتوبر 1914، وهو ما كان إيذانًا بانطلاق حملة بلاد الرافدين. وأثناء الحرب نفسها، أحدث التوسع المهول في استخدام وسائل نقل تعمل بالمحركات في جميع ميادين المعركة ثورة في مكانة النفط بالنسبة للآليات العسكرية. وفي كتابه «إمداد مارس: اللوجستيات في الحروب الغربية من العصور الوسطى إلى الآن» Feeding Mars: Logistics in Western Warfare from the Middle Ages to the Present، وصف جون لين كيف أحدثت التغيرات التكنولوجية التي جلبتها الثورة الصناعية تحولًا في «وسائل المواصلات والمواد المُستهلكة» في الصراع الصناعي الذي احتج بأنه «أعاد تعريف اللوجستيات الحديثة» وطبيعة الحرب نفسها[77]. وفي الوقت ذاته، ذهب مارتن فان كريفلد إلى أن «ثورة اللوجستيات» قد حدثت أثناء الحرب حيث حلت السلع التي تنتجها

المصانع محل الطعام والسماد باعتبارها أكثر الأغراض استهلاكًا، مما وضع ضغوطًا كبيرة على أنظمة النقل والمواصلات المميكنة والربط ما بين الجيوش وشبكات إمدادها ومواصلاتها[78].

واستنادًا إلى هذه الخلفية، ربما كان من قبيل المفاجأة أن النفط لم يظهر باعتباره منفعة جغرافيةسياسية حاسمة للحلفاء في منطقة الشرق الأوسط حتى في فترة متأخرة جدًا في الحرب. فالحاجة لضمان السيطرة على حقول النفط الفارسية والاحتياطيات التي شاع وجودها في بلاد الرافدين (سلفًا للاكتشاف الفعلي للنفط عام 1927) ظهرت فجأة وبقوة على أجندة الحكومة البريطانية في نهاية يوليو 1918. وقد حدث ذلك بينما كان وزير الخارجية آرثر بلفور يعد العدة للإدلاء ببيان حول أهداف الحرب أثناء اجتماع لمجلس وزراء الحرب الإمبراطوريفي لندن في 13 أغسطس. فخلال التمهيد للاجتماع، وزع أمين عام مجلس وزراء الحرب الإمبراطوري(والذي كان يتضمن قادة وممثلين من مستعمرات ودومنيونات الإمبراطورية البريطانية)، السير موريس هانكي، بهمة ونشاط على الوزراء مذكرة أعدها الفريق أول بحري السير إدموند سليد الرئيس الأسبق لقسم الاستخبارات البحرية والمؤيد الأبرز لاستحواذ الحكومة البريطانية على حصة مهيمنة من أسهم شركة النفط الإنجليزية الفارسية عام 1914، والذي انضم للشركة مديرًا لها بناءً على تأييده للفكرة. وكانت مذكرة سليد التي وُجهت بمعرفة وزارة البحرية إلى وزارة الحرب الإمبراطوريفي الثلاثين من يوليو عام 1918 لمناقشة الوزراء لها على وجه السرعة تحمل عنوان: «موقف البترول في الإمبراطورية البريطانية».

ولقد بدأ سليد مذكرته بوصف كيف أن «هناك وجهتيْ نظر أساسيتيْن يتعيّن دراسة موقف البترول في الإمبراطورية البريطانية انطلاقًا منهما. أولاهما -وأهمهما- وجهة النظر الاستراتيجية، وثانيتهما وجهة النظر المتعلقة بالإمدادات»[79]. وتابع قائلًا:

... لا نبالغ إذ نقول إن حياتنا باعتبارنا إمبراطورية تعول إلى حد بعيد على قدرتنا على استبقاء السيطرة على وقود السفن... والنفط السائل المُستخدم كوسيلة لزيادة

قوة الدفع أوفر من الفحم بمقدار الضعف، والمستخدم في محرك الحرق الداخلي أوفر بأربعة أضعاف. ولذا، يجب أن يحل النفط تدريجيًا محل الفحم لجميع الأغراض البحرية، وبالتالي فمن المهم جدًا بالنسبة لنا أن نحظى بالسيطرة الكاملة بلا منازع على أكبر كمية من البترول نستطيع تأمينها[80].

وصرح سليد عندما التفت إلى منطقة الشرق الأوسط بأنه:

في بلاد فارس وبلاد الرافدين توجد أكبر موارد نفطية غير مطورة معروفة في العالم الآن... وهناك مكامن معروفة أيضًا في بقاع أخرى من بلاد فارس وبلاد الرافدين ستشكل احتياطيات للمستقبل عندما يتم تطويرها بحيث يُستفاد منها. وليس من المغالاة في شيء إذا قدرنا أن بلاد النفط في فارس والرافدين التي ستمتد لأكثر من 360000 ميل مربع، أو أكثر من ضعف مساحة حقول النفط الروسية، لا ينبغي أن توفر إمدادات في المستقبل مكافئة لتلك التي تمنحنا إيّاها الولايات المتحدة حاليًا. وإذا كان هذا التقييم قريبًا من الواقع بأي حال من الأحوال، فمن الواضح أن القوة التي تسيطر على أراضي النفط في بلاد فارس وبلاد الرافدين ستتحكم في موارد إمداد غالبية النفط السائل في المستقبل[81].

واختتم سليد مذكرته المدوية بالتوصية التالية: «ولذا، يجب أن نحكم قبضتنا مهما كلفنا الأمر على حقول النفط الفارسية وتلك الواقعة في بلاد الرافدين» و«يتعين علينا ألا نسمح بأي تدخل مهما كان نوعه لأية مصالح أجنبية مهما كانت متخفية». ولقد اعتبر أن هذه السيطرة الفعلية على إقليم حقول النفط ضرورة قطعًا حيث زعم أن «المعاهدات والاتفاقيات ما هي إلا حبر على ورق، ويمكن أن تُمزق تمزيقًا، ولا يُعتد بها بوصفها ضمانة كافية»[82].

ويبدو أن هانكي تفاعل مع نبرة الإلحاح السارية في مذكرة سليد فقام بتوجيها على الفور إلى وزير البحرية السير إيريك غيديس في الثلاثين من يوليو مصحوبة برسالة مفادها: «إذا كانت هذه المعلومات صحيحة، فمن الواضح أن فرض السيطرة

البريطانية على المناطق الغنية بالنفط في بلاد الرافدين وبلاد فارس، وإقامة حدود استراتيجية مناسبة لتكون غطاء لها، سيصبح واحدًا من الأهداف الرئيسة للحرب البريطانية». وأضاف هانكي أنه «يبدو من المستحسن قبل المبادرة بمناقشة السلام أن نستحوذ على كل المناطق الحاوية للنفط في بلاد الرافدين وجنوب بلاد فارس أينما كانت»، واختتم مصرحًا أن «المسألة ذات أهمية مُلحة»[83]. وفي رسالة منفصلة لرئيس الوزراء، ناشد هانكي لويد جورج أن يتصرف قائلًا: «قد تكون هناك أسباب بخلاف الدواعي العسكرية المحضة تدعونا إلى التغلغل في بلاد الرافدين حيث يتمتع البريطانيون بقوة لا مثيل لها. ألن يكون من المميز قبل نهاية الحرب أن نؤمِّن آبار النفط القيِّمة في بلاد الرافدين؟»[84]. كما راسل هانكي وزارة الخارجية قائلًا: «آمل أن تكون قادرًا على قراءة مذكرة سليد لأنها بحق وثيقة مهمة بشكل محوري»، قبل أن يكرر أن السيطرة على المناطق الحاوية للنفط في بلاد فارس وبلاد الرافدين ينبغي أن تكون «غاية أساسية من غايات الحرب البريطانية». وبالتالي، اقترح هانكي على بلفور أنه «في تصريحك إلى مجلس وزراء الحربالإمبراطوري، ينبغي أن تلح على هذه المسألة»[85].

ولا شك أن هانكي أصيب بخيبة أمل كبيرة لما وجد أن دفاعه عن فكرته لم يسفر عن أية نتائج إيجابية كان يتوقعها. ففي حوار وجيز مع بلفور، علَّقَ وزير الخارجية بأن أي استبقاء أو تمديد للسيطرة البريطانية على حقول النفط ببلاد الرافدين وبلاد فارس «هو غاية حربية إمبريالية محضة». واستتبع ذلك استجابة دفاعية من هانكي الذي خط خطابًا آخر إلى بلفور في 12 أغسطس، أي في اليوم السابق لانعقاد اجتماع مجلس وزراء الحرب الإمبراطوري لمناقشة غايات الحرب، قال فيه:

افترض أن المسألة لو عُرضت بصراحة كصراحتي ستبدو إمبريالية الطابع، ولو أن هذا لا يصدمني، وأن الأمر سيمثل صدمة للرئيس وِلسون وبعض حلفائنا. ومع ذلك، يبدو لي، حتى من وجهة نظر مثالية، أنه ليس هناك مفر من استحواذنا على المناطق الشمالية لبلاد الرافدين[86].

وقد طرح هانكي بشكل كاشف البديل للسيطرة البريطانية باعتباره «تسليمًا» للمناطق المحتلة في الشرق الأوسط إلى «حكم الأتراك المدمر»[87]. ويبدو أن فكرة السماح لشعوب المنطقة باختيار شكل حكمها كانت غائبة تمامًا عن النقاش حيث صارع واضعو السياساتالبريطانيون الملتزمون «بالطريقة التقليدية لتسيير الأمور» من أجل التحايل على الإجماع الدولي الجديد الذي يتشكل حول فكرة تقرير المصير القومي. فها هو أرنولد وِلسون المندوب البريطاني في بلاد الرافدين يبدي تجاهلًا مثيلًا حيث أورد في مذكراته فترة ما بعد الحرب كيف أن النهاية الوشيكة للأعمال العدائية أدت به إلى الحث على «بذل كل الجهود الممكنة... الاستفادة بأكبر قدر ممكن من الأراضي الواقعة على ضفتيْ نهر دجلة قبل أن ينكشف أمرنا». ولذا احتُلَّت مدينة الموصل، وهي التي يُعتقد على نطاق واسع (عن حق) أنها تقع في قلب أغنى حقول النفط في بلاد الرافدين، في 10 نوفمبر 1918. ولعل هذا الاحتلال سبق بيوم واحد نهاية الحرب في أوروبا، لكنه جاء بعد أحد عشر يومًا من إنهاء هدنة مودروس (نظريًا) الأعمال العدائية مع الدولة العثمانية في منطقة الشرق الأوسط[88].

وعلى أية حال، فإن مناصرة هانكي المُلحّة لفكرته أثمرت في نهاية المطاف حيث أخبر بلفور الاجتماع المنعقد لمجلس وزراء الحرب الإمبراطوري في 13 أغسطس أن بريطانيا لا تستطيع السماح بإعادة بلاد الرافدين إلى السيطرة العثمانية أو الحكم العربي. وبدلًا من ذلك، ستكون تلك المنطقة الاستثناء للتصريحات السياسية البريطانية فيما يختص بمستقبل منطقة الشرق الأوسط[89]. ومع ذلك، كما بيّنَ القسم السابق، عطل هذه الخطوة الإعلان الإنجليزي الفرنسي اللاحق في 7 نوفمبر 1918. ولا ريب أن التناقضات الصارخة المتأصلة في السياسة البريطانية تجاه المنطقة تلخصت في بلاد الرافدين حيث تعارضت المفاهيم الفكرية المتعلقة بتقرير المصير الوطني مع المصالح الاستراتيجية والتجارية الإمبريالية. وجدير بالمعرفة أن الإعلان الإنجليزي الفرنسي صُرِّح به في الوقت نفسه الذي كانت فيه وحدات أرنولد وِلسون العسكرية تتقدم شمالًا لتأمين مكاسبها في الموصل بحيث ينجون بتلك الفعلة الاستباقية. وقد تجاهلت فرنسا هذه الخطوات البريطانية وتطلعت إلى التستر على مصالحها

الخاصـة مـا بعـد الحـرب فـي سـوريا، وهـي التـي سـتجعلها فـي مواجهـة مباشـرة مـع الحركـة القوميـة العربيـة. ويعنـى الفصـل الأخيـر مـن هـذا الكتـاب بالتمحيـص فـي هـذه المنـاورات السياسـية بالكامـل حيـث أتـاح الإجمـاع المتقلقـل الـذي تشـكّل إبّـان الحـرب بخصـوص المصالـح البريطانيـة والفرنسـية والعربيـة المجـال لمنافسـة مباشـرة محتدمـة خـلال الفتـرة بيـن عامـيْ 1919 و1922.

الفصل الثامن

تسويات ما بعد الحرب، 1919-1923

وثّـقَ الفصـل السـابق للشـبكات المتداخلـة للأعمـال الدبلوماسـية فتـرة الحـرب والاتفاقيـات السـريّة والعهـود المتضاربـة التـي بـدأ اللثـام يُمـاط عنهـا عـام 1918. وعجَّـلَ مـن هـذه العمليـات المعقـدة إلـى حـد بعيـد الانهيـار المفاجـئ لـدول المركـز فـي الفتـرة بيـن أغسـطس ونوفمبـر 1918. وفتـح انتهـاء الأعمـال العدائيـة البـاب علـى مصراعيـه فـي ميـدان المعركـة لطموحـات متنافسـة مـن أجـل التسـوية السـلمية بيـن الأطـراف المتحاربـة والمجتمعـات المسـتضيفة لهـا التـي أنهكهـا الصـراع الممتـد لأربـع سـنوات. وفـي قلـب تلـك الطموحـات كان التضـارب مـا بيـن المحـاولات البريطانيـة والفرنسـية لتأميـن مكاسـب الحـرب وتمديـد أثرهـا لفتـرة مـا بعـد الحـرب والمطالبـات القوميـة المتصاعـدة فـي شـتى أرجـاء العالـم العربـي. وفاقـم مبـدأ الرئيـس ولسـون المتعلـق بتقريـر المصيـر مـن المزيـج المـؤرق للوعـي السياسـي الناشـئ والتعبيـر القومـي. فكانـت النتيجـة فتـرة متصلـة مـن الاضطرابـات التـي عصفـت بمزاعـم القـوى الإمبرياليـة الزائلـة فـي الشـرق الأوسـط خـلال الفتـرة بيـن عامـيْ 1919 و1922 حيـث خرجـت أجنـدات وطبقـات نخبويـة محليـة مـن عبـاءة الهيمنـة الاسـتعمارية لممارسـة أثـر قـوي علـى عمليـات اتخاذالقـرار فـي شـتى أرجـاء المنطقـة.

تبـدأ هـذه المقدمـة بالتركيـز علـى اتجاهيْـن أساسـييْن أثنـاء فتـرة مـا بعـد الحـرب مباشـرة. ويستكشـف الاتجـاه الأول أثـر المشـاق المتعـددة إبّـان الحـرب التـي واجهتهـا الشـعوب والحـركات فـي أرجـاء المنطقـة. فلقـد خلـق الأثـر التراكمـي لأربـع سـنوات مـن التشـرذم الاجتماعـي والتفـكك الاقتصـادي أزمـات عميقـة وجـدت لهـا متنفسًـا فـي تحـركات المقاومـة الفرديـة والجمعيـة لهيـكل القـوة السياسـية وتوازنهـا. وتقاطعـت عوامـل اجتماعيـة واقتصاديـة فـي المقابـل مـع الاتجـاه الثانـي الممثـل فـي اختفـاء نُخـب العصـر

العثماني حيث تنافست شخصيات قومية جديدة على الساحة مع طبقة جديدة من المدراء الاستعماريين الإنجليز والفرنسيين طمعًا في الهيمنة المحلية والإقليمية. ويعد هذا الاتجاه الثاني امتدادًا لتمحيص الفصل السابع في المناخ المتغير للسياسات الدولية إذ يستكشف كيف نفذ هذا التغير المناخي إلى أرجاء الشرق الأوسط رغم المحاولات البريطانية والفرنسية الساعية إلى كبته بعد عام 1918. فبينما سعى المسؤولون في لندن وباريس وميدانيًا إلى إعادة تقييم سياساتهم الإقليمية لتبرير استمرار بسط نفوذهم إبّان الحرب إلى فترة ما بعد الحرب، اصطدموا بشكل متزايد مع حلفائهم المحليين سابقًا.

وبالتالي سُحِقَت الآمال القومية المتصاعدة خلال مؤتمر باريس للسلام عام 1919. ولذا سيواصل هذا الفصل وصف كيف تلاقى الغضب الشعبي من محاولات القوى الإمبريالية إضفاء صفة الشرعية على حكمها وتعميق جذوره مع المشاق الاجتماعية والاقتصادية التي نالت تقريبًا من كل مجتمعات المنطقة. وكانت النتيجة اصطفاف قاتل لتحالفات متحولة حول برنامج غامض لحماية الموارد المحلية من المزيد من المطالبات الانتهازية وتعظيم المزايا السياسية المترتبة على اختيارات ومساومات زمن الحرب. ولقد مهد ذلك الطريق أمام تطورات في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا استمرت حتى عام 1922 الذي حدد فيه الإعلان البريطاني الأحادي الجانب عن الاستقلال المصري، علاوة على توقيع أول معاهدة إنجليزية عراقية بعد عام من مؤتمر القاهرة المُخزي، مقومات نظام الدول الحديث في الشرق الأوسط. وشهدت الفترة نفسها أيضًا عزل الفرنسيين لفيصل بن حسين من سوريا وإقامة أول نظام انتداب ما بعد الحرب للكيانات السياسية الجديدة لشرق الأردن وفلسطين.

ولذلك أدى التعرض للحرب العالمية الأولى ولتبعاتها المضطربة والمشاركة فيها إلى صنع الشرق الأوسط الحديث. وتجلى ذلك أكثر ما تجلى في تداعي الدولة العثمانية ونشأة النظام الدولي الحديث (ولو تحت حكم الانتداب). وبدّل ذلك المشهد السياسي للمنطقة جذريًا لكن أشكالًا أخرى لإعادة تنظيم المنطقة ظهرت أيضًا،

وتراوحت ما بين صعود ضرب جديد من القومية التي استطاعت التعبئة لتحالف أوسع لأغراض الدعم ودمج مكونات اقتصادية وصناعية، وتقسيم وتجزئة التحالفات والاتفاقيات التي عُقدت في زمن الحرب والتي ما برحت تستدعي ذكريات أليمة بعد مرور قرن، وإقحام النفط باعتباره غاية من غايات السياسة «الغربية» بما لها من تبعات جغرافية سياسية، ومجموعة من القرارات السياسية التي ما زال صداها يتردد عبر المنطقة على مدار قرن من اتخاذها. وبعد عقد من الزمان شهد تدخلاً غربيًا متجددًا في العراق، إضافة إلى ثورة الربيع العربي التي تهدد بإطاحة التسوية السياسية بعد عام 1918، من الواضح أن القضايا الخلافية الرئيسة تقتفي أثر جذورها وصولاً إلى القرارات التي اتخذت في الفترة ما بين عامي 1914 و1922.

ميراث مصاعب زمن الحرب

خضعت الحرب العالمية الأولى لتحليل حقيقي من حيث كونها ثورة في الشؤون العسكرية. فبداية من الطفرات التكنولوجية وتصنيع الحرب وانتهاء بالعلاقة ما بين السلطة السياسية والسلطة العسكرية والتخطيط للعمليات وتنفيذها، سلطت الحرب الضوء على لحظة فارقة في الشؤون العسكرية الحديثة. وفي منطقة الشرق الأوسط، ورغم أن المعارك لم تكن عنيفة ولا مركزة كما كانت على الجبهة الغربية،كانالأثر التراكمي لتلك السنوات الأربع على الأقل مدمرًا بالقدر نفسه بالنسبة لشعوب الشرق الأوسط وأقطاره. فلقد جعلت نشأة الحرب الحديثة المستندة إلى الثورة الصناعية القتال مختلفًا كل الاختلاف عن الحملات الاستعمارية ما قبل عام 1914 التي طالبت المجتمعات المضيفة لها بمطالب أقل بكثير. ففي أثناء الحرب العالمية الأولى، في المقابل،عُبئتالموارد المحلية واستنفذت بلا هوادة على نطاق مختلف كليًا بغية الوفاء بالمتطلبات الحتمية للدعم اللوجستي والإداري. وضاعف استغلال القوى العاملة والموارد الحيوانية ومصادرة المحاصيل لتأمين الطعام والسماد، والتفكك الاقتصادي الذي أصاب التجارة المحلية وطرقها، من أثر شكل من أشكال «الحرب الشمولية» على الشرق الأوسط التي انطوت على الاستغلال الواسع الأثر لكل من الموارد المدنية

والعسكرية، مهما كانت الحملات العسكرية هامشية بالنسبة للمقاتلين الأوروبيين. وفي حالة الإبادة الجماعية للأرمن وإعادة رسم الحدود السياسية على نحو اخترق المناطق الداخلية الاقتصادية والتجارية المستقرة منذ قديم الزمان وساهم في حدوث المجاعة في بلاد الشام وفي بلاد فارس، أمست الطبيعة «الشاملة» للحرب واقعًا مفجعًا[1].

ولذلك مَسَّ أثر أربع سنوات من الاقتتال كل جانب من جوانب الحياة. فقد أسهمت تعبئة الموارد المحلية فترة الحرب إلى حد كبير في تراكم المصائب التي نزلت بالشعوب على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي. ففي المناطق الريفية، عَطَّلَت مصادرة اليد العاملة والجمال والحمير والطعام والسماد إلى حد كبير أنماط العمالة والإنتاج الزراعيين، بينما حرم التوظيف والأسعار الثابتة أيضًا المزارعين من فرصة المشاركة في الأجور وأسعار السلع الأعلى التي طرأت بينما فاق الطلب العرض. وفي ظل حالات القصور الغذائي التي نجمت عن ذلك، شرع المنتجون المحليون في حماية الإمدادات وتخزينها للحيلولة دون تحويلها إلى الأسواق المدنية والعسكرية. ولقد أثَّرَ ذلك على نقل الموارد إلى المراكز الحضرية، وكان له وقع موهن تحديدًا على المجتمعات التي كان هامش قوتها الذي يؤمن لها البقاء محدودًا بالفعل. ولذاانطوى أثر الحرب الاقتصادي على تفاعلمعقد بين العوامل الاجتماعية والاقتصادية من ناحية والعوامل السياسية من ناحية أخرى على كاهل مجتمع محلي عصيّ. ولقد ضاعف هذا الأثر من الفوارق ما بين الشبكات التعاونية للوكلاء المحليين، وكثير منهم استفادوا من أنشطة زمن الحرب، وجموع الشعب والمجتمعات التي كانت تفتقر إلى مثل هذا القرب من السلطة للتخفيف من وطأة المطالب النهمة للحرب أو تحييدها.

ففي مستهل عام 1918، تقريبًا قبل عام من انتهاء الأعمال العدائية، حاقت بقطاع كبير من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ظروف صعبة جدًا. ولقد وثقت الفصول السابقة المجاعة القاتلة التي ضربت سوريا ولبنان منذ عام 1915 فصاعدًا.

وبينما امتدت الحرب إلى عامها الثالث ومن بعده الرابع، أمست حالات القصور في الغذاء والسلع الأساسية أكثر تفشيًا عبر المنطقة. وتسبب إيفاد جيوش قوامها مئات الآلاف من المقاتلين ووحدات دعم غير قتالية ملحقة بها فيزيادة مهولة في المطالبات العسكرية للموارد المدنية التي أمست بالفعل أكثر ندرة في ظروف زمن الحرب. ففي مصر، شعر سكان المناطق الحضرية بحالات قصور شديد في المواد الغذائية عام 1917 نظرًا للمطالبات العسكرية وتراجع الإمدادات الأوروبية المستوردة وإحلال محاصيل القطن محل الحبوب. وأدى ذلكإلىالضغوط التضخمية المتصاعدة التي زادت بشكل حاد بين عاميْ 1917 و1918 بعد أن زادت بثبات بين عامي 1915 و1916. وكما لاحظ جويل بينين وزاكاريلوكمان في كتابهما «عمال على ضفة النيل» Workers on the Nile، فإن الأثر التراكمي لندرة المواد الغذائية والتضخم دفع كثيرًا من المصريين إلى هاوية الجوع بحلول عام 1918[2]. وبحلول الخريف، كانت حالات ندرة الطعام قد تفشت حتى في المناطق الريفية بمصر أيضًا، وأمسى الموقف حرجًا إذ بدأ الفلاحون في حجز محاصيل القمح لاستخدامهم الشخصي لأن الذرة التي عادة ما كانوا يستهلكونها قد صودرت[3].

ولقد تكررت الظروف المتدهورة في مصر في مناطق إقليمية أخرى من الصراع. فقد حرم انقسام بلاد الرافدين إلى مناطق سيطرة متنافسة بين البريطانيين والعثمانيين المناطق الحضرية من أراضيها الزراعية الداخلية التقليدية. وكما حدث في مصر، تضافرت الأسعار المتصاعدة مع حالات النقص المتفاقمةالتي زادتها حدة أيضًا آثار الحصار الاقتصادي الذي ضربته الجيوش المتحاربة للجانبين.حتى أن مدينة وإقليم الموصل دخلت في حالة مجاعة بحلول نوفمبر عام 1918 حيث لقي آلاف السكان حتفهم جوعًا. وذكر المؤرخ عالم الاجتماع العراقي غسان عطية أن الناس في شمال بلاد الرافدين «كانوا حريصين على أن يروا نهاية لهذا الصراع لأنهم كانوا يعقدون الآمال على أن تجلب لهم نهاية الحرب إمدادات غذائية من الأقاليم الشمالية الواقعة تحت السيطرة البريطانية»[4]. ومن المثير للجدل أن المسؤولين البريطانيين نجحوا وحسب في تجنب خطر وقوع مجاعة في بغداد —الأمر الذي كان يمكن أن

يكـون كارثيًـا سياسـيًا– بتحويـل مسـار الإمـدادات الغذائيـة الضروريـة جـدًا مـن الأقاليـم والقـرى الزراعيـة القبليـة الكائنـة بطـول نهـري دجلـة والفـرات. ولـذا «كانـت بغـداد آمنـة علـى حسـاب المـدن الأصغـر» ممـا كان لـه تبعـات وخيمـة علـى مـدن كالنجـف الأشـرف حيـث أدى الغضـب الداخلـي المتصاعـد مـن الأسـعار المتزايـدة إلـى قتـل المنـدوب البريطانـي هنـاك فـي مـارس عـام 1918[5].

وتدهـورت الظـروف أيضًـا فـي كردسـتان العـراق وشـمال غـرب بـلاد فـارس تدهـورًا شـديدًا عـام 1917 حيـث شـاعت بقـدر أكبـر حـالات النـدرة فـي القمـح وغيـره مـن محاصيـل صناعـة الخبـز. وبحلـول نوفمبـر مـن العـام نفسـه، كان النـاس يلقـون حتفهـم يوميًـا مـن سـوء التغذيـة فـي مدينـة تبريـز الفارسـية، وطـوال عام1918وُجهـت أعـداد متزايـدة مـن القـوات البريطانيـة والهنديـة فـي بـلاد الرافديـن لإدارة عمليـات «تخفيـف أعبـاء المجاعـات» عبـر الحـدود الفارسـية إثـر سلسـلة مـن حـالات فسـاد المحاصيـل وفتـرة مسـتمرة مـن الجفـاف. وإذ حوصـر الجـزء الشـمالي مـن بـلاد فـارس وإقليـم كردسـتان العـراق فـي محيـط الحمـلات الشرسـة مـا بيـن الـروس والعثمانييـن فـي القوقـاز والمطالـب الشـرهة لاقتصـاد الحـرب التـي فرضهـا الجانبـان، فقـد تأثـرت تلـك المناطـق بشـدة بالانقطـاع الاقتصـادي الناجـم للتجـارة الإقليميـة. ولقـد تسـبب ذلـك فـي انهيـار إيـرادات تعرفـة الـواردات الـذي تضاعـف لاحقًـا إثـر القـرار البريطانـي بفـرض تعرفـة خاصـة بالإنجليـز علـى التجـارة الفارسـية مـع بـلاد الرافديـن، وقـرار آخـر مثيـر للجـدل بمنـع سـداد العوائـد النفطيـة لحكومـة بـلاد فـارس. وقَـدَّرَت الأبحـاث الأخيـرة أن ربـع سـكان الجـزء الشـمالي لبـلاد فـارس قضـوا نحبهـم فـي المجاعـة التـي حدثـت فـي الفتـرة بيـن عامـي 1917 و1919[6].

ولـم يكـن الأثـر الاقتصـادي للحـرب علـى الدولـة العثمانيـة أقـل وقعًـا. فالأرقـام التـي جمعهـا المـؤرخ الاقتصـادي التركـي شـوكت باموكتُقَـدِّر أن إجمالـي الناتـج المحلـي تراجـع بنسـبة 40فـي المائـة خـلال فتـرة الحـرب، بينمـا انهـار الاسـتهلاك المحلـي بنسـبة تراوحـت مـا بيـن 35فـي المائـة و45فـي المائـة. وسُـجلت تراجعـات أخـرى شـبيهة فـي إنتـاج القمـح

والأغنام والماعز (بنسبة 40 في المائة) وأعداد دوابالجر (أكثر من 50 في المائة)[7]. وفي تلك الأثناء، زادت تكلفة المعيشة في القسطنطينية بما يتجاوز عشرين ضعفًا خلال الفترة ما بين عاميْ 1914 و1918، وبلغ التضخم ذروته بنسبة وصلت إلى 600 في المائة عام 1917، وهو رقم شبيه بنسبة التضخم في روسيا قبل الثورات التي اندلعت فيها مباشرة. ويحدد باموك أيضًا ويُقَدِّر الثمن الباهظ الذي دفعه البشر خلال سلسلة من الصراعات والاضطرابات التي حاقت بالدولة العثمانية في العقد الأخير لوجودها. وشملت تلك السنوات حربي البلقان بين عاميْ 1912 و1913، والحرب العالمية الأولى، وحرب التحرير التركية التي وقعت عام 1922 «التي خلالها، ونتيجة لتلك التغييرات المهولة، بلغ تعداد سكان تركيا حوالي 13 مليون نسمة في نهاية عام 1924؛ ومن النسبة المتراجعة البالغة 20 في المائة تقريبًا خلال عقد مضى، مات أكثر من النصف وفر من تبقى منهم أو هاجر»[8]. ولقد لخص باموك ببلاغة العقد الذي شهد اضطرابات كارثية قائلاً:

كثير من مزارعي غرب الأناضول الساعيين للكسب التجاري والمدفوعين بالتصدير، إضافة إلى الحرفيين وكبار التجار والمرابين الذين ربطوا ما بين المناطق الريفية والموانئ والمؤسسات التجارية الأوروبية خلال القرن السابق للحرب اختفوا تمامًا. علاوة على ذلك، تأثرت الزراعة والصناعة والتعدين سلبًا بسبب تدمير المعدات وتراجع أعداد حيوانات الجر وانحسار المساحات المزروعة خلال ذلك العقد[9].

ويقدم لنا إيريك زوركر أرقامًا شبيهة عمومًا حيث يقدر أن سكان منطقة الأناضول التي تمثل قلب الدولة العثمانية تراجعتعدادهم بمعدل يصل إلى 17.7في المائة خلال هذا العقد من الكوارث والممتد بين عاميْ 1912 و1922، مقارنة بمعدل وفيات مقداره 3.5 في المائة «فقط» في فرنسا خلال سنوات الحرب. وأضاف قائلاً:

إذا استخدمنا التعريف الأكثر نفعًا لاصطلاح «الفاقد في التعداد السكاني» — وهو الفارق ما بين التعداد السكاني الفعلي وإجمالي تعداد السكان المرتقب حال استمرار معدل النمو الطبيعي خلال سنوات الحرب— سنجد أن الفارق أكثر من

مذهل: فقد بلغت نسبة الفاقد في التعداد السكاني في تركيا 26 في المائة مقارنة بواحد في المائة في فرنسا... وكانت هناك 12 مقاطعة، أغلبها في الغرب، تجاوزت فيها نسبة الأرامل في المجتمع النسائي 30 في المائة..[10].

وبالنظر إلى ما سبق، فإن وصف جون داروين لمصر ما بعد الحرب باعتبارها معتركًا اقتصاديًا واجتماعيًا تأمل دقيق للأثر الكارثي للحرب العالمية الأولى على المجتمع المحلي[11].فعلاوة على المتطلبات العسكرية المرهقة التي أنهكت الموارد المدنية الشحيحة، كان وباء الأنفلونزا العالمي قد بدأ يضرب بقوة المجتمعات التي كانت تعيش بالفعل على شفا المجاعة. وفاقم من ظروف المعيشة المضنية هذه مناخ الأمل والترقب الحماسي في أن تتمخض نهاية الحرب عن تغيرات سياسية كبيرة في أرجاء الشرق الأوسط. ولقد تقاطعت هذه العوامل على الفور بعد نهاية الأعمال العدائية في نوفمبر عام 1918.

مؤتمر السلام ونشأة تركيا الحديثة

اجتمع قادة ومسؤولون من شتى أرجاء العالم في باريس عام 1919 لحضور سلسلة من مؤتمرات السلام التي وضعت رسميًا نهاية للحرب العالمية الأولى. وقد وصفت مارغريت ماكميلانببراعة متناهية ذلك المشهد في الفقرة الافتتاحية في تقريرها عن ذلك المؤتمر قائلة:

كان مؤتمر السلام أهم حدث على الساحة العالمية، وكان صُناع السلام أقوى رجالات العالم وأعظمهم نفوذًا. والتقوا يومًا تلو الآخر. وتجادلوا وتناقشوا وتشاجروا وتصالحوا مجددًا. وعقدوا صفقات، وكتبوا معاهدات. وأنشأوا دولاً ومنظمات جديدة... وكانت باريس على حين غرة حكومة العالم ومحكمة استئنافه وبرلمانه ومحط مخاوفه وآماله[12].

وقد هيّمنت القوى «المنتصرة» الأربعة —بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا— على الأحداث، ولو أن الإيطاليين انسحبوا لاحقًا من المؤتمر. ورغم أن

معاهدة فرساي التي تم التوقيع عليها بعد هزيمة ألمانيا في 28 يونيو 1919 (الذكرى الخامسة لاغتيال الأرشيدوقفرانز فرديناندفي سراييفو والذي أدىإلى اندلاع الحرب) تعتبر إلى حد بعيد أشهر نتيجة ترتبت على المؤتمر، فإن ثمة أربع معاهدات أخرى صيغت للتعاطي مع جوانب إقليمية مختلفة من الصراع؛ وهي بحسب الترتيب الزمني: معاهدة سان جيرمان مع النمسا في 10 سبتمبر 1919، ومعاهدة نوي-سور-سين مع بلغاريا في 27 نوفمبر 1919، ومعاهدة تريانون مع المجر في 4 يونيو 1920، وأخيرًا معاهدة سيفر مع الدولة العثمانية في 10 أغسطس 1920 (وهي التي نسختها لاحقًا معاهدة لوزان مع جمهورية تركيا في 24 يونيو 1923).

ولقد تطلّب الأمر أكثر من 16 أسبوعًا من المفاوضات المضنية لإنجاز معاهدة سيفر. فإثر الاجتماعات الأولى في باريس ربيع وصيف عام 1919، استمرت المفاوضات حتى عام 1920 حيث عقدت اجتماعات غاية في الأهمية بمؤتمر لندن (12-24 فبراير) ومؤتمر سان ريمو (19-26 أبريل). وعلاوة على صياغة معاهدة عقابية على بقايا الدولة العثمانية، واجهت القوى المنتصرة أيضًا مهمة التوفيق بين أهداف واتفاقيات زمن الحرب المتشعبة. وعلى خلفية الحركات القومية الناشئة في أنحاء الشرق الأوسط والتحالف العسكري والقومي التركي الذي أطاح البقايا الأخيرة للحكم العثماني، حاول حلفاء زمن الحرب الحفاظ على السيطرة السياسية بابتكار ونشر نظام للانتدابات لإدارة المنطقة. وكانت النتيجة تشكيل حدود الشرق الأوسط الجديد، ولو أن ذلك تم في مواجهة معارضة جماهيرية وسياسية من السكان الأصليين.

واختصت معاهدة سيفر بتقسيم الدولة العثمانية وتحديد طبيعة الكيانات السياسية التي تشكّلت ما بعد الحرب. وعلاوة على تشجيع الأكراد والأرمن على أن ثمة ضرب من الاستقلال المشروط سيُمنح لهم، فرضت المعاهدة شروطًا سياسية ومالية صارمة على الآستانة. ومُنحت فرنسا وإيطاليا واليونان مناطق نفوذ في جنوب وغرب ووسط الأناضول، بينما حققت اليونان أيضًا مكاسب إقليمية كبيرة في منطقة تراقيا. ولقد أطاحت هذه التقسيمات تمامًا الدولة العثمانية من الأراضي الأوروبية،

بينما ظلت الآستانة نفسها تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي والإيطالي الذي بدأ في 12 نوفمبر 1918.

ولكن لم يكد حبر المعاهدة يجف حتى أمست مهجورة بفعل التحولات الجذرية الطارئة على الموقف على أرض الواقع. فثمة حركة قومية تركية أسسها الظافر الأسطوري بمعركة غاليبولي مصطفى كمال «أتاتورك» كانت شوكتها تقوى تدريجيًا بينما استثمرت مشاعر الغضب والامتهان الشعبي ونظمت مقاومة سياسية وعسكرية للاحتلال. وما بدأ على هيئة مظلة للجماعات القومية في أرجاء البلد سرعان ما تضخم وأمسى حركة قومية مُوَحَّدة ضد القوى الاستعمارية. وانعقدت سلسلة من المؤتمرات في النصف الثاني من عام 1919 وضع خلالها مندوبون من شتى أرجاء تركيا بيانًا سياسيًا. وفي مارس عام 1920 في أثناء الإعداد للمداولات النهائية حول معاهدة سيفر، انفصلت الحركة القومية التركية عن الدولة العثمانية وأسست برلمانًا خاصًا بها تحت اسم الجمعية الوطنية الكبرى في أنقرة. واجتمعت للمرة الأولى في 23 أبريل بينما كانت قوات التحالف مجتمعة في سان ريمو لوضع الشكل النهائي لشروط تسوية ما بعد الحرب[13].

وتداعت العلاقات ما بين الحركة القومية التركية والحكومة العثمانية بلا رجعة في أكتوبر 1920. وبحلول تلك المرحلة، مُنيت الدولة بالعديد من الصراعات المتداخلة من أجل السيطرة الإقليمية والنفوذ الجغرافي الاستراتيجي. واشتبكت القوات الفرنسية واليونانية والأرمينية جميعًا مع وحدات بقيادة الجمعية الوطنية الكبرى في قطاعات منفصلة من تركيا. وبينما زادت حالات الهرب من العسكرية من سطوة القوات الكمالية، سحقوا القوات الأرمينية في نوفمبر 1920. وفي مارس 1921، وقعت تركيا معاهدة موسكو مع الاتحاد السوفيتي التي تضمنت ضم بقايا أرمينيا إلى الجمهورية السوفيتية وأعادت ولايتي أرداهان وقارص اللتين خسرتهما الدولة العثمانية إلى تركيا. وتراجع دعم الحلفاء للاستقلال الكردي أيضًا في مواجهة المكاسب التركية. وفي تلك الأثناء، انسحبت القوات الفرنسية من منطقة قيليقية

التركيـة الجنوبيـة عـام 1921 إثـر صـراع عنيـف مـع القومييـن الأتـراك كلَّـفَ الفرنسـيين أرواحًـا وأمـوالًا طائلـة. وأخيـرًا، حققـت القـوات اليونانيـة التـي كانـت تحـارب لتحقيـق «الفكـرة الكبـرى» للسياسـي اليونانـي إلفثيريـوس فينيزيلـوس فـي بدايـة الأمـر مكاسـب كبيـرة حيـث تغلغلـوا عبـر الأناضـول باتجـاه أنقـرة عـام 1921. غيـر أن هجمـة كمـال أتاتـورك فـي أغسـطس 1922 حطمـت معنويـات الجيـش اليونانـي المنتشـر علـى نطـاق مبالـغ فيـه، وطاردتـه إلـى مدينةسـميرنا السـاحلية. وبعـد أن دخـل كمـال أتاتـورك سـميرنا فـي سـبتمبر، أحـرق المدينـة ونهـب خيراتهـا وأجبـر مجتمعاتهـا اليونانيـة والأرمينيـة علـى الفـرار منهـا، ولـم يكـن بيـد ممثلـي القـوى العظمـى حيلـة فيتدخلـوا لمنـع الكارثـة[14].

وبخـلاف ترسـيم الحـدود الحديثـة لتركيـا واليونـان (والتسـبب فـي كارثـة فـي الوقـت نفسـه حيـث «تبـادل» مئـات الآلاف مـن اليونانييـن والأتـراك مواقعهـم رغمًـا عنهـم)، كان لإنهـاء الحـرب اليونانيـة التركيـة تبعـة أخـرى. فقـد أفضـت إلـى السـقوط السياسـي للقائـد البريطانـي إبّـان فتـرة الحـرب ديفيـد لويـد جـورج الـذي ظـل حزبـه الليبرالـي فـي تحالفـه مـا بعـد عـام 1915 مـع المحافظيـن. وكان ذلـك نتيجـة «أزمـة تشـاناك» التـي وقعـت فـي أكتوبـر 1922. فقـد فتحـت الهزيمـة السـاحقة للقـوات اليونانيـة فـي الأناضـول البـاب علـى مصراعيـه لكمـال أتاتـورك للتوغـل شـمالًا باتجـاه الآسـتانة. وللحيلولـة دون توغلـه، دعـت حكومـة لويـد جـورج فـي لنـدن الإمبراطوريـة البريطانيـة وحلفاءهـا إلـى الصمـود فـي أرض المعركـة فـي تشـاناك علـى السـاحل الآسـيوي للدردنيـل. ولكـن، فـي تطـور مهيـن، اسـتجابت نيوزيلانـدا وحدهـا للدعـوة للأعمـال العدائيـة بينمـا رفضـت فرنسـا وإيطاليـا دعـم لويـد جـورج. وبينمـا تصاعـدت نبـرة النقـد للويـد جـورج، صـوَّتَ شـركاء التحالـف المحافـظ علـى الانسـحاب مـن الحكومـة، الأمـر الـذي أدى إلـى إقامـة انتخابـات عامـة فـاز بهـا المحافظـون فـوزًا سـاحقًا فـي 15 نوفمبـر[15].

وبينمـا اسـتمر «الثلاثـي» المنتصـر فـي السـلطة بعـد اسـتقالة جـورج كليمنصـو فـي ينايـر 1920، وتنحـى وودرووِلسـون الفاقـد للأهليـة فـي ينايـر 1921، كان رحيـل لويـد جـورج المفاجـئ مـن منصبـه الحلقـة الأخيـرة التـي تربـط تلـك المرحلـة بزمـن الحـرب.

ولمّا اكتُشِفَ أن معاهدة سيفر عصية على النفاذ، حلت محلها معاهدة لوزان في يوليو 1923. ولقد مدت تلك المعاهدة الاعتراف الدولي بالسيادة التركية في مقابل التخلي عن المطالبات الإقليمية بالمناطق غير التركية كلها للدولة العثمانية. وأنهت قوات التحالف أيضًا احتلالها العسكري للآستانة (في سبتمبر عام 1923)، وأُعلنت أنقرة عاصمة جديدة لجمهورية تركيا في 29 أكتوبر، وهو اليوم الذي ما برح الأتراك يحتفلون به يومًا وطنيًا. وفي مارس 1924، أبطلت الحكومة التركية الجديدة برئاسة أتاتورك رسميًا الخلافة العثمانية التي تعد الرمز العثماني الأخير، وشرعت في القيام بعملية إعادة تشكيل لتركيا فحولتها إلى دولة قومية أوروبية علمانية حديثة[16].

الثورة في مصر

كانت الاضطرابات التي وقعت في تركيا عاملًا من العوامل الكامنة وراء خطط الحلفاء لإعادة تنظيم الشرق الأوسط بعد الحرب. وكان العامل الثاني المعارضة الشعبية والسياسية الواسعة النطاق من جانب أطراف محلية غاضبة بسبب تمدد نفوذ زمن الحرب إلى فترة ما بعد الحرب. ويستكشف هذا القسم والقسمان التاليان له الخلفيات القومية في مصر وسوريا وبلاد الرافدين لإثبات فكرة أنه لم يكن للممثلين الإمبرياليين صياغة السياسة من وراء الكواليس. ففي المناخ المحموم لعام 1919، وفي ظل الترقب الواسع النطاق للتغيرات السياسية الجذرية المتسقة مع البيانات المتعددة للحلفاء، تجلى الوعي القومي الصاعد في تشكل حركات قومية بحق لأول مرة على الإطلاق. ولقد يسرت تلك الحركات من تلاقي مشاعر الغضب والإحباط تجاه السيناريوهات والمؤسسات السياسية التي يديرها النخبة ويصعب الوصول إليها نسبيًا. ولقد جعل التسييس الناتج عن ذلك من الصعب بمكان الدفاع عن الوضع القائم الذي يسعى إليه المسؤولون البريطانيون والفرنسيون بينما جاهدوا من أجل إدارة ممتلكاتهم الإمبريالية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

وفي 13 نوفمبر 1918، أي بعد يومين وحسب من وضع الهدنة التي تم توقيعها في فرساي حدًا للحرب العالمية الأولى، التقى وفد من ثلاثة سياسيين مصريين

قوميين بالسير ريجينالدونغت المندوب السامي البريطاني في القاهرة. وقد طلب الوفد بقيادة الزعيم سعد زغلول أن يسمح لهم بالسفر إلى لندن لعرض قضيتهم الساعية إلى تشكيل حكومة مصرية ذاتية أمام الحكومة البريطانية. وتوقع الرأي العام الشعبي في مصر أن تساعد تلك الفرصة على المشاركة في مؤتمر باريس للسلام، ولاسيما بعد أن تلقى الوفد أنباءً مفادها أن وفدًا من الحجاز بقيادة الأمير فيصل بن حسين ابن شريف مكة سيسافر إلى باريس. علاوة على ذلك، ثارت ثائرة الوفد المصري بفعل تقرير اللجنة البريطانية التي اقترحت استحداث هيئة تشريعية ذات مجلسيْن من شأنها، ولأول مرة في تاريخ مصر، أن تأتي بالطوائف الأجنبية إلى عملية اتخاذ القرار الرسمية. وتلاقت تلك المشكلات السياسية مع القضايا ذات الصلة بزمن الحرب التي تضمنت التجنيد القسري لمئات الآلاف من المصريين في فيلق العمل المصري وفيلق النقل بالجمال، علاوة على الشراء القسري للقطن والمواد الغذائية لاستخدامات الجيش بأسعار أقل بكثير من أسعار السوق السائدة[17].

ولقد مهد استمرار الإجراءات البريطانية المشددة إلى ما بعد زمن الحرب في مصر الطريق أمام تلاقي مشاعر الغضب الشعبي. فقوبل تقرير السير وليم برونيات بمعارضة حادة من سلطان مصر الموالي لبريطانيا آنذاك وكذا رئيس وزراء مصر حسين رشدي الذي استقال غاضبًا وترك مصر دون حكومة خلال الأشهر الثلاثة الحرجة ما بين نهاية الحرب في نوفمبر 1918 واندلاع الثورة المصرية في مارس 1919. كمانفَّرت المندوبية البريطانية أيضًا ركنيْن من أركان المجتمع المصري التي قامت عليها الدولة الكولونيالية البريطانية؛ ألا وهما الموظفون المدنيون والمحامون. وقد صار تأثير هاتيْن الفئتيْن واضحًا خلال الفترة المؤدية إلى ثورة مارس إذ أضربتا احتجاجًا على ما تلا ذلك من اعتقال لقيادة الوفد، مما أصاب جهاز الدولة بالشلل. وأخفق المستشارون البريطانيون الذين تحملوا مسؤولية إدارة مصر يوميًا في التنبؤ بتصاعد تلك الضغوط المحرضة وملاحظتها[18].

ولذا نظر المسؤولون البريطانيون باستخفاف للمطالب المصرية بإعادة النظر في

اتفاقيات زمن الحرب التي اعتبرها المصريون ذريعة مؤقتة عام 1914 ومراجعتها بعد أن توقفت الأعمال العدائية الآن. ففي لندن، قال وزير الخارجية آرثر بلفور إنه «ما من غاية مفيدة يمكن تحقيقها بالسماح للقادة المصريين بالمجيء إلى لندن وتقديم مطالبات مبالغ فيها لا يمكن الوفاء بها». ولقد شكك أيضًا في شرعية وفد سعد زغلول الذي زعم أنه لا يُعتد به ممثلاً للشعب المصري، وأضاف أن الحماية البريطانية ما برحت سارية حيث لم يُعلن رسميًا بعد عن إفشاء السلام[19]. والواقع أن التفريق دون داعٍ بين نهاية الأعمال العدائية وتوقيع اتفاقية للسلام كان تكتيكًا للإرجاء والتأخير استعان به المسؤولون البريطانيون أيضًا في بلاد الرافدين في يوليو عام 1919 لتبرير إقامة احتفالات يوم السلام احتفاء بتوقيع معاهدة فرساي. وفي غياب معاهدة سلام مع الدولة العثمانية (وهي التي تم توقيعها في سيفر في أغسطس 1920)، حاول ضابط بريطاني وحده أن يفسر لرجاله في فيلق العُمال الهندي 11 (بومباي) قائلاً «إن هذا السلام كان بين الحلفاء وألمانيا وحسب، وإننا ما زلنا في حالة حرب»[20].

وعلى أية حال، فإن أنباء السماح لفيصل بن الحسين، الابن الأشهر لشريف مكة، بقيادة وفد عربي من الحجاز لحضور مؤتمر باريس للسلام قد أشعلت الرأي العام في مصر أكثر. وأدت أيضًا إلى احتكاك شديد مع المسؤولين الفرنسيين الذين كانوا مصرين على ضمان نفوذهم في سوريا بحسب اتفاقية سايكس-بيكو رغم احتلال جيش فيصل العربي لها في أكتوبر 1918[21]. وعلاوة على الامتعاض الباريسي وراء الكواليس حيال الخيانة البريطانية، بدأ القوميون المصريون التشكيك في المداهنة الجلية وراء قرار السماح للحلفاء البريطانيين بالسفر إلى باريس في ظروف محددة دون ظروف أخرى. ومن الملاحظ أنهم أشاروا إلى الدعم الشديد الذي قدمته مصر بوصفها قاعدة للحملات البريطانية في سيناء وفلسطين لدعم طلبهم مراجعة شروط وضع إعلان الحماية البريطانية على مصر في نوفمبر 1914. وكما جاء على لسان قاضٍ بريطاني مرموق بمحكمة الاستئناف المصرية، فإنه في عام 1914 ارتكبت بريطانيا»خطأً جسيمًا تمثل في تفضيل الحماية الغامضة غير المحددة بمدة...

كانت زاوية رؤيتنا للأمور معيبة، وفرصة إعادة علاقتنا مع مصر إلى نصابها الصحيح ضائعة»[22]. وفي تلك الأثناء، أقر لورنس جرافتي-سميث المسؤول البريطاني المبتدئ في المندوبية السامية في القاهرة لاحقًا بأن لندن انشغلت أكثر من اللازم بالإعداد للتعامل مع ألمانيا، وعليه «بدت أولوية الشكاية المصرية في خضم هذه الانشغالات ثانوية لا تراها العين»[23].

والحقيقة أن صرح الهيمنة البريطانية في مصر الذي أقيم بعناية زمن الحرب كان قد تداعى بين نوفمبر 1918 ومارس 1919. فبعد أن استقال رشدي، ظلت مصر دون رئيس وزراء، وخسرت السلطات البريطانية حليفًا سياسيًا قويًا ووسيلة لاختبار الموقف السياسي المتصاعد. ومع ذلك، فإن ثمة مشكلة محورية بين المسؤولين البريطانيين في القاهرة ولندن كانت تتعلق بعجزهم عن تحديد أو فهم إعادة التشكل الأعمق للمشهد السياسي الذي جلبته الحرب وتعهداتها. ولقد أخفقوا جميعًا فرادى وجمعاء في تحديد مدى استطاعة حزب الوفد استقطاب دعم جماعات اجتماعية-اقتصادية على نطاق واسع (ومتفرق). ومجددًا، كانت هذه ظاهرة شائعة بالمنطقة كلها يُستدل عليها، على سبيل المثال، بإعلان شباب عرب قوميين عن جمهورية باسم الجمهوريةالطرابلسية (ولو أنها لم تصمد طويلًا) استلهامًا من إحياء الوعي السياسي العربي في مصر نفسها خلال فترة الحرب. وحقيقة الأمر أن واحدًا من قادة تلك الجمهورية، ويُدعى عبد الرحمن عزام بك، كان قوميًا مصريًا أمسى لاحقًا أول أمين عام في عام 1945 للجامعة العربية[24]. وفي هذا السياق الحافل بالعلاقات العابرة للقوميات، ترسخ انتشار الأفكار بسرعة مذهلة إثر انتهاء الأعمال العدائية.

وفي بداية مارس عام 1919، كان قرار المسؤولين البريطانيين في القاهرة اعتقال سعد زغلول واثنين آخرين من أعضاء الوفد ونفيهمإلى مالطا بمثابة شرارة اندلاع الثورة المصرية. وقد توقع المندوب السامي البريطاني ونغت بثقة أن يفضي اعتقالهم إلى «ردة فعل مؤقتة لصالحنا»، وكانت وجهة نظره المستقبلية مشروطة بالذكرى المؤسسية لاستعراضات القوة ما قبل عام 1914[25]. حينئذ بدا اعتقال القيادات

القومية عادة كافيًا لقمع أية ثورات مفترضة. ولكن في ظل الظروف المختلفة تمامًا عام 1919، مثّلَ القرار تقديرًا سيئًا جدًا حقّرَ من شأن عمق ومدى التعاطف والدعم الشعبيين للحركة القومية. وأخفق أيضًا إحساس بريطانيا بالرضا عن الوضع القائم بالمثل في تحديد أمارات الاضطرابات المتزايدة بين وحدات قوة التجريدة المصرية التي كانت بانتظار أوامر تسريحها. فقد خرجت مظاهرة حاشدة تندد بالتسريح البطيء الذي بدأ في الخامس من أبريل عام 1919 بقاعدة القنطرة البريطانية الرئيسة على ساحل قناة السويس. وعندما لم يُستجب للشكاوى المبدئية، أعلنت الوحدات العسكرية إضرابها في أحد الفصح في 20 أبريل. وإذ استمر لأسبوع واحد وتزامن مع الثورة القومية في ربوع مصر، قض الاضطراب العسكري مضجع الجنرال ألنبي والقيادة العليا البريطانية. وألقى ألنبي في بداية الأمر باللوم على «ميكروب نقابيّ ما أصابهم بالسعار»، وأسف على أنه «لا أستطيع أن أطلق النار عليهم جميعًا بتهمة العصيان. ولذا يتعيّن عليّ أن أمارس مهام منصبي بأفضل ما يكون، ويجب أن أواصل عملية التسريح». ومع ذلك، استمرت الاضطرابات، وبحلول 17 مايو 1919 كان ألنبي يكتب وصفًا لرئيس الأركان الإمبريالية العامة الجديد في لندن الجنرال السير هنري ولسون مفاده أن «هناك اضطرابات واسعة وحالة من عدم الرضا بين صفوف الجيش، وفيما يتعلق بقسم الخدمات الإدارية تكاد الاضطرابات ترقى لمرتبة العصيان»[26].

ولقد اندلعت مظاهرات الطلبة في القاهرة والإسكندرية في 9 مارس، وسرعان ما تصاعدت نبرتها وتحولت إلى موجة من الإضرابات التي شملت عمال النقل والمواصلات والقضاة والمحاميين. وفتح الجامع الأزهر الشهير في القاهرة أبوابه للواعظين الأقباط في استعراض صارخ للوحدة الدينية، الأمر الذي كان إيذانًا بتعاون شبيه بين المساجد السنية والشيعية في بلاد الرافدين في العام التالي. وفي غضون ستة أيام، توسعت رقعة الاضطرابات من المدن إلى مواقع أخرى في أرجاء الريف المصري، وقُتل أكثر من 1000 شخص في أحداث الشغب اللاحقة. وتوقفت الحياة في مصر بسبب التظاهرات التي اندلعت في أرجائها حيث تداخل العنف الحضري مع حالة السخط في الريف وحملات اغتيالات الضباط والمسؤولين البريطانيين. ولعب

الموظفـون الحكوميـون والمحامـون السـاخطون دورًا محوريًـا فـي نقـل المُثُـل القوميـة مـن المـدن إلـى الأقاليـم حيـث نشـرت النـوادي والمنظمـات الاجتماعيـة العماليـة رسـالة النشـطاء إلـى أبعـد الحـدود. وقـادت زوجـات أبـرز رجـالات حـزب الوفـد، بمـن فيهـن صفيـة زغلـول، تظاهـرات شـاركن فيهـا نسـاء محجبـات دعمًـا للحركـة القوميـة، كمـا قمـن بتنسـيق إنتـاج الأعـلام وتوزيـع المنشـورات التـي ترسـم الخطـوط العريضـة لأهدافهـن. ولقـد أثـارت أفعـال هـؤلاء النسـوة، ولاسـيما المسـيرات والتظاهـرات، حفيظـة المسـؤولين البريطانييـن الذيـن لـم يـدروا كيـف يسـتجيبون لهـا[27]. وتداعـت الهيمنـة البريطانيـة مؤقتًـا فـور أن اسـتهدف المتظاهـرون شـبكات الاتصـال والنقـل والمواصـلات فـي العديـد مـن الأقاليـم. ويحتـج غولدبرغعـن اقتنـاع بـأن هـذه الأفعـال ارتقـت لاسـتراتيجية لحمايـة سـيطرة الفلاحيـن علـى الإمـدادات الغذائيـة المحـدودة بالحيلولـة دون الاسـتيلاء علـى السـلع النـادرة ونقلهـا إلـى المـدن خـلال فتـرة المعانـاة البشـرية الواسـعة النطـاق والجـوع الحقيقـي فـي ريـف مصـر[28].

ولذلـك اختلفـت القوميـة المصريـة بحسـب مـا تبناهـا المصريـون عـام 1919 جذريًـا عـن القوميـة المسـتترة مـا قبـل الحـرب. فقـد يسـر الاحتـكاك بالحـرب والمشـاركة فيهـا امتـزاج المطالـب الاقتصاديـة والسياسـية التـي أعطـت عمقًـا أكبـر للمنابـر القوميـة والدعـم الشـعبي. وكمـا ذكـر ألبـرت حورانـي، فـإن الإرث المميـز لمشـاركة مصـر فـي الجهـود الحربيـة تمثـل فـي تحـول القوميـة المصريـة مـن حركـة للنخبـة الحضريـة المثقفـة إلـى حركـة باسـتطاعتها اسـتقطاب الدعـم النشـط أو حتـى السـلبي لقطـاع عريض مـن الجماعات الاجتماعية-الاقتصاديـة المتداخلـة المصالـح[29]. والملاحظـأن هـذه القوميـة الجديـدة قـد تحللتمـن المعتقـدات الإسـلامية المُوَحَّـدَة والمواليـة للعثمانييـن بأشـكالها السـابقة مـا قبـل الحـرب، وأعربـت صراحـة عـن مبـدأ إيجابـي كان راسـخًا فـي إطـار عمليـة الفلسـفة السياسـية الليبراليـة[30]. وقـد لاحظـت المؤرخـة المصريـة عفـاف لطفـي السيد-مارسـو أيضًـا أن«الغـزوات الكولونياليـة سـاعدت دائمًـا علـى صعـود الحـركات القوميـة المُشَـدِّدَة علـى التمييـز الاقتصـادي والقانونـي والسياسـي الـذي لا ينفصـم عـن الحكـم الأجنبـي». ولقـد تفاقـم هـذا الوضـع عندمـا أمسـت أعـداد كبيـرة مـن الفلاحيـن المصرييـن منعزلـة

اقتصاديًا بفعل تحويل الموارد المدنية إلى الاستخدام العسكري ومصادرة محاصيلهم وعمالتهم وحيواناتهم المسخرة للأعمال الشاقة[31].

والمهم أن تكوين رؤية سياسية للاستقلال المصري مَكَّنَ حزب الوفد من الصمود في مواجهة الرفض المبدئي لمطالبه. وعكس ذلك عاملًا مميزًا آخر في التطور القومي، ألا وهو الإقرار بأن البرنامج الاقتصادي القوي محوري للتطور السياسي. ومرة أخرى، كان ذلك انفصامًا حاسمًا عن الحركات القومية ما قبل عام 1919. فقد هيّمن على عضوية حزب الوفد أصحاب أراضٍ وممولون ومديرون ومحامون وموظفون حكوميون وغيرهم من الموظفين الحضريين. ولا شك أن هؤلاء قد قدموا بشكل تراكمي نواة البرجوازية التجارية التي لها حصة اقتصادية في الاستقلال السياسي. وكانت طبقة رجال الأعمال الناشئة تلك تتمنى أنتستفيد من بدايات بدائل الاستيراد التي تطورت في مصر نتيجة تفكك الأسواق العالمية خلال فترة الحرب. علاوة على ذلك، فقد تمنوا استغلال التحول الكبير في الوضع المالي الخارجي لمصر الذي جلب للبلد فائضًا تجاريًا مهولًا. ومن الأمثلة البارزة على طبقة رجال الأعمال المصريين الخبير الاقتصادي طلعت حرب الذي كان أول مَن نادى بإنشاء بنك مصري أصيل (وهو ما تحقق له بإنشاء بنك مصر عام 1920) يتحدى الاحتكار البريطاني وغير المصري للمؤسسات المالية والاقتصادية في مصر، مثل البنك الأهلي المصري الخاضع للسيطرة البريطانية[32].ولقد ميّزت تلك الجهود الساعية إلى إيجاد بديل سياسي واقتصادي سارٍ للطبقة الحاكمة المتأثرة بالبريطانيين حزب الوفد عن الدوائر التركية- الألبانية للنخبة السياسية في مصر التي كان فيها رئيس الوزراء رشدي عضوًا بارزًا[33].

وكنتيجة لذلك، عندما بلغ غضب الوفد ذروته في مارس 1919، لم تكن ردة الفعل البريطانية متأهبة للظروف المتغيرة لتلك الفترة. ولقد يسّر إرث مظالم زمن الحرب المشكوك فيه من تسييس المجتمع المصري مما مَكَّنَ الوفد من استغلال الأسباب العميقة لحالة الإحباط والغضب والدعم الشعبي. وفاجأت الحركة الشمولية المترتبة على هذا الزخم والمعتمدة على تعبئة الشعب ومشاركته البريطانيين

مفاجأة مذهلة. ونجحت القيادة النخبوية للوفد في دمج قومية المُثُل في الدوائر الفكرية مع الأهداف الاجتماعية والاقتصادية لشرائح كبيرة من الشعب المصري. ولذا كانت قدرة الوفد المثبتة على توسعة رقعة سطوته إلى ما وراء الشخصيات البارزة المتعلمة الحضرية هي التي ميزت الاستقلال الحقيقي عن الماضي وزعزعت دعائم السياسية البريطانية في مصر. وفي خطوة يائسة، أطاحت وزارة الخارجية ونغت وأحلت محله الجنرال السير إدموند ألنبي فاتح فلسطين مندوبًا ساميًا خاصًا. وقد مُنح ألنبي اختصاصًا فوق العادة لاستعادة النظام والقانون، فبادر بتحقيق ذلك عبر مزيج من التهدئة العسكرية في ريف مصر وتنازلات مدروسة للرأي القومي في المدن. وتضمنت هذه التنازلات إطلاق سراح سعد زغلول وزملائه والسماح لهم بالسفر إلى باريس لحضور مؤتمر السلام. وبحلول 29 أبريل 1919، استطاع ألنبي إبلاغ القيادة في لندن بأن الموقف أصبح «أفضل بكثير»، ولو أن خلفه رئيس الأركان في مصر، الجنرال إدوارد بولفين، ما برح يزعم أنه استشف وجود «ميول بلشفية بين المتطرفين هنا»[34].

ولقد أفضى مدى الاضطرابات التي اجتاحت مصر في مارس وأبريل عام 1919 وشراستها إلى إرسال الحكومة البريطانية لجنة بقيادة كبير الموظفين الإمبراطوريين (وزير الدولة لشؤون المستعمرات) ألفريد ملنر للتمحيص في أسباب المشكلات وتحديد الوضع المستقبلي لمصر. ومع ذلك، قوبلت اللجنة بتصاعد في الغضب والعنف السياسيين ورفض مستتر لمشاركة الشخصيات القومية. ولمّا واجه هذا الرفض القاطع للوضع القائم، انتهى ملنر في فبراير 1921 إلى أن الحماية لم تعد سارية بعد. وكان ذلك أساس التوصية التي تقدم بها إلى وزير الخارجية البريطاني اللورد كيرزونبإحلال معاهدة تحالف مع مصر المستقلة شكلًا محل الحماية البريطانية.

ورغم ذلك، ظلت هناك فجوة بين الرغبات البريطانية في استبقاء سيطرة آمنة على مثل هذه البنية التحتية الاستراتيجية الممثلة في قناة السويس والمنطقة المحيطة بها، وبين الدعم العام والسياسي الثابتيْن في مصر للتغيرات بعيدة

الأثـر فـي هيـكل السـلطة فـي مصـر وتوازنهـا. وأصبـح عمـق هـذه التوقعـات المتشـعبة واضحًـا جليًـا فـي الشـروط المحظـورة بشـدة التـي لـم تكـن بريطانيـا بموجبهـا متأهبـة إلا للرضـوخ إلـى «اسـتقلال» مصـر. وبمـا أن أمـن خطـوط المواصلاتالإمبراطوريـة البريطانيـة كانـت تُعـد ذات أهميـة قصـوى، تضمنـت الشـروط الحفـاظ علـى المسـؤولية البريطانيـة عـن السياسـة الخارجيـة والدفاعيـة، عـلاوة علـى مواصلـة احتـلال منطقـة قنـاة السـويس الحيويـة اسـتراتيجيًا. وبعدهـا انهـارت المفاوضـات إذ اسـتمر سـعد زغلـول فـي حملـة الصمـود السياسـية خاصتـه، قبـل أن يطـرح ألنبـي المسـألة بقـوة فـي 28 فبرايـر 1922 ويقنـع الحكومـة البريطانيـة فـي لنـدن بـأن تقـدم علـى إعـلان الاسـتقلال المصـري الأحـادي الجانـب. وقـد أعلنـت المعاهـدة الإنجليزيـة المصريـة الناجمـة عـن ذلـك الموقـف أن مصـر «دولـة مسـتقلة ذات سـيادة» فيمـا خـلا أربعـة اسـتثناءات مهمـة: «أمـن المواصـلات الإمبراطوريـة البريطانيـة فـي مصـر»، و«الدفـاع عـن مصـر ضـد كل أعمـال العـداء أو التدخـلات الأجنبيـة المباشـرة منهـا وغيـر المباشـرة»، «وحمايـة المصالـح الأجنبيـة فـي مصـر وحمايـة الأقليـات»، و«السـودان»[35].

الخاتمة في سورية

فـي سـوريا ولبنـان، وقعـت أعنـف المواجهـات مـا بيـن الخطـط المحليـة والدوليـة للاسـتيطان فتـرة مـا بعـد الحـرب. وكانـت دمشـق وبيـروت قـد شـكّلتا النبـض الفكـري للحركـة القوميـة العربيـة التـي اسـتقت قوتهـا مـن الصـراع إبّـان الحـرب ضـد الدولـة العثمانيـة. ومـع ذلـك، فقـد خُصصـت المنطقتـان إلـى فرنسـا بموجـب شـروط اتفاقيـة سـايكس-بيكو عـام 1916، وخضعتـا للاحتـلال العسـكري لقـوات التحالـف إثـر توغـل ألنبـي الكاسـح عـام 1918. وبيـن عامـيْ 1919 و1921، أثبتـت سلسـلة مـن الاشـتباكات العنيفـة مـدى تعقيـد المطالبـات الإقليميـة المتنافسـة. ومـن بيـن هـذه الاشـتباكات الخلاف الشـديد الـذي وقـع بيـن حلفـاء الحـرب حيـث أخفـى المسـؤولون البريطانيـون والفرنسـيون رؤى متشـعبة لسـوريا، والغضـب العربـي المتصاعـد مـن تصرفـات قـوات التحالـف الـذي بلـغ ذروتـه فـي نهايـة المطـاف علـى هيئـة ثـورة سـورية عـام 1919. ولا شـك أن اختـلال

التـوازن الثلاثـي هـذا مـا بيـن السـلطة والمصالـح كانـت لـه تبعـات طويلـة الأجـل حيـث أفضـى إلـى غـرس النزعـة القوميـة العربيـة فـي قلـب الهويـة السـورية الوطنيـة، بينمـا أدى أيضًـا إلـى تأسـيس المملكـة الهاشـمية فـي العـراق بـدلًا مـن سـوريا نفسـها.

ولقـد أطلـق اسـتيلاء قـوات الحلفـاء وقـوات عربيـة علـى سـوريا فـي غـرة أكتوبـر 1918 العنـان لصـراع طويـل علـى السـلطة والنفـوذ بيـن المصالـح الفرنسـية والعربيـة. وبـدأ انقطـاع العلاقـات بيـن حلفـاء الأمـس فـي الظهـور حتـى قبـل أن تسـقط المدينـة، وأمسـى حـادًا بشـكل متزايـد خـلال عـام 1919، وبلـغ ذروتـه فـي هيئـة سلسـلة مـن الاشـتباكات العسـكرية التـي امتـدت إلـى عـام 1920. وتبـع تطويـق فيلـق هجانـة الصحـراء البريطانـي ووحـدات الجيـش العربـي بقيـادة فيصـل بـن الحسـين علـى الفـور مفاوضـات بخصـوص أيـة مجموعـة يحـق لهـا الدخـول أولًا، وتبعـه أيضًـا محـاولات إقامـة إدارة عربيـة فـي المدينـة. وقـد وصـف تـي. إي. لورنـس الـذي سـافر بصحبـة قـوات فيصـل العربيـة ببراعـة وتفاصيـل مدهشـة دخـول العـرب إلـى دمشـق فـي كتابـه «أعمـدة الحكمـة السـبع»:

بـدا أن كل رجـل وامـرأة وطفـل فـي هـذه المدينـة التـي تحـوي ربـع مليـون نسـمة قـد خرجـوا للشـوارع بانتظـار ظهورنـا فـي الأفـق لنشـعل أرواحهـم. لقـد طـارت دمشـق فرحًـا، وألقـى الرجـال طرابيشـهم عاليًـا تحيـة للوافديـن، ونزعـت النسـوة خمرهـن. كمـا ألقـى أصحـاب العقـارات الـورود والسـتائر والسـجاد علـى الطـرق أمامنـا، وانحنـت زوجاتهم وهـن يصرخـن ضحـكًا عبـر النوافـذ ويغمرننـا بأطايـب العطـور... وعـلا صـوت الرجـال وهـم يهتفـون «فيصـل، ناصـر، شـكري، أورنـس» علـى هتافـات النسـاء وصيحاتهـن فـي موجـات متتابعـة بـدأت هنـا وبلـغ صداهـا الميادين، وشـقت طريقهـا عبـر السـوق إلـى الشـوارع المؤديـة إلـى البوابـة الشـرقية وحـول السـور،ثم عـادت إلـى الميـدان وارتفعـت وتيرتهـا لتشـكل حائطًـا مـن الصيحـات أحـاط بنـا بجـوار القلعـة[36].

وقـد أخطـر قائـد عـام قـوة التجريـدة المصريـة الجنـرال ألنبـي وزارة الحربيـة فـي 6 أكتوبـر 1918 بالتالـي:

أعلـن العـرب قيـام حكومـة عربيـة تحـت لـواء الملـك حسـين ورفعـوا الرايـة العربيـة، وفـورًا بـدأ الجـلاء التركـي عـن دمشـق. وقبـل أن تغـادر القـوات التركيـة المدينـة، عُيِّـن وال عربـيٌّ علـى دمشـق. ولـذا عندمـا دخلـت قواتـي المدينـة، كانـت هنـاك إدارة عربيـة فاعلـة، وكانـت الرايـة العربيـة ترفـرف علـى البنايـات الحكوميـة[37].

وسـرعان مـا وجـد ألنبـي نفسـه محاصـرًا مـا بين وجهـات نظـر فرنسـية وعربية متشـعبة حـول مسـتقبل سـوريا حتـى وهويشـرف علـى إنشـاء «إدارة أرضي العـدو المحتلـة». وعندما التقـى فيصـل بفنـدق فكتوريـا فـي دمشـق فـي السـادس مـن أكتوبر،أمـره بـ «تقنيـن غاياتـه وانتظـار القـرارات مـن لنـدن» مضيفًـا أن «الحكومتيْـن الفرنسـية والبريطانيـة اتفقتـا علـى الإقـرار بوضـع الحـرب الخـاص بالقـوات العربيـة المقاتلـة فـي فلسـطين وسـوريا باعتبارهـا حليفـة ضـد عـدو مشـترك»[38]. ويبـدو أن الاجتمـاع لـم يسـرعلى خيـر مـا يـرام مـع فيصـل الـذي عـارض مسـتقبل الهيمنـة الفرنسـية علـى سـوريا ولبنـان، وزعـم أن لورنـس أكّـد لـه السـيطرة العربيـة علـى المنطقـة بعـد الحـرب. ولقـد تداعـت العلاقـات سـريعًا؛ إذ طعـن كل مـن المسـؤولين البريطانييـن والفرنسـيين والعـرب فـي ذكرياتهـم المتعلقـة بعهـود زمـن الحـرب، وبـدأت القـوات الفرنسـية فـي خلـق «حقائـق علـى أرض الواقـع» فـي سـوريا اصطدمـت بالمفاوضـات المتزامنـة معهـا الجاريـة فـي باريـس ولنـدن. ولذلـك ظهـرت شـقوق فـي الخطـوط المتعارضـة للسياسـة حيـث بـدأت أعمـال العنـف المقاومـة للقـوات الفرنسـية فـي سـوريا تتلاحـق بوتيـرة متزايـدة. وثمـة معركـة عنيفـة تحديـدًا وقعـت أحداثهـا فـي 15 ديسـمبر 1918 وأسـفرت عـن هزيمـة القـوات الفرنسـية علـى يـد جيـش عربـي غيـر نظامـي قـام بحشـده الأعيـان المحليـون الذيـن استشـاطوا غضبًـا بفعـل توغـل القـوات الفرنسـية المحتلـة فـي الداخـل السـوري انطلاقًـا مـن المـدن السـاحلية. كمـا وقعـت اشـتباكات أخـرى طـوال عـام 1919 إذ اندلعـت ثـورات محليـة ضـد النفـوذ الأجنبـي فـي حلـب ودمشـق وأنطاكيـا (فـي تركيـا الآن)[39].

وتزامـن مـع المنـاورات فـي سـوريا تجليـات متناميـة للقوميـة العربيـة فـي لبنـان الخاضعـة أيضًـا للسـيطرة العسـكرية للحلفـاء بعـد هزيمـة القـوات العثمانيـة فـي خريـف

عـام 1918. فقـد التقـى مجلـس إداري لجبـل لبنـان فـي 9 ديسـمبر 1918 لوضـع الشـروط التـي أراد طرحهـا بمؤتمـر باريـس للسـلام. ورغـم أن هـذا المنبـر ناصـرَ كيانًـا لبنانيًـا سياسـيًّا تحـت الحمايـة الفرنسـية، فإنـه واجـه معارضـة مـن طوائـف أخـرى مواليـة لسـوريا داخـل المجتمـع اللبنانـي مثـل الطوائـف المسـلمة السُّـنيَّة بالمـدن السـاحلية ودوائرهـا القوميـة العربيـة فـي بيـروت. ولقـد انعقـد مؤتمـر سـوري فـي دمشـق فـي 6 يونيـو 1919 رُشِّـح فيـه 22 مندوبًـا لتمثيـل لبنـان. وجمـع هـذا المؤتمـر ممثليـن سياسـيين ومفكريـن مـن شـتى أرجـاء الشـرق لنقـل الطموحـات القوميـة للشـعب السـوري لمؤتمـر باريـس[40]. وقـد تضمـن أعضـاءً فلسـطينيين عـلاوة علـى الأعضـاء السـالف ذكرهـم مـن لبنـان. وكان فيصـل قـد شـكَّلَه علـى أمـل أن يضمـن لـه الشـرعية الدوليـة التـي آمـن أنـه بحاجـة إليهـا لدعـم قضيتـه ضـد الفرنسـيين[41].

وعلـى هـذه الخلفيـة، التقـى قـادة بريطانيـون وفرنسـيون فـي لنـدن خـلال الفتـرة مـا بيـن 1 و4 ديسـمبر 1918 لصياغـة تسـوية جديـدة لمنطقـة الشـرق الأوسـط. وخـلال اجتمـاع سـري بيـن الرئيـس جـورج كليمنصـو ورئيـس الـوزراء ديفيـد لويـد جـورج لـم تكـن حتـى وزارة الخارجيـة البريطانيـة علـى درايـة بـه حتـى يونيـو عـام 1919، سـعى الأخيـر إلـى إجـراء تعديـلات علـى اتفاقيـة سـايكس-بيكو مـن شـأنها نقـل إقليـم الموصـل الغنـي بالنفـط إلـى دائـرة النفـوذ البريطانـي وضمـان المصالـح البريطانيـة فـي فلسـطين. وفـي المقابـل، سـعى كليمنصـو إلـى إطـلاق يـد فرنسـا فـي سـوريا عـلاوة علـى اقتنـاص حصـة مـن شـركة البتـرول التركيـة التـي كانـت تمتلـك امتيـاز النفـط فـي الموصـل. جديـر بالذكـر أن كليمنصـو أيضًـا أراد بسـط الهيمنـة الفرنسـية مـن لبنـان إلـى سـوريا باحتـلال المناطـق المركزيـة المحيطـة بمـدن دمشـق وحمـص وحمـاة وحلـب. ومـع ذلـك، لـم يكـن الاتفـاق النهائـي بيـن القائديْـن حـول سـوريا وشـيكًا فـي هـذا الاجتمـاع ممـا مهـد الطريـق أمـام تبـادل الاتهامـات فـي أثنـاء مؤتمـر باريـس للسـلام عـام 1919 ومـن بعـده[42].

ولقـد بـدأت المنـاورات الفرنسـية المناوئـة للخطـط البريطانيـة المتعلقـة بسـوريا فـور وصـول الأمير فيصـل بـن حسـين إلـى مرسـيليا بصحبـه تـي. إي. لورنـس فـي نوفمبـر 1918.

ويبدو أن حقيقة أن لورنس كان برفقة الأمير قد أثارت قلق المسؤولين الفرنسيين بشدة فيما يتعلق بدوره وغايته في مفاوضات السلام المقبلة. وكان لورنس نفسه في موقف حساس جدًا حيث لم يتفق التزامه الذي أعلنه بنفسه تجاه المطالبة العربية لفيصل بسوريا مع المساومات رفيعة المستوى بين القادة البريطانيين والفرنسيين. وخلال زيارة إلى لندن في يناير 1919، تعرض فيصل لضغوط من وزارة الخارجية للقبول بالمخططات الفرنسية في سوريا، وكذلك التوقيع على اتفاقية مع حاييم وايزمان(زعيم المنظمة الصهيونية العالمية) من شأنها الاعتراف بالوجود الصهيوني في فلسطين. وهذا ما فعله فيصل على مضض ليعاني المزيد من الأزمات فور افتتاح مؤتمر باريس للسلام بسبب الحضور القوي للورنس العرب الذي لعب دور «المرافق والمترجم والمدير المالي لأن فيصل كان يتلقى دعمًا ماليًا من وزارة الخارجية»[43].

وفي أثناء المؤتمر نفسه حاول المسؤولون الفرنسيون مرارًا وتكرارًا مقاطعة فيصل أو التحقير من شأنه والتشكيك في شرعية وجوده على طاولة الاجتماعات. وأعلنت وزارة الخارجية الفرنسية عن دعمها لجماعة مغمورة آنذاك تُعرف باسم اللجنة السورية المركزية وتزعم تمثيلها للشتات السوري في الدعوة إلى سوريا كُبرى تحت الحماية الفرنسية[44]. علاوة على ذلك، فقد سعت تلك اللجنة إلى غرس بذور الانقسام ما بين فيصل والمسؤولين البريطانيين إذ بالغت في بيان الفروق المحسوسة في المناهج والأجندات وخطوط صناعة السياسات. وقد عكس هذا التكتيك الإحساس المتزايد بالانزعاج الفرنسي من ضعف موقفه في منطقة الشرق الأوسط (وفي مناطق أخرى). وعلى العكس من الوفدين البريطاني والأمريكي اللذين وصلا باريس وفي جعبتهما خطط تفصيلية لما يريدان تحقيقه، تعثرت الإعدادات الفرنسية للمؤتمر كثيرًا وتخلفت عن الركب لدرجة أنها بدت معدومة. وكما جاء على لسان المؤرخين كريستوفر أندرو وأليكساندر كانيا فورستنر: «لم يكن بحوزة الفرنسيين سوى برامج فردية للمجتمعات الكولونيالية والوزارات الأجنبية والكولونيالية»[45].

وفي ظل انجلاء اتفاقية سايكس-بيكو وكمون البريطانيين عسكريًا عبر منطقة

الشـرق وبـلاد الرافديـن، صعـدت حـدة الحساسـيات والشـكوك الفرنسـية بشـدة إلـى السـطح. وإذ ظـن الفرنسـيون (وقـد جانبهـم الصـواب) أن كليمنصوولويـد جـورج «سـويًّا» شـخصيًّا «المسـألة السـورية» فـي اجتماعهمـا الخـاص فـي لنـدن الـذي عُقِـدَ فـي ديسـمبر 1918، تحولـت البوصلـة الفرنسـية إلـى المعاهـدة العقابيـة التـي أرادت فرنسـا فرضهـا علـى ألمانيـا. ومـع ذلـك، كمـا لاحـظ ماثيـو هيـوز، «كان للتنـازلات الفرنسـية فـي الشـرق الأوسـط أثـر فتـح شـهية بريطانيـا للتوسـع فـي المنطقـة بـدلًا مـن سـدها»[46]. وفـي تلـك الأثنـاء، كانـت الطموحـات العربيـة المحليـة ملحوظـة بوجودهـم فـي المحافـل الرسـمية فـي لنـدن أو باريـس حيـث لـم تنـل الاتفاقيـات والوعـود التـي أبرمـت زمـن الحـرب العنايـة الكافيـة فـور أن انتهـى دور المقتضيـات المحـددة المتعلقـة بالحـرب.

وكان أول تلـك الطموحـات التصعيـد السـابق الذكـر للمعارضـة القوميـة للخطـط البريطانيـة والفرنسـية السـاعية لاسـتبقاء قبضتهمـا علـى المنطقـة، وثانيهـا كان إدراك واضعـي الخطـط الإمبرياليـة المتزايـد لحقيقـة أن الاحتـلال العسـكري لمنطقـة الشـرق الأوسـط يسـتحيل أن يسـتمر إلـى مـا لا نهايـة. وكمـا حـدث فـي مصـر (وبـلاد الرافديـن فـي العـام التالـي)، حـدد التلاقـي العابـر لتلـك الأنمـاط شـكل تسـوية مـا بعـد الحـرب المعيبـة التـي ظهـرت. وبحلـول سـبتمبر 1919، أجبـرت احتمـالات التمـدد العسـكري والمالـي فـي الشـرق الأوسـط لويـد جـورج علـى الإقـرار بـأن بريطانيـا لـم تكـن تسـتطيع أن تتحمـل ثمـن إبقـاء قـوات احتلالهـا فـي سـوريا ولبنـان إضافـة إلـى فلسـطين وبـلاد الرافديـن. وفـي اجتمـاع مـع فيصـل فـي شـارع داوننغفـي 23 سـبتمبر، أخبـر رئيـس الـوزراء الأميـر بـأن الحكومـة البريطانيـة «سـتعيد إلـى أرض الوطـن قواتهـا مـن كل الـدول التـي لـم ننـوِ البقـاء فيهـا للأبـد» لأن أي شـيء خـلاف ذلـك «سـينطوي علـى عـبء مهـول علـى عاتـق دافعـي الضرائـب البريطانييـن لـن تقبلـه الدولـة قـط»[47]. ولـذا، وفـي ظـل عمليتـيْ التسـريح الجاريتيْـن (وهمـا اللتيْـن أفضتـا إلـى تراجـع أعـداد القـوات المسـلحة البريطانيـة مـن 3.5 ملاييـن فـي نوفمبـر 1918 إلـى 800000 فـي نوفمبـر 1919، ثـم إلـى 370000 بحلـول نوفمبـر 1920)[48]. وخفـض النفقـات الماليـة، اتخـذ القـرار بإجـلاء القـوات البريطانيـة مـن سـوريا وخفـض الدعـم المقـدم إلـى فيصـل منـذ زمـن الحـرب إلـى النصـف. وقـد حـزم

هـذان القـراران فيصـل مـن مصـدره الرئيـس للعائـد المالـي، ومـن أيـة فكـرة مـا زالـت تدور بخلـده بشـأن الحمايـة الخارجيـة، ممـا كشـفه لخصومـه وأوهـن شـوكته أمـام اسـتكمال الخطـط الفرنسـية فـي سـوريا[49].

وقـد جـاءت خاتمـة الصـراع الثلاثـي علـى سـوريا فـي الأشـهر العشـرة مـا بيـن سـبتمبر 1919 ويوليـو 1920. فقـد قامـت لجنـة بقيـادة أمريكيـة تحـت رعايـة هنـري كنـغ وتشـارلز كريـن بزيـارة لسـوريا بوصفهـا جـزءًا مـن زيـارة أوسـع لمنطقـة الشـرق الأوسـط غايتهـا التأكيـد علـى مـا إذا كانـت المنطقـة متأهبـة لتقريـر المصيـر. وأمضـت لجنـة كنغ-كريـن التـي شـكلها الرئيـس وِلسـون شـخصيًّا 42 يومًـا فـي سـوريا ولبنـان وفلسـطين وبـلاد الرافديـن وآسـيا الصغـرى حيـث عكفـت علـى جمـع معلومـات عـن الـرأي العـام المحلـي بخصـوص الشـكل المنشـود للحكومـة ومـدى التدخـل الخارجـي الـذي سـتتحمله تلـك المناطـق. وربمـا ليـس مـن الغريـب، بالنظـر إلـى الإدراك الإقليمـي أن الولايـات المتحـدة ليسـت مهتمـة بالتوسـع الإقليمـي فـي الشـرق الأوسـط، أنـه فـي أغسـطس 1919 أنبـأت تلـك اللجنـة بإجمـاع سـاحق لصالـح انتـداب أمريكـي للمنطقـة بـدلًا مـن وقوعهـا تحـت الوصايـة البريطانيـة أو الفرنسـية. ورغـم ذلـك، أوصـت اللجنـة أيضًـا بـأن يمسـي فيصـل زعيمًـا لسـوريا المتحـدة تحـت حكـم الانتـداب حيـث وجـدت اللجنـة أن «هـذا مطلـب أجمـع عليـه مؤتمـر دمشـق صراحـةً باسـم الشـعب السـوري، ويبـدو أنـه مـا مـن سـبب يدعونـا للشـك فـي أن الغالبيـة العظمـى مـن الشـعب السـوري يريـد حقًـا أن يكـون الأميـر فيصـل أميـرًا لهـم». وكانـت النتيجـة التـي توصلـوا إليهـا حاسـمة: «قـد يشـعر المشـاركون فـي مؤتمـر السـلام بالرضـا الحقيقـي عـن وجـود عـرب يتمتعـون بمثـل هـذه الخصـال التـي تؤهلهـم لقيـادة هـذه الدولـة الجديـدة فـي الشـرق الأدنـى»[50].

ولكـن لـم يُعمـل بتوصيـات لجنـة كنغ-كريـن قـط حيـث قوّضهـا بشـكل قاتـل مزيـج مـن المعارضـة الإنجليزية-الفرنسـية لتقريرهـا وروح الانعزاليـة المتناميـة التـي تبناهـا الكونغـرس الأمريكـي والحالـة الصحـة المتدهـورة للرئيـس وِلسـون نفسـه. عـلاوة علـى ذلـك، كان التغيـر فـي القيـادة الفرنسـية فـي ينايـر 1920 إيذانًـا بالموقـف المتصلـب تجـاه

سوريا من جانب رئيس الوزراء الجديد أليكساندر ميلراند[51]. ولذا تقاطع ضغط النفقات البريطاني مع اللامبالاة الأمريكية ومحاولة فرنسية مجددة لتأمين مكاسبها التي حققتها زمن الحرب في الشرق الأوسط. وفي الشهر نفسه (يناير 1920)، التقى الرئيس كليمنصو فيصل وأبرم معه اتفاقية سرية تقبل سوريا بموجبها انتدابًا فرنسيًّا (وتقر بانتداب منفصل للبنان)، علاوة على تقديم مساعدات عسكرية واقتصادية في مقابل الضمانات الفرنسية للاستقلال السوري. وكان الرأي العام في فرنسا يميل باتجاه حل عسكري في منطقة الشرق الأوسط حيث بادرت القوات الفرنسية أيضًا بشن حملة استمرت عشرين شهرًا ضد الحركة التركية القومية استمرت حتى سبتمبر 1921. ومع ذلك، عندما وصلت أنباء الصفقة أنصار فيصل في دمشق واجهتها معارضة شديدة من المؤتمر السوري، ولاسيما من جمعية العربية الفتاة(وهي منظمة قومية سرية تأسست في باريس عام 1911)[52].

وفي السابع من مارس عام 1920، انعقد المؤتمر مجددًا وأعلن من طرف واحد عن مملكة عربية مستقلة في سوريا (بما في ذلك لبنان وفلسطين) يكون فيصل ملكًا لها. وجاءت ردة الفعل فورية على هذه الخطوة من فرنسا وبريطانيا اللتيْن تنكرتا معًا من إعلان الاستقلال الأحادي الجانبهذا، وسرعان ما دعتا إلى عقد اجتماع للقوى الأوروبية في مدينة سان ريمو الإيطالية لمناقشة كيفية استعادة زمام المبادرة في مواجهة هذا التحدي لسلطتهما. وفي مؤتمر سان ريمو، خصص رؤساء الوزراء البريطاني والفرنسي والإيطالي فيما بينهم انتدابات المناطق الأسبق للدولة العثمانية. واتفقت بريطانيا وفرنسا على الاعتراف بالاستقلال المشروط لبلاد الرافدين وسوريا على التوالي، لكنهما طالبا بانتدابيْن —واعتراف دولي حاسم من قِبَل عصبة الأمم التي تشكّلت حديثًا— لإدارتهما. ورغم أن هذا الاستعراض الأخير للتدخل الخارجي في الشؤون الإقليمية يتسق نوعًا ما مع اتفاقية يناير التي أبرمها فيصل مع كليمنصو، فإن هذا التدخل عزز وحسب من العناصر الأكثر تطرفًا داخل سوريا (وبلاد الرافدين) التي رفضت المزيد من التنازلات للقوى العظمى[53].

ولذلـك كان الطريـق ممهـدًا للإجـراء الأخيـر التعـس فـي الصـراع مـن أجـل السـيطرة علـى سـوريا. فقـد جعلـت المواقـف المتصلبـة سـواء فـي دمشـق أو باريـس الوصـول إلـى تسـوية سـلمية للمسـتقبل السياسـي لسـوريا مسـتحيلًا. وفـي 27 مايـو، أُمِـرَ القائد الفرنسـي فـي سـوريا الجنـرال هنـري غـورو «بإعـداد العـدة لتحـرك عسـكري جعلـه الموقـف الوقـح والتهديـديّ بشـكل متزايـد للحكومـة الشـريفية حتميًّـا». وبعـد انتظـار التعزيـزات مـن فرنسـا وتحذيـر بريطانيـا مـن التدخـل فـي الصـراع المقبـل، ألحقـت الفرقـة 24 التابعـة لغـورو هزيمـة نكـراء بجيـش فيصـل الـذي كان قوامـه بضـع مئـات مـن الجنـود فـي معركـة ميلسـون فـي 23 يوليـو، وحاصرتدمشـق واحتلتهـا فـي اليـوم التالـي. وأُطيـح فيصـل ونُفـي نفيًـا مؤقتًـا (قبـل أن يُعَيِّنـه الإنجليـز أول ملـك علـى العـراق عـام 1921)، وأُسـدِلَ السـتار رسـميًا علـى فتـرة الحكـم الهاشـمي لسـوريا التـي لـم تـدم إلا قليـلًا[54].

أفول نجم الفترة الشريفية

كانـت هزيمـة فيصـل ونفيـه مـن سـوريا واحـدة مـن النكسـات التـي ألمـت بالحركـة التـي رأسـها أبـوه. ورغـم أن فيصـل (كمـا سـيتجلى لنـا لاحقًـا) وأخـاه عبـد اللـه بن الحسـين باتـا ملكيْـن فـي ظـل الانتـداب البريطانـي علـى العـراق وإمـارة شـرق الأردن، كان ميـزان القـوى القَبَليَّـة فـي شـبه الجزيـرة العربيـة يميـل بحسـم ضـد الشـريف. وبعـد سلسـلة مـن الاشـتباكات بيـن قـوات الشـريف وقـوات منافسـه العنيـد ابـن سـعود فـي شـرقي الحجـاز بدايـة عـام 1919، مُنِـيَ عبـد اللـه بـن الحسـين بهزيمـة منكـرة بمعركـة تربـة فـي مايـو. وثبـت أن هـذا الاشـتباك هـو النقطـة التـي قلبـت الموازيـن حيـث ازدادت قـوة القـوات السـعودية تدريجيًّا بعـد ضـم إقليـم عسـير، واسـتقرت مـا بيـن الحجـاز واليمـن عـام 1920. وتبـع هـذه المعركـة بعـام هزيمـة ابـن سـعود لخصمـه اللـدود المدعـي بحـق الهيمنـة علـى الجزيـرة العربيـة (سلالةآلرشـيد). وإذ بـدت الهيمنـة الهاشـمية علـى الحجـاز واهنـة بشـكل متزايـد، بسـط ابـن سـعود نفـوذه علـى الحجـاز وضـم مكـة والمدينـة وجـدة عـام 1924. وبعدهـا بعاميْـن، نـودي بـه ملـكًا علـى منطقـة الحجـاز باعتـراف بريطانـي، الأمـر الـذي أدى إلـى تأسـيس المملكـة العربيـة السـعودية الحديثـة فـي نهايـة المطـاف عـام

1932[55].

ودلّل المصير الهاشمي على الطبيعة المتقلبة القصيرة الأجل لاتفاقيات زمن الحرب، علاوة على صعوبات تسوية المطالبات المتضاربة تبادليًا فور انتهاء الحرب. وفي ظل دعم بريطانيا لكل من شريف مكة وابن سعود بأساليب مختلفة، وإصرار المسؤولين في لندن وباريس على حماية مصالحهم الإمبريالية في منطقة الشرق الأوسط، أمسى «تقسيم» الدولة العثمانية فترة ما بعد الحرب اختبارًا للصلابة وقدرات القوة المحضة بدلًا من كونها عملية شاملة تنطوي على مخاوف محلية أو تحترمها. وثبت أن المستندات المثالية مثل النقاط الأربعة عشرة أو الإعلان الإنجليزي الفرنسي أوراق لا قيمة لها إذ تصطدم بالواقع البائس حيث تتصارع المصالح المتنافسة على السيادة المحلية والإقليمية. ولقد امتد ذلك حتى لـ«تعيين» الملوك الهاشميين في العراق وإمارة شرق الأردن تعويضًا عن طردهم من سوريا وأفول نجمهم في شبه الجزيرة العربية.

والأخطر من ذلك إرث التصريحات البريطانية في فلسطين التي يتردد صداها إلى يومنا هذا. فرغم أن إعلان بلفور في نوفمبر 1917 استمر في طمأنة العرب أنه «ما من شيء سيستجد فيجير على الحقوق المدنية والدينية للمجتمعات غير اليهودية القائمة في فلسطين»،[56].فإن الحقائق على أرض الواقع سرعان ما اكتسبت زخمًا -وتوترًا- من تلقاء نفسها. فقد بدأ عدد ضخم من المهاجرين الصهاينة في الانتقال إلى فلسطين حيث تجاوز عدد الذين وصلوا منهم 18500 نسمة بين عامَيْ 1919 و1921. وحدثت تلك الهجرة بينما انهال سيل من العرائض على لجنة كنغ-كرين خلال زيارتها لفلسطين في يونيو 1919 تجلّت فيها معارضة كاتبيها بما لا يدع مجالًا للشك للصهيونية. وانعقد أول مؤتمر عربي فلسطيني في القدس في يناير وفبراير 1919 لأجل ممارسة ضغوط لضم فلسطين إلى الدولة السورية المستقلة التي يحكمها فيصل بن حسين، والمطالبة بنبذ إعلان بلفور. ولكن مُنع وفدهم المقترح للمشاركة في مؤتمر باريس للسلام من مغادرة فلسطين في الوقت الذي

أثـار فيـه شـراء المنظمـات اليهوديـة مسـاحات شاسـعة مـن الأراضـي المزيـد مـن السـخط حيـث انطـوت عمليـات الشـراء تلـك علـى تشـريد الفلاحيـن العـرب أصحـاب الأرض الذيـن عملـوا مزارعيـن بالمشـاركة لأجيـال طويلـة. وانعقـدت مؤتمـرات عربيـة فلسـطينية لاحقـة فـي حيفـا عـام 1920 والقـدس عـام 1921 ونابلـس عـام 1922 ويافـا عـام 1932 لتسـجيل الموقـف العربـي المعـارض بشـدة للخطـط البريطانيـة فـي فلسـطين. عـلاوة علـى ذلـك، أدت الاضطرابـات المتصاعـدة إلـى أعمـال شـغب كبـرى فـي القـدس عـام 1920 وفـي يافـا عـام 1921، ممـا مهـد الطريـق أمـام التصعيـد المسـتمر للتوتـرات العربية-اليهوديـة بينمـا تسـارعت وتيـرة الهجـرة الصهيونيـة علـى مـدار العقـود التاليـة[57].

كانـت بريطانيـا قد تحملت رسـميًا مسـؤولية فلسـطين فـي يونيـو 1922. وبعد عـام، تآلف الجـزء الأخيـر مـن أحجيـة مـا بعـد الحـرب عندمـا انقسـمت المنطقـة التـي يغطيهـا الانتداب فـي فلسـطين إلـى منطقتيْـن فرعيتيْـن. ففـي عـام 1923، انفصلـت المنطقـة الواقعـة شـرقي نهـر الأردن (الضفـة الشـرقية) لتشـكل إمـارة شـرق الأردن. وتأسـس ذلـك الكيـان الجديـد وغير المخطـط كليًـا عـام 1922 عبـر الاجتماعـات التـي انعقـدت فـي القـدس ولنـدن بيـن وزيـر الدولـة لشـؤون المسـتعمرات ونسـتون تشرشـل وعبـد اللـه بن الحسـين شـقيق الأميـر فيصل. ومـن المفارقـة أن المملكـة الهاشـمية التـي غرُسـت فـي عمّـان ثبـت أنهـا أكثـر الأنظمـة التـي أقامتهـا قـوى الانتـداب بعـد الحربصمـودًا. فمـا زال حفيـد عبـد اللـه وسـميّه فـي سـدة حكـم الأردن بعدهـا بقـرن كامـل فـي تبايـن صـارخ بينـه وبيـن مصيـر أبنـاء عمومتـه فـي العـراق الذيـن أجبـروا علـى تـرك السـلطة إثـر ثـورة دمويـة فـي يوليـو عـام 1958. عـلاوة علـى ذلـك، تنـازل البريطانيـون عـن جـزء مـن مرتفعـات الجـولان للانتـداب الفرنسـي فـي سـوريا. فتركـت هـذه التعديـلات الإقليميـة الأخيـرة دولـة مبتـورة فـي فلسـطين، لكنهـا أرسـت نظـام الدولـة الجوهـري الـذي اسـتمر إلـى حـد بعيـد تحـت ضـروب مختلفـة تمامًـا مـن الأنظمـة (فيمـا خـلا الأردن وتأسـيس إسـرائيل عـام 1948) حتـى يومنـا هـذا.

ثورة في بلاد الرافدين

تمـت الخطـوة الأخيـرة فـي عمليـة إعـادة الهيكلـة مـا بعـد الحـرب العالميـة فـي

بـلاد الرافديـن حيـث تطلـب الأمـر تعديـل الغايـات البريطانيـة العظيمـة وتقنينهـا إثـر ثـورة قوميـة اندلعـت عـام 1920. وإذ عُرفـت تلـك الثـورة فـي عـراق اليـوم باسـم الثـورة العربيـة الكبـرى، فقـد كان للتمـرد القبلـيّ الـذي زعـزع أسـس الحكـم البريطانـي مـن جـذوره ديناميـات شـبيهة بتلـك التـي زعزعـت المنطقـة بأسـرها. ففـي بلادالرافدينأيضًـا، شـهدتالفترة التـي أفضـت فـي نهايـة المطـاف إلـى منـح عصبـة الأمـم انتدابًـا للمملكـة المتحـدة بمؤتمـر سـان ريمـو فـي أبريـل 1920 تشـعبًا مسـتمرًا للطموحـات القوميـة فـي الحكـم الذاتـي والتراكـم التدريجـي لمسـؤوليات السـلطة الكولونياليـة. وتزامـن ذلـك مـع انتهـاز نائـب المفـوض المدنـي البريطانـي أرنولـد وِلسـون لفرصـة انعـدام الإشـراف علـى السياسـات وانشغالالمسـؤولينبإعداد العـدة لتمديـد مؤتمـر السـلام ليقـوم بتوسـيع رقعـة جهـازه الإداري. وكمـا حـدث فـي مصـر، أثـارت دلائـل إعـداد المسـؤولين البريطانييـن العـدة مـن أجـل وضـع إطـار رسـمي لسـلطاتهم زمـن الحـرب وتمديدهـا غضـب الشـعب، وأدت إلـى ردة فعـل وطنيـة واسـعة النطـاق.

والحقيقـة أن المسـؤولين البريطانييـن فـي بـلاد الرافديـن قـد واجهـوا تحديـات شـبيهة لتلـك التـي واجهها نظراؤهـم فـي مصـر فيمـا يتعلـق بالتوفيـق مـا بيـن الإعـلان الإنجليـزي الفرنسـي الصـادر فـي نوفمبـر 1918 وأنبـاء السـماح لوفـد مـن الحجـاز بالمشـاركة فـي مؤتمـر باريـس للسـلام فـي ظـل عـدم اسـتعدادهم لتقديـم تنـازلات مثيلـة محليًـا. فقـد أثـار الإعـلان الإنجليـزي الفرنسـي نقاشًـا واسـعًا بيـن القيـادات السياسـية المحليـة وأعيـان بـلاد الرافديـن، ولـو أن أرنولـد وِلسـون اعتبـر ذلـك الإعـلان «خطـأً كارثيًـا» فرضـه الرئيـس وِلسـون علـى الحلفـاء. وتفاقـم وقعـه أيضًـا بفعـل حقيقـة أن هذاالإعلانأميـط اللثـام عنـه بالتزامـن مـع النقـاط الأربعـة عشـرة للرئيـس وِلسـون التـي خضعـت للرقابـة مـن قبـل المفوضيـة المدنيـة فـي بغـداد حتـى أكتوبـر عـام 1918[58]. وعلـى النقيـض مـن سـميِّه الرئاسـي، أعلـن أرنولـد وِلسـون بثقـة ويقيـن أن «الدولـة ككل لا تتوقـع ولا ترغـب فـي أيـة مخططـات كاسـحة للاسـتقلال»[59]. وفـي وجهـة نظـره هـذه اسـتمتع بدعـم مستشـارة المنـدوب السـامي فـي العـراق غيرتـرود بِـل التـي صرحـت بحسـم فـي ديسـمبر 1918 أن أحـدًا فـي بـلاد الرافديـن لا يريـد حكمًـا ذاتيًـا بـل «يريدوننـا ولا أحـد غيرنـا»[60].

ولقد أدرك كبار المسؤولين في لندن، إذا لم يكن في بغداد أيضًا، أن الموقف الدولي المتغير يتطلب منهجًا جديدًا للسيطرة الكولونيالية، ومن ثم سعوا إلى إقامة دليل محكم لاستبقاء السيطرة البريطانية على بلاد الرافدين. فبعد أسبوعين وحسب من الهدنة، وتحديدًا في 26 نوفمبر 1918، صرح السكرتير السياسي بوزارة شؤون الهند في لندن السير جون شاكبورغ بأن الإعلان الإنجليزي الفرنسي «لا يعوق صراحةً السيطرة البريطانية المحكمة» شريطة أن تقبلها الشعوب. وعلى ذلك اقترح أن «الخطوة الأولى تنطوي على الحصول على تأييد محلي لصالحنا» في بلاد الرافدين[61]. وبعدها بيومين، أخطرت الحكومة البريطانية (عبر وزير الدولة لشؤون الهند الذي كانت بريطانيا تمارس سيطرتها على بلاد الرافدينمن خلاله) وِلسون باستفتاء «الرأي العام المحلي الحقيقي» بخصوص إنشاء «دولة عربية منفردة تحت الحماية البريطانية». وشاع الظن في لندن بأن مثل هذا «التصريح الرسمي» سيُمَكِّن الحكومة البريطانية من عرضه «على العالم باعتباره إعلانًا محايدًا على لسان بلاد الرافدين»[62].

وأدّت الحاجة الماسة إلى تجميل المخططات البريطانية في هيئة انتداب ديموقراطي زائف إلى تصريح وِلسون وإشرافه على استفتاء معيب جدًا لـ «الرأي العام المحلي». وأملى على موظفيه السياسيين (البريطانيين) اختلاق وجهات نظر لنخبة من النبلاء ومشايخ القبائل، لكنه محى من تعليماته أي ذكر للحاجة إلى التعرف على «التعبير الحقيقي عن الرأي العام المحلي»[63]. وما تبع ذلك كان سلسلة انتقائية انتهازية جدًا من المقابلات الشخصية مع المشايخ والأعيان الذين كانوا يدينون بمناصبهم إلى حد كبير إلى الحماية البريطانية. وضمنت ردود أفعالهم الإيجابية بشكل مذهل تمرير آراء مواتية وحسب إلى المفوضية المدنية في بغداد. وسافر وِلسون نفسه إلى النجف الأشرف وكربلاء في ديسمبر عام 1918 للقاء الأعيان المحليين. وسجل كيف «تمنوا صيانة النظام الإداري الحالي، لكنهم عقدوا الآمال على تحسينه وأسهبوا أن تحسينه لن يتم إلا بإضافة المزيد من المسؤولين البريطانيين»[64]. وأصبحت خلفية هذا الكشف الملائم والطبيعة المُجَمَّلَة للقرار ككل أكثر وضوحًا إذ أقر وِلسون بأن ردود الأفعال التي زعم أنها كانت «بالإجماع وبثقة متناهية لدرجة

أنـه يصعـب وضعهـا علـى الـورق» كانـت فـي حقيقـة الأمـر «مدروسـة مسـبقًا باعتبارهـا نتيجـة لحـوارات مـع المسـؤول السياسـي»[65].

ولقـد ترتـب علـى اسـتغلال وِلسـون للـرأي المحلـي تبعتـان أساسـيتان. أولاهمـا تمكيـن المسـؤولين البريطانييـن فـي بغـداد ولنـدن مـن تشـويه النتائـج علـى اعتبـار أنهـا «اسـتفتاء شـعبي» تجـاوز مسـتوى دعـم السـيطرة البريطانيـة المسـتمرة. وهـذا بـدوره مَكَّنَ الحكومة فـي لنـدن مـن الزعـم بـأن النتائـج اتسـقت مـع سياسـة تعزيـز «الحكومـات المحليـة» بمـا يتفـق مـع الإعـلان الإنجليـزي الفرنسـي. كمـا أتـاح أيضًـا المجـال للمفوضيـة المدنيـة فـي بغـداد للاسـتمرار فـي تحصيـن نطـاق سـلطاتها ومهامهـا وتوسـعته، ممـا سـاعد فـي الوقـت نفسـه علـى تعميـق مخـاوف القومييـن مـن اسـتعداد بريطانيـا للاسـتهزاء بوعـود تقريـر المصيـر والحكـم الذاتـي المبهمـة. وكان للأحـداث المتجليـة لاحقًـا فـي سـوريا، والمؤشـرات المتزايـدة علـى إحبـاط بريطانيـا وفرنسـا لطموحـات فيصـل، وقـع كبيـر أيضًـا علـى الـرأي القومـي المحلـي فـي بـلاد الرافديـن حيـث كان نفـوذ مسـؤولي الشـريف الذيـن شـاركوا فـي الثـورة العربيـة كبيـرًا[66].

وفـي هـذا الصـدد، أمسـى تأسـيس أمانـة لتحصيـل الضرائـب فـي بغـداد بمثابـة حائـل دون انفجـار السـخط المحلـي ضـد توسـع السـلطة البريطانيـة. وعـلاوة علـى توسـعة نطـاق وقائـع السـيطرة البريطانيـة إلـى المناطـق الريفيـة ببـلاد الرافديـن، مكّنـت تلـك الأمانـة الإدارة مـن أن تصبـح أكثـر فعاليـة فـي تقييمهـا للمحاصيـل وجبايتهـا للضرائـب. ومـع ذلـك، كان مفتـش الأمانـة إي. بـي. هـاول مشـهورًا بعدائـه لنقـل أي شـكل مـن أشـكال السـلطة إلـى المؤسسـات المحليـة، بـل إنهفـي رأي غيرتـرود كان عاجـزًا عـن «تصـور أي شـيء لا يتسـق مـع الرؤيـة الإنجليزيـة للأمـور»[67]. وخـلال تصاعـد وتيـرة المشـاعر القوميـة عـام 1920، لعـب دورًا شـبيهًا بالـدور الـذي لعبـه ويليمبرونيـات فـي مصـر حيـث عـزَلَ الـرأي العـام المحلـي وعـزز الشـكوك فـي طبيعـة السياسـة البريطانيـة فـي بـلاد الرافديـن. وزاد مـن حـدة مشـاعر التخبـط والعـداء تلـك بقـدر أكبـر إقحـام عملـة الهنـد لتكـون عملـة أساسـية ومواصلـة هيمنـة الهنـود علـى المناصـب الدنيـا فـي الإدارة المدينـة ببـلاد

الرافديـن بغيـة اسـتبعاد العـرب أبنـاء البلـد. وكانـت هـذه التطـورات تعنـي أن تظـل بـلاد الرافديـن، طـوال عـام 1919، فـي قبضـة إدارة بريطانية-هنديـة مركزيـة مـع مشـاركة محليـة محـدودة جـدًّا[68].

ولـذا كانـت التبعـة التاليـة لتشـويه أرنولـد وِلسـون للـرأي العـام المحلـي ممثلـة فـي إخفـاق إدارتـه بالكامـل فـي تحديـد أو تقديـر مسـتوى المعارضـة المحليـة لسياسـة تعميـق السـيطرة البريطانيـة فتـرة مـا بعـد الحـرب علـى بـلاد الرافديـن. ورغـم أن بعـض المتلقيـن لـ «اسـتفتاء» وِلسـون للـرأي العـام المحلـي أبـدوا وجهـات نظـر مغايـرة، فـإن وجهـات النظـر هـذه قوبلـت بالتجاهـل باعتبارهـا آراء لا تمثـل الواقـع وأنهـا نابعـة مـن أفـراد «لهـم آراء مسـرحية، وأقـل اختلاطًـا بأهـل البلـد بكثيـر منـا نحـن، ولا يضعـون صالحـه نصـب أعينهـم قـط»[69]. ولقـد بيَّـنَ هـذا الاسـتعراض المدهـش للكبـر والتعطـف مـدى انفصـام وِلسـون والمسـؤولين المحيطيـن بـه عـن الاتجاهـات الحقيقيـة للـرأي العـام المحلـي. كمـا كان اسـتمرار هـذه المشـاعر أيضًـا يعنـي أن الإدارة البريطانيـة افتقـرت للشـرعية السياسـية الواسـعة حيـث سـعت إلـى توسـعة نطـاق سـيطرتها وتعميقـه فـي بـلاد الرافديـن فـي عامـيْ 1919 و1920[70].

ولقـد ضمنـت مجموعـة الفرضيـات والتحليـلات المغلوطـة عـن الظـروف المحليـة فشـل المسـؤولين البريطانييـن الكامـل فـي قـراءة تعاظـم الجماعـات القوميـة الجديـدة فـي بـلاد الرافديـن. ومنـع مزيـج مـن توجهـات تلـك الجماعـات والتدريـب الـذي حصلـت عليـه مسـؤولين مـن أمثـال أرنولـد وِلسـون مـن الإقـرار بـأن المنـاخ المشـحون بشـدة قـد يوفـر البيئـة المواتيـة للعديـد مـن الشـكاوى السياسـية والاجتماعيـة والاقتصاديـة التـي شـاعت فـي مجتمـع بـلاد الرافديـن. وقـد تجلـى مثـال بـارز علـى ذلـك فـي فبرايـر 1919 إذ تشـكل فصيـل سياسـي جديـد اعتراضًـا علـى رفـض السـلطات البريطانيـة السـماح لوفـد مـن بـلاد الرافديـن بالسـفر إلـى باريـس لحضـور مؤتمـر السـلام. وهـو وإن كان شـبيهًا بحـزب الوفـد المصـري، فـإن حـرس الاسـتقلال العراقـي تضمـن أعضـاء أكثـر تنوعًـا مـن الناحيـة الاجتماعيـة مـن الفصائـل القوميـة القائمةبالفعل،كجمعيةالعهـد مثـلًا (وهـي جمعيـة

قومية سرية أسسها في الآستانة ضُباط عرب في الجيش العثماني عام 1913)[71]. تجدر الإشارة هنا إلى أن المسؤولين البريطانيين في بداية أغسطس عام 1914، قبل أن تندلع الحرب العثمانية، قد رفضوا في مصر عرضًا قدمه مؤسس جمعية العهد عزيز علي المصري لتجنيد قوة مسلحة بوسعها-بحسب زعمه- تحرير بلاد الرافدين في مقابل التمويل والأسلحة البريطانية. ففي ذاك الوقت، رفض غلبرت كلايتون الذي كان رئيسًا للاستخبارات البريطانية في القاهرة آنذاك العرض نظرًا لكونه «غامضًا جدًا و»لا تبدو التفاصيل مدروسة كما ينبغي»[72].

والواقع أن ثمة فارقًا أساسيًا يميز حرس الاستقلال العراقي عن جمعية العهد؛ ألا وهو أن الأول رفض دعوة الثانية للحفاظ على العلاقات مع البريطانيين خلال الصراع من أجل الاستقلال. وذلك بعيدٌ كل البعد عن إعلان المصري عام 1914 أن جمعية العهد تسعإلى تأسيس «دولة عربية موحدة مستقلة عن تركيا وكل القوى الأخرى باستثناء إنجلترا التي تقبل الجمعية حمايتها وسيطرتها على الشؤون الخارجية»[73]. علاوة على ذلك، فقد استفاد حرس الاستقلال من المزيد من الظروف السياقية المواتية آنذاك،إذكان من بينهم عدد كبير من القوميين الشباب المتعلمين الذين نشروا أجندة موالية لفكرة الاستقلال وعملوا على توحيد الطوائف السنية والشيعية في شكل حركة قومية غير طائفية حقًا ضد البريطانيين. ولقد كان ذلك تطورًا جديدًا مهمًا على ساحة الأحداث مَكَّنَ الاستقلال من توسعة نشاطاته ونفوذه إلى ما يتجاوز النخبة الحضرية السُنيّة بقدر كبير بحيث يشمل المدن الشيعية المقدسة، كالنجف الأشرف وكربلاء، علاوة على المناطق الشيعية القوية المحيطة بنهر الفرات التي عانت بعضًامن أقسى الصعاب خلال الحرب[74].

ورغم أن حرس الاستقلال افتقر لأي انسجام مركزي أو برنامج سياسي حقيقي، فإنه لعب تقريبًا الدور نفسه الذي لعبه حزب الوفد في مصر؛ ألا وهو أن يكون نقطة محورية تستطيع أن تجتمع حولها جماعات متنوعة اجتماعيًا واقتصاديًا من الأفراد والطوائف السنية والشيعية أو المدنية والقبلية في حلف فضفاض. ولو كان هناك

هدف مشترك وحَّدَ تلك الجماعات فهو أنهم جميعًا عانوا ويلات الحرب وشُردوا بسببها وكرهوا المطالبات البريطانية المستمرة للموارد والضرائب. ويمكننا القول إن هناك أربعة عناصر مميزة بشعب بلاد الرافدين تضافرت معًا خلال النصف الأول من عام 1920 لتشعل ثلاث ثورات قبلية حدثت ما بين شهريْ يوليو وسبتمبر. فقد تمثلت الفئات التي قامت بتلك الثورات في المجتمعات القبلية، والنخبة والمفكرين الحضريين السُنَّة، وطبقة الشيعة المتدينين، وطبقة الضباط التي تألفت في المقام الأول من ضباط بلاد الرافدين المحبطين العائدين من الجيش العربي لفيصل في سوريا[75].

وقد أضمرت كل من هذه الجماعات شكاوى محددة ذات صلة بالحرب وطريقة إدارة الاحتلال البريطاني المستمر. وانصب الغضب القبلي في أغلبه على القسوة الملموسة لقوات الاحتلال البريطاني وضباطها المتحمسين أكثر من اللازم. وتركز الاستياء تحديدًا على الموظف السياسي بفرقة الديوانية الرائد تشارلز دالي. وأكدتغيرترود بِل لاحقًا أن الثورة القبلية التي اندلعت في فرقة ذاك الضابط كانت أشبه بالثلج الذي ينكسر عند أوهن مواضعه[76]. ولقد بيّن التقرير السنوي لدالي عام 1919 أيضًا عمق الجهل البريطاني بالضغوط السياسية المتفاقمة حيث ذكر في تقريره أن «نهاية العام تميزت بغياب أي عنصر مثير للقلاقل، وأمسى الموقف القبلي أكثر إرضاءً من ذي قبل»[77].

وكان لدى الجماعات الثلاثة الأخرى الساخطة شكاوى بعينها حددت لجوءهم إلى العنف صيف عام 1920. فلقد نظرت النخبة السنيّة في أغلبها في بغداد والبصرة بسخط متزايد إلى التشعب ما بين الإعلانات المتعالية لسياسة قوات التحالف ووقائع التحصين السياسي على أرض الواقع[78]. فها هي غيرترود بِل تنظر بلامبالاة للطموحات المحلية حيث وصفت الإعلانات البريطانية وإعلانات قوات التحالف بأنها «فورة من الهواء الساخن خرجت من أرض الوطن على هيئة إعلانات دولية»[79]. ولم تقر بِل سوى بعد فوات الأوان، وتحديدًا في أكتوبر 1920، عندما قالت: «إننا قطعنا

وعـودًا بمؤسسـات ذاتيـة الحكـم، ولـم يقتصـر الأمـر علـى أننـا لـم نخـطُ ولـو خطـوة واحـدة نحـو تحقيـق هـذه الوعـود بـل إننـا انشـغلنا بإعـداد شـيء مختلـف كليًـا»[80]. عـلاوة علـى ذلـك، فثمـة مصـدر آخـر قـوي للسـخط بيـن جماعـات القـادة الحضرييـن تمثـل فـي انشـغال الحكومـة البريطانيـة بمؤتمـر السـلام (والثورتيْـن اللتيْـن اندلعتـا فـي مصـر والهنـد)، والإخفـاق اللاحـق فـي اتخـاذ قـرار سياسـي حقيقـي بخصـوص مسـتقبل بـلاد الرافديـن. ولقـد فتـح هـذا الشـطط فـي السياسـة فـي لنـدن المجـال أمـام أرنولـد وِلسـون لفـرض أحـداث بعينهـا فـي بغـداد. ولكـن، بينمـا ازدادت الشـكوك المحليـة فـي النوايـا البريطانيـة عـام 1920، بـدأت الكثيـر مـن العناصـر التآزريـة فـي المجتمـع الحضـري فـي الحـد مـن خسـائرها وتقنيـن دعمهـا للمسـؤولين البريطانييـن المحلييـن لتفـادي إثـارة سـخط الإدارة العربيـة المحتملـة التـي قـد تتولـى مقاليـد الحكـم فـي نهايـة المطـاف[81].

مـن زاويـة أخـرى، فطالمـا عانـى أبـرز رجـالات الشـيعة مـن الإقصـاء مـن المناصـب العليـا مـن قبـل العثمانييـن السُـنَّةوالبريطانيينالذين واصلواأيضًاسياسـة التهميـش تلـك. ومـن المفارقـة أن هـذه الريبـة المتبادلـة وقعـت أيضًـا فـي فتـرة مـا بعـد غـزو العـراق عـام 2003حيـث نظـر المسـؤولون البريطانيـون إلـى الخطـاب الإسـلامي الوحـدوي مـن جانـب السـلطة الدينـة الشـيعية بريبـة شـديدة، واشـتبهوا بأنهـم يدينـون بالـولاء للدولـة الفارسـية المتجـاوزة لحدودهـم الوطنيـة وأنهـم يمثلـون تهديـدًا مباشـرًا للنفـوذ البريطانـي. غيـر أن تلـك الريبـة المتبادلـة قـد زادت بقـدر أكبـر فـي ديسـمبر عـام 1918 عندمـا أصـدر عالـم الديـن الشـيعي البـارز فـي كربـلاء محمـد تقـي الشـيرازي فتـوى حـذر فيهـا المسـلمين مـن المشـاركة فـي اختيـار شـخص غيـر مسـلم ليحكـم بـلاد الرافديـن[82]. ومـرة أخـرى يمكـن أن نرسـم خطـوط تـوازٍ بيـن هـذا التدخـل فـي الحيـاة السياسـية وقـرار آيـة اللـه العظمـى علـي السيسـتاني الـذي أجبـر عـام 2003 القـوات المحتلـة ذات القيـادة الأمريكيـة علـى إقامـة انتخابـات فـي العـراق فتـرة مـا بعـد صـدام حسـين.

ولقـد جعـل هـذا التسـييس الطوائـف الشـيعية فـي بـلاد الرافديـن أكثـر اسـتجابة لتوعيـة القومييـن البغدادييـن. وشـهد شـهر رمضـان المعظـم الـذي حـلَّ فـي أبريـل ومايـو

عام 1920، والذي تصادف مع مؤتمر الحلفاء السابق الذكر بمدينة سان ريمو في إيطاليا، مستويات غير مسبوقة من التعاون بين الشيعة والسنة حيث استخدمت المساجد وغيرها من دور العبادة لتكون نقاط تجمع. وأصبحت العتبة الكاظمية المقدسة محورًا مهمًا من الناحية الجغرافية يصل بين العناصر السنية والشيعية الحضرية للتحالف الوليد[83]. علاوة على ذلك، نظم حزب الاستقلال احتفالات سُنيَّة ومراثي شيعية بمناسبة المولد النبوي الشريف في استعراض غير مسبوق للوحدة الدينية. كما نشرت الصحف في النجف الأشرف وكربلاء ووزعت كتيبات حثت القبائل المحلية على إعداد العدة للثورة المقبلة[84].

وأخيرًا، غرس مزيج من التطورات الإقليمية والدولية في عاميْ 1919 و1920 بذور الريبة في الغايات البريطانية المبالغ فيها عبر منطقة الشرق الأوسط بأسرها. فقد أثّرت تلك الغايات على الكثير من ضباط الجيش في بلاد الرافدينالذين خدموا في الجيش العربي الشمالي لفيصل خلال الثورة العربية. وكان كثير من هؤلاء الرجال قد ظلوافي سوريا بصحبة فيصل ولكن أملهم خاب تدريجيًا وبدؤوا يتعاطون بسخرية لاذعة مع العهود الخارجية بالدعم خلال الانهيار (السابق الذكر) في العلاقات ما بين فيصل والفرنسيين. إضافة إلى ذلك، زاد حقد ضباط بلاد الرافدين والمرارة التي شعروا بها بسبب تردد أرنولد وِلسونفي السماح لهم بالعودة من سوريا إلى بلاد الرافدين بعد معركة ميلسون. ولقد دفعت تلك التجارب كثيرًا منهم إلى تحويل دعمهم من حزب العهد القومي الوسطي إلى حزب الاستقلال الأكثر حزمًا[85].

وهكذا تلاقى التصاعد الحتمي للاضطرابات وحالة السخط في ربيع عام 1920 مع اجتماع سان ريمو الذي منحت فيه بريطانيا انتدابًا من عصبة الأمم على بلاد الرافدين، مع التوصية، بمعرفة وزير القضاء (البريطاني)، بوضع دستور لتنظيم الحكم البريطاني. ويمكن أن نرى نقاط توازٍ مجددًا مع المحاولة المثيلة في مصر لتشريع وتأمين تمديد سلطات زمن الحرب البريطانية. وكما أدت أفعال السير وليمبرونيات إلى ردة فعل قوية في مصر، كذلك أفضت تحركات السير إدغار بونهام في بلاد

الرافدين. فقد قدم مقترحًا بتشكيل مجلس للدولة تظل بموجبه السلطة التنفيذية في أيادٍ بريطانية محكمة. وقد وصف ضابط بريطاني صغير آنذاك ذاك المقترح (ولو أنه كتب ذلك من الذاكرة لاحقًا بعد أن اختتم مشوارًا إداريًا طويلًا في العراق) بأنه «سبق وجهات النظر الأصلية لأرنولد وِلسون»[86].

وبعد شهر رمضان وسلسلة من التظاهرات السلمية الحاشدة في بغداد طوال شهريْ مايو ويونيو 1920، اندلعت في نهاية المطاف الثورة القبلية في 2 يوليو. وقد اشتعلت شرارتها بعد اعتقال شعلان أبو الجون شيخ عشيرة الظوالم التابعة لقبيلة بني حجيم بعد رفضه دفع الضرائب إلى سلطة الاحتلال. فقد أثار اعتقاله ثورة أبناء قبيلته الذين اقتحموا مخفر الشرطة الذي احتجز فيه أبو الجون وقتلوا عددًا كبيرًا من رجال الشرطة مطلقين سراحه. وكانت هذه الواقعة الشرارة التي أطلقت العنان للإحباطات المكبوتة التي تراكمت بين الجماعات الريفية والحضرية على حد سواء. وسرعان ما تطورت حلقة الزخم فشجع النجاح المبدئي الذي أحرزته القبائل الأولى التي احتشدت قبائل أخرى على المشاركة في عمليات الاستيلاء على الغنائم أو الموارد المحلية. وفي غضون أسبوعيْن، اشتبك الآلاف من رجال القبائل المسلحين مع الوحدات العسكرية البريطانية في الرميثة، فأسفرت الاشتباكات عن إصابات لدى الجانبيْن[87].

ولقد اندلعت ثلاث ثورات كبرى في الفترة ما بين يوليو ونوفمبر 1920. وشاركت فيها قبائل من منطقة الفرات الوسطى ومنطقة بعقوبة الواقعة على نهر ديالي شمالي بغداد ومنطقة الفلوجة غربي بغداد. وعُرفت تلك الأحداث كلها إجمالًا باسم الثورة العراقية الكبرى. ولكن رغم شراستها الانقلابية في مناطق محددة، افتقرت تلك الثورات إلى التنظيم المركزي والهدف الواحد، وإنكانت قد عكست سلسلة من ردود الأفعال المحلية تجاه صعوبات اجتماعية واقتصادية بعينها، وبدتأكثر نزوعًا للفشل إذ لم تشارك فيها القبائل المحسوبة على اتحاد قبائل المنتفق القوي. علاوة على ذلك، فقد أخفقت تلك الثورات في التمدد إلى الكثير من المناطق الحضرية حيث قررت

الطائفة السنية البارزة ألا تتخلى عن ولائها للإدارة البريطانية. ويبدوأنالحذر من تجلي السلطة الشيعية والقبلية المحضة قد دفعهم إلى النزوع إلى حماية مكانتهم المرموقة الحالية في النظام المجتمعي. وبالتالي ضعفت شوكة تلك الثورات في نهاية المطاف بوصفها نتاجًا محليًا لقبائل الفرات الوسطى[88].

ورغم ذلك تخلدت ذكرى ثورة 1920 في الأذهان باعتبارها واحدة من الأركان الرئيسة الكبرى التي شكّلت روح الوطنية العراقية الحديثة. واعتبر «أغلب النشطاء السياسيين والعلماء الاجتماعيين العراقيين أحداث صيف ذاك العام أول عمل تاريخي قاتل في إطاره العراقيون البريطانيين، ومن ثم كان تمهيدًا لإقامة الدولة العراقية»[89]. ومنذ أن أصبحت العراق دولة مستقلة ذات سيادة عام 1932، نُسجت أساطير قوية (ومسيّسة) حول هذه الثورة. ويمكن أن نرى النتائج الممتدة الأثر لعملية تخصيص الحقائق التاريخية في قرار واحدة من كبرى الجماعات السُنيّة المتمردة التي نشأت بإقليم الأنبار المميت بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003 أن تطلق على نفسها اسم كتائب ثورة العشرين[90]. فهذه التسمية تتجاهل حقيقة رفض النخبة السُنيّة الانضمام إلى الثورة التي اندلعت بقيادة الشيعة مما ساهم في فشلها الحتمي. ولقد تردد صدى تداعيات الحسابات المختلفة للأطراف المعنية في شتى أرجاء دولة العراق الحديثة. وكان للتمايز ما بين الولاء النسبي لكثير من المجتمعات السُنيّة والتمرد الشيعي في أغلبه تبعات سياسية قوية حيث أكد تحيزات المسؤولين البريطانيين الذين كانوا ميالين مسبقًا لمواصلة الأسلوب العثماني في التعاون مع النخبة السنية،فأقاموا دولة العراق الحديثة ونقلوا تدريجيًا مسؤوليات الحكم إلى شركائهم المحليين[91].

وبناءً على كل ما تقدم، يمكننا القول إنشراسة ثورة بلاد الرافدينفاجأتالسلطات المدنية والعسكرية البريطانية مفاجأة مذهلة. فقبل اندلاعها بثلاثة أسابيع، كانت بِل تعلن بكل ثقة: «لا أعتقد شخصيًا أن ثورة ستندلع سواء هنا [في بغداد] أو في الأقاليم»[92]. ولقد فوجئ القادة العسكريون بالمثل بالثورة. وشعر كثير من زملاء

القائـد العـام الجديـد فـي بـلاد الرافدينأيلمرهالديـن أنـه جاهـل بـآراء عمـوم العراقييـن، فعندمـا اندلعـت الثـورة كان هـو والعاملـون فـي مقـر قيادتـه بالكامـل يمضـون إجـازة الصيـف علـى التـلال الفارسـية[93]. كمـا أن ضابطًـا آخـر مرموقًـا، وهـو اللـواء جـي. أيـه. ليسـلي قائـد الفرقـة 17 الهنديـة، كان منشـغلًا بضـم نـادي بغـداد لسـباقات السـيارات ونـادي البصـرة لسـباقات السـيارات قبـل الأزمـة مباشـرة. وحتـى بعـد أن بلغـت الثـورات القبليـة ذروتهـا، انصبـت جهـوده فـي أغلبهـا علـى إدارة الخيـول لدرجـة أنـه عكـف علـى تنظيـم بطولـة كأس الفـرات الذهبـي الافتتاحـي بمدينـة الحلـة فـي 17 أكتوبـر 1920، بينمـا كانـت قطاعـات كبيـرة مـن المنطقـة المحيطـة بالمدينـة مـا برحـت فـي حالـة فـوران وثـورة[94].

وقـد اقتضـت الظـروف اسـتدعاء 18 كتيبـة إضافيـة مـن الجيـش الهنـدي إلـى بـلاد الرافديـن للانضمـام إلـى قرابـة 100 ألـف جنـدي ممـن بقـوا فـي أرض المعركـة بعـد حوالـي عاميْـن مـن انتهـاء الحـرب. وكان ثمـن وأد الثـورة فـي مهدهـا مقتـل 321 جنديًـا بريطانيًـا وهنديًـا وإصابـة 1228 آخريـن، ونفقـات بلغـت فـي المتوسـط 591700 جنيـه إسـترليني أسـبوعيًا خـلال الفتـرة مـا بيـن 1 يوليـو و1 أكتوبـر عـام 1920[95].وحتـى ونسـتون تشرشـل (وزيـر الدولـة للحربيـة فـي لنـدن آنـذاك) انتقـد بشراسـة ذلـك «النظـام البشـع» الـذي احتـل تحـت مظلتـه «عـدد مـن القـرى الطينيـة المحاصـرة بيـن نهـر ضحـل وصحـراء محرقـة تقطنهـا عائـلات نصـف عاريـة تتضـور جوعًـا»[96]. وقـد أكّـد تقييمـه الصريـح بشـكل مميـز والقـوي بشـكل حاسـم أن لنـدن لـم تعـد تتحمـل هـذه المسـتويات العاليـة مـن النفقـات الماليـة واسـتنفاد المـوارد العسـكرية فـي فتـرة كانـت فيهـا بريطانيـا تعانـي مـن مشـكلات اقتصاديـة واضطرابـات سياسـية فـي شـتى أرجـاء الإمبراطوريـة. وبالتالـي بـدأ صُنّـاع السياسـة فـي لنـدن أخيـرًا فـي وضـع خطـة لأجـل تقليـص السـيطرة المباشـرة علـى بـلاد الرافديـن وتقنيـن موطـأ قدمهـا فتـرة مـا بعـد الحـرب.

إنشاء نظام ما بين الحربين

كشـفت موجـات العنـف التـي امتـدت فـي أرجـاء منطقـة الشـرق الأوسـط خـلال عامـيْ

1919 و1920 ضعف منظومة ما بعد الحرب التي كانت بريطانيا وفرنسا تحاولان فرضها على المنطقة. ففي منطقة القوقاز أيضًا لم يتبع نهاية الحرب الروسية العثمانية استقرار سياسي ممتد.بل إن مجموعة جديدة من الصراعات المحلية استنفدت القسم الأكبر من المنطقة، فقد تسبب انسحاب الروس في البداية ومن بعده هزيمة العثمانيين في إحداث فراغ في السلطة السياسية عبر المنطقة. ولذا اندلعت الحرب بين الجورجيين والأرمن على الحدود في ديسمبر 1918 في الوقت الذي دق فيه ناقوس الحرب بين الأرمينيين والأذربيجانيين الذين اشتبكوا في سلسلة من المعارك العنيفة على باكو وكاراباخ بدأت في منتصف عام 1918 واستمرت حتى عام 1922. ولقد أدت التوترات العرقية والدينية إلى المزيد من حالات طرد المسلمين من باكو والمزيد من المذابح، بما في ذلك مذبحة وقعت في سبتمبر عام 1918 راح ضحيتها ما بين 10 آلاف و20 ألف أرميني على يد القوات العثمانية وحلفائهم الأذربيجانيين، وكذلك القتل الواسع النطاق للأرمن في مدينة شوشا التابعة لإقليم كاراباخ في مارس 1920. وجلبت تلك الأحداث العنيفة أيضًا الدمار للأحياء الأرمينية من المدينة، وأدت إلى القضاء على قرون من الرخاء الاقتصادي والثقافي الأرميني بالمنطقة. ولكن فترة التشظي الإقليمي الناجم عن عودة الحركات الوطنية في منطقة القوقاز انتهت بفرض الهيمنة السوفيتية عام 1920 واضمحلال الجمهورية الأرمينية الأولى التي لم تدم طويلًا والجمهورية الأذربيجانية الديمقراطية[97].

ولقد كشفت ردود الأفعال المحلية هذه كيف كانت الحركات القومية تتحرك إلى ما يتجاوز القدرات المحدودة لسابقاتها، ولعل ذلك يرجع-إلى حد ما- إلى ضياع السيطرة الإمبريالية أو اضمحلالها الذي فتح الباب على مصراعيه لإمكانات جديدة للجماعات الوطنية. وكان صعود نجم شخصيات سياسية بارزة ذات شعبية لديها القدرة على تعبئة أعداد متزايدة من التابعين والأنصار على مستوى البلاد يعني أنه لا يمكن بعد الآن تجاهلهم بحجة أنهم لا يعبرون عن الرأي العام المحلي، مهما حاول المسؤولون البريطانيون والفرنسيون أن يفعلوا ذلك. علاوة على ذلك، فإن سخط القوميين من الخطط الغربية لإعادة تنظيم المنطقة لم يكن يقتصر على منطقة

الشرق الأوسط وحدها. فقد ماجت الإمبراطورية البريطانية باضطرابات واسعة النطاق امتدت من إيرلندا حتى الهند وأفغانستان، مما فاقم من ضرورة تحديد أولويات التعهدات والالتزامات. فقد كانت القلاقل في الهند تحديدًا جسيمة حيث أثبتت للمسؤولين البريطانيين أن استغلالهم للجنود الهنود لم يعد بعد ليضمن السيطرة الإمبريالية في منطقة الشرق الأوسط وغيرها من المناطق. ففي لحظة أن بلغت الإمبراطورية البريطانية أقصى حدودها الإقليمية في فترة قصيرة من الانتصارات تبعتها غزوات فترة الحرب، وبعد حملة تصعيد العصيان المدني التي قادها غاندي، اقتضى الأمر إجراء فحص للوقائع المتعلقة بممارسة السلطة البريطانية في الهند. وبحلول يونيو عام 1921، اضطر نائب الملك في الهند إلى إخطار الحكومة البريطانية بأن «الرأي العام في الهند لن يتحمل بعد نظام حكم يستغل جنوده تحت مظلته... لخدمة المتطلبات المتذبذبة لحكومة صاحب الجلالة»[98].

وفي شمال أفريقيا، انفجرت الاضطرابات المتصاعدة وتحولت إلى صراع عنيف بين بربر جبال الريف ومحتليهم الإسبان عام 1921. فقُتل أكثر من 10 آلاف جندي إسباني في شهريْ مايو ويونيو وحسب حيث ألحقت بهم قوات البربر بقيادة القاضي البارز محمد بن عبد الكريم الخطابي ما وصفه يوجين روغان «بأسوأ هزيمة لجيش استعماري على الإطلاق في أفريقيا في القرن العشرين»[99]. علاوة على ذلك، امتد الصراع إلى نطاق سيطرة فرنسا في المغرب الذي شهد أعمال عنف شديدة قبل الحرب العالمية الأولى مما أسفر عن استقطاب آلاف من الجنود الفرنسيين للمشاركة في الحملة المناوئة للتمرد في شمال أفريقيا. أما خلال الحرب فقد حارب ما يربو على 34 ألف مقاتل مغربي على الجبهة الغربية وعانوا من معدل إصابات كبير جدًا، فتجلّت لاحقًا بقوة الرغبة في الانتقام للضحايا والمشاركة في روح مبدأ تقرير المصير[100].

وفي هذا السياق المُسَيَّس جدًا لفترة ما بعد الحرب مباشرةالذيكانت فيه آمال التقدم السياسي في السماء، سرعان ماكانتالأنباء تنتقل من منطقة إلى أخرى.

فقد تردد صدى القلاقل التي اشتعلت في الهند وإيرلندا لدى القوميين في مصر، والعكس صحيح. وبالمثل أمست أنباء السماح بإرسال وفد من منطقة الحجاز بقيادة فيصل إلى مؤتمر باريس للسلام بمثابة شرارة الانفجار لدى القوميين المصريين والسوريين والعراقيين الذين تساءلوا لِمَ لم يُسمح لوفودهم بالحضور. وكانت تلك الروابط العابرة للأقاليم زاخرة، وقد تعاظمت في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بسبب اللغة المشتركة والانتشار المتزايد لوسائل الإعلام المطبوعة. كما عكست تلك الروابط أيضًا الاقتصادات السياسية المتداخلة لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، بين المنطقتيْن بعضهما بعضًا وبينهما وبين الهند أيضًا، وذلك نتيجة وقوعها داخل النظاميْن الإمبرياليْين لبريطانيا العظمى وفرنسا. فقد ذكر المؤرخ المتأخر للإمبراطورية البريطانية جون جالاغرعندماأرّخ لتلك الفترة عام 1981 أن لُبّ «أزمة الإمبراطورية» فترة ما بعد الحرب كان يكمن في مجموعة من المشكلات وردود الأفعال المتداخلة تجاه المشقات التي جلبتها الحرب. وأفضى به ذلك إلى استنتاج أن «الحاجة تقتضي دراسة المشكلات نفسها لا المناطق التي وقعت فيها تلك المشكلات» طالما أنه «ما من تحليل لأي من تلك الأزمات سيكون متكاملًادون إثبات تداخله مع غيره من الأزمات»[101].

ويمثل مؤتمر القاهرة الذي عُقِدَ في العاصمة المصرية في مارس 1921 نقطة نهاية مناسبة لتحليل إعادة تنظيم الشؤون الإقليمية فترة ما بعد الحرب. فرغم أن «الختام» الأخير لم يُتَوَصَّل إليه حتى عام 1923 (وذلك بعقد اتفاقية لوزان التي حلت محل اتفاقية سيفرز المشؤومة القصيرة الأجل بالتزامن مع استقلال تركيا) أو حتى عام 1925 (وذلك بعمل تسوية للمطالب المتعارضة المتعلقة بولاية الموصل ودمجهافي مملكة العراق)، فقد أرست القرارات التي اتخذت في مصر أساس النظام خلال الفترة الفاصلة بين الحربيْن. وبالتراجع عن أغلب القرارات التي اتخذت بعد الحرب مباشرة، تجلت السرعة التي تضاءل بها أثر سلطات الحلفاء فترة الحرب وامتداد أذرعهم في مواجهة المنافسة المحلية وردود الأفعال العنيفة على مستوى المنطقة. وكانت إعادة تعديل الموقف محاولة متأخرة لإعادة صياغة الأهداف الغربية لأجل

«إدارة» منطقة الشرق الأوسط بآليات حوكمة أقل تكلفة والنشر الاستهدافي للقوة الجبرية. ومن ثم تلاشت الغايات الإمبريالية المغرورة لعام 1919 في خضم تقييم —ولو على مضض— مفاده أن السياسة لم يعد بالإمكان صياغتها دون إشراك أطراف أو شركاء محليين.

وقد عُقِدَ في القاهرةذلكالمؤتمر الإقليمي الذي دعا إليه ونستون تشرشل — وكان آنذاك وزيرًا للدولة للمستعمرات— وتي. إي. لورنس الذي عُيِّنَ مؤخرًا مستشاره الخاص،وذلكبفندق سميراميس في 12 مارس عام 1921. وحضره قادة مدنيون وعسكريون بريطانيون من فلسطين وبلاد الرافدين إضافة إلى ابنيْ شريف مكة الأبرز فيصل وعبد الله. كما حضره أيضًا أغلب نجوم العروبة البريطانيين، بخلاف لورنس، بمن فيهم غيرترود بِل والجنرال ألنبي وأرنولد ولسون والسير بيرسي كوكس والسير هربرت صموئيل والمندوب السامي في فلسطين. وكان جعفر العسكري هو المندوب العراقي الوحيد، وهو والأسبق على حلب في سوريا، وكان حينئذ شخصية بارزة في الحركة الشريفية (الهاشمية) ورجلاً متأهبًا للعمل مع البريطانيين في العراق. وقد التأم الحضور في ذاك الاجتماع للموافقة على المخططات البريطانية المُعاد رسمها في عجالة التي تقضي بتسليم عرشمملكةالعراق الجديدة إلى فيصل وعرش إمارة شرق الأردن الجديدة إلى عبد الله، ولو أن أغلب التفاصيل تم الاتفاق عليها في اجتماعات سرّية مع فيصل في لندن من قبل[102].

ولقد أحكمت القرارات الرئيسة التي اتخذت في القاهرة الخريطة الجيوسياسية للشرق الأوسط الحديث. ربما تكون الأنظمة قد تغيرت بطبيعتها والحدود السياسية تحوّلت بفعل سلسلة الحروب العربية الإسرائيلية لكن نظام الدولة الإقليمية الأساسي ظل دون تغيير. وعلى أية حال، فقد وافق الموفدون على أن تحتفظ فرنسا بانتداباتها وسطوتها على سوريا ولبنان بينما تواصل بريطانيا هيمنتها على فلسطين مع الاستمرار في دعمها لإنشاء دولة يهودية فيها. وفي تلك الأثناء، شكل تأسيس مملكتيْ العراق وإمارة شرق الأردن تحت الهيمنة الهاشمية (الموالية لبريطانيا) ضربة

قاصمة للطموحات الإقليمية لعبد العزيز آل سعود الذي وجد نفسه آنذاك محاطًا بثلاثة منافسيْن هاشميِّيْن (ثالثهم شريف مكة في الحجاز) مما عَجَّلَ بحسم سعي الهاشميين والسعوديين إلى تحقيق الهيمنة بالقوة المفرطة. وهكذا دون أن تربطه أية علاقات قبلية أو عائلية ببلاد الرافدين، أمسى فيصل ملكًا للعراق بعد «استفتاء شعبي» مختلق بعناية أثبت أن مؤيديه بلغت نسبتهم 96 في المائة، في الوقت الذي قوبل فيه المرشحون المحليون، مثل عبد الرحمن الكيلاني نقيب أشراف بغداد أو السيد طالب نقيب أشراف البصرة (وهو الذي نفته بريطانيا إلى الهند قبل شهر من وصول فيصل)، بالتجاهل الشديد[103].

وقد كان لقصور الجذور المحلية هذا تبعات على الحكومة الملكية العراقية حيث جاهدت من أجل ترسيخ أقدامها باعتبارها السلطة السياسية الشرعية في العراق. وفي نهاية المطاف، لم تكن الجذور التي غرسها ملوك متتابعون كافية لإنقاذ المؤسسة من أن يُطاح بها بعنف عام 1958.ولكن حال الحكام الهاشميين لإمارة شرق الأردن (وهي التي أمست الأردن لاحقًا) كان أفضل حيث ساعدها الاستقلال الذي كفلته فترات الحكم الممتدة لكلٍ من عبد الله (1921-1951) وحفيده البارز حسين (1952-1999)، علاوة على المستويات العالية من الدعم العسكري والمالي الخارجي التي مكنت المملكة الفقيرة الموارد من الصمود حتى أضحت نموذجًا للاستقرار في منطقة تموج بالاضطرابات. وعلى العكس تمامًا كان الإرث البريطاني والفرنسي في فلسطين وسوريا أكثر إثارة للجدل بكثير، بل إنه ما زال محل نزاع حتى وقتنا هذا. وحقيقة الأمر أن تشارلز تريب لاحظ مؤخرًا أن «عنف الإرث الكولونيالي» عبر المنطقة الذي تشكل خلال الحرب العالمية الأولى وبعدهاقد»وَفَّرَ إطار عمل قويًا لتخيل السلطة» في أرجاء المنطقة[104]. فما برحت هذه الذكريات والمعارك التي اندلعت بسبب «آلام المخاض» العنيفة لنظام الدولة الذي بزغ من بوتقة اضطرابات ما بعد الحرب يتردد صداها في أرجاء الشرق الأوسط لقرن كامل من بعد الحرب.

خاتمة

كان أثر تعرّض المجتمعات والشعوب في الشرق الأوسط للحرب العالمية الأولى والمشاركة فيها هائلًا.فبصورة أو بأخرى، ورّطت أربع سنوات من القتال المنطقة بأسرها، بشكل مباشر أوغير مباشر، في الصراعات الموضعية التي خرجت من رحم النزاع الأوّلي بين القوى الإمبراطوريّة على تحقيق مكاسب استراتيجية. فمن رءوس الشواطئ المكتظة في غاليبولي إلى الهضاب الجبلية المتجمدة في القوقاز وصحراء سيناء وبلاد الرافدين القائظة استعرت المعارك فوق تضاريس قاسية لا ترحم وألحقت خسائر هائلة بالجنود ووحدات الدعم غير المقاتلة على حدّ سواء. علاوة على ذلك، فإن جلب جيوش عارمة ووحدات دعم ضخمة من الخارج تداخَل مع أنماط النشاط الاقتصادي والزراعي المدنية وتسبّب في وجود مطالب غير مستدامة على الموارد المحلية متزايدة الشح. فبدأت الضغوط التضخمية ونقص الغذاء يتسبّبان في مصاعب حقيقية في مرحلة مبكرة، وذلك في عام 1915. وقد تطوّر هذا النقص ليصير مجاعة ضربت أجزاء كبيرة من المنطقة، وازدادت تعقيدًا وتفاقمًا بفعل التدابير الاستخراجية القاسية لإطعام الآلة العسكرية النهمة.

كما تطوّرت أيضًا دينامية جديدة، إذ دفع ضغط مقتضيات زمن الحرب القوى الإمبراطوريّة إلى التماس شركاء محليين والعمل من خلالهم، وكذلك -على نحو مفاجئ- إلى إبرام اتفاقيات سرّية فيما بينها قسّمت الشرق الأوسط إلى مناطق نفوذ وسيطرة. وسرعان ما بدأت هذه الاتفاقيات أو الوعود، سواء أكانت رسمية أم غير رسمية، تتكشّف، لتشكّل أساس نقاشات بائسة احتدمت منذ ذلك الحين. ومع خروج تفاصيل هذه الاتفاقيات إلى العلن بما يتعارض مع رغبات المسؤولين الاستعماريين، نجد أنها سرّعت أيضًا صعود حركات معارضة جديدة وخلقت ركامًا من المظالم السياسية والاجتماعية الاقتصادية العميقة. وقد وضعت هذه المظالم الأساس للقلاقل الكبيرة المطولة التي ابتلي بها الشرق الأوسط بعد الحرب مباشرة،

مما يكشف عن محدوديات المحاولات المفروضة من الخارج لإعادة تنظيم المنطقة لكي تتناسب مع المصالح الغربية.

ومن ثمَّ فليس من قبيل المبالغة أن ننوّه إلى أن الحرب العالمية الأولى كانت محورية لخلق الشرق الأوسط الحديث حيث عجّلت بزوال الدولة العثمانية ومهّدت الطريق أمام ظهور نظام الدولة (وإنْ تحت حكم الانتداب) الذي ما يزال إلى حدّ كبير قائمًا إلى يومنا هذا. فقد أُعِيد تشكيل المشهد السياسي برمته في المنطقة حيث قَوَّض إرث الحرب قدرة «الأغراب» الإمبراطوريين على الهيمنة على الأحداث والتأثير عليها، ونجحت الجماعات القومية في تعبئة الحركات الجماهيرية حول هويات واضحة الوطنية. ومع ذلك، فقد حدث هذا بالضبط في الوقت الذي صارت فيه قيمة الشرق الأوسط الفعلية والمحتملة ملمحًا دائمًا من ملامح مجموعة جديدة من الاعتبارات الجغرافية الاستراتيجية الغربية. فظهور الميكنة واسعة النطاق لم يُحدث ثورة في إدارة الحرب ذات الطابع الصناعي فحسب، بل أضفى أيضًا درجة من الإلحاح على البحث عن مصادر إمداد يمكن التعويل عليها والسيطرة عليها كذلك.

لذا كان الشرق الأوسط في عام 1923 صورة مختلفة تمام الاختلاف عن الشرق الأوسط في عام 1914حيث اختلطت حركات سياسية جديدة وأيديولوجيات جماهيرية بالنقاشات الصاعدة حول الهويّات والمسارات التطوّرية للدول والأمة، وتحوّل محور تركيز اتخاذ القرار من الأبهة الإمبراطوريّة الزائلة إلى نشاط الحكومات الوطنية المحموم. واحتكّت طبقة سياسية جديدة بحدود المنظومة الإلزامية الناشئة عن تسوية ما بعد الحرب واختبرتها، في الوقت الذي كافح فيه الإداريون الاستعماريون البريطانيون والفرنسيون للتكيّف مع تقلّص السيطرة الذي أمسى واقعًا جديدًا. كما تغيّرت تركيا أيضًا حتى صار من الصعب التعرّف عليها في ظل شروع أتاتورك في برنامج تحديث اجتماعي سياسي واسع النطاق اشتمل على إعادة توجيه الجمهورية الجديدة نحو أوروبا وإدارة ظهرها إلى الشرق الأوسط. وفي شبه الجزيرة العربية، سُوّيت المنافسة بين الأسرتيْن السعودية والهاشمية لصالح عبد العزيز آل سعود،

وذلك على نحو كانت له تبعات دائمة فيما يخص الدولة التي اتخذت اسم عائلته في عام 1932.

وفيما يحتفل كبار المشاركين في الحرب العالمية الأولى بذكرى مرور مائة سنة عليها سيتركّز معظم الاهتمام على إحياء ذكرى معارك غاليبولي، إذْ سيتوافد آلاف «الحجاج» من أستراليا ونيوزيلندا على شبه الجزيرة في أبريل 2015 لتكريم إرث الحملة التي شكّلت هويتهم الوطنية بكل قوّة. كما ستحتفل تركيا أيضًا بذكرى هذه الحملة، وإنْ في خضم أول تحدٍّ مستدام للنظام السياسي الذي أرساه أتاتورك بعد عام 1923 وفي ضوءاتهامات للحكومة الإسلامية في أنقرة بالانخراط في عملية دعاية «عثمانية جديدة». ومع ذلك، وفيماعدا الفضول التاريخي تجاه الذكرى المائة للاستيلاء على بغداد والقدس في مارس وديسمبر 2017، فمن المحتمل أن يتعرض الاهتمام الجماهيري بالمئوية للكبت في الشرق الأوسط على نحو أشدّ بكثير منه في أماكن أخرى، وهو ما لا يعتبر مفاجأة إلى حدّ كبير. ففي ظل ما تعانيه المنطقة من سكرات فوضى سياسية مجدّدة، وبعد أن شهدت عقودًا من الأزمات الإقليمية والدولية التي يمكن أن نعزو كثيرًا منها إلى القرارات التي اتخذت في أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، بات الإرث المعقّد الذي خلفته الحرب أبرز في هذه المنطقة وأوضح منه في أوروبا أو روسيا.

ويمكن تشبيه هذا بأوروبا التي ظلّت مقسّمة حتى عام 1989، حيث ظلّت مضامين الحرب العالمية الثانية ملحوظة بقوة على مدى أجيال متعددة. وفي هذا السياق، يصعب أن نضع مسافة تاريخية تفصلنا عن الأحداث التي ما زالت أصداء إرثها تتردّد في عموم المنطقة. فلقد شهد القرن المنصرم منذ ذلك الحين كثيرًا جدًّا من الأحداث، لدرجة أننا نجد قضايا مثل اتفاقية سايكس بيكو وتصريح بلفور يجري الحديث عنهما على نطاق واسع كما لو كانا يشيران إلى قضيتيْن جدليتيْن معاصرتيْن، على الرغم من أنه قد لا تقام صلة مباشرة بين الحال المعاصر وبين الحرب العالمية الأولى. وقد تحدّث السفير الأمريكي في سوريا فيما بين عاميْ

1988 و1991 إدوارد جرجيان عن الرئيس السوري حافظ الأسد وكيف أنه «أسمعني سرودًا لا حصر لها عن اتفاقية سايكس بيكو وكيف أنها كانت أصل كل العلل التي يعاني منها الشرق الأوسط المعاصر»[1]. ولعل هذا يفسر أيضًا الإشارات التي ترد في التعليقات وفي وسائل الإعلام عن الحرب الأهلية المريرة التي تدور رحاها حاليًا في سوريا وكيف أنها تساهم في «نقض» اتفاقية سايكس بيكو. فقد ذكر مقال نشرته صحيفة «ديلي ستار» البيروتية في يونيو 2013 كيف أن «أحد أجزاء ذلك الإرث... في طريقه إلى نهاية وحشية»، فيما نشرت مجلة«لندنريفيوأوفبوكس» تقريرًا مطولًا للمراسل الشرق الأوسطي المخضرم باتريك كوكبيرن من سوريا تحت عنوان: «أهي نهاية سايكس بيكو؟» وقد سجل كوكبيرن كيف عبّر له الناس مرارًا وتكرارًا عن هذا الشعور في أثناء سفره في أنحاء العراق مضيفًا: «شعور أن مستقبل دول بأسرها يكتنفه الشكّ شعور متزايد في عموم الشرق الأوسط، وذلك للمرة الأولى منذ أن قسّمت بريطانيا وفرنسا جثّة الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى»[2].

ومع رحيل آخر من تبقّى على قيد الحياة ممن شاركوا في الحرب العالمية الأولى، انتقلت هذه الحرب من هوامش التجربة الشخصية إلى كتب التاريخ. وسوف تكون الذكرى المئوية، في أعين الكثيرين، فرصة للتوقف والتأمل في جسامة ما اشتملت عليه من معاناة إنسانية. ويحتفظ مَن لهم أسلاف حاربوا في تلك الحملات وقضوا فيها بروابط عاطفية ومادية تربطهم بذلك الماضي من خلال الخطابات والمذكّرات والمتعلقات الشخصية. وهناك أستاذ للتاريخ في جامعة كامبردج كان من ضمن المتعلقات التي تركها أسلافه «سونكي» عثماني أضفى جوًا من الإثارة والاهتمام على طلاب إحدى الحلقات الدراسية. وفي غاليبولي، ما زالت البقايا الضحلة (وهي التي أعيد ترميمها في بعض الأحوال) من شبكات الخنادق التي أنشئت إبّان الحرب ظاهرة للعيان لمن ينحرفون عن الطريق الممهّد ويسيرون بضعة أمتار في غابات الصنوبر. كما تناثرت المقابر البريطانية في مشهد الشرق الأوسط، حيث يلقى بعضها عناية شديدة ويعاني بعضها الآخر من صور متنوعة من التردّي.فقد تعرضت مقبرة الحرب العالمية الأولى في غزّة لأضرار شديدة في يناير 2009 خلال القصف

الإسرائيلي على غزّة، وفي بغدادتضررت مقبرة البوابة الشمالية التي تضم رفات أكثر من 4 آلاف جندي بريطاني وهندي وعثماني، من ضمنهم الفريق السير ستانلي مود القائد الذي فتح المدينة، بفعل سيارة مفخّخة انفجرت قريبًا منها في عام 2009. كما ترقد غيرترود بِل على مقربة من هناك حيث دُفنت في المقبرة المتداعية الملحقة بكنيسة بغداد الأنغليكانية.

أمارات الحرب العالمية الأولى موجودة في كل مكان فيالشرقالأوسط. فإرث تجربة زمن الحرب الذي غشيته الصراعات اللاحقة وعقود من التناحر المريرما زالت تتردّد أصداؤه بعد زمن طويل من دخول الصراع طيّ التاريخ في أوروبا. ولقد كان للحملات الشرق أوسطية(وهي التي يراها كثيرون «عروضًا جانبية» على هامش القتال الرئيس الذي دارت رحاه على الجبهة الغربية) تبعات جسيمة على المنطقة بأسرها. وفيما تقف المنطقة ذاتها الآن على شفا فترة أخرى من التغيير التحويلي (غير المضمون بشدة)، يتبيّن أن فهم العمليات التي مارست هذا النفوذ على التطور المعاصر للدول والمجتمعات في الشرق الأوسط أهمّ من أي وقت مضى.

الهوامش

المقدمة

1- انظر الفصل السادس.

-Edward Erickson, *The History of World War I: Gallipoli and the Middle East 1914* .2
.*From the Dardanelles to Mesopotamia* (London: Amber Books, 2008), p.217 :*1918*

Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the* .3
.Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2010), p.47) *22-Middle East, 1914*

Sevket Pamuk, 'The Ottoman Economy in World War I', in Stephen Broadberry and .4
Mark Harrison (eds.), *The Economics of World War I* (Cambridge: Cambridge University
Press, 2009), p.120; Erik Zurcher, 'Little Mehmet in the Desert: The Ottoman Soldier's
Experience', in Hugh Cecil and Peter Liddle (eds.), *Facing Armageddon: The First World*
.*War Experienced* (London: Leo Cooper, 1996), p.238

.First World War Centenary Plans Unveiled', *Daily Telegraph*, 9 June 2013' .5

.(http://www.gallipoli2015.dva.gov.au/Pages/default.aspx (accessed 18 July 2013 .6

http://ww100.govt.nz/rfp-scoping-gallipoli-heritage-site-interpretation#. .7
.(UebIwMBwYhk (accessed 18 July 2013

.(Notably Peter Hart, *Gallipoli* (London: Profile Books, 2011 .8

Notably Charles Townshend, *When God Made Hell: The British Invasion of* .9
.(*Mesopotamia and the Creation of Iraq* (London: Faber and Faber, 2010

10- ملاحظة شخصية، لندن: الأرشيف الوطني، فبراير 2005.

.Sir Jeremy Greenstock's book was entitled *The Cost of War* .11

.Greenstock Finally Delivers His Barb on Iraq', *Daily Telegraph*, 12 March 2007' .12

الفصل الأول

Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples* (London: Faber and Faber, 1991 [2002]), .1

.p.7

D. T. Potts, 'The Archaeology and Early History of the Persian Gulf', in Lawrence .2

.41-Potter (ed.), *The Persian Gulf in History* (New York: Palgrave Macmillan, 2009), pp.39

.John Keegan, *A History of Warfare* (London: Pimlico, 1994), p.70 .3

Barry Strauss, *The Trojan War. A New History* (London: Simon & Schuster, 2006), .4

.p.18

Fred Halliday, *The Middle East in International Relations: Power, Politics and Ideology* .5

.(Cambridge: Cambridge University Press, 2005), p.37

Oxford: Blackwell Publishing,) *1914*-C. A. Bayly, *The Birth of the Modern World 1780* .6

.2004), p.1

1920-Thomas Metcalf, *Imperial Connections: India in the Indian Ocean Arena, 1860* .7

.Berkeley, CA: University of California Press, 2007), p.1)

Patricia Risso, 'India and the Gulf: Encounters from the Mid-Sixteenth to the Mid- .8

Twentieth Centuries', and William Beeman, 'Gulf Society: An Anthropological View of

the Khalijis – Their Evolution and Way of Life', both in Potter (ed.), *The Persian Gulf in*

.History

B. R. Tomlinson, *The Political Economy of the Raj: The Economics of Decolonisation* .9

.3-*in India* (London: Macmillan, 1979), pp.1

James Onley, *The Arabian Frontier of the British Raj: Merchants, Rulers and the* .10

.(*British in the Nineteenth Century Gulf* (Oxford: Oxford University Press, 2009

The Interactive Emergence of European :1800-John Willis, 'Maritime Asia, 1500 .11
.5-Domination', *American Historical Review*, 98(1), 1993, pp.84

Sugata Bose, *A Hundred Horizons: The Indian Ocean in the Age of Global Empire* .12
.(Cambridge, MA: Harvard University Press, 2006), p.6

Marc Valeri, *Oman: Politics and Society in the Qaboos State* (London: Hurst & Co., .13
.2009), p.18

Ibid. p.22; Beatrice Nicolini, 'The Baluch Role in the Persian Gulf during the .14
Nineteenth and Twentieth Centuries', *Comparative Studies of South Asia, Africa and the*
.*Middle East*, XVII (2007), p.396

-Alan Villiers, *Sons of Sindbad* (London: Arabian Publishing Limited, 2006), pp.10 .15
.11

16- للاطلاع على مساهمة أصلية في مناقشة الاستراتيجية الإمبراطورية البريطانية، انظر:
London: Frank Cass,) *1918*-Brock Millman, *Pessimism and British War Policy, 1916*
.(2001

Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the* .17
.(Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2010) *1922-Middle East, 1914*

Reidar Visser, *Basra: The Failed Gulf State: Separatism and Nationalism in Southern* .18
.21-*Iraq* (Munster: Lit Verlag, 2005), pp.18

Oxford:) *1958*-David Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East 1914* .19
.Oxford University Press, 2006), p.15

Virginia Aksan, 'The Ottoman Military and State Transformation in a Globalizing .20
.World', *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, XVII (2007), p.259

Phebe Marr, *The Modern History of Iraq* (Boulder, CO: Westview Press, 1985), .21
.p.22

Christopher Clay, 'The Origins of Modern Banking in the Levant: the Branch .22

International Journal of Middle East ,'1914-Network of the Imperial Ottoman Bank, 1890

.*Studies*, XVI (1994), p.591

Engin Deniz Akarli, 'The Tangled Ends of an Empire: Ottoman Encounters with .23

the West and Problems of Westernisation – An Overview', *Comparative Studies of South*

.*Asia, Africa and the Middle East*, XVI (2006), p.359

.Ibid., p.362 .24

Metin Heper, 'Center and Periphery in the Ottoman Empire: With Special Reference .25

.to the Nineteenth Century', *International Political Science Review*, I (1980), p.87

.9-Aksan, 'Military and State Transformation', pp.268 .26

Joel Migdal, *Strong Societies and Weak States: State-Society Relations and State* .27

.5-*Capabilities in the Third World* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988), pp.54

Nevn Cosar and Sevtap Demre, 'Incorporation into the World Economy: From .28

.*Middle Eastern Studies*, 45 (2009), p.19 ,'(1950-Railways to Highways (1850

.Visser, *Failed Gulf State*, p.17 .29

Afaf Lutfi Al-Sayyid-Marsot, 'The British Occupation of Egypt from 1882', in Wm .30

Roger Louis and Andrew Porter (eds.), *The Oxford History of the British Empire, Volume*

.*III: The Nineteenth Century* (Oxford: Oxford University Press, 2001), p.652

E. E. Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica* (Oxford: Oxford University Press, .31

.8-1949), pp.107

Dirk Vandewalle, *A History of Modern Libya* (Cambridge: Cambridge University .32

.3-Press, 2006), pp.22

Caesar E. Farah, *The Sultan's Yemen: Nineteenth-Century Challenges to Ottoman* .33

.*Rule* (London: I. B. Tauris, 2002), p.272

Owen Pearson, *Albania in the Twentieth Century, A History, Volume I: Albania and* .34

.London: I. B. Tauris, 2006), p.12) *1939-King Zog: 1908*

1913-Edward Erickson, *Defeat in Detail: The Ottoman Army in the Balkans, 1912* .35

.4-Westport, CT: Greenwood, 2003), pp.332)

Hew Strachan, *The First World War, Volume I: To Arms* (Oxford: Oxford University .36

.83-Press, 2001), pp.680

Feroz Ahmad, *The Young Turks: The Committee of Union and Progress in Turkish* .37

.2-London: Hurst & Co., 2010), pp.141) *14-Politics, 1908*

.(cf. Thomas Pakenham, *The Scramble for Africa* (London: Abacus, 1992 .38

Roger Owen, *State, Power and Politics in the Making of the Modern Middle East* .39

.11-(London: Routledge, 1992), pp.10

.7-Fieldhouse, *Western Imperialism*, pp.246 .40

.5-Hourani, *History of the Arab Peoples*, pp.282 .41

London:) *1962*-Alfred Cobban, *A History of Modern France, Volume 3: 1871* .42

.Penguin, 1990 edn), p.92

Gary Wilder, *The French Imperial Nation-State: Negritude and Colonial Humanism* .43

.between the Two World Wars (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2005), p.25

.Eugene Rogan, *The Arabs: A History* (London: Allen Lane, 2009), p.211 .44

.Fieldhouse, *Western Imperialism*, p.247 .45

.Wilders, *French Imperial Nation-State*, p.27 .46

Christopher Andrew and Andrew Sanya Kanya-Forstner, 'France, Africa and the .47

.16-First World War', *Journal of African History*, XIX (1978), pp.14

Kenneth Perkins, *A History of Modern Tunisia* (Cambridge: Cambridge University .48

.5-Press, 2004), pp.74

Keith Neilson, 'For Diplomatic, Economic, Strategic and Telegraphic Reasons: .49

in Keith Neilson and ,'1918-British Imperial Defence, the Middle East and India, 1914

Greg Kennedy (eds.), *Far-Flung Lines: Studies in Imperial Defence in Honour of Donald*

.*Mackenzie Schurman* (London: Frank Cass, 1997), p.102

in Louis and Porter, *Oxford History of* ',1914-Robin Moore, 'Imperial India, 1858 .50

.*the British Empire*, Vol. III, p.442

.Ibid .51

.Walter Reid, *Architect of Victory: Douglas Haig* (Edinburgh: Birlinn, 2006), p.149 .52

A. J. Stockwell, 'The War and the British Empire', in John Turner (ed.), *Britain and* .53

.*the First World War* (London: Unwin Hyman, 1988), p.38

.Al-Sayyid-Marsot, *British Occupation of Egypt*, p.653 .54

Nathan Brown, *Peasant Politics in Modern Egypt: The Struggle against the State* .55

.(New Haven: Yale University Press, 1990), p.196

Roger Owen, *Lord Cromer: Victorian Imperialist, Edwardian Proconsul* (Oxford: .56

.Oxford University Press, 2004), p.233

P. J. Cain, 'Character and Imperialism: The British Financial Administration of .57

.*Journal of Imperial and Commonwealth History*, XXXIV (2006), p.183 ,'1914-Egypt, 1878

in M. W. Daly (ed.), *The* ,'1922-M. W. Daly, 'The British Occupation, 1882 .58

Cambridge History of Egypt, Volume 2: Modern Egypt: From 1517 to the End of the

.*Twentieth Century* (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), p.240

Oxford:) *1950*-Gabriel Baer, *A History of Landownership in Modern Egypt 1800* .59

.Oxford University Press, 1962), p.57

.Al-Sayyid-Marsot, *British Occupation of Egypt*, p.658 .60

Ronald Hyam, 'The Primacy of Geopolitics: The Dynamics of British Imperial .61

in Robert King and Robin Kilson (eds.), *The Statecraft of British* ,'1963-Policy, 1763

.*Imperialism: Essays in Honour of Wm Roger Louis* (London: Routledge, 1999), p.40

.David Gilmour, *Curzon: Imperial Statesman* (London: John Murray, 2003), p.203 .62

James Onley and Sulayman Khalaf, 'Shaikhly Authority in the Pre-Oil Gulf: An .63

.Historical-Anthropological Study', *History and Anthropology*, XVII (2006), p.202

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.25 .64

London: St Antony's) *1928*-Helmut Mejcher, *Imperial Quest for Oil: Iraq 1910* .65

.Middle East Monographs No. 6, 1976), foreword by Elizabeth Monroe

Daniel Yergin, *The Prize: The Epic Quest for Oil, Money and Power* (New York: Free .66

.5-Press, 2008 edn), pp.144

London:) *1915*-Benjamin Slot, *Mubarak Al-Sabah: Founder of Modern Kuwait 1896* .67

.Arabian Publishing Limited, 2005), p.296

68- اقتباس جاء في:

.Philip Graves, The Life of Sir Percy Cox (London: Hutchinson, 1941), p.173

Jacob Landau, *The Politics of Pan-Islam: Ideology and Organization* (Oxford: .69

.Oxford University Press, 1990), p.97

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.26 .70

.7-Strachan, *First World War*, pp.664 .71

Cf. Sean McMeekin, *The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and* .72

.(*Germany's Bid for World Power* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2010

Ulrich Trumpener, 'Liman von Sanders and the German-Ottoman Alliance', .73

.81-*Journal of Contemporary History*, I (1966), pp.180

.Ibid., p.14 .74

.704-Strachan, *First World War*, pp.700 .75

.Bayly, *Birth of the Modern World*, p.199 .76

.4-Hourani, *History of the Arab Peoples*, pp.302 .77

George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement* .78

.9-(London: Hamish Hamilton, 1938), pp.68

Ziad Fahmy, 'Francophone Egyptian Nationalists, Anti-British Discourse, and .79

The Case of Mustafa Kamil and Ya'qub Sannu", :1910-European Public Opinion, 1885
.2-*Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, XXVIII (2008), pp.181

.Vandewalle, *History of Modern Libya*, p.27 .80

.7-Bayly, *Birth of the Modern World*, pp.206 .81

.10-Hourani, *History of the Arab Peoples*, pp.309 .82

Shareen Blair Brysac and Karl Meyer, *Kingmakers: The Invention of the Modern* .83
.*Middle East* (New York: W. W. Norton & Co., 2008), p.18

Frederick Anscombe, *The Ottoman Gulf: The Creation of Kuwait, Saudi Arabia,* .84
.*and Qatar* (New York: Columbia University Press, 1997), p.171

Madawi Al-Rasheed, *Politics in an Arabian Oasis: The Rashidi Tribal Dynasty* .85
.21-(London: I. B. Tauris, 1990), pp.215

Mohammad Gholi Majd, *Iraq in World War I: From Ottoman Rule to British* .86
.9-*Conquest* (Lanham, MD: University Press of America, 2006), pp.36

Thair Karim, 'Tribes and Nationalism: Tribal Political Culture and Behaviour in .87
in Faleh Abdul-Jabar and Hosham Dawod (eds.), *Tribes and Power:* ,'1920-Iraq, 1914
.*Nationalism and Ethnicity in the Middle East* (London: Saqi, 2003), p.288

.Ibid., p.291 .88

P. G. Elgood, *Egypt and the Army* (Oxford: Oxford University Press, 1924), p.85; P. .89
.G. Elgood, *The Transit of Egypt* (London: Edward Arnold, 1928), p.218

.16-Antonius, *Arab Awakening*, pp.115 .90

London: Longman,) *1923*-Malcolm Yapp, *The Making of the Modern Near East 1792* .91
.1987), p.266

.80-Strachan, *First World War*, pp.678 .92

.Yapp, *Making of Modern Near East*, p.274 .93

1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East, 1917* .94

.London: Frank Cass, 1999), p.40)

Erik Zurcher, 'Ottoman Labour Battalions in World War I', internet .95 essay (undated), available at http://www.arts.yorku.ca/hist/tgallant/documents/ .(zurcherottomanlaborbattalions.pdf (accessed 8 October 2013

.Erickson, *Gallipoli and the Middle East*, p.19 .96

Steven Heydemann, 'War, Institutions, and Social Change in the Middle East', .97 in Steven Heydemann (ed.), *War, Institutions, and Social Change in the Middle East* .(Berkeley, CA: University of California Press, 2000), p.8

الفصل الثاني: الحملات العسكرية في الشرق الأوسط

Stuart Robson, *The First World War* (Harlow: Pearson Education Limited, 2nd edn, .1 .9-2007), pp.37

Niall Barr, 'The Desert War Experience', in Peter Liddle, Ian Whitehead and .2 *Lightning Strikes Twice* (London: :45-John Bourne (eds.), *The Great World War, 1914* .HarperCollins, 2002), p.128

W. M. Parker, 'Supply Services in Mesopotamia', *Royal United Services Corps* .3 .*Quarterly*, 9(2), 1921, p.422

David Lloyd George extract from *War Memoirs*, quoted in David Woodward, *Lloyd* .4 .*George and the Generals* (London: Frank Cass, 2004), p.167

Douglas Wilson Johnson, *Topography and Strategy in the War* (New York: Henry .5 .Holt, 1917), p.iii

Hew Strachan, *The First World War, Volume I: To Arms* (Oxford: Oxford University .6 .Press, 2001), pp.716, 729

Letter No.105 in 'The First World War Letters of Lt J. W. McPherson', Volume XI, .7

.I/25/London: Imperial War Museum, 80

Volume 7: ,*1918*-H. S. Gullett, *The Official History of Australia in the War of 1914* .8

St) *1918-Sinai and Palestine. The Australian Imperial Force in Sinai and Palestine 1914*

.Lucia, Queensland: University of Queensland Press, 1925), p.47

Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the* .9

.Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2011), p.43) *22-Middle East, 1914*

Aylmer Haldane, *The Insurrection in Mesopotamia, 1920* (London: Blackwood, .10

.1922), p.120

.Hubert Young, *The Independent Arab* (London: John Murray, 1933), p.44 .11

.Edmund Candler, *The Sepoy* (London: John Murray, 1920), pp.50, 102 .12

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.44 .13

.8-Alan Moorehead, *Gallipoli* (Ware, Herts: Wordsworth Editions, 1997), pp.127 .14

.Ellis Ashmead-Bartlett, *The Uncensored Dardanelles* (London: Hutchinson, 1920), p.81 .15

.7-Robert Rhodes James, *Gallipoli* (London: B. T. Batsford, 1965), pp.334 .16

1918-Ross Anderson, *The Forgotten Front*: *The East African Campaign 1914* .17

.7-Stroud: Tempus Publishing, 2004), pp.296)

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.44 .18

John Lynn, *Feeding Mars*: *Logistics in Western Warfare from the Middle Ages to the* .19

.*Present* (Oxford: Westview Press, 1993), p.183

Martin van Creveld, 'World War I and the Revolution in Logistics', in Roger .20

Chickering and Stig Forster (eds.), *Great War, Total War*: *Combat and Mobilization on*

.69-Cambridge: Cambridge University Press, 2000), pp.60) *1918-the Western Front, 1914*

1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East, 1917* .21

.London: Frank Cass, 1999), p.50)

.4-Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, pp.33 .22

23. Ulrich Trumpener, 'The Turkish War, 1914-1918', in John Horne (ed.), *A Companion to World War I* (Chichester: Wiley-Blackwell, 2010), p.99.

24. Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.28.

25. G. F. Davies, 'Lecture on Supplies and Transport – Egyptian Expeditionary Force', *Army Service Corps Quarterly*, 8 (1920), p.103.

26- خطاب من جون ماكسويل إلى السير أيان هاملتون، 31 مارس 1915، لندن: مركز ليدل هارت للمحفوظات العسكرية، أوراق السير أيان هاملتون، 15/1/7.

27. Peter Hart, *Gallipoli* (London: Profile Books, 2011), p.55.

28- خطاب من السير أيان هاملتون إلى اللورد كتشنر، 15 يوليو 1915، لندن: مركز ليدل هارت للمحفوظات العسكرية، أوراق السير أيان هاملتون، 6/1/7.

29- خطاب من السير أيان هاملتون إلى السير جون كاونز، 2 يوليو 1915، لندن: مركز ليدل هارت للمحفوظات العسكرية، أوراق السير أيان هاملتون، 7/1/7.

30. Erickson, *Gallipoli and the Middle East*, pp.18-19.

31. Sevket Pamuk, 'The Ottoman Economy in World War I', in Broadberry and Harrison, *Economics of World War I*, p.116.

32. Matthew Hughes, 'General Allenby and the Palestine Campaign, 1917-18', *Journal of Strategic Studies*, 19(4), 1996, pp.68-9.

33. Pamuk, 'Ottoman Empire in World War I', p.131.

34. Martin Gilbert, *A History of the Twentieth Century, Volume One: 1900-1933* (London: HarperCollins, 1997), pp.355-6.

35. Strachan, *First World War*, p.715.

36. Kaushik Roy, 'Equipping Leviathan: Ordnance Factories of British India, 1859-1913', *War in History*, 10(4), 2003, pp.400-401.

37. M. D. Morris, 'The Growth of Large-Scale Industry to 1947', in D. Kumar and T. Raychaudhuri (eds.), *The Cambridge Economic History of India, Volume 2: c.1757-c.1970*

.2-(Cambridge: Cambridge University Press, 1983), pp.601

.Roy, 'Equipping Leviathan', p.400 .38

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.46 .39

Stephen Broadberry and Mark Harrison (eds.), *The Economics of World War I* .40

.(Cambridge: Cambridge University Press, 2005), p.1

Avner Offer, *The First World War. An Agrarian Interpretation* (Oxford: Oxford .41

.University Press, 1989), p.402

Chris Wrigley, 'The War and the International Economy', in Chris Wrigley (ed.), .42

.*The First World War and the International Economy* (Cheltenham: Edward Elgar, 2000), p.4

Volume II (London: Cassell, ,*1918*-William Robertson, *Soldiers and Statesmen 1914* .43

.1926), p.166

.Pamuk, 'Ottoman Economy', p.115 .44

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.45 .45

London:) *1917*-Wilfred Nunn, *Tigris Gunboats: The Forgotten War in Iraq 1914* .46

.Chatham Publishing, 2007 [1923]), p.88

Paolo Coletta, *Allied and American Naval Operations in the European Theatre,* .47

.18-*World War I* (Lewiston, NY: Lampeter, 1996), pp.311

48- خطاب خاص من الجنرال السير أرشيبالد موراي إلى المشير اللورد كتشنر، 11 ديسمبر

1915، في أوراق السير أرشيبالد موراي، لندن: متحف الحرب الإمبراطوري، 3/48/79.

.Ibid., p.318 .49

.Robertson, *Soldiers and Statesmen*, p.166 .50

Paul Halpern, *The Naval War in the Mediterranean* (London: HarperCollins, .51

.1987), p.324

Michael Neiberg, *Fighting the Great War. A Global History* (London: Harvard .52

.4-University Press, 2005), pp.133

B. J. C. McKercher, 'Economic Warfare', in Hew Strachan (ed.), *World War I: A* .53

.*History* (Oxford: Oxford University Press, 1999), p.128

.Halpern, *Naval War in the Mediterranean*, p.312 .54

.Ibid., p.345 .55

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.65 .56

John Darwin, *Britain, Egypt and the Middle East: Imperial Policy in the Aftermath* .57

.London: Macmillan, 1981), p.12) *1922-of War 1918*

Ellis Goldberg, 'Peasants in Revolt – Egypt 1919', *International Journal of Middle* .58

.*East Studies*, 24(2), 1992, p.268

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.142 .59

Gideon Biger, 'The Turkish Activities in Palestine During World War I Revised', in .60

Yigal Sheffy and Shlaul Shai (eds.), *The First World War: Middle Eastern Perspective* (Tel

.62-Aviv: Israel Society for Military History), pp.60

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.123 .61

Peter Gatrell, *Russia's First World War. A Social and Economic History* (Harlow: .62

.90-Pearson, 2005), pp.188

John Horne, 'Introduction', in John Horne (ed.), *State, Society and Mobilization in* .63

.*Europe During the First World War* (Cambridge: Cambridge University Press, 2002), p.12

:1918-Avner Offer, 'The Blockade of Germany and the Strategy of Starvation, 1914 .64

An Agency Perspective', in Roger Chickering and Stig Forster (eds.), *Great War, Total*

Cambridge: Cambridge) *1918-War: Combat and Mobilisation on the Western Front, 1914*

.University Press, 2000), p.176

.Ian Beckett (ed.), *1917: Beyond the Western Front* (Leiden: Brill, 2009), pp.xii-xiii .65

Judith Brown, 'War and the Colonial Relationship: Britain, India and the War of .66

in M. R. D. Foot (ed.), *War and Society: Historical Essays in Honour and Memory* ,'18-1914

.London: Elek, 1973), p.85) *1971-of J. R. Western, 1928*

Roger Owen, *Lord Cromer: Victorian Imperialist, Edwardian Proconsul* (Oxford: .67
.Oxford University Press, 2004), p.233

London: Oliver & Boyd, 1960),) *1926*-Richard Meinertzhagen, *Army Diary 1899* .68
.p.58

Deterrence and the Strategy of :1914-Andrew Lambert, 'The Royal Navy, 1856 .69
World Power', in Keith Neilson and Elizabeth Jane Errington (eds.), *Navies and Global*
.Defence: Theories and Strategy (Westport, CO: Greenwood, 1995), p.87

A :1915-George Morton Jack, 'The Indian Army on the Western Front, 1914 .70
.40-Portrait of Collaboration', *War in History*, 13(3), pp.339

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.28 .71

Keith Jeffery, '"An English Barrack in the Oriental Sea?" India in the Aftermath of .72
.the First World War', *Modern Asian Studies*, 15(3), 1981, p.369

Benjamin Schwarz, 'Divided Attention: Britain's Perception of a German Threat to .73
.her Eastern Frontier in 1918', *Journal of Contemporary History*, 28(1), 1993, p.104

Dharma Kumar, 'The Fiscal System', in Dharma Kumar and Tapan Raychaudhuri .74
(eds.), *The Cambridge Economic History of India, Volume 2: c.1757-c.1970* (Cambridge:
.Cambridge University Press, 1983), p.921

in Kumar ,'(1947-K. N. Chaudhuri, 'Foreign Trade and Balance of Payments (1757 .75
.and Raychaudhuri, *Cambridge Economic History of India, Vol. 2*, p.807

الفصل الثالث: حملات القوقاز

Jennifer Keene and Michael Neiberg (eds.), *Finding Common Ground: New Directions* .1
.(*in First World War Studies* (Leiden: Brill, 2011

London: Longman,) *1923*-Malcolm Yapp, *The Making of the Modern Near East 1792* .2
.1987), p.274

-Edward Erickson, *The History of World War I: Gallipoli and the Middle East, 1914* .3
.*From the Dardanelles to Mesopotamia* (London: Amber Books, 2008), p.39 :*1918*

Oxford: Blackwell Publishing,) *1914*-C. A. Bayly, *The Birth of the Modern World 1780* .4
.7-2004), pp.206

Engin Deniz Akarli, 'The Tangled Ends of an Empire: Ottoman Encounters with the .5
West and Problems of Westernisation – An Overview', *Comparative Studies of South Asia,*
.62-*Africa and the Middle East*, XVI (2006), pp.359

.Noel Malcolm, *Kosovo: A Short History* (London: Macmillan, 1998), p.201 .6

Hew Strachan, *The First World War, Volume I: To Arms* (Oxford: Oxford University .7
.13-Press, 2001), pp.712

.Ibid., p.714 .8

.5-Erickson, *Gallipoli and the Middle East*, pp.24 .9

.Ibid., p.35 .10

Lawrence Sondhaus, *World War One: The Global Revolution* (Cambridge: .11
.2-Cambridge University Press, 2011), pp.91

.John Keegan, *The First World War* (New York: Alfred A. Knopf, 1999), p.223 .12

.Sondhaus, *World War One*, p.92 .13

.Hew Strachan, *First World War*, p.728 .14

The History of the First World War (London: Allen :*1918*-David Stevenson, *1914* .15
.16-Lane, 2004), pp.115

Alan Kramer, 'Combatants and Noncombatants: Atrocities, Massacres, and War .16
Crimes', in John Horne (ed.), *A Companion to World War I* (Oxford: Wiley-Blackwell,
.2-2010), pp.191

.Ibid .17

Gerard Libaridian, *Modern Armenia: People, Nation, State* (New York: Transaction .18

.Publishers, 2007), p.106

London:) *1933*-Martin Gilbert, *A History of the Twentieth Century, Volume 1: 1900* .19

.3-HarperCollins, 1997), pp.132

Vahakn Dadrian, 'The Armenian Genocide: An Interpretation', in Jay Winter (ed.), .20

America and the Armenian Genocide of 1915 (New York: Cambridge University Press,

.2003), p.52

Feroz Ahmad, *The Young Turks: The Committee of Union and Progress in Turkish* .21

.4-London: Hurst & Co, 2010), pp.143) *14-Politics, 1908*

Taner Akçam, *From Empire to Republic: Turkish Nationalism and the Armenian* .22

.*Question* (London: Zed Books, 2004), p.133

.Strachan, *First World War*, p.718 .23

Guenter Lewy, *The Armenian Massacres in Ottoman Turkey: A Disputed Genocide* .24

.(Salt Lake City, UT: Utah University Press, 2005), p.32

Sean McMeekin, *The Russian Origins of the First World War* (Cambridge, MA: .25

.2-Harvard University Press, 2011), pp.151

.4-Ibid., pp.153 .26

Peter Balakian, *The Burning Tigris: The Armenian Genocide and America's Response* .27

.(New York: HarperCollins, 2003), p.178

Henry Morgenthau, *Ambassador Morgenthau's Story* (Detroit, MI: Wayne State .28

.University Press, 2003 edn), p.204

.Akçam, *From Empire to Republic*, p.162 .29

.7-Gilbert, *History of the Twentieth Century*, pp.356 .30

Oxford:) *1958*-David Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East: 1914* .31

.41-Oxford University Press, 2006), pp.40

.Balakian, *Burning Tigris*, p.187 .32

Donald Miller and Lorna Touryan Miller, *Survivors: An Oral History of the* .33
.Armenian Genocide (Berkeley, CA: University of California Press, 1993), p.84

.Ibid .34

.Ibid., p.96 .35

.Lewy, *Armenian Massacres*, p.213 .36

Christopher Walker, *Armenia: The Survival of a Nation* (London: Palgrave .37
.Macmillan), 1990, p.210

Armenians Are Sent to Perish in Desert; Turks Accused of Plan to Exterminate' .38
.Whole Population; People of Karahissar Massacred', *New York Times*, 18 August 1915

.Erickson, *Gallipoli and the Middle East*, p.125 .39

.Gilbert, *History of the Twentieth Century*, p.357 .40

.Balakian, *Burning Tigris*, p.280 .41

.Gilbert, *History of the Twentieth Century*, p.394 .42

.Erickson, *Gallipoli and the Middle East*, p.119 .43

.Ibid .44

.Yapp, *Making of the Modern Near East*, p.274 .45

.91-McMeekin, *Russian Origins*, pp.190 .46

.Erickson, *Gallipoli and the Middle East*, p.154 .47

.John Buchan, *Greenmantle* (Oxford: Oxford University Press, 1993 edn), p.272 .48

.Gilbert, *History of the Twentieth Century*, p.406 .49

.3-Cyril Falls, *The First World War* (London: Longman, 1960), pp.192 .50

Eric Lohr, 'Russia', in John Horne (ed.), *A Companion to World War I* (Oxford: .51
.Wiley-Blackwell, 2010), p.484

Peter Gatrell, *A Whole Empire Walking: Refugees in Russia During World War I* .52
.4-(Indianapolis, IN: Indiana University Press, 1999), pp.52

Stephen Broadberry and Mark Harrison (eds.), *The Economics of World War I: An* .53
.Overview (Cambridge: Cambridge University Press, 2009), p.18

Peter Gatrell, *Russia's First World War: A Social and Economic History* (Harlow: .54
.Pearson, 2005), p.189

.Ibid., p.190 .55

.Ibid .56

.41-Gilbert, *History of the Twentieth Century*, pp.440 .57

.Ibid .58

.Ibid .59

.Ibid .60

.McMeekin, *Russian Origins*, p.225 .61

.6-Ibid., pp.225 .62

.Yapp, *Making of the Modern Near East*, p.274 .63

Erik Zurcher, 'Little Mehmet in the Desert: The Ottoman Soldier's Experience', in .64
Hugh Cecil and Peter Liddle (eds.), *Facing Armageddon: The First World War Experienced*
.4-(London: Leo Cooper, 1996), pp.233

.5-Ibid., pp.234 .65

1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East, 1917* .66
.London: Frank Cass, 1999), p.50)

.51-Ibid., pp.50 .67

68- اقتباس جاء في:

London:) 1919-John Fisher, Curzon and British Imperialism in the Middle East 1916
.Frank Cass, 1999), p.164

.Ibid., p.165 .69

Benjamin Schwarz, 'Divided Attention: Britain's Perception of a German Threat to .70 .her Eastern Position in 1918', *Journal of Contemporary History*, 28(1), 1993, p.105

.Ibid., p.106 .71

George Barrow, *The Life of General Sir Charles Carmichael Monro* (London: .72 .Hutchinson, 1921), p.169

.Fisher, *Curzon and British Imperialism*, p.166 .73

.3-Kramer, 'Combatants and Noncombatants', pp.192 .74

الفصل الرابع: غاليبولي وسالونيك

Robin Prior, *Gallipoli: The End of the Myth* (Kensington, NSW: UNSW Press, 2009), .1 .p.252

Jeff Hopkins-Weisse, 'Blood Brothers', *Australian Literary Review*, 1 April 2009, .2 and Jeff Hopkins-Weisse, *Blood Brothers: The Anzac Generals* (Adelaide: Wakefield Press, .(2009

3- «يا أيها الأبطال الذين أريقت دماؤهم وخسروا أرواحهم، أنتم الآن في أحضان تراب بلد صديق، فلترقدوا في سلام. لا فارق بين مسيحي ومسلم عندنا، حيث يرقدون جميعًا جنبًا إلى جنب في بلدنا هذا. وأنتن أيتها الأمهات اللاتي أرسلن أبناءهن من بلدان قصيّة، فلتكفكفن دموعكن، فأبناؤكن يرقدون الآن بين أحضاننا وفي سلام. فبعد أن خسروا أرواحهم على هذه الأرض، صاروا أبناء لنا نحن أيضا».

Sean McMeekin, *The Russian Origins of the First World War* (Cambridge, MA: .4 .Harvard University Press, 2011), p.115

.Quoted in McMeekin, *Russian Origins*, p.98 .5

Sean McMeekin, *The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's* .6

.Bid for World Power (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2010), p.342

Hew Strachan, *The First World War, Volume I: To Arms* (Oxford: Oxford University .7

.73-670 ,51-Press, 2001), pp. 644

Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples* (London: Faber and Faber, 1991), .8

.p.309

,'19-M. M. Ruiz, 'Manly Spectacles and Imperial Soldiers in Wartime Egypt, 1914 .9

.Middle Eastern Studies, 45(3), 2009, p.356

London:) *1915*-Benjamin Slot, *Mubarak Al-Sabah: Founder of Modern Kuwait, 1896* .10

.Arabian Publishing, 2005), p.134

Kjetil Selvik and Stig Stenslie, *Stability and Change in the Modern Middle East* .11

.8-(London: I. B. Tauris, 2011), pp.27

David French, 'The Dardanelles, Mecca and Kut: Prestige as a Factor in British .12

.War and Society, 5(1), 1987, p.50 ,'1916-Eastern Strategy, 1914

.Peter Hart, *Gallipoli* (London: Profile Books, 2011), p.7 .13

Kathleen Burk, 'Wheat and the State During the First World War', in Michael .14

Dockrill and David French (eds.), *Strategy and Intelligence: British Policy During the First*

.22-*World War* (London: Hambledon Press, 1996), pp.120

.13-Hart, *Gallipoli*, pp.12 .15

.Ibid .16

Letter from Winston S. Churchill to H. H. Asquith, 29 December 1914, in Martin .17

Gilbert (ed.), *Winston S. Churchill, Companion Volume III: Part I July 1914-April 1915*

.(Boston, MA: Houghton Mifflin, 1973), p.343

Lawrence Sondhaus, *World War One: The Global Revolution* (Cambridge: .18

.Cambridge University Press, 2011), p.133

.French, 'Dardanelles, Mecca and Kut', p.51 .19

20. John Grigg, *Lloyd George: From Peace to War 1912-1916* (London: Penguin, 1985), p.200.

21. Basil Liddell Hart, *A History of the World War, 1914-1918* (London: Faber and Faber, 1938), p.218.

22. Martin Gilbert, *A History of the Twentieth Century,. Volume 1: 1900-1933* (London: HarperCollins, 1997), pp.362-3.

23. Hart, *Gallipoli*, pp.51-2.

24. George Cassar, *The French and the Dardanelles: A Study of Failure in the Conduct of War* (London: George Allen & Unwin, 1971), pp.48, 54.

25. Michael S. Neiberg, *Fighting the Great War: A Global History* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2005), p.99.

26. Cassar, *The French and the Dardanelles*, pp.60-61.

27- كلا الاقتباسيْن جاء في:

Alan Moorehead, Gallipoli (Ware, Herts: Wordsworth Editions, 1997), p.50.

28. Trumbull Higgins, *Winston Churchill and the Dardanelles* (London: Heinemann, 1963), p.118.

29- اقتباس جاء في:

Hart, Gallipoli, p.37.

30. Ibid., p.46.

31. Ibid., p.76.

32. Royal Dublin Fusiliers Association, 'Irish Battalions - Major Battles: Helles Landings, Gallipoli, April 1915'.

33. Edward Erickson, *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War* (London: Praeger, 2000), p.83.

34. Ibid., p.84.

35. Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the Middle East, 1914-22* (Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2010), p.111.

36- خطـاب مـن السير رونالـد غراهـام إلـى نائـب الملـك فـي الهنـد، 6 مايـو 1915، مكتبـة جامعـة كامبـردج، أوراق السـير تشـارلز هاردنـج، المجلـد 94.

37- خطـاب مـن السـير هنـري مكماهـون إلـى نائـب الملـك فـي الهنـد، مكتبـة جامعـة كامبـردج، أوراق السـير تشـارلز هاردنـج، المجلـد 94.

38- خطـاب مـن الجنـرال السـير أيـان هاملتـون إلـى اللـورد كتشـنر، 15 يوليـو 1915، لنـدن: مركـز ليـدل هـارت للمحفوظـات العسـكرية، أوراق السـير أيـان هاملتـون، 6/1/7.

39- خطـاب مـن الجنـرال السـير أيـان هاملتـون إلـى السـير جـون كاونـز، 2 يوليـو 1915، لنـدن: مركـز ليـدل هـارت للمحفوظـات العسـكرية، أوراق السـير أيـان هاملتـون، 7/1/7.

40. Hart, *Gallipoli*, pp.233-4.

41. Sondhaus, *The Global Revolution*, p.137.

42. Gavin Roynon (ed.), *A Prayer for Gallipoli: The Great War Diaries of Chaplain Kenneth Best* (London: Simon & Schuster, 2011), p.141.

43. Hart, *Gallipoli*, p.270.

44. Robert Rhodes James, *Gallipoli* (London: B. T. Batsford, 1965), p.221.

45. Ibid., pp.236-7.

46. Ibid., pp.246-7.

47. Ellis Ashmead-Bartlett, *The Uncensored Dardanelles* (London: Hutchinson, 1924), p.165.

48. John Lee, 'Sir Ian Hamilton and the Dardanelles, 1915', in Brian Bond (ed.), *Fallen Stars: Eleven Studies of Twentieth Century Military Disasters* (London: Brassey's, 1991), pp.45-6.

49. Hart, *Gallipoli*, p.327.

50. Ashmead-Bartlett, *Uncensored Dardanelles*, p.203.

Ronald Robinson, 'Imperial Theory and the Question of Imperialism After .51
.Empire', *Journal of Imperial and Commonwealth History*, 12(2), 1984, p.44

.French, 'Dardanelles, Mecca and Kut', p.46 .52

53- خطـاب مـن السـير رونالـد غراهـام إلـى نائـب الملـك فـي الهنـد، 16 نوفمبـر 1915، مكتبـة جامعـة كامبـردج، أوراق السـير تشـارلز هاردنـج، المجلـد 94.

.Cited in French, 'Dardanelles, Mecca and Kut', p.54 .54

.Ibid .55

56- برقيـة مـن السـير أوسـتن تشـامبرلين إلـى نائـب الملـك فـي الهنـد، 21 أكتوبـر 1915، مكتبـة جامعـة كامبـردج، أوراق السـير تشـارلز هاردنـج، المجلـد 94.

57- الأدلـة المقدمـة مـن السـير آرثـر هيرتـزل إلـى لجنـة تحقيـق بـلاد الرافديـن، 7 سـبتمبر 1916، لنـدن: الأرشـيف الوطنـي، PRO CAB 19/8.

.Hart, *Gallipoli*, p.395 .58

.8-Ibid., pp.406 .59

George H. Cassar, 'Monro, Sir Charles Carmichael, baronet (1860–1929)', *Oxford* .60
Dictionary of National Biography, Oxford University Press, 2004; online edn, May 2008
.[[http://www.oxforddnb.com/view/article/35068, accessed 11 July 2012

.Ibid .61

.Hart, *Gallipoli*, p.399 .62

.Ibid .63

London: Penguin Classics, 2005) *1918*-Winston Churchill, *The World Crisis 1911* .64
.abridged and revised edn), p.526

.400-Hart, *Gallipoli*, pp.399 .65

66- خطـاب مـن السـير هنـري مكماهـون إلـى نائـب الملـك فـي مصـر، 3 ديسـمبر 1915، مكتبـة جامعـة كامبـردج، أوراق السـير تشـارلز هاردنـج، المجلـد 94.

in John Horne (ed.), *A Companion* ,'18-Ulrich Trumpener, 'The Turkish War, 1914 .67

.3-*Volume to World War I* (Oxford: Wiley-Blackwell, 2010), pp.102

.Churchill, *The World Crisis*, p.541 .68

.Ashmead-Bartlett, *Uncensored Dardanelles*, p.257 .69

Edward Erickson, *Gallipoli: The Ottoman Campaign* (Barnsley, Yorks: Pen & .70
.Sword, 2010) pp.xiv-xv

.Ibid .71

London:) *1933*-Martin Gilbert, *A History of the Twentieth Century, Volume 1: 1900* .72
.2-HarperCollins, 1997, pp.381

1950-Mark Mazower, *Salonica: City of Ghosts. Christians, Muslims and Jews 1430* .73
.9-London: HarperCollins, 2004), pp.308)

.2-Gilbert, *History of the Twentieth Century, Volume 1*, pp.421 .74

Allain Bernede, '"The Gardeners of Salonika": The Lines of Communication and .75
the Logistics of the French Army of the East, October 1915-November 1918', *War and*
.5-*Society*, 16, 1998, pp.54

.16-Mazower, *City of Ghosts*, pp.315 .76

.Trevor Wilson, *The Myriad Faces of War* (Cambridge, Polity Press, 1986), p.619 .77

.Ibid., p.620 .78

.11-Gilbert, *History of the Twentieth Century, Volume One*, pp.510 .79

الفصل الخامس: مصر وفلسطين

1- الأدلة المقدمة من القائد أيه. هاملتون (ضابط أول النقل البحري، قوة التجريدة الهندية «د») إلى لجنة تحقيق بلاد الرافدين، 26 أكتوبر 1916، لندن: الأرشيف الوطني، PRO CAB 19/8.

London:) *1923*-Malcolm Yapp, *The Making of the Modern Middle East 1792* .2
.Longman, 1987), p.274

1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East, 1917* .3
.London: Frank Cass, 1999), p.40)

Oxford:) *1958*-David Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East 1914* .4
.Oxford University Press, 2005), p.45

Kjetil Selvik and Stig Stenslie, *Stability and Change in the Modern Middle East* .5
.31-(London: I. B. Tauris, 2011), pp.29

London:) *1920*-Jukka Nevakivi, *Britain, France and the Arab Middle East, 1914* .6
.Athlone Press, 1969), p.43

Afaf Lutfi Al-Sayyid-Marsot, 'The British Occupation of Egypt from 1882', in .7
Andrew Porter (ed.), *The Oxford History of the British Empire, Volume 3: The Nineteenth*
.64-*Century* (Oxford: Oxford University Press, 1999), pp.660

A. J. Stockwell, 'The War and the British Empire', in John Turner (ed.), *Britain and* .8
.*the First World War* (London: Unwin Hyman, 1988), p.46

David French, 'The Dardanelles, Mecca and Kut: Prestige as a Factor in British .9
.*War and Society*, 5 (1987), p.46 ,'1916-Eastern Strategy, 1914

.Alfred Milner, *England in Egypt* (London: Edward Arnold, 1892), p.24 .10

.P. G. Elgood, *Egypt and the Army* (Oxford: Oxford University Press, 1924), p.10 .11

Her Advance Toward a Modern Identity :*1952*-J. C. B. Richmond, *Egypt 1798* .12
.(London: Methuen, 1977), p.169

Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the* .13
.Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2010), p.85) *22-Middle East, 1914*

14- برقية من السير ملن تشيتام إلى السير إدوارد غراي، 18 نوفمبر 1914، لندن: الأرشيف الوطني، الملف PRO FO 407/183/274.

Keith Neilson, 'For Diplomatic, Economic, Strategic, and Telegraphic Reasons: .15
in Keith Neilson and ,'1918-British Imperial Defence, the Middle East and India, 1914

Gregory Kennedy (eds.), *Far Flung Lines: Essays on Imperial Defence in Honour of Donald*
.19-*MacKenzie Schuman* (London: Routledge, 1997), pp.118

M. W. Daly, *The Sirdar: Sir Reginald Wingate and the British Empire in the Middle* .16
.*East* (Philadelphia, PA: American Philosophical Society, 1997), p.203

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.30 .17

Frederick Clarke, 'The Memoirs of a Professional Soldier in Peace and War by .18
Musketeer' (Unpublished memoir, 1968), p.24. London: Liddell Hart Centre for Military
.Archives (LHCMA), Papers of Brigadier Frederick Arthur Stanley Clarke

.Ronald Wingate, *Wingate of the Sudan* (London: John Murray, 1955), p.206 .19

Memorandum on Martial Law in Egypt' by General Sir Archibald Murray, 26' .20
.2930/November 1916, London, National Archive, file FO 371

.E. W. Poulson Newman, *Great Britain in Egypt* (London: Cassell, 1928), p.210 .21

London: Hutchinson,) *1919*-Djemal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman – 1913* .22
.1922), p.154

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.32 .23

A. Forbes, *A History of the Army Ordnance Services, Volume 3: The Great War* .24
.(London: Medici Society, 1929), p.211

25- خطـاب مـن الجنـرال أيـان هاملتـون إلـى الجنـرال ريجينالـد وينغيـت، 2 أكتوبـر 1915، فـي
أوراق السـير أيـان هاملتـون، لنـدن: مركـز ليـدل هـارت للمحفوظـات العسـكرية، 26/1/7.

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.56 .26

G. F. Davies, 'Lecture on Supplies and Transport – Egyptian Expeditionary Force', .27
.*Army Service Corps Quarterly*, 8 (1920), p.103

Dirk Vandewalle, *A History of Modern Libya* (Cambridge: Cambridge University .28
.Press, 2006), p.27

Ali Abdullatif Ahmida, *The Making of Modern Libya: State Formation, Colonization*, .29

.New York: State University of New York, 1994), pp.115, 121) *1932-and Resistance, 1830*

.2-Ibid., pp.121 .30

31- خطـاب مـن السـير جـون ماكسـويل إلـى السـير وليـم روبرتسـون (رئيـس الأركان العامـة الإمبراطوريـة فـي لنـدن)، 4 مـارس 1916، فـي أوراق السـير وليـم روبرتسـون، لنـدن: مركـز ليـدل هـارت للمحفوظـات العسـكرية، 1/5/4.

.Elgood, *Egypt and the Army*, p.230 .32

Jonathan Newell, 'British Military Policy in Egypt and Palestine, August 1914-June .33 .1917', PhD thesis, University of London (1990), p.162

Cyril Falls and George MacMunn, *Official History: Military Operations. Egypt and* .34 .*Palestine, Volume I* (London: HMSO, 1928), p.173

35- ورد التشبيه بالحبل السري في:

W. Elliot and A. Kinross, 'Maintaining Allenby's Armies: A Footnote to History', .Royal Army Service Corps Quarterly, 13 (1925), p.119

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.58 .36

.Ibid .37

Gideon Biger, 'The Turkish Activities in Palestine during WW1 Revisited', in Yigal .38 Sheffy and Shaul Shai (eds.), *The First World War: Middle Eastern Perspective* (Tel Aviv: .Israel Society for Military History, 2000), p.62

.Laurence Grafftey-Smith, *Bright Levant* (London: John Murray, 1970), p.21 .39

,'1918-Matthew Hughes, 'General Allenby and the Palestine Campaign, 1917 .40 .*Journal of Strategic Studies* (19), 1996, p.62

Anthony Bruce, *The Last Crusade: The Palestine Campaign in the First World War* .41 .(London: John Murray, 2002), p.87

Phillip Chetwode, 'Secret Notes on Operation of Desert Column', 15 March 1917, .42 in London: Imperial War Museum (IWM), Papers of Field Marshal Lord Chetwode,

.P183, folder 2

London: Frank Cass,) *1918*-Brock Millman, *Pessimism and British War Policy, 1916* .43

.2001), p.1

Spencer Tucker (ed.), *The Encyclopaedia of World War I: A Political, Social, and* .44

.*Military History* (Santa Barbara, CA: ABC-CLIO, 2005), p.249

London: Cassell, 1928),) *1918*-William Robertson, *Soldiers and Statesmen 1914* .45

.p.163

Yigal Sheffy, 'The Introduction of Chemical Weapons in the Middle East', in Sheffy .46

.9-and Shai, *First World War*, pp.78

.303-Falls and MacMunn, *Egypt and Palestine Official History I*, pp.293 .47

.Gullett, *Official History Sinai and Palestine*, p.394 .48

49- برقية من القائد العام لقوة التجريدة المصرية إلى رئيس الأركان العامة الإمبراطورية، 28 مارس 1917، في أوراق السير وليم روبرتسون، لندن: مركز ليدل هارت للمحفوظات العسكرية، الصندوق 5/4.

.80-Sheffy, 'Introduction of Chemical Weapons', pp.79 .50

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.71 .51

Alan MacDonald, *A Lack of Offensive Spirit? The 46th* (*North Midland*) *Division at* .52

.*Gommecourt, 1st July 1916* (Eastbourne, E. Sussex: Iona Books, 2008), p.505

Peter Simkins, 'Haig and the Army Commanders', in Brian Bond and Nigel Cave .53

.(eds.), *Haig: A Reappraisal 70 Years On* (Barnsley: Leo Cooper, 1999), p.84

Report on Railway Situation – GS Z/31', sent from the Commander-in-Chief of' .54

the Egyptian Expeditionary Force to the Chief of the Imperial General Staff in London, 7

.May 1917, London: IWM, Chetwode Papers, P183, folder 3

Yigal Sheffy, 'Institutionalized Deception and Perception Reinforcement: Allenby's .55

Campaign in Palestine', in Michael Handel (ed.), *Intelligence and Military Operations*

.(London: Routledge, 1990), p.180

Philip Chetwode, 'Notes on the Palestine Operations', 21 June 1917, in Papers of .56

.2/Sir William Bartholomew, London: LHCMA, box 1

1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East, 1917* .57

.51-London: Frank Cass, 1999), pp.50)

Journal ,'1918-Yigal Sheffy, 'Chemical Warfare and the Palestine Campaign, 1916 .58

.5-*of Military History*, 73(3), 2009, pp.834

Quoted in Jean Bou, 'Cavalry, Firepower, and Swords: The Australian Light Horse .59

Journal of ,'1918-and the Tactical Lessons of Cavalry Operations in Palestine, 1916

.*Military History*, 71(1), 2007, p.108

John Grainger, *The Battle for Palestine, 1917* (Woodbridge, Suffolk: Boydell & .60

.7-Brewer, 2006), pp.146

.Hughes, 'Allenby and the Palestine Campaign', p.70 .61

.Bou, 'Cavalry, Firepower, and Swords', p.109 .62

John Keay, *Sowing the Wind: The Seeds of Conflict in the Middle East* (London: .63

.John Murray, 2003), p.84

Matthew Hughes, 'Command, Strategy and the Battle for Palestine, 1917', in Ian .64

.6-Beckett (ed.), *1917: Beyond the Western Front* (Leiden: Brill, 2009), pp.125

in John Horne (ed.), *A Companion* ,'18-Ulrich Trumpener, 'The Turkish War, 1914 .65

.*to World War I* (Oxford: Wiley-Blackwell, 2010), p.104

Stefan Goebel, *The Great War and Medieval Memory: War, Remembrance and* .66

Cambridge: Cambridge University) *1940-Medievalism in Britain and Germany, 1914*

.Press, 2007), p.115

.Quoted in Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.41 .67

Disease and Death on the :*1918*-Hikmet Ozdemir, *The Ottoman Army 1914* .68

.7-Battlefield (Salt Lake City, UT: University of Utah Press, 2008), pp.156

.Eugene Rogan, *The Arabs: A History* (London: Allen Lane, 2009), p.149 .69

- Peter Sluglett, 'Aspects of Economy and Society in the Syrian Provinces: Aleppo in .70
in Leila Fawaz and C. A. Bayly, *Modernity and Culture: From the* ,'1925-Transition, 1880
.*Mediterranean to the Indian Ocean* (New York: Columbia University Press, 2002), p.147

William Cleveland, *A History of the Modern Middle East* (Boulder, CO: Westview .71
.(Press, 1994

United States Library of Congress Exhibition: The American Colony in Jerusalem: .72
World War I, http://www.loc.gov/exhibits/americancolony/amcolony-ww1.html (accessed
.(24 October 2011

Report on Palestine and Syria Situation by William Yale', 10 July 1917, London:' .73
.2784/National Archive, file FO 371

George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement* .74
.2-(London: Hamish Hamilton, 1938), pp.241

Arabia in Asia (No.XVIIIA) - Week Ending 5th June 1916', London: The National' .75
.175/Archives,PRO/CAB/17

.6-Ronald Storrs, *Orientations* (London: Nicholson & Watson, 1943), pp.324, 335 .76

Eran Dolev, *Allenby's Military Machine: Life and Death in World War I Palestine* .77
.(London: I. B. Tauris, 2007), p.102

.Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.82 .78

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.73 .79

J. M. House, *Combined Arms Warfare in the Twentieth Century* (Lawrence, KS: .80
.University Press of Kansas, 2001), p.58

.8-Hughes, *Allenby and British Strategy*, pp.97 .81

T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom* (Ware, Herts: Wordsworth Editions, 1997 .82

.edn), p.652

100-Cyril Falls, *Armageddon 1918* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1964), pp.94 .83

.Storrs, *Orientations*, p.335 .84

.Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.93 .85

John Fisher, *Curzon and British Imperialism in the Middle East* (London: Routledge, .86

.1999), p.286

Hatem Shareef Abu-Lebdeh, *Conflict and Peace in the Middle East* (Lanham, MD: .87

.8-University Press of America, 1997), pp.47

Steven Heydemann, 'War, Institutions, and Social Change in the Middle East', .88

in Steven Heydemann (ed.), *War, Institutions, and Social Change in the Middle East*

.3-(Berkeley, CA: University of California Press, 2000), pp.2

الفصل السادس: بلاد الرافدين

Quoted in Robert Fisk, *The Great War for Civilisation: The Conquest of the Middle* .1

.*East* (London: Fourth Estate, 2005), p.172

Thair Karim, 'Tribes and Nationalism: Tribal Political Culture and Behaviour .2

in Faleh Abdul-Jabar and Hosham Dawod (eds.), *Tribes and Power*: ,'20-in Iraq, 1914

.*Nationalism and Ethnicity in the Middle East* (London: Saqi Books, 2003), p.283

Charles Townhsend, *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia and* .3

.London: Faber and Faber, 2010), p.i) *1921-the Creation of Iraq, 1914*

James Barr, *A Line in the Sand: Britain, France and the Struggle that Shaped the* .4

.(*Middle East* (London: Simon & Schuster, 2011

A Clash of Loyalties (Oxford: Oxford :*1920*-Arnold Wilson, *Mesopotamia 1917* .5

.University Press, 1931), p.11

,'1922-Kristian Coates Ulrichsen, 'The British Occupation of Mesopotamia, 1914 .6

.8-*Journal of Strategic Studies*, 30(2), 2007, pp.377

.Phebe Marr, *The Modern History of Iraq* (Boulder, CO: Westview Press, 2004), p.22 .7

Reidar Visser, *Basra: The Failed Gulf State: Separatism and Nationalism in Southern* .8

.19-*Iraq* (Munster: Lit Verlag, 2005), pp.18

Kristian Coates Ulrichsen, 'Basra, Southern Iraq and the Gulf: Challenges and .9

.Connections', *LSE Kuwait Programme Working Paper No.21*, January 2012, p.2

Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the* .10

.Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2010), p.25) *22-Middle East, 1914*

Quoted in J. E. Peterson, 'Britain and the Gulf: At the Periphery of Empire', in .11

Lawrence Potter (ed.), *The Persian Gulf in History* (New York: Palgrave Macmillan, 2009),

.p.281

Keith Surridge, 'The Ambiguous Amir: Britain, Afghanistan and the 1897 North- .12

West Frontier Uprising', *Journal of Imperial and Commonwealth History*, 36(3), 2008,

.3-pp.422

Berkeley, CA:) *1921*-Briton Cooper Busch, *Britain, India and the Arabs, 1914* .13

.University of California Press, 1971), p.35

Mohammad Gholi Majd, *Iraq in World War I: From Ottoman Rule to British* .14

.*Conquest* (Lanham: MD, University Press of America, 2006), p.51

.Ibid., p.52 .15

.Ibid., p.59 .16

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.33 .17

.5-Townshend, *When God Made Hell*, pp.4 .18

Report by Brigadier-General W. S. Delamain on the Operations of Indian' .19

Expeditionary Force 'D' up to the 14th November 1914', London: India Office Library

.88/(IOL), IOR/L/MIL/17

20- الأدلـة المقدمـة مـن القائـد أيـه. هاملتـون إلـى لجنـة تحقيـق بـلاد الرافديـن، 26 أكتوبـر 1916، لنـدن: الأرشـيف الوطنـي، PRO CAB 19/8.

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.37 .21

London:) *1917*-Wilfred Nunn, *Tigris Gunboats: The Forgotten War in Iraq 1914* .22
.40-Chatham Publishing, 2007 edn), pp.39

Dalit', 'The Campaign in Mesopotamia – The First Phase', *Journal of the Royal*' .23
.*United Services Institute*, 69 (1924), p.520

.Nunn, *Tigris Gunboats*, p.44 .24

.Gholi Majd, *Iraq during World War I*, p.91 .25

A Socio-Political Study (Beirut: Arab Institute .*1921*-Ghassan Atiyyah, *Iraq*: *1908* .26
.for Research and Publishing, 1973), p.41

.Dalit', 'Campaign in Mesopotamia', p.520' .27

28- خطـاب مـن اللـورد تشـارلز هاردنـج إلـى الفريـق السـير جيمـس وِلكوكـس، 10 فبرايـر 1916، أوراق الفيكونـت تشـارلز هاردنـج، مكتبـة جامعـة كامبـردج، المجلـد 102.

Stephen Longrigg, *Iraq, 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History* .29
.(London: Oxford University Press, 1953), p.78

Short Memorandum on the Inception, Difficulties and Results of the Mesopotamian' .30
.76/15/Campaign', September 1916, London: IOL, IOR L/MIL/15

31- الأدلـة المقدمـة مـن السـير آرثـر هيرتـزل إلـى لجنـة تحقيـق بـلاد الرافديـن، 7 سـبتمبر 1916، لنـدن: الأرشـيف الوطنـي، TNA, PRO CAB 19/8.

Note by Sir Edmund Barrow, Military Secretary, India Office, 'Persian Gulf .32
.54/Operations', 27 November 1914, London: TNA, WO 106

.Ibid .33

34- خطـاب مـن السـير بوشـامبداف إلى اللـورد تشـارلز هاردنـج، 28 نوفمبـر 1914، أوراق الفيكونت

تشـارلز هاردنـج، مكتبـة جامعـة كامبـردج، المجلد 102.

Despatch by Lieutenant-General Sir A. A. Barrett, Commanding I.E.F. D,' .35
Regarding the Operations Resulting in the Capture of Qurnah, 9th December 1914'
.89/15/(Simla: Government of India Centre Press, 1915), in London: IOL, IOR/L/MIL/17

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.36 .36

.81-Longrigg, *Iraq 1900 to 1950*, pp.80 .37

David French, 'The Dardanelles, Mecca and Kut: Prestige as a Factor in British .38
.5-*War and Society*, 5(1), 1987, pp.54 ,'1916-Eastern Strategy, 1914

.Townshend, *When God Made Hell*, p.71 .39

.Hubert Young, *The Independent Arab* (London: John Murray, 1933), p.44 .40

.Ibid., p.47 .41

George MacMunn, *Behind the Scenes in Many Wars* (London: John Murray, 1930), .42
.16-pp.215

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.91 .43

Quoted in Paul Davis, 'British–Indian Strategy and Policy in Mesopotamia, .44
.November 1914 to April 1916', PhD dissertation, University of London (1981), p.250

45- الأدلـة المقدمـة مـن السـير روبـرت كارلايـل إلـى لجنـة تحقيـق بـلاد الرافديـن، 28 سـبتمبر 1916، لنـدن: الأرشـيف الوطنـي، PRO CAB 19/8.

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.91 .46

-Kaushik Roy, 'Equipping Leviathan: Ordnance Factories of British India, 1859 .47
.*War in History*, 10(4), 2003, p.405 ,'1913

.Townshend, *When God Made Hell*, p.65 .48

49- برقيـة مـن السـير بوشـامبداف إلـى الجنـرال السـير بيرسـي ليـك، 20 ينايـر 1916، لنـدن: الأرشـيف الوطنـي، PRO/CAB/19/20.

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.47 .50

.Karim, 'Tribes and Nationalism', p.288 .51

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.99 .52

.p.250 ,*1921*-Atiyyah, *Iraq, 1908* .53

Fanar Haddad, *Sectarianism in Iraq: Antagonistic Visions of Unity* (New York: .54
.Columbia University Press, 2011), p.2

New York:) *1908*-Gokhan Cetinsaya, *Ottoman Administration of Iraq, 1890* .55
.(Routledge, 2006

Hanna Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A* .56
Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes (Princeton, NJ: Princeton University
.Press, 1978), p.13

.Ibid., p.16 .57

.p.14 ,*1921*-Atiyyah, *Iraq, 1908* .58

Toby Dodge, *Inventing Iraq: The Failure of Nation-Building and a History Denied* .59
.(London: Hurst & Co., 2003), p.92

by '1917-Administrative Report of Suq Al-Shuyukh and District for Year 1916' .60
Captain H. R. P. Dickson, Assistant Political Officer, Suq Al-Shuyukh, 9 May 1917,
.3059/London: TNA, FO/371

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.98 .61

62- برقية من الفيكونت تشارلز هاردنج إلى أوستن تشامبرلين، 25 يوليو 1915، أوراق الفيكونت
تشارلز هاردنج، مكتبة جامعة كامبردج، المجلد 103.

63- خطاب من الفيكونت تشارلز هاردنج إلى الفريق السير جيمس ولكوكس، 15 يونيو 1915،
أوراق الفيكونت تشارلز هاردنج، مكتبة جامعة كامبردج، المجلد 103.

.Townshend, *When God Made Hell*, p.139 .64

Mesopotamian Expeditionary Force: Despatch of Operations by Lieutenant-' .65
.916/General Sir W. R. Marshall, 1918 April 1 – October 31', London: TNA, WO/106

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.48 .66

.Gholi Majd, *Iraq in World War I*, p.184 .67

68- برقيـة مـن نائـب الملـك إلـى وزيـر الدولـة لشـؤون الهنـد، 6 أكتوبـر 1915، أوراق الفيكونـت تشـارلز هاردنـج، مكتبـة جامعـة كامبـردج، المجلـد 103.

69- برقيـة مـن وزيـر الدولـة لشـؤون الهنـد إلـى نائـب الملـك، 8 أكتوبـر 1915، أوراق الفيكونـت تشـارلز هاردنـج، مكتبـة جامعـة كامبـردج، المجلـد 103.

70- برقيـة مـن الضابـط القائـد للقـوة «د» إلـى وزيـر الدولـة لشـؤون الهنـد، أكتوبـر 1915، أوراق الفيكونـت تشـارلز هاردنـج، مكتبـة جامعـة كامبـردج، المجلـد 103.

71- برقيـة مـن وزيـر الدولـة لشـؤون الهنـد إلـى نائـب الملـك، 21 أكتوبـر 1915، أوراق الفيكونـت تشـارلز هاردنـج، مكتبـة جامعـة كامبـردج، المجلـد 103.

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.48 .72

F. J. Moberly, *History of the Great War Based on Official Documents. The Campaign* .73
.London: HMSO, 1923), volume II, p.167) *1918-in Mesopotamia, 1914*

.9-Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, pp.48 .74

.Ibid., p.49 .75

.Moberly, *Official History*, vol. II, p.278 .76

.Ibid., p.280 .77

78- برقيـة مـن الجنـرال السـير بيرسـي ليـك إلـى رئيـس الأركان العامـة فـي الهنـد، 8 فبرايـر 1916، لنـدن: الأرشـيف الوطنـي، WO 106/905.

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.50 .79

80- برقيـة مـن الجنـرال السـير بيرسـي ليـك إلـى رئيـس الأركان العامـة فـي الهنـد، 15 فبرايـر 1916، لنـدن: الأرشـيف الوطنـي، WO 106/905.

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.51 .81

.Gholi Majd, *Iraq During World War I*, p.209 .82

Telegram from General Sir Percy Lake to the Chief of the General Staff in India, .83

.905/22 April 1916, London: TNA, WO 106

-83 برقيـة مـن الجنـرال السـير بيرسـي ليـك إلـى رئيـس الأركان العامـة فـي الهنـد، 22 أبريـل 1916، لنـدن: الأرشـيف الوطنـي، 905/WO 106.

-84 برقيـة مـن المشـير اللـورد كتشـنر إلـى الجنـرال السـير بوشـامبداف، 25 أبريـل 1916، لنـدن: الأرشـيف الوطنـي، 906/WO 106.

.5-Townshend, *When God Made Hell*, pp.332 .85

.Ibid., p.335 .86

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.52 .87

.Ibid .88

.Ibid .89

Sir George Buchanan, 'Port Administration and River Conservancy Department, .90
.4993/MEF – Report for Month Ending June 30th, 1916', London: TNA, WO 95

Report by Major-General H. F. E. Freeland on the Working and Future Development' .91
of the Port of Basra and of the River and Railway Communications in Mesopotamia',
.p.9 ,6517/April 1918, London: TNA, MUN 4

.6-Cf. Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, chapters 4 .92

.Michael Casey, *The History of Kuwait* (Westport, CT: Greenwood, 2007), p.52 .93

David Roberts, 'Kuwait', in Christopher Davidson (ed.), *Power and Politics in the* .94
.*Persian Gulf* (London: Hurst & Co., 2011), p.90

.Casey, *History of Kuwait*, p.53 .95

Steven Wright, 'Foreign Policies with International Reach: The Case of Qatar', in .96
David Held and Kristian Coates Ulrichsen (eds.), *The Transformation of the Gulf. Politics,*
.8-*Economics and the Global Order* (London: Routledge, 2011), pp.297

Abd al-Fattah Hasan Abu Aliyya, 'Early Roots of Projects to Settle the Bedouins' .97
in the Arabian Peninsula', in Fahd al-Semmari (ed.), *A History of the Arabian Peninsula*

.8-(London: I. B. Tauris, 2010), pp.207

Joseph Kechichian, *Faysal: Saudi Arabia's King for all Seasons* (Gainesville, FL: .98
.University Press of Florida Press, 2008), p.17

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.67 .99

Lieutenant General F. S. Maude, 'Report on Operations 28 August 1916 to 31 .100
.5206/March 1917', London: TNA, WO 32

Sketch of Military Operations in Mesopotamia 1917', London: TNA, WO' .101
.912/106

.Ibid .102

H. V. F. Winstone, *Leachman: 'OC Desert': The Life of Lieutenant-Colonel Gerard* .103
.*Leachman* (London: Quartet, 1982), p.203

Benjamin Schwarz, 'Divided Attention: Britain's Perception of a German Threat .104
.9-to Her Eastern Frontier in 1918', *Journal of Contemporary History*, 28 (1993), pp.106

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.69 .105

Mesopotamian Expeditionary Force: Despatch of Operations by Lieutenant-' .106
.917/General Sir W. R. Marshall, 1918 1 October - 31 December', London: TNA, WO 106

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.159 .107

.Ibid .108

.3060/Gertrude Bell, 'Report on the Najaf-Karbala District', London: TNA, FO 371 .109

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.157 .110

111- برقية من الجنرال السير فريدريك مود إلى رئيس الأركان العامة في الهند، 9 يوليو 1917، لندن: مكتبة وزارة شؤون الهند، L/MIL/5/758.

112- برقية من السير بيرسي كوكس إلى وزارة شؤون الهند في لندن، 25 مايو 1917، لندن: مكتبة وزارة شؤون الهند، L/P&S/10/666.

.Atiyyah, *Iraq*, p.158 .113

114- كان النفط يرتشح إلى السطح في مناطق حول الموصل وكركوك، وبالتالي فإن وجوده كان أكثر من مجرد تخمين، ومع ذلك فإن أول اكتشاف كبير للنفط لم يحدث إلى في أكتوبر 1927.

115- خطاب من السير موريس هانكي إلى السير إيريك غيديس، 30 يوليو 1918، لندن: الأرشيف الوطني، CAB 21/119.

116- ورقة من إعداد السير إدموند سليد حول وضع البترول في الإمبراطورية البريطانية، 20 يوليو 1918، لندن: الأرشيف الوطني، CAB 21/119.

Major General F. H. Sykes, 'Petroleum Situation in the British Empire: Notes by .117 .119/the Chief of the Air Staff', 9 August 1918, London: TNA, CAB 21

118- خطاب من السير موريس هانكي إلى السير آرثر بلفور، 12 أغسطس 1918، لندن: الأرشيف الوطني، CAB 21/119.

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.89 .119

الفصل السابع: الصراع على الهيمنة السياسية في الشرق الأوسط

1- برقية من نائب الملك في الهند إلى وزير الدولة لشؤون الهند، 7 ديسمبر 1914، في أوراق الفيكونت تشارلز هاردنج، مكتبة جامعة كامبردج، المجلد 98.

2- برقية من وزير الدولة لشؤون الهند إلى نائب الملك في الهند، 16 ديسمبر 1914، لندن: مكتبة وزارة شؤون الهند، L/P&S/10/514.

Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the* .3 .Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2010), p.85) *22-Middle East, 1914*

George Cassar, *The French and the Dardanelles: A Study of Failure in the Conduct of* .4 .*War* (London: George Allen & Unwin, 1971), p.48

.5-Quoted in ibid., pp.54 .5

in Alan Sharp and Glyn ,'1918-David Dutton, 'Britain and France at War, 1914 .6

Stone (eds.), *Anglo-French Relations in the Twentieth Century: Rivalry and Cooperation*

.(Abingdon: Routledge, 2000), p.84

Quoted in Sean McMeekin, *The Russian Origins of the First World War* (Cambridge, .7

.11-MA: Harvard University Press, 2011), pp.110

.Ibid .8

.Eugene Rogan, *The Arabs: A History* (London: Penguin, 2009), p.150 .9

A Critical Appraisal (New :*1922*-Isaiah Friedman, *British Pan-Arab Policy 1915* .10

.16-Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2010), pp.15

Historical Journal ',1918-V. H. Rothwell, 'Mesopotamia in British War Aims, 1914 .11

.(13:2), 1970, p.279

David French, 'The Rise and Fall of 'Business as Usual'', in Kathleen Burk (ed.), .12

London: Allen) *1919-War and the State: The Transformation of British Government, 1914*

.& Unwin, 1982), p.22

Roger Adelson, *London and the Invention of the Middle East: Money, Power, and* .13

.New Haven, CT: Yale University Press, 1995), p.4) *1922-War, 1914*

.Quoted in Friedman, *British Pan-Arab Policy*, p.18 .14

Paula Mohs, *British Intelligence and the Arab Revolt: The First Modern Intelligence* .15

.*War* (London: Routledge, 2008), p.33

London:) *1920*-Jukka Nevakivi, *Britain, France and the Arab Middle East, 1914* .16

.Athlone Press, 1969), pp.18, 43

London:) *1919*-John Fisher, *Curzon and British Imperialism in the Middle East, 1916* .17

.Frank Cass, 1999), p.117

John Keay, *Sowing the Wind: The Seeds of Conflict in the Middle East* (London: .18

.3-John Murray, 2003), pp.42

Quotes taken from David Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East* .19

.Oxford: Oxford University Press, 2006), p.53) *1958-1914*

1920-Bruce Westrate, *The Arab Bureau: British Policy in the Middle East, 1916* .20

.(Pennsylvania, PA: University of Pennsylvania Press, 1992)

Bernard Reich, *Political Leaders of the Contemporary Middle East and North Africa*: .21

.18-*A Biographical Dictionary* (Westport, CT: Greenwood, 1990), pp.17

1924-Christopher Andrew, *The Climax of French Imperial Expansion, 1914* .22

.Stanford, CA: Stanford University Press, 1981), p.66)

.Keay, *Sowing the Wind*, p.59 .23

.Rogan, *The Arabs*, p.153 .24

22-Quoted in Keith Jeffery, *The British Army and the Crisis of Empire, 1918* .25

.Manchester: Manchester University Press, 1984), p.122)

.Ibid .26

.Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East*, p.58 .27

Rashid Khalidi, 'The Arab Experience of the War', in Hugh Cecil and Peter Liddle .28

(eds.), *Facing Armageddon: The First World War Experienced* (London: Leo Cooper,

.1996), p.648

.Rogan, *The Arabs*, p.178 .29

Thair Karim, 'Tribes and Nationalism: Tribal Political Culture and Behaviour in .30

Iraq', in Faleh Abdul-Jabar and Hosham Dawod (eds.), *Tribes and Power: Nationalism and*

.*Ethnicity in the Middle East* (London: Saqi Books, 2003), p.288

Lawrence James, *The Golden Warrior: The Life and Legend of Lawrence of Arabia* .31

.(London: Abacus, 2000 edn), p.151

The History of the First World War (London: Allen :*1918*-David Stevenson, *1914* .32

.Lane, 2004), p.124

.Keay, *Sowing the Wind*, p.65 .33

T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom* (Ware, Herts: Wordsworth Editions, 1997 .34
.edn), p.42

.James, *Golden Warrior*, p.160 .35

.Ibid., p.162 .36

.Keay, *Sowing the Wind*, p.70 .37

London: Osprey Publishing, 2008),) *1918*-David Murphy, *The Arab Revolt 1916* .38
.9-pp.57

1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East 1917* .39
.6-London: Frank Cass, 1999), pp.71)

-Edward Erickson, *The History of World War I: Gallipoli and the Middle East 1914* .40
.*From the Dardanelles to Mesopotamia* (London: Amber Books, 2008), p.193 :*1918*

Antony Best, Jussi Hanhimaki, Joseph Maiolo, Kirsten Schulze, *International* .41
.*History of the Twentieth Century* (London: Routledge, 2004), p.107

.Ibid., p.108 .42

David Stevenson, *The First World War and International Politics* (Oxford: Oxford .43
.University Press, 1988), p.177

.12-Best et al., *International History of the Twentieth Century*, pp.111 .44

Yigal Sheffy, 'Institutionalized Deception and Perception Reinforcement: Allenby's .45
Campaign in Palestine', in Michael Handel (ed.), *Intelligence and Military Operation*
.(London, Routledge, 1990), p.180

Quoted in John Grigg, *Lloyd George: War Leader* (London: Allen Lane, 2002), .46
.p.354

.Quoted in Rogan, *The Arabs*, p.154 .47

.Stevenson, *First World War and International Politics*, p.177 .48

.Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East*, p.58 .49

.Khalidi, 'The Arab Experience of the War', p.652 .50

.Stevenson, *First World War and International Politics*, p.176 .51

David Woodward, 'The Origins and Intent of David Lloyd George's January 5 War .52

.Aims Speech', *The Historian*, 34(1), 1971, p.22

.Grigg, *War Leader*, p.382 .53

President Wilson's Fourteen Points', delivered in Joint Session, 8 January 1918, text' .54

available at http://wwi.lib.byu.edu/index.php/President_Wilson%27s_Fourteen_Points

.((accessed 28 March 2013

.William Marshall, *Memories of Four Fronts* (London: Ernest Benn, 1929), p.329 .55

Philip Ireland, *Iraq: A Study in Political Development* (London: Jonathan Cape, .56

.1937), p.136

Future of Mesopotamia – Note by Political Department, India Office, on Points' .57

.686/for Discussion with Sir P. Cox, 3 April 1918', London: India Office Library, L/P&S/10

.Fisher, *Curzon and British Imperialism*, p.130 .58

Eliezer Tauber, *The Arab Movements in World War I* (London: Frank Cass, 1993), .59

.4-pp.173

.Ibid., p.181 .60

.Ibid .61

4-George Antonius, *The Arab Awakening* (London: Hamish Hamilton, 1938), pp.433 .62

.3-Ibid., pp.272 .63

the Sherifian :1925-Timothy Parrs, *Britain, the Hashemites, and Arab Rule, 1920* .64

.*Solution* (London: Frank Cass, 2003), p.50

.Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.115 .65

.Ibid., p.117 .66

.Quoted in Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.117 .67

.Keay, *Sowing the Wind*, p.100 .68

.Ibid .69

Paper by Admiral Sir Edmond Slade on the Petroleum Situation in the British' .70
.119/Empire', 29 July 1918, London: The National Archives (TNA), CAB 21

London: Frank Cass,) *1939*-Quote taken from B. S. McBeth, *British Oil Policy 1919* .71
.1985), p.11

72- انظر الفصل الرابع.

.Ibid .73

London: Ithaca Press,) *1928*-Helmut Mejcher, *Imperial Quest for Oil: Iraq 1910* .74
.8-1976), pp.37

.McBeth, *British Oil Policy*, p.11 .75

.Ibid., p.12 .76

John Lynn, *Feeding Mars: Logistics in Western Warfare from the Middle Ages to the* .77
.Present (Oxford: Westview Press, 1993), p.183

Martin van Creveld, 'World War I and the Revolution of Logistics', in Roger .78
Chickering and Stig Forster (eds.), *Great War, Total War: Combat Mobilization on the*
.Western Front (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), p.67

Paper by Admiral Sir Edmond Slade on the Petroleum Situation in the British' .79
.119/Empire', 29 July 1918, London: TNA, CAB 21

.Ibid .80

.Ibid .81

.Ibid .82

83- خطـاب مـن موريـس هانكـي إلـى السـير إيريـك غيديـس، 30 يوليـو 1918، لنـدن: الأرشـيف الوطنـي، CAB 21/119.

84- خطـاب مـن موريـس هانكـي إلـى ديفيـد لويـد جـورج، 1 أغسـطس 1918، لنـدن: الأرشـيف

الوطنـــي، CAB 21/119.

85- خطـاب مـن موريـس هانكـي إلـى السـير آرثـر بلفـور، 1 أغسـطس 1918، لنـدن: الأرشـيف الوطنـــي، CAB 21/119.

86- خطـاب مـن موريـس هانكـي إلـى السـير آرثـر بلفـور، 12 أغسـطس 1918، لنـدن: الأرشـيف الوطنـــي، CAB 21/119.

.Ibid .87

A Clash of Loyalties (Oxford: Oxford :*1920*-Arnold Wilson, *Mesopotamia 1917* .88 .University Press, 1930), p.11

.Ritchie Ovendale, *The Middle East Since 1914* (London: Longman, 1992), p.44 .89

الفصل الثامن: تسويات ما بعد الحرب، 1919-1923

Martin Navias and Tim Moreman, 'Limited War and Developing Countries', in .1 .Laurence Freedman (ed.), *War* (Oxford: Oxford University Press, 1994), p.309

Joel Beinin and Zachary Lockman, *Workers on the Nile: Nationalism, Communism,* .2 Princeton, NJ: Princeton University) *1954-Islam and the Egyptian Working Class, 1882* .Press, 1987), p.85

Ellis Goldberg, 'Peasants in Revolt – Egypt 1919', *International Journal of Middle* .3 .*East Studies*, 24 (1992), p.263

A Socio-Political Study (Beirut: Arab Institute for :*1921*-Ghassan Atiyyah, *Iraq: 1908* .4 .Research and Publishing, 1973), p.220

.Ibid .5

1919-Mohammad Gholi Majd, *The Great Famine and Genocide in Persia, 1917* .6 .Lanham, MD: University Press of America, 2003), p.44)

Sevket Pamuk, 'The Ottoman Economy in World War I', in Stephen Broadberry and .7

Mark Harrison (eds.), *The Economics of World War I* (Cambridge: Cambridge University

.Press, 2009), p.120

.Ibid., p.132 .8

.Ibid .9

Erik Zurcher, 'Little Mehmet in the Desert: The Ottoman Soldier's Experience', in .10

Hugh Cecil and Peter Liddle (eds.), *Facing Armageddon: The First World War Experienced*

.(London: Leo Cooper, 1996), p.238

John Darwin, *Britain, Egypt and the Middle East: Imperial Policy in the Aftermath* .11

.London: Macmillan, 1981), p.73) *1922-of War 1918*

Margaret MacMillan, *Peacemakers: The Paris Conference of 1919 and Its Attempt to* .12

.*End War* (London: John Murray, 2001), p.1

Oxford:) *1958*-David Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East, 1914* .13

.Oxford University Press, 2006), p.65

.62-MacMillan, *Peacemakers*, pp.460 .14

.3-Ibid., pp.462 .15

.Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East*, p.65 .16

Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the* .17

.(London: Palgrave Macmillan, 2010, p.178) *22-Middle East, 1914*

.Ibid., p.89 .18

.Ibid., p.179 .19

War Diary of 11th Indian Labour Corps, London: The National Archives (TNA), .20

.5036/PRO WO 95

Efraim Karsh, *Empires of the Sand: The Struggle for Mastery in the Middle East* .21

.Cambridge, MA: Harvard University Press, 2001), p.175) *1923-1789*

London: John Murray, 1928),) *1928*-J. E. Marshall, *The Egyptian Enigma: 1890* .22

.p.142

.Laurence Grafftey-Smith, *Bright Levant* (London: John Murray, 1970), p.59 .23

Dirk Vandewalle, *A History of Modern Libya* (Cambridge: Cambridge University .24

.Press, 2006), p.27

Note by Wingate on Deportation of Egyptian Nationalists', 9 March 1918, London:' .25

.3714/TNA, FO 371

1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East 1917* .26

.London: Frank Cass, 1999), p.143)

Nabila Ramdani, 'Women in the 1919 Egyptian Revolution: From Feminist .27

Awakening to Nationalist Political Activism', *Journal of International Women's Studies*,

.7-14(2), 2013, pp.45

.Goldberg, 'Peasants in Revolt', p.261 .28

London: Royal) *1939*-Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798* .29

.Institute of International Affairs, 1962), p.209

Nadav Safran, *Egypt in Search of a Political Community: An Analysis of the* .30

.Intellectual and Political Evolution of Egypt (Oxford: Oxford University Press, 1961), p.92

Afaf Lutfi Al-Sayyid Marsot, 'The British Occupation of Egypt from 1882', in Wm .31

Roger Louis and Andrew Porter (ed.), *The Oxford History of the British Empire, Volume*

.III: The Nineteenth Century (Oxford: Oxford University Press, 1999), p.663

.Hourani, *Arabic Thought*, p.209 .32

Michael Yapp, *The Making of the Modern Near East* (London: Longman, 1995), .33

.p.295

.3-Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, pp.181 .34

P. J. Vatikiotis, *The Modern History of Egypt* (London: Weidenfeld & Nicolson, .35

.1969), p.263

T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom* (Ware, Herts: Wordsworth Editions, 1997 .36
.edn), p.644

Matthew Hughes (ed.), *Allenby in Palestine: The Middle East Correspondence of* .37
Field Marshal Viscount Allenby June 1917 – October 1919 (Stroud: Sutton Publishing,
.2004), p.201

.Ibid., p.202 .38

2000-Sami Moubayed, *Steel and Silk: Men and Women Who Shaped Syria 1900* .39
.4-Seattle: Cune Press, 2006), pp.363)

.Eugene Rogan, *The Arabs* (London: Penguin, 2009), p.214 .40

Adel Beshara (ed.), *The Origins of Syrian Nationhood: Histories, Pioneers and* .41
.(*Identity* (CRC Press, 2012

.6-Hughes, *Allenby and British Strategy*, pp.124 .42

.401-MacMillan, *Peacemakers*, pp.400 .43

.Ibid .44

Christopher Andrew and Alexander Sydney Kanya Forstner, *France Overseas: The* .45
Great War and the Climax of French Imperial Expansion (London: Thames & Hudson,
.1981), p.165

.Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.128 .46

.Ibid., p.154 .47

,'22-Keith Jeffery, 'Sir Henry Wilson and the Defence of the British Empire 1918 .48
.*Journal of Imperial and Commonwealth History*, 5(3), 1977, p.271

.2-Fieldhouse, *Western Imperialism*, pp.251 .49

Text of the 'Recommendations of the King–Crane Commission with Regard to .50
Syria–Palestine and Iraq (August 29, 1919)' available at http://unispal.un.org/UNISPAL.
.392AD7EB00902A0C852570C000795153/NSF/0

.Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.147 .51

.Fieldhouse, *Western Imperialism*, p.253 .52

.Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.155 .53

.Andrew and Kanya Forstner, *France Overseas*, p.119 .54

.Fieldhouse, *Western Imperialism*, p.63 .55

.See Chapter 7 .56

.Rogan, *The Arabs*, p.198 .57

.London: Ithaca Press, 1976), p.19) *1922*-Peter Sluglett, *Britain in Iraq 1914* .58

A Clash of Loyalties (Oxford: Oxford :*1920*-Arnold Wilson, *Mesopotamia 1917* .59
.University Press, 1931), p.103

60- خطـاب مـن غيرتـرود بـل إلـى السـير هيـو بـل، 27 ديسـمبر 1918، أوراق غيرتـرود بـل، جامعـة نيوكاسل، www.gerty.ncl.ac.uk.

Minute by 'J.E.S.', 26 November 1918, London: India Office Library (IOL), IOR .61
.761/L/MIL/5

62- برقيـة مـن إدويـن مونتاغيـو إلـى أرنولـد ولسـون، 28 نوفمبـر 1918، لنـدن: مكتبـة وزارة شـؤون الهنـد، IOR L/MIL/5/761.

.Atiyyah, *Iraq*, p.180 .63

64- برقيـة مـن أرنولـد ولسـون إلـى وزارة شـؤون الهنـد، 14 ديسـمبر 1918، لنـدن: الأرشـيف الوطنـي، FO 371/3386.

.Ibid .65

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.185 .66

67- خطـاب مـن غيرتـرود بـل إلـى السـير هيـو بـل، 24 أكتوبـر 1920، أوراق غيرتـرود بـل، جامعـة نيوكاسـل، www.gerty.ncl.ac.uk.

Philip Ireland, *Iraq: A Study in Political Development* (Oxford: Jonathan Cape, .68
.1937, p.100

69- برقيـة مـن أرنولـد ولسـون إلـى إدويـن مونتاغيـو، 11 ديسـمبر 1918، لنـدن: الأرشـيف الوطنـي، FO 371/3386.

70. Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.186.

71. Charles Tripp, *A History of Iraq* (Cambridge: Cambridge University Press, 2007), p.28.

72. Charles Townshend, *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia and the Creation of Iraq, 1914-1921* (London: Faber and Faber, 2010), p.56.

73. Quoted in Paula Mohs, *Military Intelligence and the Arab Revolt: The First Modern Intelligence War* (London: Routledge, 2008), p.16.

74. Atiyyah, *Iraq*, p.278.

75. Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.187.

76- خطـاب مـن غيرتـرود بـل إلـى السـير هيـو بـل، 11 يوليـو 1920، أوراق غيرتـرود بـل، جامعـة نيوكاسـل، www.gerty.ncl.ac.uk.

77. 'Administrative Report of the Diwaniyah Division for the Year 1919', by Major C. K. Daly, London: IOL, IOR L/P%S/10/622.

78. Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.189.

79- خطـاب مـن غيرتـرود بـل إلـى السـير هيـو بـل، 10 ينايـر 1919، أوراق غيرتـرود بـل، جامعـة نيوكاسـل، www.gerty.ncl.ac.uk.

80- خطـاب مـن غيرتـرود بـل إلـى السـير هيـو بـل، 10 أكتوبـر 1920، أوراق غيرتـرود بـل، جامعـة نيوكاسـل، www.gerty.ncl.ac.uk.

81. Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.189.

82. Laurence Louer, *Transnational Shia Politics: Religious and Political Networks in the Gulf* (London: Hurst & Co., 2008), p.81.

83. Atiyyah, *Iraq*, p.328.

84. Townshend, *When God Made Hell*, p.466.

.Atiyyah, *Iraq*, p.283 .85

Stephen Longrigg, *Iraq: 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History* .86
.(London: Oxford University Press, 1953), p.120

Thair Karim, 'Tribes and Nationalism: Tribal Political Culture and Behaviour .87
in Faleh Abdul-Jabar and Hosham Dawod (eds.), *Tribes and Power:* ,'20-in Iraq, 1914
.*Nationalism and Ethnicity in the Middle East* (London: Saqi Books, 2003), p.292

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.191 .88

.Karim, 'Tribes and Nationalism', p.284 .89

Charles Tripp, *The Power and the People: Paths of Resistance in the Middle East* .90
.(Cambridge: Cambridge University Press, 2003), p.41

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.191 .91

92- خطـاب مـن غيرتـرود بـل إلـى السـير هيـو بـل، 14 يونيـو 1920، أوراق غيرتـرود بـل، جامعـة
نيوكاسـل، www.gerty.ncl.ac.uk.

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.191 .93

94- خطـاب مـن الجنـرال جـي. أيـه. ليسـلي إلـى زوجتـه، 19 أكتوبـر 1920، لنـدن: مكتبـة وزارة
شـؤون الهنـد، أوراق جـي. أيـه. ليسـلي، Mss Eur F462.

.Haldane, *Insurrection*, p.331 .95

.Townshend, *When God Made Hell*, p.453 .96

Michael Croissant, *Armenia-Azerbaijan Conflict: Causes and Implications* .97
.((Westport, CT: Praeger, 1998, p.15

A. J. Stockwell, 'The War and the British Empire', in John Turner (ed.), *Britain and* .98
.*the First World War* (London: Unwin Hyman, 1998), p.45

.Rogan, *The Arabs*, p.221 .99

.Ibid .100

Modern ,'1922-John Gallagher, 'Nationalisms and the Crisis of Empire, 1919 .101

.Asian Studies, 15, 1981, p.355

.David Fromkin, *A Peace to End All Peace* (New York: Henry Holt, 1989), p.503 .102

Michael Asher, *Lawrence: The Uncrowned King of Arabia* (New York: Overlook .103
.Press, 1999), p.356

.Tripp, *Power and the People*, p.28 .104

الخاتمة

Edward Djerejian, *Danger and Opportunity: An American Ambassador's Journey* .1
.*Through the Middle East* (New York: Threshold Editions, 2008), p.90

Arming Syrian Rebels Could Create a Legacy as Harmful as Sykes-Picot', *The Daily* .2
Star, 22 June 2013; 'Is It the End of Sykes-Picot? Patrick Cockburn on the War in Syria and the Threat to the Middle East', *London Review of Books*, volume 35 no. 11, 6 June
.2013

المراجع

مصادر أولية

Cambridge University Library

Papers of Viscount Hardinge of Penshurst

Imperial War Museum

Papers of Sir Archibald Murray

Papers of Field Marshal Philip Chetwode

India Office Library (British Library)

L/MIL/5 series

L/MIL/15 series

L/MIL/17 series

L/P&S/10 series

Papers of G. A. Leslie

Liddell Hart Centre for Military Archives (King's College London)

Papers of Sir William Bartholomew

Papers of Sir Ian Hamilton

Papers of Sir Ian Robertson

The National Archives (London)

CAB 17 series

CAB 19 series

CAB 21 series

FO 371 series

MUN 4 series

WO 32 series

WO 95 series

WO 106 series

University of Newcastle-upon-Tyne

Papers of Gertrude Bell

مصادر ثانوية

كتب

Abu-Lebdeh, Hatem Shereef, 1997. *Conflict and Peace in the Middle East*. Lanham, MD: University Press of America.

Adelson, Roger, 1995. *London and the Invention of the Modern Middle East: Money, Power, and War, 19141922-*. New Haven, CT: Yale University Press.

Ahmad, Feroz, 2010. *The Young Turks: The Committee of Union and Progress in Turkish Politics, 190814-*. London: Hurst & Co.

Ahmida, Ali Abdullatif, 1994. *The Making of Modern Libya: State Formation, Colonization, and Resistance, 18301932-*. New York: State University of New York.

Akçam, Taner, 2004. *From Empire to Republic: Turkish Nationalism and the Armenian Question*. London: Zed Books.

Al-Rasheed, Madawi, 1990. *Politics in an Arabian Oasis: The Rashidi Tribal Dynasty*. London: I. B. Tauris.

Anderson, Ross, 2004. *The Forgotten Front: The East African Campaign 19141918-*. Stroud: Tempus Publishing.

Andrew, Christopher, 1981. *The Climax of French Imperial Expansion, 191424-*. Stanford, CA: Stanford University Press.

Andrew, Christopher and Alexander Sydney Kanya Forstner, 1981. *France Overseas; The Great War and the Climax of French Imperial Expansion*. London: Thames & Hudson.

Anscombe, Frederick, 1997. *The Ottoman Gulf: The Creation of Kuwait, Saudi Arabia, and Qatar*. New York: Columbia University Press.

Antonius, George, 1938. *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*. London: Hamish Hamilton.

Asher, Michael, 1999. *Lawrence: The Uncrowned King of Arabia*. New York: Overlook Press.

Ashmead-Bartlett, Ellis, 1920. *The Uncensored Dardanelles*. London: Hutchinson.

Atiyyah, Ghassan, 1973. *Iraq: 19081921-: A Socio-Political Study*. Beirut: Arab Institute for Research and Publishing.

Baer, Gabriel, 1962. *A History of Landownership in Modern Egypt 18001950-*. Oxford: Oxford University Press.

Balakian, Peter, 2003. *The Burning Tigris: The Armenian Genocide and America's Response*. New York: HarperCollins.

Barr, James, 2011. *A Line in the Sand: Britain, France and the Struggle that Shaped the Middle East*. London: Simon & Schuster.

Barrow, George, 1921. *The Life of General Sir Charles Carmichael Monro*. London: Hutchinson.

Batatu, Hanna, 1978. *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Bayly, C.A., 2004. *The Birth of the Modern World 17801914-*. Oxford: Blackwell Publishing.

Beckett, Ian, 2009, ed. *1917: Beyond the Western Front*. Leiden: Brill.

Beshara, Adel, 2012 edn. *The Origins of Syrian Nationhood: Histories, Pioneers and Identity*. CRC Press.

Beinin, Joel and Zachary Lockman, 1987. *Workers on the Nile: Nationalism,*

Communism, Islam and the Egyptian Working Class, 18821954-. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Best, Anthony, Jussi Hanhimaki, Joseph Maiolo and Kirsten Schulze, 2004. *International History of the Twentieth Century*. London: Routledge.

Bose, Sugata, 2006. *A Hundred Horizons: The Indian Ocean in the Age of Global Empire*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Broadberry, Stephen and Mark Harrison, eds. 2009. *The Economics of World War I*. Cambridge: Cambridge University Press.

Brown, Nathan, 1990. *Peasant Politics in Modern Egypt: The Struggle Against the State*. New Haven, CT: Yale University Press.

Bruce, Anthony, 2002. *The Last Crusade: The Palestine Campaign in the First World War*. London: John Murray.

Brysac, Shareen Blair and Karl Meyer, 2008. *Kingmakers: The Invention of the Modern Middle East*. New York: W. W. Norton & Co.

Buchan, John, 1993 edn. *Greenmantle*. Oxford: Oxford University Press.

Candler, Edmund, 1920. *The Sepoy*. London: John Murray.

Casey, Michael, 2007. *The History of Kuwait*. Westport, CT: Greenwood.

Cassar, George, 1971. *The French and the Dardanelles: A Study of Failure in the Conduct of War*. London: George Allen & Unwin.

Cetinsaya, Gokhan, 2006. *Ottoman Administration of Iraq, 18901908-*. New York: Routledge.

Churchill, Winston, 2005 edn. *The World Crisis 19111918-*. London: Penguin Classics.

Cleveland, William, 1994. *A History of the Modern Middle East*. Boulder, CO: Westview Press.

Coates Ulrichsen, Kristian, 2010. *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the Middle East, 191422-*. Basingstoke: Palgrave Macmillan.

Cobban, Alfred, 1990 edn. *A History of Modern France, Volume 3: 18711962-*. London: Penguin.

Coletta, Paolo, 1996. *Anglo-American Naval Operations in the European Theatre, World War I*. Lewiston, NY: Lampeter.

Cooper Busch, Briton, 1971. *Britain, India and the Arabs, 19141921-*. Berkeley, CA: University of California Press.

Croissant, Michael, 1998. *Armenia-Azerbaijan Conflict: Causes and Implications.* Westport, CT: Praeger.

Daly, M. W., 1997. *The Sirdar: Sir Reginald Wingate and the British Empire in the Middle East.* Philadelphia, PA: American Philosophical Society.

Darwin, John, 1981. *Britain, Egypt and the Middle East: Imperial Policy in the Aftermath of War 19181922-.* London: Macmillan.

Djerejian, Edward, 2008. *Danger and Opportunity: An American Ambassador's Journey Through the Middle East.* New York: Threshold Editions.

Dodge, Toby, 2003. *Inventing Iraq: The Failure of Nation-Building and a History Denied.* London: Hurst & Co.

Dolev, Eran, 2007. *Allenby's Military Machine: Life and Death in World War I Palestine.* London: I. B. Tauris.

Elgood, P. G., 1924. *Egypt and the Army.* Oxford: Oxford University Press.

Elgood, P. G., 1928. *The Transit of Egypt.* London: Edward Arnold.

Erickson, Edward, 2000. *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War.* London: Praeger.

Erickson, Edward, 2003. *Defeat in Detail: The Ottoman Army in the Balkans, 1912-1913.* Westport, CT: Greenwood.

Erickson, Edward, 2008. *The History of World War I: Gallipoli and the Middle East, 19141918-: From the Dardanelles to Mesopotamia.* London: Amber Books.

Erickson, Edward, 2010. *Gallipoli: The Ottoman Campaign.* Barnsley, Yorks: Pen & Sword.Evans-Pritchard, E. E., 1949. *The Sanusi of Cyrenaica.* Oxford: Oxford University Press.

Falls, Cyril, 1960. *The First World War.* London: Longman.

Falls, Cyril, 1964. *Armageddon 1918.* London: Weidenfeld & Nicolson.

Falls, Cyril and George MacMunn, 1928. *Official History: Military Operations. Egypt and Palestine, Volume I.* London: HMSO.

Farah, Caesar E., 2002. *The Sultan's Yemen: Nineteenth-Century Challenges to Ottoman Rule.* London: I. B. Tauris.

Fieldhouse, David, 2006. *Western Imperialism in the Middle East 19141958-.* Oxford: Oxford University Press.

Fisher, John, 1999. *Curzon and British Imperialism in the Middle East 19161919-.*

London: Frank Cass.

Fisk, Robert, 2005. *The Great War for Civilisation: The Conquest of the Middle East.* London: Fourth Estate.

Forbes, A., 1929. *A History of the Army Ordnance Services, Volume 3: The Great War.* London: Medici Society.

Friedman, Isaiah, 2010. *British Pan-Arab Policy 19151922-: A Critical Appraisal.* New Brunswick, NJ: Transaction Publishers.

Fromkin, David, 1989. *A Peace to End All Peace.* New York: Henry Holt.

Gatrell, Peter, 2005. *Russia's First World War: A Social and Economic History.* Harlow: Pearson.

Gatrell, Peter, 2009. *A Whole Empire Walking: Refugees in Russia During World War I.* Indianapolis, IN: Indiana University Press.

Gholi Majd, Mohammad, 2003. *The Great Famine and Genocide in Persia, 19171919-.* Lanham, MD: University Press of America.Gholi Majd, Mohammad, 2006. *Iraq in World War I: From Ottoman Rule to British Conquest.* Lanham, MD: University Press of America.

Gilbert, Martin, 1973, ed. *Winston S. Churchill, Companion Volume III: Part I July 1914-April 1915.* Boston, MA: Houghton Mifflin.

Gilbert, Martin, 1997. *A History of the Twentieth Century, Volume 1: 19001933-.* London: HarperCollins.

Gilmour, David, 2003. *Curzon: Imperial Statesman.* London: John Murray.

Goebal, Stefan 2007. *The Great War and Medieval Memory: War, Remembrance and Medievalism in Britain and Germany, 19141940-.* Cambridge: Cambridge University Press.

Grafftey-Smith, Laurence, 1970. *Bright Levant.* London: John Murray.

Grainger, John, 2006. *The Battle for Palestine, 1917.* Woodbridge, Suffolk: Boydell & Brewer.

Graves, Philip, 1941. *The Life of Sir Percy Cox.* London: Hutchinson.

Grigg, John, 1985. *Lloyd George: From Peace to War 19121916-.* London: Penguin.

Grigg, John, 2002. *Lloyd George: War Leader.* London: Allen Lane.Gullett, H. S., 1925. *The Official History of Australia in the War of 19141918-, Volume 7: Sinai and Palestine: The Australian Imperial Force in Sinai and Palestine 19141918-.* St Lucia, Queensland: University of Queensland Press.

Haddad, Fanar, 2011. *Sectarianism in Iraq: Antagonistic Visions of Unity.* New York:

Columbia University Press.

Haldane, Aylmer, 1922. *The Insurrection in Mesopotamia, 1920.* London: Blackwood.

Halliday, Fred, 2005. *The Middle East in International Relations: Power, Politics and Ideology.* Cambridge: Cambridge University Press.

Halpern, Paul, 1987. *The Naval War in the Mediterranean.* London: HarperCollins.

Hart, Peter, 2011. *Gallipoli.* London: Profile Books.

Higgins, Trumbull, 1963. *Winston Churchill and the Dardanelles.* London: Heinemann.

Hopkins-Weisse, Jeff, 2009. *Blood Brothers: The Anzac Generals.* Adelaide: Wakefield Press.

Hourani, Albert, 1991 [2002]. *A History of the Arab Peoples.* London: Faber and Faber.

House, J. M., 2001. *Combined Arms Warfare in the Twentieth Century.* Lawrence, KS: University Press of Kansas.

Hughes, Matthew, 1999. *Allenby and British Strategy in the Middle East 19171919-.* London: Frank Cass.Hughes, Matthew, 2004. *Allenby in Palestine: The Middle East Correspondence of Field Marshal Viscount Allenby June 1917 – October 1919.* Stroud: Sutton Publishing. Ireland, Philip, 1937. *Iraq: A Study in Political Development.* Oxford: Jonathan Cape.

James, Lawrence, 2000 edn. *The Golden Warrior: The Life and Legend of Lawrence of Arabia.* London: Abacus.

Jeffery, Keith, 1984. *The British Army and the Crisis of Empire, 191822-.* Manchester: Manchester University Press.

Karsh, Ephraim, 2001. *Empires of the Sand: The Struggle for Mastery in the Middle East 17891923-.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Keay, John, 2006. *Sowing the Wind: The Seeds of Conflict in the Middle East.* London: John Murray.

Kechichian, Joseph, 2008. *Faysal: Saudi Arabia's King for all Seasons.* Gainesville, FL: University of Florida Press.

Keegan, John, 1994. *A History of Warfare.* London: Pimlico.

Keegan, John, 1999. *The First World War.* New York: Alfred A. Knopf.Keene, Jennifer and Michael Neiberg, 2011, eds. *Finding Common Ground: New Directions in First World War Studies.* Leiden, Brill.

Landau, Jacob, 1990. *The Politics of Pan-Islam: Ideology and Organization.* Oxford:

Oxford University Press.

Lawrence, T. E., 1997 edn. *Seven Pillars of Wisdom*. Ware, Herts: Wordsworth Editions.

Lewy, Guenter, 2005. *The Armenian Massacres in Ottoman Turkey: A Disputed Genocide*. Salt Lake City, UT: University of Utah Press.

Libaridian, Gerard, 2007. *Modern Armenia: People, Nation, State*. New York: Transaction Publishers.

Liddell Hart, Basil, 1938. *A History of the World War, 19141918-*. London: Faber and Faber.

Longrigg, Stephen, 1953. *Iraq: 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History*. London: Oxford University Press.

Louer, Laurence, 2008. *Transnational Shia Politics: Religious and Political Networks in the Gulf*. London: Hurst & Co.

Lynn, John, 1993. *Feeding Mars: Logistics in Western Warfare from the Middle Ages to the Present*. Oxford: Westview Press.

McBeth, B. S., 1985. *British Oil Policy 19191939-*. London: Frank Cass.McMeekin, Sean, 2010. *The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

McMeekin, Sean, 2011. *The Russian Origins of the First World War*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

MacDonald, Alan, 2008. *A Lack of Offensive Spirit? The 46th (North Midland) Division at Gommecourt, 1st July 1916*. Eastbourne, E. Sussex: Iona Books.

MacMillan, Margaret, 2001. *Peacemakers: The Paris Conference of 1919 and Its Attempt to End War*. London: John Murray.

MacMunn, George, 1930. *Behind the Scenes in Many Wars*. London: John Murray.

Malcolm, Noel, 2008. *Kosovo: A Short History*. London: Macmillan.

Marr, Phebe, 2005. *The Modern History of Iraq*. Boulder, CO: Westview Press.

Marshall, J. E., 1928. *The Egyptian Enigma: 18901923-*. London: John Murray.

Mazower, Mark, 2004. *Salonica: City of Ghosts: Christians, Muslims and Jews 1430-1950*. London: HarperCollins.

Meinertzhagen, Richard, 1960. *Army Diary 18991926-*. London: Oliver & Boyd.

Mejcher, Helmut, 1976. *Imperial Quest for Oil: Iraq 19101928-*. London, Ithaca Press: St Antony's Middle East Monographs No. 6.

Metcalf, Thomas, 2007. *Imperial Connections: India in the Indian Ocean Arena 1760-1820*. Berkeley, CA: University of California Press.

Migdal, Joel, 1988. *Strong Societies and Weak States: State-Society Relations and State Capabilities in the Third World*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Miller, Donald and Lorna Touryan Miller, 1993. *Survivors: An Oral History of the Armenian Genocide*. Berkeley, CA: University of California Press.

Millman, Brock, 2001. *Pessimism and British War Policy, 19161918-*. London: Frank Cass.

Milner, Alfred, 1892. *England in Egypt*. London: Edward Arnold.

Moberly, F. J., 1923. *History of the Great War Based on Official Documents. The Campaign in Mesopotamia, 19141918-*. London: HMSO.

Mohs, Paula, 2008. *British Intelligence and the Arab Revolt: The First Modern Intelligence War*. London: Routledge.

Moorehead, Alan, 2007. *Gallipoli*. Ware, Herts: Wordsworth Editions.

Morgenthau, Henry, 2003 edn. *Ambassador Morgenthau's Story*. Detroit, MI: Wayne State University Press.

Moubayed, Sami, 2006. *Steel and Silk: Men and Women Who Shaped Syria 19002000-*. Seattle, WA: Cune Press.

Murphy, David, 2008. *The Arab Revolt 19161918-*. London: Osprey Publishing.

Neiberg, Michael, 2005. *Fighting the Great War. A Global History*. London: Harvard University Press.

Nevakivi, Jukka, 1969. *Britain, France and the Arab Middle East, 19141920-*. London: Athlone Press.

Nunn, Wilfred, 2007 edn. *Tigris Gunboats: The Forgotten War in Iraq 19141917-*. London: Chatham Publishing.

Offer, Avner, 1989. *The First World War. An Agrarian Interpretation*. Oxford: Oxford University Press.

Onley, James, 2009. *The Arabian Frontiers of the British Raj: Merchants, Rulers and the British in the Nineteenth Century*. Oxford: Oxford University Press.

Ovendale, Ritchie, 1992. *The Middle East Since 1914*. London: Longman.

Owen, Roger, 1992. *State, Power and Politics in the Making of the Modern Middle East*. London: Routledge.

Owen, Roger, 2004. *Lord Cromer: Victorian Imperialist, Edwardian Proconsul.* Oxford: Oxford University Press. Ozdemir, Hikmet, 2008. *The Ottoman Army 19141918-: Disease and Death on the Battlefield.* Salt Lake City, UT: University of Utah Press.

Pakenham, Thomas, 1992. *The Scramble for Africa.* London: Abacus.

Parrs, Timothy, 2003. *Britain, the Hashemites, and Arab Rule, 19201925-: the Sherifian Solution.* London: Frank Cass.

Pasha, Djemal, 1922. *Memories of a Turkish Statesman - 19131922-.* London: Hutchinson.

Pearson, Owen, 2006. *Albania in the Twentieth Century, A History, Volume I: Albania and King Zog: 19081939-.* London: I. B. Tauris.

Perkins, Kenneth, 2004. *A History of Modern Tunisia.* Cambridge: Cambridge University Press.

Poulson Newman, E. W., 1928. *Great Britain in Egypt.* London: Cassell.

Prior, Robin, 2009. *Gallipoli: The End of the Myth.* Kensington, NSW: UNSW Press.

Reich, Bernard, 1990. *Political Leaders of the Contemporary Middle East and North Africa: A Biographical Dictionary.* Westport, CT: Greenwood.

Reid, Walter, 2006. *Architect of Victory: Douglas Haig.* Edinburgh: Birlinn.

Rhodes James, Robert, 1965. *Gallipoli.* London: B. T. Batsford.

Richmond, J. C. B., 1977. *Egypt 17981952-: Her Advance Toward a Modern Identity.* London: Methuen.

Robertson, William, 1926. *Soldiers and Statesmen 19141918-, Volume II.* London: Cassell.

Robson, Stuart, 2007 edn. *The First World War.* Harlow: Pearson Education Limited.

Rogan, Eugene, 2009. *The Arabs: A History.* London: Allen Lane.

Roynon, Gavin, 2011 edn. *A Prayer for Gallipoli: The Great War Diaries of Chaplain Kenneth Best.* London: Simon & Schuster.

Safran, Nadav, 1961. *Egypt in Search of a Political Community: An Analysis of the Intellectual and Political Evolution of Egypt.* Oxford: Oxford University Press.

Selvik, Kjetil and Stig Stenslie, 2011. *Stability and Change in the Modern Middle East.* London: I. B. Tauris.

Slot, Benjamin, 2005. *Mubarak Al-Sabah: Founder of Modern Kuwait 18961915-.* London: Arabian Publishing Limited.

Sluglett, Peter, 1976. *Britain in Iraq 19141922-*. London: Ithaca Press.

Sondhaus, Lawrence, 2011. *World War One: The Global Revolution*. Cambridge: Cambridge University Press.

Stevenson, David, 1988. *The First World War and International Politics*. Oxford: Oxford University Press.

Stevenson, David, 2004. *19141918-: The History of the First World War*. London: Allen Lane.Storrs, Ronald, 1943. *Orientations*. London: Nicholson & Watson.

Strachan, Hew, 2001. *The First World War, Volume I: To Arms*. Oxford: Oxford University Press.

Strauss, Barry, 2006. *The Trojan War: A New History*. London: Simon & Schuster.

Tauber, Eliezer, 1993. *The Arab Movements in World War I*. London: Frank Cass. Tomlinson, B.R., 1979. *The Political Economy of the Raj: the Economics of Decolonisation in India*. London: Macmillan.

Townshend, Charles, 2010. *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia and the Creation of Iraq, 19141921-*. London: Faber and Faber.

Tripp, Charles, 2007, *A History of Iraq*. Cambridge: Cambridge University Press.

Tripp, Charles, 2013. *The Power and the People: Paths of Resistance in the Middle East*. Cambridge: Cambridge University Press.

Tucker, Spencer, 2005 edn. *The Encyclopaedia of World War I: A Political, Social, and Military History*. Santa Barbara, CA: ABC-CLIO.

Valeri, Marc, 2009. *Oman: Politics and Society in the Qaboos State*. London: Hurst & Co.

Vandewalle, Dirk, 2006. *A History of Modern Libya*. Cambridge: Cambridge University Press.

Vatikiotis, P.J. 1969. *The Modern History of Egypt*. London: Weidenfeld & Nicolson.

Villiers, Alan, 2006 edn. *Sons of Sindbad*. London: Arabian Publishers Limited.

Visser, Reidar, 2005. *Basra: The Failed Gulf State: Separatism and Nationalism in Southern Iraq*. Munster: Lit Verlag, 2005.

Walker, Christopher, 1990. *Armenia: The Survival of a Nation*. London: St Martin's Press.

Westrate, Bruce, 1992. *The Arab Bureau: British Policy in the Middle East, 19161920-*. Pennsylvania, PA: University of Pennsylvania Press.

Wilder, Gary, 2005. *The French Imperial Nation-State: Negritude and Colonial Humanism between the Two World Wars.* Chicago, IL: University of Chicago Press.

Wilson, Arnold, 1930. *Mesopotamia 19171920-: A Clash of Loyalties.* Oxford: Oxford University Press.

Wilson Johnson, Douglas, 1917. *Topography and Strategy in the War.* New York: Henry Holt.

Wilson, Trevor, 1986. *The Myriad Faces of War.* Cambridge: Polity Press.

Wingate, Ronald, 1955. *Wingate of the Sudan.* London: John Murray.

Winstone, H. V. F., 1982. *Leachman: 'OC Desert': The Life of Lieutenant-Colonel Gerald Leachman.* London: Quartet.

Woodward, David, 2004. *Lloyd George and the Generals.* London: Frank Cass.

Yapp, Malcolm, 1987. *The Making of the Modern Middle East 17921923-.* London: Longman.

Yergin, Daniel, 2008 edn. *The Prize: The Epic Quest for Oil, Money & Power.* New York: Free Press.

Young, Hubert, 1933. *The Independent Arab.* London: John Murray.

فصول

Abu Aliyya, 'Abd al-Fattah Hasan, 2010. 'Early Roots of Projects to Settle the Bedouins in the Arabian Peninsula.' In Fahd al-Semmari, ed. *A History of the Arabian Peninsula.* London: I. B. Tauris.

Al-Sayyid Marsot, Afaf Lutfi, 2001. 'The British Occupation of Egypt from 1882.' In Wm Roger Louis and Andrew Porter, eds. *The Oxford History of the British Empire, Volume III: The Nineteenth Century.* Oxford: Oxford University Press.

Barr, Niall, 2002. 'The Desert War Experience.' In Peter Liddle, Ian Whitehead and John Bourne, eds. *The Great World War, 191445-: Lightning Strikes Twice.* London: HarperCollins.

Beeman, William, 2009. 'Gulf Society: An Anthropological View of the Khalijis – Their Evolution and Way of Life.' In Lawrence Potter, ed. *The Persian Gulf in History.* New York: Palgrave Macmillan.

Biger, Gideon, 2000. 'The Turkish Activities in Palestine During World War I Revised.'

In Yigal Sheffy and Shlaul Shai, eds. *The First World War: Middle Eastern Perspective.* Tel Aviv: Israel Society for Military History.

Brown, Judith, 1973. 'War and the Colonial Relationship: Britain, India and the War of 191418-.' In M. R. D. Foot, ed. *War and Society: Historical Essays in Honour and Memory of J. R. Western, 19281971-.* London: Elek.

Burk, Kathleen, 1996. 'Wheat and the State During the First World War.' In Michael Dockrill and David French, eds. *Strategy and Intelligence: British Policy During the First World War.* London: Hambledon Press.

Chaudhuri, K. N., 1983. 'Foreign Trade and Balance of Payments (17571947-).' In Dharma Kumar and Tapan Raychaudhuri, eds. *The Cambridge Economic History of India, Volume 2: c.1757-c.1970.* Cambridge: Cambridge University Press.

Dadrian, Vahakn, 2003. 'The Armenian Genocide: An Interpretation.' In Jay Winter, ed. *America and the Armenian Genocide of 1915.* New York: Cambridge University Press.

Daly, M. W., 1998. 'The British Occupation, 18821922-.' In M. W. Daly, ed. *The Cambridge History of Egypt, Volume 2: Modern Egypt: From 1517 to the End of the Twentieth Century.* Cambridge: Cambridge University Press.

Dutton, David, 2000. 'Britain and France at War, 19141918-.' In Alan Sharpe and Glyn Stone, eds. *Anglo-French Relations in the Twentieth Century: Rivalry and Cooperation.* London: Routledge.

French, David, 1982. 'The Rise and Fall of "Business as Usual".' In Kathleen Burk, ed. *War and the State: The Transformation of British Government, 19141919-.* London: Allen & Unwin.

Heydemann, Steven, 2000. 'War, Institutions, and Social Change in the Middle East.' In Steven Heydemann, ed. *War, Institutions, and Social Change in the Middle East.* Berkeley, CA: University of California Press.

Horne, John, 2002. 'Introduction.' In John Horne, ed. *State, Society and Mobilization in Europe During the First World War.* Cambridge: Cambridge University Press.

Hughes, Matthew, 2009. 'Command, Strategy and the Battle for Palestine, 1917.' In Ian Beckett, ed. *1917: Beyond the Western Front.* Leiden: Brill.

Hyam, Ronald, 1999. 'The Primacy of Geopolitics: The Dynamics of British Imperial Policy, 17631963-.' In Robert King and Robin Wilson, eds. *The Statecraft of British Imperialism: Essays in Honour of Wm Roger Louis.* London: Routledge.

Karim, Thair, 2003. 'Tribes and Nationalism: Tribal Political Culture and Behaviour in Iraq, 19141920-.' In Faleh Abdul-Jabar and Hosham Dawod, eds. *Tribes and Power. Nationalism and Ethnicity in the Middle East.* London: Saqi Books. Khalidi, Rashid, 1996. 'The Arab Experience of the War.' In Hugh Cecil and Peter Liddle, eds. *Facing Armageddon: The First World War Experienced.* London: Leo Cooper.

Kramer, Alan, 2010. 'Combatants and Noncombatants: Atrocities, Massacres, and War Crimes.' In John Horne, ed. *A Companion to World War I.* Chichester: Wiley-Blackwell.

Kumar, Dharma, 1983. 'The Fiscal System.' In Dharma Kumar and Tapan Raychaudhuri, eds. *The Cambridge Economic History of India, Volume 2: c.1757-c.1970.* Cambridge: Cambridge University Press.

Lambert, Andrew, 1995. 'The Royal Navy, 18561914-: Deterrence and the Strategy of World Power.' In Keith Neilson and Elizabeth Jane Errington, eds. *Navies and Global Defence: Theories and Strategy.* Westport, CO: Greenwood.

Lee, John, 1991. 'Sir Ian Hamilton and the Dardanelles, 1915.' In Brian Bond, ed. *Fallen Stars: Eleven Studies of Twentieth Century Military Disasters.* London: Brassey's.

Lohr, Eric, 2010. 'Russia.' In John Horne, ed. *A Companion to World War I.* Chichester: Wiley-Blackwell.

McKercher, B. J. C., 1999. 'Economic Warfare.' In Hew Strachan, ed. *World War I: A History.* Oxford: Oxford University Press.

Moore, Robin, 2001. 'Imperial India, 18581914-.' In Wm Roger Louis and Andrew Porter, eds. *The Oxford History of the British Empire, Volume III: The Nineteenth Century.* Oxford: Oxford University Press.

Morris, M. D., 1983. 'The Growth of Large-Scale Industry to 1947.' In D. Kumar and T. Raychaudhuri, eds. *The Cambridge Economic History of India, Volume 2: c.1757-c.1970.* Cambridge: Cambridge University Press.

Neilson, Keith, 1997. 'For Diplomatic, Economic, Strategic and Telegraphic Reasons: British Imperial Defence, the Middle East and India, 19141918-.' In Keith Neilson and Greg Kennedy, eds. *Far-Flung Lines: Studies in Imperial Defence in Honour of Donald Mackenzie Schurman.* London: Frank Cass.Nevias, Martin and Tim Moreman, 1994. 'Limited War and Developing Countries.' In Laurence Freedman, ed. *War.* Oxford: Oxford University Press.

Offer, Avner, 2000. 'The Blockade of Germany and the Strategy of Starvation, 1914-

1918: An Agency Perspective.' In Roger Chickering and Stig Forster, eds. *Great War, Total War. Combat and Mobilisation on the Western Front, 19141918-*. Cambridge: Cambridge University Press.

.Pamuk, Sevket, 2009. 'The Ottoman Economy in World War I.' In Stephen Broadberry and Mark Harrison, eds. *The Economics of World War I.* Cambridge: Cambridge University Press.

Peterson, J.E., 2009. 'Britain and the Gulf: At the Periphery of Empire.' In Lawrence Potter, ed. *The Persian Gulf in History.* New York: Palgrave Macmillan.

Potts, D.T., 2009. 'The Archaeology and Early History of the Persian Gulf.' In Lawrence Potter, ed. *The Persian Gulf in History.* New York: Palgrave Macmillan.

Risso, Patricia, 2009. 'India and the Gulf: Encounters from the Mid-Sixteenth to the Mid-Twentieth Centuries.' In Lawrence Potter, ed. *The Persian Gulf in History.* New York: Palgrave Macmillan.

Roberts, David, 2011. 'Kuwait.' In Christopher Davidson, ed. *Power and Politics in the Persian Gulf.* London: Hurst & Co.

Sheffy, Yigal, 1990. 'Institutionalized Deception and Perception Reinforcement: Allenby's Campaign in Palestine.' In Michael Handel, ed. *Intelligence and Military Operations.* London: Routledge.

Sheffy, Yigal, 2000. 'The Introduction of Chemical Weapons in the Middle East.' In Yigal Sheffy and Shlaul Shai, eds. *The First World War. Middle Eastern Perspective.* Tel Aviv: Israel Society for Military History. Simkins, Peter, 1999. 'Haig and the Army Commanders.' In Brian Bond and Nigel Cave, eds. *Haig: A Reappraisal 70 Years On.* Barnsley, Yorks: Leo Cooper.

Sluglett, Peter 2002. 'Aspects of Economy and Society in the Syrian Provinces: Aleppo in Transition, 18801925-.' In Leila Fawaz and C. A. Bayly, eds. *Modernity and Culture: From the Mediterranean to the Indian Ocean.* New York: Columbia University Press.

Stockwell, A. J., 1988. 'The War and the British Empire.' In John Turner, ed. *Britain and the First World War.* London: Unwin Hyman.

Trumpener, Ulrich, 2010. 'The Turkish War, 19141918-.' In John Horne, ed. *A Companion to World War I.* Chichester: Wiley-Blackwell.

Van Creveld, Martin, 2000. 'World War I and the Revolution in Logistics.' In Roger Chickering and Stig Forster, eds. *Great War, Total War. Combat and Mobilization on the*

Western Front, 19141918-. Cambridge: Cambridge University Press.

Wright, Steven, 2011. 'Foreign Policies with International Reach: The Case of Qatar.' In David Held and Kristian Coates Ulrichsen, eds. *The Transformation of the Gulf. Politics, Economics and the Global Order*. London: Routledge.

Wrigley, Chris, 2000. 'The War and the International Economy.' In Chris Wrigley, ed. *The First World War and the International Economy*. Cheltenham: Edward Elgar.

Zurcher, Erik, 1996. 'Little Mehmet in the Desert: The Ottoman Soldiers' Experience.' In Hugh Cecil and Peter Liddle, eds. *Facing Armageddon: The First World War Experienced*. London: Leo Cooper.

مقالات في مجلات

Akarli, Engin Deniz, 2007. 'The Tangled Ends of an Empire: Ottoman Encounters with the West and Problems of Westernisation - An Overview.' *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, 12.

Aksan, Virginia, 2007. 'The Ottoman Military and State Transformation in a Globalizing World.' *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, 12.

Andrew, C. M. and Kanya-Forstner, A. S., 1978. 'France, Africa and the First World War.' *Journal of African History*, 19.

Bernede, Allain, 1998, '"The Gardeners of Salonika": The Lines of Communication and the Logistics of the French Army of the East, October 1915-November 1918.' *War and Society*, 16.

Bou, Jean, 2007. 'Cavalry, Firepower, and Swords: The Australian Light Horse and the Tactical Lessons of Cavalry Operations in Palestine, 19161918-.' Journal of Military History, 71.

Cain, P. J., 2006. 'Character and Imperialism: The British Financial Administration of Egypt, 18781914-.' *Journal of Imperial and Commonwealth History*, 34.

Clay, Christopher, 1994. 'The Origins of Modern Banking in the Levant: the Branch Network of the Imperial Ottoman Bank, 18901914-.' *International Journal of Middle East Studies*, 16.

Coates Ulrichsen, Kristian, 2007. 'The British Occupation of Mesopotamia, 1914-

1922.' *Journal of Strategic Studies*, 30.

Coates Ulrichsen, Kristian, 2012. 'Basra, Southern Iraq and the Gulf: Challenges and Connections.' *LSE Kuwait Programme Working Paper*, 21.Cosar, Nevn and Demre, Sevtap, 2009. 'Incorporation into the World Economy: From Railways to Highways (18501950-).' *Middle Eastern Studies*, 45.

'Dalit', 1924. 'The Campaign in Mesopotamia – The First Phase.' *Journal of the Royal United Services Institute*, 69.

Davies, G. F., 1920. 'Lecture on Supplies and Transport - Egyptian Expeditionary Force.' *Army Service Corps Quarterly*, 8.

Elliot, W. and A. Kinross, 1925. 'Maintaining Allenby's Armies: A Footnote to History.' *Royal Army Service Corps Quarterly*, 1925.

Fahmy, Ziad, 2008. 'Francophone Egyptian Nationalists, Anti-British Discourse, and European Public Opinion, 18851910-: The Case of Mustafa Kamil and Ya'qub Sannu'.' *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, 28.

French, David, 1987. 'The Dardanelles, Mecca and Kut: Prestige as a Factor in British Eastern Strategy, 19141916-.' *War and Society*, 5.

Gallagher, John, 1981. 'Nationalisms and the Crisis of Empire, 19191922-.' *Modern Asian Studies*, 15.

Goldberg, Ellis, 1992. 'Peasants in Revolt – Egypt 1919.' *International Journal of Middle East Studies*, 24.

Heper, Metin, 1980. 'Center and Periphery in the Ottoman Empire: With Special Reference to the Nineteenth Century.' *International Political Science Review*, 1.

Hughes, Matthew, 1996. 'General Allenby and the Palestine Campaign, 191718-.' *Journal of Strategic Studies*, 19.

Jack, George Morton, 2006. 'The Indian Army on the Western Front, 19141915-: A Portrait of Collaboration.' *War in History*, 13.

Jeffery, Keith, 1977. 'Sir Henry Wilson and the Defence of the British Empire 191822-.' *Journal of Imperial and Commonwealth History*, 5.

Jeffery, Keith, 1981. '"An English Barrack in the Oriental Sea?" India in the Aftermath of the First World War.' *Modern Asian Studies*, 15.Nicolini, Beatrice, 2007. 'The Baluch Role in the Persian Gulf During the Nineteenth and Twentieth Centuries.' *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, 12.

Onley, James and Khalaf, Sulayman, 2006. 'Shaikhly Authority in the Pre-Oil Gulf: An Historical-Anthropological Study.' *History and Anthropology*, 17.

Parker, W. M., 1921. 'Supply Services in Mesopotamia.' *Royal United Services Corps Quarterly*, 9.

Ramdani, Nabila, 2013. 'Women in the 1919 Egyptian Revolution: From Feminist Awakening to Nationalist Political Activism.' *Journal of International Women's Studies*, 14.

Robinson, Ronald, 1984. 'Imperial Theory and the Question of Imperialism After Empire.' *Journal of Imperial and Commonwealth History*, 12.

Rothwell, V.H., 1970. 'Mesopotamia in British War Aims, 19141918-.' *Historical Journal*, 13.

Roy, Kaushik, 2003. 'Equipping Leviathan: Ordnance Factories of British India, 1859-1913.' *War in History*, 10.

Ruiz, M.M., 2009. 'Manly Spectacles and Imperial Soldiers in Wartime Egypt, 1914-1919.' *Middle Eastern Studies*, 45.

Schwarz, Benjamin, 1993. 'Divided Attention: Britain's Perception of a German Threat to her Eastern Frontier in 1918.' *Journal of Contemporary History*, 28.

Sheffy, Yigal, 2009. 'Chemical Warfare and the Palestine Campaign, 19161918-.' *Journal of Military History*, 73.

Surridge, Keith, 2008. 'The Ambiguous Amir: Britain, Afghanistan and the 1897 North-West Frontier Uprising.' *Journal of Imperial and Commonwealth History*, 36.

Trumpener, Ulrich, 1966. 'Liman von Sanders and the German-Ottoman Alliance.' *Journal of Contemporary History*, 1.

Willis, John, 1993. 'Maritime Asia, 15001800-: The Interactive Emergence of European Domination.' *American Historical Review*, 89.

Woodward, David, 1971. 'The Origins and Intent of David Lloyd George's January 5 War Aims Speech.' *The Historian*, 34.

المترجم في سطور

- باحث علوم سياسية تنشر أعماله في مجلة السياسة الدولية، وفي المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية- القاهرة.

- كاتب ومحرر صحفي تنشر أعماله في مجلة «العربي» الكويتية، ومجلة «الكويت» الثقافية، و«المجلة العربية» السعودية.

- مترجم بمجلة «الثقافة العالمية» الكويتية، ومجلة «نيتشر»- الطبعة العربية.

- عمل محررًا صحفيًا لدى العديد من الصحف العربية والدولية والمواقع الإليكترونية، منها: «صحيفة الاقتصادية» السعودية، و«صحيفة الجزيرة» السعودية، و«صحيفة «الشرق الأوسط» اللندنية، ومجلة «المجلة» اللندنية، وموقع «العربية نت».

- ترجم وراجع عددًا من الكتب لدى مشروع «كلمة» في أبوظبي، والمركز القومي للترجمة، ومدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية بالتعاون مع المجلة العربية، وعالم المعرفة.

من بين الأعمال المترجمة المنشورة في مشروع كلمة: «الاضطراب المناخي»، و«عندما يضل العلم الطريق»، و«بستان غير منظور: التاريخ الطبيعي للبذور»، و«على خطى الصين يسير العالم»، و«الجسر»، و«أجمل عشر تجارب على الإطلاق»، و«خطوط الصدع: كيف لا تزال الشروخ المستترة تهدد الاقتصاد العالمي.

وفي المركز القومي للترجمة؛ «عندما تسقط العمالقة: خارطة طريق اقتصادية لنهاية العهد الأمريكي» و«التعليم العالي في عصر الإنترنت».

ونشر له في المجلة العربية بالتعاون مع مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية؛ «إمبراطور الأمراض: السرطان سيرة ذاتية»، و«فيزياء المستقبل»، و«أغرب الرجال».

كما نشر له في عالم المعرفة: «أمة من العباقرة».

للتواصل: tarek_rashed@hotmail.com